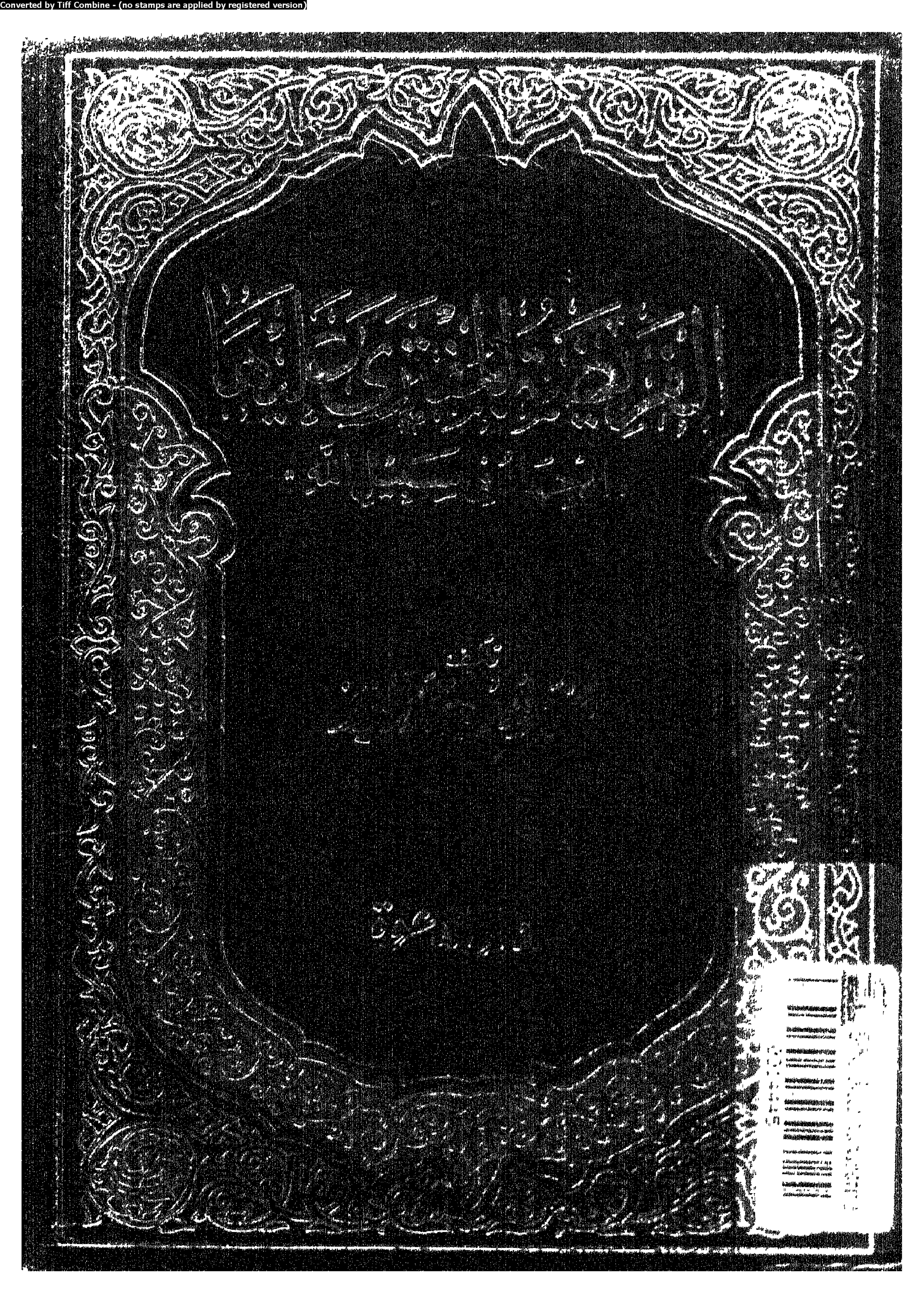








الفريضة المفترى عليها

«الجهاد في سبيل الله»

الطبعة الأولى

١٤١٨هـ - ١٩٩٧م

رقم الإيداع القانوني
٩٧/٧٩٥٢

الترقيم الدولي: 2- 154 - 253 -977

دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع
المركز الرئيسي : ٢ ش منشا ـ محرم بك ـ الإسكندرية .
ت:٤٩٠١٩١٤ـ٤٩٠٧٩٩٨ ـ فاكس :٥٩٥١٦٩٥
مكتب توزيع القاهرة :ت :٣٨٣٢٧٤٧

الفريضة المفترى عليها

« الجهاد في سبيل الله »

تأليف
جمعة أمين عبد العزيز

دار الدعوة
للطبع والنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

قرآن كريم :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾

[الحج : ٧٧ - ٧٨]

حديث شريف :

عن ابى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قيل: « يا رسول الله ما يعدل الجهاد فى سبيل الله ؟ قال: لا تستطيعونه فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثا كل ذلك يقول: لا تستطيعون ثم قال : مثل المجاهد فى سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله لا يفتر من صيام ولا صلاة حتى يرجع المجاهد».

رواه الستة إلا أبو داود

***

إهــداء

◉ إلى الذين فهموا للجهاد معنى شاملا فلم يقصروه على القتال والاقتتال ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم .

◉ فبـدؤا بأنفســهم مجاهدة حـتى سلمت واطمانت وبـأسرهم وأولادهم تربية حتى صاروا قرة أعين وبمجتمعاتهم دعوة وتبيانا بالحسنى حتى غشيت مفاهيم الاسلام وسادت عقيدة وشعيرة ، وشريعة وأخلاقا .

◉ والى مَنْ : أساؤا فهم الجهاد فاعتـدوا وقتلوا وسفكوا الدماء بغير حق وهم يحـسبـون أنهم يحسنون صنـعا علّهمّ يقـتنعون فـيقلعـون ، ويبصرون فيسلكون .

◉ والى كل مجاهد فـى سبيل الله فى أى بقعة من بقـاع الدنيا يدافع عن النفس ، والعـرض ، والدين ، والوطن شـعاره « فـمن أعتـدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » ليواصل المسير .

◉ والى زوجتى المربية الكريمة التى عاشت معى هذه المعانى فـهما وتطبيقا فأعانتنى على غرسها فى أولادى، وشاركتنى فى تأصليها لابنى قرة عينى حـتى لا يزل قدمـه بعد ثبـوتها فيـجاهد فى سـبيل الله حق جـهـاده.. « والذى جـاهـدوا فـينا لنهـدينهم سـبلنا وإن الله لمع المحسنين».

◉ والى كل منْ علمونى هذه المعانى والمفاهيم سـواء من قضى منهم نحبه ومن ينتظر وما بدلوا بديلا جزاهم الله عنى خير الجزاء .

***



تـقـــديم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد الخلق أجمعين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد :

فيسعدنى أن أقدم للقراء الكرام هذا العمل الجيّد والمفيد ، وهذا الجهد والعطاء الوفير .

للأخ الكريم الداعية الأستاذ جمعه أمين . حفظه الله

والكتاب من القُطوف الدانية ، فى بستان الإسلام العظيم العامر دائماً بكل جديد ، وهو خطوة موفقة على الطريق لتصحيح المفاهيم ، وبيان للقارئ الكريم عن التصور الصحيح لجوانب حيوية من هذه الرسالة الخالدة .

والقضية التى عالجها المؤلف ـ هى الفريضة المفترى عليها ـ وهو الجهاد فى سبيل الله ، تحتاج إلى إزالة الأذى الذى وضع فى طريقها ، إن تحرير ثوابت الإسلام من التزييف الذى حاول أعداء الإسلام أن يلصقوها به لهو أمر ضرورى . . وهذا ما حاول المؤلف أن يفعله فى هذه الرسالة . . . .

لقد وضع أقدامنا على أول الطريق الصحيح . وهو الطريق الوحيد أمامنا الذى أختاره الله لنا [وأن هذا صراطى مستقيماً فاتَّبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله] إن للإسلام نظرة ومنهجاً ، وله فى كل قضية موقفاً ورأياً ، أما طريق التبعية الذليلة للمستشرقين وتلاميذها ، فهى التى دفعتنا إلى التيه فى الصحراء ، بلا حادى ولا دليل .

إن الأمة الإسلامية لن تقف على أقدامها ، ولن يكون لها وجود ، إلا إذا أقامت بناء صرح الأخلاق الإسلامية ، وإيجاد الشخصية البعيدة عن الأهواء ، وبناء البطولات التى تفطم نفسها عن الميوعة وعوامل الترف والإنحلال . وتبرأ من مرض الجبن والخور والنفاق ، وتعرف طريق الحق وتلتزم بالعمل به ، إن هذه

الأمة قد أوجدها الله فى هذا المكان الحيوى من العالم ، لتحرس الحق ، وتحمل رسالة الحق ، وتتحمل فى سبيل بلاغها للعالمين كل تفاهات الباطل . فهى بحكم موقعها معرضة للابتلاء والامتحان ، وقدرها يجعلها دائما على قاعدة ـ المرابطة الدائمة ـ وهى قاعدة .

إن الافتراء على دين الله وشريعته . وعلى هذه الفريضة بالذات قد وصل إلى حدّ لا يمكن السكوت عليه ، كل الأكاذيب الصقت بهذا الدين ، وكل الصدد المنفرة رسمت للجهاد فى سبيل الله .

حملات خبيثة ماكرة . لها هدف مقصود ، وهو جعل المسلمين يتخلون عن هذه الفريضة وقد حدث هذا فعلاً . فقال البعض : مالنا وللجهاد ؟ نحن فقط دعاة ومبشرون .

وقال البعض الآخر : إن الجهاد للدفاع فقط ،والأعداء مستمرون فى حملتهم لتشويه هذا الركن . فاللورد كرومر يقول [إن الجهاد هو العدوان البس هذا الثوب] وقالوا : إن شريعة الإسلام تدعو إلى سفك الدماء وإراقتها ، وإلى الخراب والدمار ، وهى ردة إلى عصور الهمجية والتخلف والظلام ، وأن المسلمين لا يشبعون من دماء غيرهم من الأمم . وللأسف فإن بعض الباحثين من المسلمين تابع هؤلاء وصدق كلامهم ، وسار على دربهم .

فما هى حدود هذه الفريضة عندنا ؟ وما هو مداها ؟

يقول ابن عباس رضى اللهعنهما « هو بذل الوسع واستفراغ الطاقة ، وأن لا يخاف فى الله لومة لائم » زاد المعاد .

ويقول مقاتل معناه [اعملوا لله حق عمله . واعبدوه حق عبادته] المرجع السابق .

ويقول ابن المبارك [هو مجاهدة النفس والهوى] .

ويقول البوطى [هو بذل الجهد فى سبيل إعلاء كلمة الله . وإقامة المجتمع المسلم وبذل الجهد بالقتال نوع منه ، وأما غايته فهى إقامة المجتمع المسلم وتكوين الدولة الإسلامية الصحيحة] فقه السيرة .

ويقول ابن تيمية [حقيقة الاجتهاد فى حصول ما يحبه الله من الإيمان ، والعمل الصالح ، ومن دفع ما يبغضه الله من الكفر والفسوق والعصيان] رسالة العبودية .

ويقول الاستاذ المودودى [الجهاد كلمة جامعة شاملة ، يدخل فيها جميع أنواع السعى وبذل الجهود . والكفاح ، واستخدام شتى الوسائل المشروعة . لإحداث ذلك التغيير الذى تبتغى إحداثه دعوة الله المنزلة إلى البشر] رسالة الجهاد .

والإمام ابن القيم يقسمه إلى مراحل [بدأها بجهاد النفس على تعلم الحق ، ثم جهادها على العمل به ، ثم جهادها على الدعوة إليه والصبر على تكاليفه ، ثم جهاد الأعداء]

وكل هذه المراحل عنده تعتبر جهادا ، وأى خلل فى هذه المراحل أو عجلة قد لا يؤدى إلى العمل المطلوب .

ويقول الإمام البنا عليه الرضوان عن جوانب الجهاد المختلفة : والكلام ملخص موجز لما قال : .

إن العاطفه الحية القوية التى تفيض خفاقة إلى عز الإسلام ومجده . وتهفوا شوقا إلى سلطانه وقوته . وتبكى حزنا على ما وصل إليه المسلمون من ضعف جهاد فى سبيل الله .

وإن التفكير الجدى فى طريق النجاة . ومحاولة السعى لإيجاد المخرج مما فيه الأمة جهاد فى سبيل الله .

كما أن تنازل الأخ من وقته وماله . وبعض مطالب نفسه لخير الإسلام وبنى الإسلام جهاد ، وإن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر جهاد فى سبيل الله .

وإن حبّ المجاهدين . والنصح لهم والإشادة بأعمالهم جهاد فى سبيل الله (مما سبق من تعريفات عن حقيقة الجهاد) أين ما قاله أعداء الإسلام عن الجهاد من افتراءات وتشويه ؟ مما قاله فقهاء وعلماء الإسلام قديماً وحديثاً ؟ إن كيدهم وسهامهم ترتد إليهم قبل أن تصل إلى من وجهوها إليه .

وهذه الموسوعة الإسلامية المتعددة الجوانب تقع فى حوالى ٥٠٠ صفحة وتشتمل على مقدمة وسبعة أبواب وخاتمة ، وتحدث المؤلف فيها عن الكثير مما يحتاج إليه كل مسلم . بل كل داعية يتحرى الصواب ويطلب الحق .

يقول فى المقدمة :

[وبهذه السطور التى أسأل الله أن يكون قد وفقنى فيها . والتى أردت أن أساهم بها بجهد العقل ، فى تجلية موضوع افترى عليه البعض وشوهه سواء من المفْرطين فيه ، أو المفرّطين فيه] .

ولذلك نجده فى الباب الأول:

قد عالج قضايا كثيرة . وأفاض فى بيان جوانبها من حقائق الدعوة الإسلامية . وبصفتها دعوة بلاغ وبيان ، لا دعوة سيف وقتال ودعاء كما يزعمون . ووضح أن العقيدة أكرم عند الله من أن يجبر أو يكره عليها مخلوق .

ثم عالج موضوعات وردّ شبهات وصحح المفاهيم الخاطئة التى دأبت على الافتراء على الدعاة إلى الله ، فتحدث عن الإخوان والحكم ، ومعنى إقامة الدين، واصلاح المجتمع ومكانه عندنا ، وكشف عن دعوتهم بتطبيق الشريعة باستخدام القوة ، وأن هذا فهم خاطئ لا يستقيم بحال من الأحوال . . . إلى آخر ما اشتمل عليه الباب الأول .

أما فى الباب الثانى :

فقد تحدث عن الجهاد والمجاهدة . ونقل عن فقهاء الأمة تقديرهم وتحديدهم لمعنى الجهاد وشموله للحياة كلها ، وأنه لرد العدوان والأذى عن أمة الإسلام ، وإزالة العقبات عن طريق الدعوة والدعاة .

وفى الباب الثالث :

تحدث عن طبيعة الإسلام وأنه دين السلام والأمان . ودين الحوار وهو ضد العنف بكل مظاهره ، ودين التعايش مع أصحاب الديانات الأخرى وترك كامل الحرية لهم فى ممارسة شعائرهم ، كما بين أن الإسلام يرفض الغلو فى أى أمر من الأمور ، وأشار إلى الفروق الضخمة بين طبيعة الحرب فى الإسلام وغلظتها ،

وجوانب الرحمة والإنسانية فيها ، أما عند غيرنا فهى العدوان والإجرام ، وهتك الأعراض ، والتدمير لكل شئ . . .

وتضمن الباب الرابع :

فريضة الجهاد ، وفسره بأنه الفريضة الماضية إلى يوم القيامة . وتحدث عن مراتبه وصوره ، وفرق بينه وبين ارهاب اليوم ، وتحدث عن تشويه المصطلحات وتزييف المعانى ، وتبدل الأقطار ثم تحدث عن رجال العقيدة وسماتهم وعظمتهم . والفضائل التى تحلوا بها . وتحدث عن إمامهم ﷺ وقدوتهم .

الأمين صاحب العزم والخلق العظيم ، والعفوّ الكبير عن أعدى أعدائه . يوم الفتح . وأشار إلى النماذج الحسنة فى هذا الطريق .

وفى الباب الخامس :

استكمل جوانب الجهاد فى سبيل الله . من الآداب والأخلاق والقيم والمبادئ . والسلوك الأخلاقى فى عدم الاعتداء ابتداء .

وتحدث عن الموت فى سبيل الله . وأشار إلى نماذج من الشهداء الأبرار وموازين الإيمان وفضل النفقه فى سبيل الله ، وأشار إلى ضرورة التربية واستمرارها فى البداية والنهاية .

وفى الفصل السادس :

أفاض فى الحديث عن عوامل النصر . وأسباب الفوز ، وأشار إلى فضيلة الإخلاص ، ثم عرج على صفات المعوقين للصف من المنافقين وأراد بهذا أن يكشف عن ملامح وسمات هؤلاء لاجتنابهم ثم أفاض فى ذكر أسباب النصر والفوز . وحصرها فى عدة أمور بادئا بالإيمان الصادق بالله . ووحدة القلوب والصفوف . والأخذ بالأسباب والشورى ، واحترام القائد ، ثم تفويض الأمر من قبل ومن بعد لله وحده .] التوكل الكامل عليه والثقه الغالية فى وعده بنصر المؤمنين العاملين .

وفى الفصل السابع :

تحدث باستفاضة على أن الإسلام دين سلام ، ولكن السلام فى الإسلام لا يعنى الذل و الاستسلام ، وتحدث عن العهود والمواثيق وآراء العلماء فى أسباب الحرب . ومتى ينتهى القتال . . .

وبعد :

فقد سعدت كثيراً بمتابعة القراءة فى هذه الرسالة التى استفدت منها كثيراً . كما سيجد حلاوتها وجمال معانيها كل من يوفق إلى قراءتها إن شاء الله تعالى .

والرسالة ، وأدلة الرسالة من الكتاب والسنة وعمل السلف الصالح موثقة توثيقاً جيداً مما يزيد فى قيمتها العلمية . وقد طرح المؤلف حفظه الله لجوانب كثيرة حول هذه الفريضة الماضية إلى يوم القيامة ، والتى كادت أن تختفى فى حياة المسلمين .

وهكذا نجح المؤلف فى عرض ملامح الإسلام فى الجهاد كاملة وقدمها لها . كما قررها الإسلام وكما نهجها الصحابة عليهم الرضوان .

وبعيداً عن الجدل فما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل ، فقد أشار المؤلف إلى ضرورة جمع شمل المسلمين تحت راية الإسلام ،ودلنا على أصول الدين فى ظل التوحيد الخالص.

كل ما ذكرته فى هذه المقدمة المتواضعه . ما هو إلا عناوين فقط من جوانب الرسالة أو خطوط بسيطة جداً .

وإنى أسأل الله عز وجل أن يطيل فى عمر المؤلف ، وأن يبارك فى وقته .

وأن يرزقه الصحة ودوام العافيه ، حتى نقرأ له من روائعه الكثير والكثير .

اللهم تقبل عمله . وبارك فى رزقه ، وأطل فى عمره ، واشرح صدره ويسر أمره . واحلل عقدة من لسانه ، اللهم أمين والحمد لله رب العالمين .

محمد عبد الله الخطيب

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة

الإسلام منهج حياة ذو خصائص متميزة من ناحية التصور الاعتقادى، ومن ناحية الشريعة المنظمة لارتباطات الحياة كلها، ومن ناحية القواعد الأخلاقية التى تقوم عليها هذه الارتباطات ولا تفارقها سواء كانت سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية، وهو منهج جاء لقيادة البشرية كلها وليس النظام العالمى الجديد المزعوم، فأين الثرى من الثريا ؟ ﴿ **إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ** ﴾[النجم: ٢٣] وأين الطغيان والجبروت من الحق والعدل ؟ فما جاء الإسلام إلا لخير البشرية، يدعو الدعاة إليه إلى تحكيم هذا المنهج اليوم وغداً بل الأمر اليوم ألزم، والبشرية بمجموعها تعانى من النظم والمناهج التى انتهت إلى ما تعانى، وليس هناك منقذ إلا هذا المنهج الإلهى الذى يحتفظ بكل خصائصه كى يؤدى دوره للبشرية وينقذها مرة أخرى، كما أنقذ من قبل أمماً كادت أن تهلك ﴿ **وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾[الأنفال: ٢٦].

وها نحن ذا نرى البشرية اليوم وقد أحرزت انتصارات فى جهادها لتسخير القوى الكونية وحققت فى عالم الصناعة والطب ما يشبه الخوارق بالنسبة للماضى ـ وما تزال فى طريقها إلى انتصارات جديدة ـ ولكن ما أثر هذا كله فى حياتها النفسية ؟ هل وجدت السعادة ؟ هل وجدت الطمأنينة ؟ هل وجدت السلام والامن والأمان ؟

كلا!! لقد وجدت الشقاء والقلق والخوف والأمراض العصبية والنفسية والشذوذ والجريمة على أوسع نطاق وصدق الله ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه : ١٢٤:١٢٦].

فأين حضارتهم التى يدعون ؟ وأين سلامهم الذين ينشدون ؟ وأين نظامهم الذى يبغون ؟ إن حضارتهم المادية تبدو أمام التصور الإسلامى آية فى القزامة بل تبدو لعنة تحط من تصور الإنسان لنفسه ومقامه فى هذا الوجود ، وتسفل به، وتصغر من اهتماماته وأشواقه، والخواء يأكل قلب البشرية المكدود، والحيرة تهدر روحها المتعبة لأنها لا تجد الله.

لقد أبعدتها عن الله ملابسات نكدة فالعلم الذى تتباهى به وجعلته إلهاً من دون الله والذى كان من شأنه،لو سار تحت منهج الله أن يجعل من كل انتصار للبشرية فى ميدانه خطوة تقربها من الله هو ذاته الذى تبعد به أشواطا بسبب انطماس روحها ونكستها،إنها لا تجد النور الذى يكشف لها غاية وجودها الحقيقة ؛ فتنطلق إليها مستعينة بهذ العلم الذى منحه الله لها ووهبها الاستعداد له،ولا تجد المنهج الذى ينسق بين حركتها وحركة الكون وفطرتها وفطرة الكون،وقانونها وناموس الكون، ولا تجد النظام الذى ينسق بين طاقاتها وقواها،وآخرتها ودنياها،وأفرادها وجماعاتها،وواجباتها وحقوقها تنسيقا طبيعيا شاملا مريحا،وصدق الله ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ [العلق٦،٧].

وترى ذلك اليوم والبشرية تعيش فى ماخور كبير، ونظرة إلى صحافتها وأفلامها ومعارضها وأزيائها ومسابقات جمالها ومراقصها وحاناتها وإذاعاتها، ونظرة إلى سعارها المجنون للحم العارى، والأوضاع المثيرة والإيحاءات

المريضة فى الأدب والفن وأجهزة الإعلام، إلى جانب نظامها الربوى وما يكمن وراءه من سعار للمال ووسائل خسية لجمعه وتثميره ، إلى الجانب الأخلاقى المتدهور والانحلال الاجتماعى الذى أصبح يهدد كل نفس وكل بيت وكل تجمع إنسانى ، ومصير ذلك كله الهلاك والفناء ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ [الطلاق:٨ ،٩] هذا هو المنهج الذى يريدون فرضه علينا .

وللأسف فإن من بيننا من يعلنون الحرب على منهج الله ويشعلون النيران ويدعون السلام، وما هو بسلام ويحسبون أنهم يحسنون صنعا، فهم يعملون على حرمان البشرية من منهج الله الهادي، ويسمون هذا التطلع لهذا المنهج الربانى «رجعية» ويحسبونه مجرد حنين إلى فترة ذاهية من فترات التاريخ، وهم بجهالتهم هذه أو بسوء نيتهم يحرمون البشرية التطلع إلى المنهج الذى يمكن أن يقود خطاها إلى السلام الحقيقى لا السلام المزعوم والموهوم، والطمأنينة الحقيقة لا الخادعة المؤقتة والتى ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾ [النور : ٣٩] .

فلا مناص من الاعتصام بالله: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران : ١٠١] إن الاعتصام بالله يعصم، فهو إذن التلقى فى أمر العقيدة والمنهج وأما الرأى والتجربة فلقد فتح لها الإسلام الباب على مصراعيه بضوابطه الشرعية، لأن شئون الحياة العملية المتروكة للتجربة والمعرفة كشئون الزرع، وخطط القتال وأمثالها من المسائل العملية البحتة التى لا علاقة لها بالتصور الاعتقادى ولا بالنظام الاجتماعى ولا بالارتباطات الخاصة بتنظيم حياة الإنسان، لأن منهج الحياة شيء والعلوم البحتة والتجريبية والتطبيقية شيء آخر، والإسلام الذى جاء ليقود الحياة إلى منهج الله، هو الإسلام الذى

وجه العقل للمعرفة والانتفاع بكل ابداع مادى فى نطاق منهجه للحياة.

بطاقتنا الشخصية :

لقد كان الإسلام ، بتصوره للوجود ، ورأيه فى الحياة، وشريعته للمجتمع وتنظيمه للحياة البشرية ، ومنهجه المثالى الواقعى الإيجابى لإقامة نظام يسعد فى ظله الإنسان ، كان الإسلام بخصائصه هذه ، هو « بطاقة الشخصية» التى يقدم بها العرب للعالم، فعرفهم، واحترمهم، وسلمهم القيادة.

وهم اليوم وغدا لا يحملون إلا هذه البطاقة، ليست لهم رسالة غيرها يتعرفون بها إلى العالم ، وهم إما أن يحملوها فتعرفهم البشرية وتكرمهم، وإما أن ينبذوها فيعودوا هملا ـ كما كانوا ـ لا يعرفهم أحد، ولا يعترف بهم أحد.

وما الذى يقدمونه للبشرية حين لا يتقدمون إليها بهذه الرسالة؟ يقدمون لها عبقريات فى الآداب والفنون والعلوم؟ لقد سبقتهم شعوب الأرض فى هذه الحقول ، والبشرية تغص بالعبقريات فى هذه الحقول الفرعية للحياة، وليست فى حاجة ولا فى انتظار إلى عبقريات من هناك فى هذه الحقول الفرعية للحياة.

يقدمون لها عبقريات فى الإنتاج الصناعى المتفوق، تنحنى له الجباه ويغرقون به أسواقها، ويغطون به على ما عندها من إنتاج، لقد سبقتهم شعوب كثيرة ، فى يدها عجلة القيادة فى هذا المضمار.

يقدمون لها فلسفة مذهبية اجتماعية ومناهج اقتصادية وتنظيمية من صنع أيديهم ومن وحى أفكارهم البشرية؟ إن الأرض تعج بالفلسفات والمذاهب والمناهج الأرضية وتشقى بها جميعا غاية الشقاء.

ماذا إذن يقدمون للبشرية لتعرفهم به ، وتعترف لهم بالسبق والتفوق

والامتياز؟ لا شيء إلا هذه الرسالة الكبيرة ، والمنهج الفريد ، هذه المنة التى اختارهم الله لها، وألزمهم بها، وأنقذ البشرية كلها على أيديهم ذات يوم ، والبشرية اليوم أحوج ما تكون إليها ، وهى تتردى فى هاوية الشقاء والحيرة والقلق والإفلاس.

إنها الرسالة والعرب فيها أصلاء وغيرهم من الشعوب هم شركاء ، فأى شيطان يا ترى يصرفهم عن هذا الرصيد الضخم؟

إنهم شياطين الإنس يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا، يعملون ليل نهار للصدّ عن سبيل الله ويبغونها عوجا، ويدّعون رفع شعار السلام على الأرض وما هم ببالغيه، بل هم فى الواقع يعلنون الحرب علينا وعلى الناس أجمعين . فماذا نحن فاعلون أمام إعلان الحرب علينا؟ وهى حرب قديمة قدَم الحق والباطل وتلك سنة الله: ﴿ **تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ** ﴾ [البقرة : ٢٥٣] .

المولى سبحانه وتعالى هو الذى خلق البشر، وهو الذى يعلم ما كان من أمرهم وما هو كائن ، وقد علم المولى سبحانه أن هذه الرسالة الأخيرة وما ينبثق عنها من منهج للحياة ، هى خير ما يكفل للحياة النمو والتجدد والانطلاق ، فأيما إنسان زعم لنفسه أنه أعلم من الله بمصلحة عباده!! أو زعم أن هذا المنهج الربانى لم يعد يصلح للحياة المتجددة النامية على الأرض!! أو زعم أنه يملك ابتداع منهج أمثل من المنهج الذى أراده الله!! أيما إنسان زعم واحدة من هذه الدعاوى أو زعمها جميعا فقد صمت دهراً ونطق كفراً، لا مراء فيه، وأراد لنفسه وللبشرية شر ما يريده إنسان لنفسه وللبشرية، واختار

لنفسه موقف العداء الصريح لله ، والعداء الصريح للبشرية التى رحمها الله بهذه الرسالة ، وأراد لها الخير بالمنهج الربانى المنبثق منها ليحكم الحياة البشرية إلى آخر الزمان، وكان هذا الموقف العدائى بمثابة إعلان الحرب علينا .

هكذا يبدأ العداء لله :

وليت هذا الكفر الذى استقر فى القلب ما تُرجم إلى اعتداء وقتال لقلنا ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف : ٢٩] ولكن الكفر تحول إلى عدوان بالاستهزاء تارة وبالسخرية تارة أخرى، وبالإخراج ثالثا ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [إبراهيم : ١٣] بل تعدى ذلك إلى القتل ﴿ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ [غافر : ٢٦] ومن هنا تبين الآية امتثال أتباع الرسل لمنهاج الله وهذا الامتثال لم يقع مخالفا لمشيئة الله فما يمكن أن يقع فى هذا الكون ما يخالف مشيئته سبحانه؛ فمن مشيئته أن يكون هذا الكائن البشرى كما هو، بتكوينه هذا واستعداداته للهدى والضلال وأن يكون موكولا إلى نفسه فى اختيار طريقه إلى الهدى أو إلى الضلال، لأن اختلاف الاستعداد بين فرد وفرد من هذا الجنس سنة من سنن الخالق، لتنويع الخلق مع وحدة الأصل والنشأة، لتقابل هذه الاستعدادات المختلفة وظائف الخلافة المختلفة المتنوعة وما كان الله ليجعل الناس جميعاً نسخاً مكررة كأنما طبعت على ورق الكربون على حين أن الوظائف اللازمة للخلافة فى الأرض وتنمية الحياة وتطورها متنوعة متباينة متعددة ، أما وقد مضت مشيئة الله بتنوع الوظائف فقد مضت كذلك بتنويع الاستعدادات ليكون الاختلاف فيها وسيلة للتكامل وكلف كل إنسان أن يتحرى لنفسه الهدى والرشاد والإيمان، وفيه الاستعداد الكامن لهذا، وأمامه دلائل الهدى فى الكون، وعنده هدى الرسالات والرسل على مدار الزمان ، وفى نطاق الهدى والإيمان يمكن أن يظل التنوع الخيِّر الذى

لا يحشر نماذج الناس كلهم فى قالب جامد.

ولكن حين يصل الاختلاف إلى هذا المدى، فيكون اختلاف كفر وإيمان، ثم يعتدى أهل الكفر على أهل الإيمان، يتعين القتال لدفع الناس بعضهم ببعض، ودفع الكفر بالإيمان، والضلال بالهدى، وهذه مشيئة الله أن يدفع الكفر بالإيمان ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا ﴾ لكنه سبحانه شاء الاقتتال ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره الكافرون فاذا كانت البداية منهم، فكان لابديل لرد الاعتداء إلا بالقتال ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ [الأنفال: ٣٩].

إن المسلم يؤمن إيماناً لا شك فيه أن ما يحمله من إيمان نور يشرق به كيانه أول ما ينبثق فى ضميره ، تشرق به روحه فتشف وتصفو وتشع من حولها نورا ووضاءة ووضوحا، نور يكشف حقائق الأشياء وحقائق القيم وحقائق التصورات؛ فيراها قلبه واضحة بغير غبش بينة بغير لبس، نور يكشف الطريق إلى الناموس الكونى فيطابق المؤمن بين حركته ، وحركة الناموس الكونى من حوله ومن خلاله، و يمضى فى طريقه إلى الله هيِّناً ليِّناً لا يعتسف ولا يصطدم بالنتوءات ولا يخبط هنا وهناك فالطريق فى فطرته مكشوف معروف.

أما ضلال الكفر فظلمات شتى متنوعة، ظلمة الهوى والشهوة، وظلمة الشرود والتيه، وظلمة الكبر والطغيان، وظلمة الضعف والذلة، وظلمة الرياء والنفاق، وظلمة الطمع والسعر، وظلمة الشك والقلق، ظلمات شتى لا يأخذها الحصر تتجمع بعضها فوق بعض عند الشرود عن طريق الله، والتلقى من غير الله ، والاحتكام لغير منهج الله ، وما يترك الإنسان نور الله الواحد الذى لا يتعدد، نور الحق الواحد الذى يتلبس، حتى يدخل فى الظلمات من شتى الأنواع وشتى الأصناف وكلها ظلمات، فالحق واحد لا يتعدد والضلال ألوان فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟ ﴿ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ

يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾ [النور : ٤٠] .

هذا ما ندعو الناس إليه :

يرى المسلم هذه الحقائق فيدعو إلى الله على بصيرة محباً للناس الخير، يقول لأهل الضلال: أنتم تلقون بأنفسكم فى النار وأنا آخذ بحجزكم ويقول: ﴿وَيَاقَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ لا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [غافر : ٤١ ـ ٤٤] .

ومع هذه الدعوة الهينة اللينة إلا إنه كما قال القرآن ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ ﴾ [الإعراف : ١٩٨] بل لا يجد الداعى إلا تهديدا ووعيدا ومحاولة للقتل ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠] فأهل الباطل هم الذى يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا، وهم الذين قالوا لرسلهم ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ [إبراهيم: ١٣] وهم الذين ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾ [الشعراء : ١١٦] ثم بعد هذا كله يدّعون العقل والاتزان، وأنهم أصحاب الحق الذى يجب أن يسود والسلام الذى يجب أن ينتشر ولو بقوة السلاح، والعدل الذى يجب أن يقام بينما التاريخ قديما وحديثا شاهد على ﴿ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴾ [التوبه : ١٠] .

إن بعض المغرضين من أعداء الإسلام يرمونه بالتناقض فيزعمون أنه فُرِضَ بالسيف فى الوقت الذى قرر فيه ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ [البقرة : ٢٥٦] أما بعضهم الآخر فيتظاهر بأنه يدفع عن الإسلام هذه التهمة ، وهو يحاول فى

خبث أن يخمد فى حس المسلم روح الجهاد، ويهون من شأن هذه الفريضة فى تاريخ الإسلام وفى قيامه وانتشاره.

أنه يوحى إلى المسلمين ـ بطريق ملتوية ناعمة ماكرة ـ أن لا ضرورة اليوم أو غداً للاستعانة بهذه الفريضة ، وذلك كله فى صورة من يدفع التهمة الجارحة عن الإسلام، كى يأمنوا انبعاث هذه الروح، الإسلام الذى لم يقفوا له مرة فى ميدان والروح التى ما انبعثت بصدق فى قلوب مؤمنة به إلا انتصرت لذلك لم يسمحوا للجهاد ولو مرة فى أنه يبعث روحه فنسخوه وشوهوه وما اطمأنت نفوسهم إلا بعدما خدروه وكبلوه بشتّى الوسائل، وكالوا له الضربات الساحقة الوحشية فى كل مكان، وألقوا فى خلد المسلمين أن الحرب بين الاستعمار وبين وطنهم ليست حرب عقيدة أبدا تقتضى الجهاد، وإنما هى فقط حرب أسواق وخامات ومراكز وقواعد، ومن ثم فلا داعى للجهاد، فكانت العاقبة التى نراها كما أخبرنا المصطفى ﷺ « **ما ترك قوم الجهاد إلا ذلوا**»..

لماذا فرض الجهاد :

والذى نريد أن نؤكده أن الإسلام انتضى السيف وناضل وجاهد فى تاريخه الطويل، لا ليحتل أرضا، أو يستذل شعباً، أو يحقق ثروة، أو حتى ليكره أحدا عليه والدخول فيه ولكن ليكفل عدة أهداف كلها تقتضى الجهاد فى سبيله منها :

أولا: جاهد الإسلام ليدفع عن المؤمنين الأذى والفتنة التى كانوا يسامُونها، وليكفل لهم الأمن على أنفسهم وأموالهم وعقيدتهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ﴿ **وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ** ﴾ [البقرة : ١٩١] فاعتبر الاعتداء على العقيدة والإيذاء بسببها، وفتنة أهلها عنده أشد من الاعتداء على الحياة ذاتها، فالعقيدة أعظم قيمة من الحياة وفق هذا المبدأ العظيم. وإذا كان المؤمن مأذونا

فى القتال ليدفع عن حياته وماله، فهو من باب أولى مأذون فى القتال ليدفع عن عقيدته ودينه إذا تعرض للعدوان .

ثانيا: جاهد الإسلام لتقرير حرية الدعوة - بعد تقرير حرية العقيدة - فقد جاء الإسلام بأكمل تصور للوجود والحياة، وبأرقى نظام لتطوير الحياة، جاء بهذا الخير ليهديه إلى البشرية كلها ويبلغه إلى أسماعها وإلى قلوبها، فمن شاء بعد البيان والبلاغ فليؤمن ومن شاء فليكفر، ولا إكراه فى الدين، ولكن ينبغى قبل ذلك أن تزول العقبات التى تحول بين الناس وبين سماع هذا الحق، والغريب أن القوم يعترفون بالنظام العالمى الجديد كى يسود لا فكراً فحسب بل ونظاما يطبق ، ومَنْ يحول دون ذلك فعاقبته معروفة يحاصر أو يحارب أو يرمى بالإرهاب أو فى أقل تقدير ممن يساعدون الإرهابيين، وأحداث اليوم خير شاهد على صدق ما نقول ، فما بالك والإسلام دين الحق والعدل والمساواة بين البشر جميعا حين يدعو إلى نظام تسعد به الدنيا كلها ـ وقد سعدت ـ ينكر عليه ذلك بل ويحارب وتوضع أمامه كل العقبات حتى لا يكون واقعا على الأرض تسعد به البشرية.

ثالثا: جاهد الإسلام ليقيم فى الأرض نظامه الخاص ويقرره ويحميه، وهو وحده النظام الذى يحقق حرية الإنسان تجاه أخيه الإنسان، حينما يقرر أن هناك عبودية واحدة لله الكبير المتعال، ويلغى من الأرض عبودية البشر للبشر فى جميع أشكالها وصورها « إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ».

وعلى هذه القاعدة الربانية يقوم نظام أخلاقى نظيف تكفل فيه الحرية لكل إنسان حتى لمن لا يعتنق عقيدة الإسلام، وتصان فيه حرمات كل أحد حتى الذين لا يعتنقون الإسلام، وتحفظ فيه حقوق كل مواطن فى الوطن الإسلامى

أياً كانت عقيدته، ولا يكره فيه أحد على اعتناق عقيدة الإسلام، ولا أكراه فيه على الدين إنما هو البلاغ، وهكذا يَدَعُ الإسلام الناس فى ظله أحراراً فى عقائدهم الخاصة لا يلزمهم إلا بالطاعة لشرائعه الاجتماعية والأخلاقية والاقتصادية الدولية، أما عقيدة القلب فهم فيها أحرار ، وأحوالهم الشخصية هم فيها أحرار يزاولونها وفق عقائدهم، والإسلام يقوم عليهم يحميهم ويحمى حريتهم فى العقيدة ويكفل لهم حقوقهم ، ويصون لهم حرماتهم، فى حدود ذلك النظام.

فلم يحمل الإسلام السيف إذن ليكره الناس على اعتناق عقيدته، ولم ينتشر بالسيف على هذا المعنى كما يريد بعض أعدائه أن يتهموه، إنما جاهد ليقيم نظاما آمنا يأمن فى ظله أصحاب العقائد جميعا، ويعيشون فى إطاره خاضعين له وإن لم يعتنقوا عقيدته، ويؤمنوا بكتابه ، ويصدقوا رسوله ﷺ.

وكأى نظام لابد له من قوة تحميه، لاظلماً وعدواناً كالنظام العالمى الجديد الذى يُدْعَى إليه فى زماننا هذا، ولكن قوة الإسلام ضرورية لوجوده وانتشاره واطمئنان أهله على عقيدتهم واطمئنان من يريدون اعتناقه على أنفسهم كذلك واذا كان لابد للإسلام من نظام فكان لابد له من قوة، ولابد له من جهاد، فهذه طبيعته التى لا يقوم بدونها إسلام يعيش وبقوة.

نعم ﴿ **لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ** ﴾ [البقرة : ٢٥٦] ولكن ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ** ﴾ [الأنفال : ٦٠] .

هذا هو قوام الأمر فى نظر الإسلام، وهكذا يجب أن يعرف المسلمون حقيقة دينهم، وحقيقة تاريخهم، فلا يقفوا بدينهم موقف المتهم الذى يحاول الدفاع ، إنما يقفون به دائما موقف المطمئن الواثق المستعلى على تصورات

ونظم الأرض جميعاً، وعلى مذاهب الأرض جـميعاً، لا ينخدعو بمن يتظاهر بالدفاع عن دينهم بتجريده فى حسهم من حقه فى الجهاد لتأمين أهله، والجهاد لكسر شوكة الباطل المعتدى، والجهاد كـذلك لتمتيع البشرية كلها بالخير الذى جاء به، والذى لا يجنى أحـد على البشريـة جناية من يحرمهـا منه، ويحول بينها وبينه، فهذا هو أعدى أعداء البشرية.

إن سماحة الإسلام تراها فى مواجهة كل عداء، فهو يأمر المسلمين بالوقاية دائما من الأعـداء، ولكنه لا يحرضـهم على مقـابلة الغل والحقـد والكراهية والدس والمكر بمثلهـا، إنما هى مجـرد الوقاية للصف المسلـم، مجرد الوقـاية والتنبيـه إلى الخطر الذى يحيطها به الآخرون، أمـا المسلم فبسمـاحة الإسلام يتعامل مع الناس جميعاً،وبنظافة الإسلام يعـامل الناس جميعاً، وبمحبة الخير الشامل يلقى الناس جميعا ، يتـقى الكيد ولكنه لا يكيد، ويحذر الحقد ولكنه لا يحقد، إلا أن يحارب فى دينه، وأن يفتن عن عقيدته، وأن يصد عن سبيل الله، وعن تحقيق منـهجه فى الحياة، يحـارب جهاداً فى سبيل الله لا انتـقاما لذاته، وحبا للخير للبشر لا حقداً على الذين آذوه، وتحطيماً للحواجز الحائلة دون إيصال هذا الخير للناس، لا حباً للغلب والاستـعلاء والاستغلال، وإقامةً للنظام القويم الذى يستـمتع الجـميعُ فى ظله بالعدل والسـلام، لا ليرفع راية قومية أو لبناء امبراطورية.

لذلك لا يصدُّ البشـرية عنه إلا أعدى أعداء البشرية الذين ينبـغى التصدى لهم فكراً بفكر ، واعتداء باعتداء ، هو الجـهاد فى سبيل الله وهو ماضٍ إلى يوم القيامة تحت هذا الـلواء حتى ولو بذل المسلم روحه من أجله ليكون الموت فى سبيل الله أسمى أمانيه .

وبهذه السطور التي أسـأل الله أن يكون قد وفقنى فيـها ، والتى أردت أن

أساهم بها بجهـد المقل ، فى تجلية موضوع افترى عليـه البعض وشوّهه سواء من المفَرّطين فيه أو المـفرِطين فيه ، ، من أجل ذلك تعرضـت لأحكام الجهاد بشىء من الإيجـاز غيـر المخل وركزت على تصـحيح التـصورات ، وضـبط المفـاهيم ، والمنهج التـربوى الجهـادى أحـاول تصحيـحهـا لدى بعض من المسلمين، لتصح الخطى ، وتتضح الغاية .

ولما كانت رسالة الإسـلام رسالة تربية يقصد بهـا إيجاد الأنموذج الأخلاقى الفذ الذى يفتح الـله به القلوب الغلف والأعين العمى ، والآذان الصم ، ولا يتـحقق هذا الإنموذج إلا إذا وضع منـهج التربيـة موضع الـتنفيـذ فى السلم والحـرب على حدٍ سـواء . لذلك كـان لابد من إبراز هذا الجانب الأخـلاقى وتحقيقه فى القـادة والجند قبل أن يقتحموا ميادين القتـال ليكون الجهاد خالصاً لله بحق ، وليرى الأعداء الانموذج الذى ندعوهم إليه .

ولذلك قد ترى فى الحديث عن هذا الجانب أطناباً وكـأنى أكرر كلاماً قلته ولكن، والحق يقال أن هذا : مـقصود لذاته لتـأكيد الفـهم المطلوب ، والمعنى المقصـود، فأردت أن تصل هذه الأفكار والمعـانى والمفاهم التى استـقيتـها من كتاب الله وسنة رسـوله ﷺ وعمل السلف الصالح فألححت عليـها إلحاحا، وأكدت عليـها مع كل معنى من المـعانى حتى يزداد السـالك ايمانا بها فـيثبت عليهـا، ويطمئن قلبه، ويُصَوِّب بهـا المغالى غلوه ويتـعلم أن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهـرا أبقى فيلـتزم بهـا ويكتسب فـضـيلة الرجوع إلى الحق حـتى لانستمر فى تشويه اسلامنا بأنفسنا .

وأخيرا ليـتأكد للجميع أن رسول لله ﷺ إنما بعث ليـتمم مكارم الأخلاق سِلمًا وحـربا، فلا يفـرقـون بين حـالة السلم وحالة الحـرب فى إبراز جـانب الأخلاق لأنها مفتاح القلوب، وهو سـبحانه لا يمنّ بها على أحد من خلقه إلا

لمنْ أحبه، فهو سبحانه يعطى الدنيا لمن أحب ولمن لا يحب ولا يعطى الدين إلا لمن أحب .

من أجل ذلك استخرت الله تعالى . فكان هذا الكتاب الذى بين يديك بأبوابه المتعددة ، سائلا الله سبحانه وتعالى أن يجعل ذلك فى ميزان الحسنات، وأن يكتبنا عنده من الشهداء فإن لم نحظ بها وهو صاحب الفضل والمنة ـ نسأله ألا يحرمنا أجر الشهداء ، وأن يجزينا أجرهم وثوابهم إنه سميع قريب ، وبالإجابة جدير.

وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى اللهم على سيدنا محمد وعلى الله وصحبه وسلم

الأسكندرية فى : وكتبه الفقير إلى عفو مولاه

٧ من صفر ١٤١٧ هـ جمعه أمين عبد العزيز

٢٤ من يوليو ١٩٩٦ م

***

الباب الأول

مهمتنا فى هذا الوجود

* حرص الرسل على البلاغ .
* لا اجبار ولا إكراه.
* العلم عاصم من الزلل .
* الاختيار أصل فى التكليف .
* من امارات الأخلاص .
* ماذا نعنى بالقوة .
* الموقف من القوة والثورة .
* الاخوان المسلمون والحكم .
* إقامة الدين وليس الاستيلاء على السلطة .
* اصلاح حال المجتمع سابق على اقامة الدولة .
* بين الذين ينادون باستخدام القوة وتطبيق الشريعة .
* حذار من الشِّرْك . .
* ما أشبه الليلة بالبارحة .
* النظام العالمى الجديد القديم .
* نحن وهم فى الميزان .

###



مهمتنا فى هذا الوجود

خلقنا المولى سبحانه وتعالى بيده، ونفخ فينا من روحه وأسجد لنا ملائكته، وسخر لنا ما فى السموات وما فى الأرض، وكرمنا سبحانه وفضلنا على كثيرٍ ممن خلق تفضيلا، كل ذلك لنقوم برسالتنا ونؤدى أمانتنا ونحقق ما خلقنا من أجله ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] . هذه مهمتنا فى الوجود.

ولما كان الناس أمام هذه المهمة الكبرى فريقين منهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة، نتج عن ذلك صراعٌ بين الفريقين لاختلاف الوجهة والغاية، فمنهم من يريد الدنيا ومنهم من يريد الآخرة؛ تبعاً لطبيعة النفس ونوازعها ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ [الشمس:٧ ـ ١٠] .

من هنا ارتبط النزاع والقتال والحرب بوجود الإنسان ولقد وضَّح لنا القرآن ذلك،وهو يبين لنا تاريخ البشرية منذ قتل ابن آدم عليه السلام أخاه ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ ﴾ [المائدة: ٢٧] ﴿ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ [المائدة:٢٨] .

وببقاء هذا الصراع فإن الحرب ماضية وباقية طالما وُجِدَ الإنسان على الأرض؛ وطالما أن هناك نزاعاً دائماً بين الخير والشر، وفى الحديث « الجهاد ماض إلى يوم القيامة » [١].

وهذا النزاع وهذه الحرب لابد منها لإقامة الحق والعدل والقيم العليا، لأن

(١) حديث صحيح .

الأصل هو السلم الذى يجب أن يدخل الناس فيه كـافةً، ولا يتحقق ذلك إلا بنظام الله،ومنهج الحق ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٩٠] .

فإذا طُبِّقَ منهجُ الله تحقق العدل والإحسان وصلة الإرحام، وإذا نأى الناس عنه وتخلوا عن تطبيقه حلت الفحشاء والمنكر والبغى، فالمعتدى الذى يبدأ دائما بالحرب ليس من يرغب فى إقامة شرع الله القائم على الحق والعدل ولكن من يحاربه ويعتدى عليه ويمنع إقامته، وهم الظالمون المعتدون الذين يحادون الله ورسوله، ويصدون عن السبيل، ويبغونها عوجاً، فكان لابد من رجال يحملون الحق ويزودون عنه ويضحون من أجله لدرء الفساد الذى يرونه، وجلب الصلاح الذى يدعون الناس إليه ﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [البقرة : ٢٥١] .

فلولا هذه المدافعة لزلت أقدام بعد ثبوتها، ولزالت الأماكن التى يعلو فيها صوت الحق والتى يتخرج منها رجال يحملونه ويدافعون عنه ويضحون من أجله ﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾ [الحج : ٤٠] .

لذلك فقد أرسى الإسلام قواعد العدالة والفضيلة والقيم الإنسانية، وحافظ عليها فى الحرب والسلام على حد سواء ، فالحرب الإسلامية تتصف بالعدل وإقامة الفضيلة، ونظرة فاحصة ، ودراسة واعية للحروب قبل الإسلام ، نرى مصداق ذلك، بل إن الحروب الحالية الوحشية اللاأخلاقية التى يعانيها العالم اليوم خير شاهد على ذلك، ومرجع ذلك كله إلى طبيعة النفس الانسانية التى ألهما الله فجورها وتقواها .

حرص الرسل على البلاغ :

إن النفس الإنسانية كما تحمل نوازع الخير فإنها تحمل نوازع الشر، فالصراع يبدأ من داخل النفس فإذا حُسِمَ هذا الصراع لصالح الحق والخير والعدل تحقق الأمن والأمان على الأرض﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢] وإلا تحقق الخسران الذى يبدأ بخسارة النفس﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر:١٥].

من أجل ذلك كانت رسالة الرسل والأنبياء من قبل مخاطبة الفطرة السليمة، والعقول الرشيدة، بالحجة والبرهان، مخاطبة هادئة حتى يعرفوا ربهم ويثوبوا إلى رشدهم ليثوبوا إلى دار السلام، ولا يتحقق ذلك إلا بالإقناع والعلم والنظر والتأمل، والتفكير والتدبير لأنه لا توجد سلطة تجبر الناس على الإيمان ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٩٩] وإنما هو سلطان العقل، وقوة الحجة والبرهان خاصة وهى دعوة تأمر بالخير وتنهى عن الشر، وتحل الطيبات وتحرم الخبائث وتضع عن الناس إصرهم والأغلال التى كانت عليهم، جاء بكل ذلك داع يدعو إلى الله هو رسولنا ﷺ الحريص على الناس كافة ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف : ١٥٧] .

ونهج الدعوة إلى الحق بالحكمة والموعظة الحسنة دون إكراه أو إلزام ليس نهج رسولنا الكريم محمد ﷺ فحسب، بل هو نهج إخوة له من قبل سبقوه وواصل هو المسير على نفس الدرب حتى أتم الله به النعمة.

ففى خطاب نوح عليه السلام إلى قومه ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَة

مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ [هود : ٢٨] .

وفى خطاب إبراهيم عليه السلام لأبيه ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴾ [مريم: ٤٣]. وفى خطاب يوسف ﴿يَاصَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩] .

ورسولنا ﷺ فى هذا النهج ليس بدعا من الرسل ، فلقد أدبه ربه فأحسن تأديبه ، فحين أمره ربُه بالبلاغ والإنذار لم يتركه يختار أسلوب الدعوة فى التبليغ والنذارة وهو ﷺ مَنْ هو صاحب الخلق العظيم والسلوك الحميد، والعقل الراجح، والحكمة البالغة، ومع كمال الصفات الإنسانية فيه، تجد المولى يحدد له منهج الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتى هى أحسن؛ ليكون منهاجاً ربانياً ما كان للدعاة الخيرة فيه.

وهذا المنهج فى الدعوة إلى الله خطواته مرسومة، وقواعده محددة، وأصوله معلومة، مَنْ طبقه بفقه وبصيرة فتح اللهُ له القلوب الغُلْفَ والأعين العُمْىَ ، والآذان الصُمَّ، فتهفو نفسه المدعوة لهذا الخير فيحببُ الله له الإيمان ويزينه فى قلبه ، ويكره إليه الكفر والفسوق والعصيان، ويجعله من الراشدين فضلا من الله ونعمة.

كل ذلك بالحجة، والكلمة المؤثرة، حين يقول للمخالفين: ﴿ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾[آل عمران:٦٤] وللمجادلين ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ [البقرة:١١١]. وللمعاندين ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ : ٢٤] فهو ليس فى حاجة إلى السنان بل هو فى حاجة إلى البيان بكلمات هى قذائف الحق أشد من السيف تسقط حجج المكذبين، وتنتصر على أسلحة الكافرين وتدحض شبهات المفترين ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾[الأنبياء:١٨].

ذلك لأنه لا يمكن أن يقوم هذا الدين على إكراه الناس على عبادة الله، فالداعى إلى الله يوضح الطريق ويترك للناس أن تختار ﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُر ﴾ [الكهف : ٢٩] وهذه هى إرداة الله فى خلقه ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ من فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاس حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِين ﴾ [يونس: ٩٩] . ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ ﴾ [الأنعام : ٣٥] ﴿ قُلْ فَلِلَّه الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِين ﴾ [الأنعام : ١٤٩] .

لا إجبار ولا اكراه :

إن الإسلام لم يستخدم الإجبار على الدخول فيه بالسيف فحسب، بل إنه لم يستخدم القهر العقلى حتى يؤمن الناسُ به ، فلم يأت رسولنا ﷺ بخوارق العادات كإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى أو أنه يضرب بعصاه حجرا فتنفجر منه الأنهار - وإن كانت رسالته ﷺ لم تخلُ من المعجزات.

لكن معجزته الكبرى الوحيدة الخالدة التى جاء بها، هى القرآن وهو البرهان الدائم سواء في وجود رسولنا الكريم - صلوات الله وسلامه عليه - أم بعد موته ﷺ ﴿ وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّه قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّه وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِين أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُون ﴾ [العنكبوت ٥٠ ـ ٥١] .

بل إن الشريعة الإسلامية تقرر عدم الاعتداد بالإيمان الناشيء عن إكراه ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴾ [غافر : ٨٥] .

ولقد نزلت الآيات وظهرت الدعوة الإسلامية بوضوح تبين الحق من الباطل وتقرر أن لكل إنسان حرية الاختيار وأنه محاسب على اختياره ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ [البقرة ٢٥٦] ومهمة الرسول ﷺ هى البلاغ ﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ ﴾ [الشورى . ٤٨] فليس له ﷺ أن يجبر الناس على

شيء ﴿لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢١] ﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ إنها الدعوة ابتداء، والتبيان والحجة انتهاء طالما لا يعتدى عليها أحد بشتى أنواع الإعتداء .

الدعوة أولا:

نحن ابتداءً أمة لها رسالة تدعو الى الله على بصيرة، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله ، منهج دعوتها ليس من عندها ولا من عقلها، إنما كان منهجها من عند الذى أحاط بكل شيء علما، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم عليم، كذلك فإن أسلوب الدعوة إلى هذا المنهج، وكيفية تطبيقه بتوجيه من الله سبحانه وتعالى - كما قلنا - بقواعد محددة، وخطوات معينة، وأساليب متعددة، تبدأ بالتبيان وتحكمها الحكمة ، وتضبطها الموازين، وتحيط بها من كل جانب الرحمة والحرص ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ [التوبه: ١٢٨: ١٢٩] .

فلسنا أمة ثورة تسفك الدماء، وتستحل الأموال والأعراض، لتقيم نظاما على الأشلاء، لا تبالى بتقتيل الأطفال، وتحريق الأخضر واليابس، تخلط الأمور، ولا تحكمها مباديء وقيم، لتصل إلى غايتها بوسائل لا أخلاقية «فالغاية عندها - أى الأمة الإسلامية - لا تبرر الوسيلة .

وما أرسل اللـه صاحب الدعوة إلا رحمة مهداة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الإنبياء : ١٠٧] ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾[آل عمران : ١٥٩] . عرف ذلك كل من خالطه ﷺ وعايشه وتعامل معه سواء كان ممن آمن به أو صد عنه، فهو عندهم « الصادق الأمين» ولقد وجدت قريش ذلك منه فى ساعة كانت يده العليا ـ وهى عالية

دائماً - فى يوم نصر وفتح ، يفرح فيها المنتصر ويرهو ، وينظر للمهزومين من عَلٍ، يَسْبِى النساءَ، ويستَرِقُّ الذرارىَ والرجال ويمعل الأفاعيل، لكنه ﷺ فى هذا الموقف يستغفر ربه ، ناظراً إلى الأرض فى سجدة وهو على ناقته، شاكرا الله على نعمـائه وفتحه، يقـول لمن آذوه وأخرجوه وقـاتلوه: «ما تظنون أنى فاعل بكم؟ قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم قال: فاذهبوا فأنتم الطلقاء»، فغيره يسجـن ولا يعفو، ويغـلظ ولا يرحم، والمهزمـون أسارى عنده، أمّا الرحـمة المهداة ﷺ فيعطيهم الأمن والأمان، والحرية والسلام .

ذلك لأن رسالته ﷺ رحمة للناس كافة. لذلك فإنك لا تجد فى سنته ﷺ شيئا يدل على عنف أو إكراه ، وهو يعلم أصحابه أن العنف ما دخل شيئاً إلا شانه، فـهل مَنْ يُعَلِّم أتباعه ، ويوجـههم للرفق واللين والرحـمة يرضى عن التقـتيل وسفك الدماء بغـير حق؟ وهل ترى فى منهجـه ﷺ ما يدل على أنه منهج ثورى أو ربّى أمـته على المنهـج الثورى ، بكل مـا يقتـضيـه من عنف التغيير المصاحب بالدماء.

إنها صورة للإسلام ودعاته مشوهةٌ ، مـقصودة بيَّنها المولى فى كتابه العزيز وهم يقولون : ﴿ لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فيه لعلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ [فصلت:٢٦]. فإذا لم يفد اللغو ويصرف الناس عن القرآن فليكن ﴿ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [آل عـمـران : ٧٢] .إنه الكيد للإسـلام والمسلمين ولا ينبغى لمن تصدى لهـذه الدعوة أن تكون أفعاله مـؤيدة لما يقوله أعداء الدين، فينصرف لا أقول الكافرين ولكنى أقول المسلمين عن الدين.

وهذا الذى نبـينه ونؤكد عليـه ليس من باب التكتـيك والتضليل أو حـتى المرحلية، كـما يرجف المرجـفون ، إنما هى مبـادىء وقواعد وأصـول، تحدد المنهج الذى علمنا إياه رسولنا الكريم، فصار الالترام به ديناً أساسه الطاعة لله والرسول، ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى الـلَّـهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ

﴿الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحـزاب : ٣٦] .فمن التزم به تطبيقا فاز وسلم وأُجرَ وفتح الله له قلوب العباد قبل البـلاد، ومَنْ خالفه خسرَ وهلك وأثِمَ ، وعاداه الناسُ كلُ الناس الذين شرح الله صدروهم للاسلام .

فبُعد البعض عن هذا المنهج باستـخدام العنف والقتل إنما يرجع إلى الهوى والجهل ، والهوى يحـتاج إلى تربية إيمانية، والجهل يحتـاج إلى علم وتبيان، العلـم الذى بدأ به القرآن ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [محمد:١٩]. لذا وجب توضـيح ما تعلمناه ليـستـبين لنا خطأ بل خطيـئة اسـتخدام الـقوة والعنف مع الأفراد والجماعات والمجتمعات.

العلم عاصم من الزلل:

إن أخطر مـا يصيب الإنسـان أن تلتبس عليـه الأمور فيـرى الحق باطلاً ، والباطل حـقاً ، والمعـروف منكراً ، والمنكر معروفـاً ، والسنة بدعة والبـدعة سنة، والالتـزام قعوداً ، والاسـتعجـال جهـاداً ، إلى غير ذلك من الـمفاهيم المقلوبة والمغلوطـة، ولذلك كان من الدعـاء المأثور: « اللهـم أرنا الحقَ حقـاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه » .

لذا كان العلم بالإسلام سابقاً على العمل به، يقول ربنا عز وجل: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج : ٥٤] .

والعطف بالفاء يفـيد الترتيب والتـعقيب أى أن العلم يتـرتب عليه الإيمان والإيمان يترتب عليه الإخبات ، فهم إذا علموا آمنوا وإذا آمنوا أخبتوا ـ فالعلم سابق على العـمل كمـا قال ربنا ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الـــلَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [محمد:١٩]. وقـولهم « إن العلـم لا ينفع إلا بالعـمل» تهـويـن لأمـر العلم والتساهل فى طلبه[1] والخطاب فى الآية وإن كـان للنبى ﷺ ، فـهو مـتناول لأمته بلا نزاع .

(١) صحيح البخارى مع فتح البارى – الشيخ عبد العزيز بن باز.

يقول معاذ: العلم إمام العمل والعمل تابعه [١] .

فإذا كان العلم ضرورياً إلى هذا الحد الذى لا يفيد بدونه عمل ، فمن البديهى أن من حق الناس الذين لا يعلمون أن يسألوا الدعاة إلى الله ، ويطالبوهم بتوضيح غايتهم ، وتحديد أهدافهم ، ووسائل تحقيقها ، تحديداً واضحاً يفهمه الخاصة، والعامة والمتعلم والجاهل وساكن الكفور والقصور على حد سواء.

ولذلك كان لابد للعاملين فى الحركة الإسلامية أن ينطلقوا بها من الفهم الشامل للإسلام ، وهم مؤمنون بقدرة هذه الدعوة على حل مشاكل الحياة الفردية والاجتماعية، والحركة الإسلامية إن كانت تسعى للتغيير نحو صالح الأمة، وسلامة المجتمع ورقى البلاد فإنها تعلم من قرآن ربها أن دعوة الناس لهذا الدين لا إكراه فيه ولا إجبار ولا قهر ﴿ **لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ [البقرة : ٢٥٦] فلابد من سعة الصدر، والاستماع إلى ما يوجهه المدعو من تساؤلات واستفسارات ولا يضيق الداعى ذرعاً بما يوجه إليه من هذه التساؤلات ، وها هو القرآن يجيب على تساؤلات الناس وما يعتمل فى نفوسهم، وتقرأ فيه تساؤلاتهم المتعددة لرسول الله ﷺ (يسألونك عن الخمر والميسر ؟ . .يسألونك عن اليتامى ؟ . . يسألونك ماذا ينفقون؟ . .يسألونك عن الشهر الحرام قتالٍ فيه ؟ . . يسألونك عن الأهلة ؟ يسألونك عن الكلالة؟).

---

(١) رواه أبو نعيم فى الحلية وابن عبد البر فى العلم موقوفاً ذكره ابن الجوزى ، فى سيرة عمر بن عبد العزيز ومناقبه ص ٢٥.

فلا غضاضــة فى سؤالهم ولا حرج طالما أنهم يريدون البحث عن الحـقيقة والوصول إليها، فقـديماً سألت الملائكة ربها عن آدم عليه السلام ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة : ٣٠] وسأله إبراهيم عليه السلام ﴿كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة : ٢٦٠] كما سأله موسى ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف : ١٤٣] كل ذلك لتتجلى الحقيقة ، ويتضح الحق ، ويزهق الباطـل ، فيجتث من القلوب، فلا يصـير له قرار فى أرض الواقع الذى يعيشه الناس ، ولذا كان من مهام الرسول ﷺ تبيان الذكر للناس ، والإجابةُ عن أسئلتهم ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل : ٤٤].

والتبـيان يحتــاج إلى حكمة وبصيـرة فلا يفيـد إجبار الناس وقـهرهم أو إكراههم إلى ما تدعو إليه ، ومن هنا فإننـا نرفض رفضاً قاطعاً مسلك العنف والإكراه كطريقة لفرض الآراء على الناس أو إكراههم على تطـبيقها بل نعمل على استئصــال جذور هذا العنف من الفكر ومن الواقع بالحوار البناء، والإقناع العقلى، والحجة الدامـغة، انطلاقاً من فهمنا للإسلام وتعـاملنا مع نصوصه، ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] .

فبالإقناع ومقارعة الحجة نقول . . . ﴿ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة : ١١١] . ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾[الأنعام : ٨٣] . ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ ﴾ [البقرة : ٢٥٨] .ذلك هو السبـيل الأقوم ، وهو المنهاج الذى لا نحيد عنه طالما فينا عرق ينبض، لأننا إذا طبقناه وتأدبنا بأدبه، ودفعنا بالتى هى احسن ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ .

تدبر القــرآن تجد المولى سـبحــانه وتعالى حين أمـر الرسول ﷺ بالـبلاغ والإنذار لم يتركه يختار أسلوب الدعوة فى التبليغ والنذارة، وهو ﷺ من هو

صاحب الخلق العظيم ، والسلوك الحميد، والعقل الراجح ، والحكمة البالغة، ومع كمال الصفات. الإنسانية فيه ﷺ نجد المولى يحدد له منهج الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ، والمجادلة بالتي هي أحسن ليكون منهاجا ربانياً ما كان للدعاة الخيرة فيه [1] فالالتزام به واجب تعبديا مَنْ خالفه حاد عن الصواب وخالف نهج المصطفى ﷺ.

يقول الإمام ابن القيم: جعل الله سبحانه مراتب الدعوة بحسب مراتب الخلق ، فالمستجيب القابل الذكر الذى لا يعاند الحق ولا يأباه يُدْعَى بالحكمة، والقابل الذى عنده نوع غفلة وتأخر يُدْعَى بالموعظة الحسنة وهى الأمر والنهى المقرون بالرغبة والرهبة، والمعاند الجاحد يجادل بالتى هى أحسن، وبذلك يكون المنهج كما احتوى على تبيان الفكرة والهدف، حوى أيضاً وسيلة تحقيقه، وأسلوب الدعوة إليه.

ودعنا نستفيض ولا نوجز فى هذه القضية لخطورتها، حتى تكون واضحة.

وضوح الشمس فى رابعة النهار ليهلك مَنْ هلك عن بينة ويحى من حى عن بينة، فهى البداية ومَنْ صحّت بدايته صحت نهايته.

ولأنها جهاد اللسان. أو إن شئت فقل جهاد الكلمة والبيان فلخطورتها وأهميتها سأتناولها بالتفصيل قبل أن أتكلم عن القتال فى الإسلام حتى أبين بتوفيق الله الفرق بين استخدام القوة فى إقامة الدولة، والجهاد فى سبيل الله.

الاختيار أصل فى التكليف :

من كرامة الإنسان حريته فى أن يختار ما يشاء ومَنْ يشاءُ،لدرجة أنَّ الإسلام ما أجبر أحدا، ولا قهره، ولا أكرهه على الدخول فيه،إنما قال للناس

---

(١) راجع كتاب الدعوة قواعد وأصول للمؤلف.

جميعاً بعد ما تبين لهم الهدى ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[الكهف: ٢٩]. وهذا الاختيار جاء بعد وضوح الدعوة وبعد أن تبين الرشد من الغى .

فلا يفيد الإلزام والإكراه والعنف فى هذه الدعوة، فالذين يدخلون فى هذا الدين من باب ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ [غافر: ٢٩]. سرعان ما يتركوه فى أول فرصة سانحة أو ينافقوه فلا يضحون من أجله ولا يبذلون فى سبيله المال والنفس لأنهم أجبروا عليه إجباراً ، أما الذين يدخلون فيه طوعاً وحباً وإقناعاً وإيماناً يقولون: « فداك أبى وأمى » ويشرون أنفسهم ابتغاء مرضات الله؛ لأن العقيدة الخالصة تهذب السلوك فتسمو النفوس وتحب الفضائل فإذا بعمل المسلم يزينه الصدق والوفاء، والكرم والشجاعة، والإيثار والتضحية، فتنشأ شخصيته ذات مُثُلٍ عليا تتصل بالله، فلا يطلب صاحبُها إلا الحقيقة أينما كانت، وسيطرة هذه المثل العليا على النفس المؤمنة توحدها وتربط دوافعها وعاداتها برباط واحد، تحت قيادة واحدة تسير النفس فى ظلها منسجمةً آمنةً مطمئنة لا تخاف ظلماً ولا هضماً ، ولا يخاف صاحبُها بخساً ولا رهقاً ولا يضل ولا يشقى ويعيش حياة هنيئة سعيدة ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل : ٩٧] .

فصاحب الدعوة يحرص على مشاعر من يدعوه، فلابد أن يكون لين الجانب متواضعاً فى علاقاته مع الذين يشاركونه الإيمان بهذا الحق ، إذ ذلك دليل على أن الدعوة إلى الحق فوق الجاه والاعتزاز به ، وفوق السلطة والترفع بها، وفوق كل ما من شأنه أن يبعث فى النفس العادية شيئاً من الترفع والاستعلاء ، ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٥] . فهى دعوة للتجرد من الغل والحقد تجاه من لا يؤمن بهذه الدعوة بعد عرضها عليه، وتركه وشأنه ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء : ٢١٦].

وليس على الداعـى حين يرفض المدعـو إلا أن يعلن تجـرده وعـدم رضـاه فحسب على ما يـكون من عنادهم ومعارضتهم، دون أن يستـتبع ذلك بحقد يضمره أو تربص بهم يحققه ولو بعـد حين ، ويكفيه عندئذ أن يستمسك هو بالحق ويتـوكل على الله الـذى يؤيده بنصـر من عنده ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴾[الشعراء :٢١٧] .

فالتـوكل على من له عزةٌ ومَنْ هو صـاحبُ الرحمة كـفيلٌ من غـير شك بالمساندة التى يحتاج إليها الداعـى إلى الحق ، وفى الوقت نفسه كفيل كذلك بعدم الحاجة إلى الغير.

وعندئذ لا يكون هناك سـببٌ لحـقـد من يعارض ويكـفر بالدعـوة ، لأن الحاجـة لا تمتد إليه لا لإيمانه إن آمن ولا إلى معـارضته إن عارض، غـير أن الداعى إلى الله حـريـص عليـه « أنتم تلقـون بأنفـسكـم فى النار وأنا آخـذ بحجزكم ».

من أمارات الإخلاص :

بل إن من أمـارات الإخلاص فى الدعـوة إلى الحق أن يتـسع قلب الداعى إليه للنقد الذى يوجه إليه ، وأن يحتمل الحق نفسـه نقد خصومه ومعارضتهم إياه، واسـتـهـزائهم به ، إذ صـاحب الدعـوة إلى الحق الذى يضـيق ذراعـاً بالخصوم، والحق الذى لا ينتظر النقد من أعدائه بل ومـعارضيه والكفر به كل منهما يفقد الصلاحية لكونه داعياً ولكونه حقاً .

ذلك لأن الداعى الذى يضيق ذراعاً لا يمكن أن يستمر فى تلك الدعوة، إذ سيزعجه تكرار النقد والمعارضـة لما يدعو إليه،وعلى مر الأيام لا يحتمل النقد والمعارضة من أقرب الناس إليه بل من اخوانه ، ويرغب فى أن يسلك مسلك الإكراه والإلزام وفرض الرأى وذلك ليس شأن الداعى إلى الحق .

وأما الحق الذى لا يحتمل معارضة المعـارضين له ، فعدم احتمال المعارضة ينبيء عن أن بعض جوانبـه لا يصور ذاتية الحق، وعندئذ يكون مـشوباً بشيء من عدم الصدق والحقيقة ، وذلك أمر يختلف عن طبيعة الحق وجوهره.

وإذا وجب على الداعى إلى الحق أن يحتمل خـصومه، ووجب على الحق نفسه أن ينتظر معارضتـه ، فموقف الداعى عندئذ لا يكون اللدد فى الخصومة فضلاً عن الاشتباك فى المقـابلة، وإنما يتمثل فى الإعراض عمن يناوئون الحق ويعارضون الدعوة إليه ، وفى تجنب الاخـتلاط بهم فى مجلس أو حديث إن هم استمـروا فى اللدد والخصومـة والجحود ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِيـنَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيـثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنـسِيَنَّكَ الـشَّيْطَانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [الانعام: ٦٨] .

ذلك لأنه مطالب بألا يدفع السيئـة بالسيـئة لأنه إن فـعل ذلك فى مـقام الدعوة إلى الحق فإنه ينتقص من قيمة الحق، لأن الحق يستحيل عليه أن يكون إساءة أو عدواناً أو غلظة فى القول والتعبير ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] .

والحقـيقة أن هذا المسلك ينقص من منزلة صـاحب الدعوة إلى الحق؛ لأن الداعى إذا سلك مسلك مـقابلة الإساءة بالإساءة، ومـقابلة الرفض بالغلظة أو بالعدوان، فإنه نفسه لا يكون قدوةً لما يـدعو إليه، وإذا لم يكن لديه الصلاحية لأن يكون قدوة لمن يدعوه، فبالأولى لا تلقى دعوته استجابةً من غيره ويصبح الحق فى ذاته مهيضَ الجناح بأسلوب الدعوة وبالداعى على السواء.

وليس من الإخـلاص فى شيء أن يطلب الداعى إلى الحق اعـتبـاره فوق اعتبار البشر حتى يحظى بمنزلـة من الاحترام والتقدير بل والتقديس ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ [آل عمـران : ٧٩] فإذا ادعى ذلك بالقـول أو بلسان الحال فـإنه لا يغرر

بأتباعه وبالدعوة إلى القيم العليا والمبادئ فحسب، وإنما يغرر بنفسه ويعمل على سقوطه قبل أن تسقط دعوته.

إن المسلمين الأوائل اختفت من مجلسهم ونواديهم ما غلب على كل ناد، مما يثير الخلاف أو يوجب الجدال، أو التعصب للرأي، فانصرفت همتهم إلى العمل بالله ولله؛ ذلك لأنه لم يكن شيءٌ أبغضَ إلى رسول الله ﷺ من الجدل والمكابرة حتى قال: « ما ضل قوم بعد هُدًى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل» (١) وقال ﷺ : « أنا زعيم ببيت فى ربض الجنة لمن ترك الجدل وهو مخطيء وببيت فى ربضها وفى أعلاها لمن ترك الجدل وهو محق»(٢).

ولقد تربى الصحابة رضوان الله عليهم على ذم هذه الأشياء والنفور منها لأن رائحتها تزكم النفوس، وتمحق الأخوة بين المؤمنين، وتوغر الصدور حتى تصبح كالحالقة التى تحلق الدين، ذلك لأن الله إذا أراد بقوم خيراً فتح عليهم باب العمل وأغلق عليهم باب الجدل ، وإذا أراد بهم شراً فتح عليهم باب الجدل وأغلق عليهم باب العمل.

إن استخدام العنف لا يحقق روح المسلم الأول الذى يتمتع بقوة العقيدة وعمق الإيمان اللذين يمكناه من أن يغرس قيمه فى كل ما حوله ، لأنه لم يستشعر بالعنف المسئولية الفردية.

روى عن بعض الصحابة أنه قال : « لقد أحسن الله إلينا كل الإحسان ، كنا مشركين ، فلو جاءنا رسول الله ﷺ بهذا الدين جملة وبالقرآن دفعة لثقلت هذه التكاليف علينا فما كنا ندخل فى الإسلام، ولكنه دعانا إلى كلمة واحدة فلما قبلناها وعرفنا حلاوة الإيمان قبلنا ما وراءها كلمة بعد كلمة على سبيل الرفق إلى أن تم الدين وكملت الشريعة » .

---

(١)،(٢) حديث صحيح.

إن الإيمان العميق بالرسالة يتطلب وعياً بالذات، ووعياً بالموقف فيعرف المدعو فكرته ورسالته، ويعرف نفسه ودوره وموقعه ويعرف عدوه وصديقه، فيقوى الروابط بين الأفراد فكريا بتنمية المفاهيم المشتركة، وروحياً بتعميق معنى الأخوة فى الله، وأخلاقياً بتثبيت الفضائل، وتربوياً حتى تصبح رسالةُ الإسلام رسالة تربية فتصيرَ الأمةُ قويةً عزيزةً . وهذه هى القوة الحقيقية.

لذا كان لزاماً علينا أن نحدد معنى القوة فى الإسلام:

ماذا نعنى بالقوة ؟

للإجابة على هذا السؤال يتطلب أن نسأل أنفسنا ما هى غاية عملنا ؟

إن غايتنا تنحصر فى تكوين جيل من المؤمنين بتعاليم الإسلام الصحيح، يعمل على صبغ الأمة بالصبغة الإسلامية الكاملة فى كل مظاهر حياتها، ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة : ١٣٨] . ووسيلتنا فى ذلك تنحصر فى تغيير العرف العام، وتربية أنصار للدعوة على هذه التعاليم، حتى يكونوا قدوة لغيرهم فى التمسك بها، والحرص عليها، والنزول على حكمها، فأداة التغيير عندنا هو الفرد المسلم، ومن هنا يجب البدء به دعوة وتربية حتى تظهر قيادة تقودُ الأمة، ولا تظهر هذه القيادة إلا فى أمة تستحقها، فظهور مثل هذه القيادة التى تحكم، تحتاج إلى قاعدة تشد أزرها، ورأيِ عام ينادى بما تنادى به هذه القيادة، حتى يشعر المجتمع بضرورة وجودها، وهنا تبرز مسئولية المربين، ودورهم فى إعداد الأمة، وتهيئتها لهذه المرحلة الحاسمة، وهذا كله لا يتحقق بسيف ولا برمح ولا بقنبلة ولا بارجة ولكن يتحقق بتربية طويلة المدى ، عميقة الأثر .

لذلك لم ينهج الرسول ﷺ فى سبيل الدعوة إلى الحق فى أى وقت سوى منهج الحجة الواضحة ، والحكمة فى الإقناع ، وأمره ربه سبحانه بعدم

الاستجابة إلى إيذاء معارضيه له ، ولغوهم فى القول، واستكبارهم وعنجهيتهم فى سياق الرفض.

فدين الحق يحتفظ للإنسان حين الإيمان به ، بالحرية والمشيئة، والاعتبار الإنسانى وترك له أن يكون رقيب نفسه، وله كل شيء﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [سورة النمل : ٩١ ـ ٩٢] .

فالآية الأولى تعرض وتبين أن الإسلام هو عنوان لدين الله منذ أن كانت رسالته إلى مجموعة خاصة من الناس أو إلى الناس كافة ، وأما الآية الثانية تعرض للأسلوب الذى يجب أن يتبع إزاء موضوعية الدعوة إلى الحق، فالرسول ﷺ يتلو القرآن على الناس، فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضل فلا شأن لرسول الله ﷺ به، وموقف الرسول ﷺ له موقف الناصح ، وموقف المنذر من تبعات الضلال والانحراف.

فهو ﷺ يذكّر دون أن يُكْرِه أو يلزم أحدا بها حتى لا يحرج أحداً فى قبولها أو رفضها، ذلك لأن الإكراه فى ذاته لا يتفق وكرامة الإنسان، ولا مع حريته الفردية، ولا مع استقلاله فى الرآى ،فأى دعوة تريد أن تحقق حياة ذات قيم رفيعة لابد أن تثبت قيمة الحرية الفردية ، وإلا أين هذه الحرية فى دعوة تقول « ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ».

فالإسلام كرسالة من الله إلى الناس جميعاً حريص كل الحرص على أن يوفر الكرامة الإنسانية للفرد التى تتمثل فى الحرية الفردية،والمؤمنون من أجل ذلك ـ سواء فى القيمة والاعتبار ـ يسعى بذمتهم أدناهم.

فلا يليق فى شأن الداعى إلى الله أن يكون مكرها على الدعوة ولا ملزماً

إياها فى أية صورة من صور الإلزام والإكراه ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً ﴾ [الإسراء: ١٠٥ ـ ١٠٦] .

فالقرآن ليس بحاجة إلى إكراه فى قبوله ، لأن الحق والصدق لازمه فى انزاله إلى رسول الله ﷺ وفى وحيه إليه وفى موضوعه، ومهمته البشارة والنذارة، وهذا هو تكريم الإنسان فى الاختيار لا غلظة فى التعامل ولا خشونة فى الأسلوب ، ولافظاظة فى الدعوة، ﴿ وقولوا للناس حسنا ﴾ .

ولم يذكر القرآن الغلظة والشدة إلا فى موضوعين [1].

أولا: فى قلب المعركة ومواجهة الأعداء، حيث توجب العسكريةُ الناجحة الصلابة عند اللقاء، وعزل مشاعر اللين حتى تضع الحرب أوزارها وفى هذا يقول تعالي: ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾[التوبة: ١٢٣].

ثانيا: فى تنفيذ العقوبات الشرعية على مستحقيها ، حيث لا مجال لعواطف الرحمة فى إقامة حدود الله فى أرضه: ﴿ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ [التبوة : ٢].

أما فى مجال الدعوة، فلا مكان للعنف والخشونة، وفى الحديث الصحيح « إن الله يحب الرفق فى الأمرِ كلِّه » . وفى الأثر « مَنْ أَمَرَ بمعروفٍ، فليكن أمرُهُ بمعروف » .

ولاشيء يشينه العنفُ إذا دخله مثل الدعوة إلى الله ، فإنها تحاول أن تدخل إلى أعماق الإنسان، لتجعل منه شخصاً ربانياً فى مفاهيمه، ومشاعره وسلوكه، وتبدل كيانه كله وتنشيء منه خلقاً آخر ، فكراً وشعوراً وإرادة، كما

(١) الصحوة الإسلامية بين الجمود والتطرف - الأستاذ الدكتور القرضاوى ص ٤٦ - ٤٧

أنها تهز كيان الجماعة هزاً ، لتغير عقائدها المتوارثة، وتقاليدها الراسخة، وأخلاقها المتعارفة، وأنظمتها السائدة.

وهذا كله لا يمكن أن يتم إلا بالحكمة وحسن التأنى للأمور، والمعرفة بطبيعة الإنسان وعناده، وجموده على القديم، وأنه أكثر شيء جدلاً ، فلا بد من الترفق فى الدخول إلى عقله، والتسلل إلى قلبه، حتى نُلَيِّن من شدته ونكفكف من جموده ، ونطامن من كبريائه.

وهذا ما قَصَّهُ علينا القرآن من مسالك الأنبياء والدعاة إلى الله من المؤمنين الصادقين ، كما ترى فى دعوة إبراهيم لأبيه وقومه، ودعوة شعيب ، ودعوة موسى لفرعون ودعوةِ مؤمنِ آل فرعون ومؤمنِ سورة يس وغيرهم من دعاة الحق والخير.

إنه الأسلوب الذى ينبغى لأصحاب الدعوات أن يتبعوه فى دعوتهم للمعاندين، وفى مخاطبتهم للمخالفين، ولذلك فإن من مظاهر التطرف [1]:

١- التعصب للرأى تعصباً لا يعترف معه للآخرين بوجود، وجمود الشخص على فهمه جموداً لا يسمح له برؤية واضحة لمصالح الخلق، ولا مقاصد الشرع.

٢- التزام التشديد دائما، مع قيام موجبات التيسير، وإلزام الآخرين به حيث لم يلزمهم الله به، وقد يقبل من المسلم أن يشدد على نفسه ويعمل بالعزائم، ويدع الرخص والتيسيرات فى الدين،ولكن لا يقبل منه بحال أن يلزم بذلك جمهورَ الناس، وإن جلب عليهم الحرج فى دينهم،والعنتَ فى دنياهم، ومما ينكر من التشديد أن يكون فى غير مكانه وزمانه،كأن يكون فى غير دار الإسلام وبلاده الأصلية،أو مع قوم حديثى عهد بإسلام أو حديثى عهدٍ بتوبة.

(١) مختصرة بشدة من كتاب الصحوة الإسلامية بين التطرف والجمود، للدكتور يوسف القرضاوى.

٣- سوء الظن بالآخرين والنظر إليهم من خلال منظار أسود ، يخفى حسناتهم على حين تضخم سيئاتهم، لأن الأصل عند المتطرف الاتهام، والأصل فى الاتهام الإدانة ، خلافاً لما تقرره الشرائع والقوانين « إن المتهم بريء حتى تثبت إدانته » .

٤- السقوط فى هاوية التكفير فيستبيح الدماء والأموال، ولا يرى لمخالفيه حرمة ولا ذمة، باتهامهم بالخروج من الإسلام أو عدم الدخول فيه أصلا، فإذا به فى وادٍ وسائرُ الأمة فى وادٍ آخر، ورحمة الله على الجنيد إذ يقول: «لا يكون العارف عارفاً حتى يكون كالأرض يطؤها البار والفاجر، وكالسحاب يُظِلُّ كلَّ شيء، وكالمطر يسقى ما يحب وما لا يحب» .

إن الداعى يدعو إلى إقامة دولة تقيم الحق ، وتخفض الباطل، وتمنع الظلم، وتحقق الأخوة، وتنشر التعاون بين الناس، وتمحو كل الفوارق التى تجعل بعض بنى الانسان يتحكم فى الآخر، وتمنع الفساد فى الأرض، فهل لكى نحقق مثل هذه المباديء والقيم يكون التقتيل أم التعليم ؟ ويكون الإجبار أم الاختيار ؟ ويكون التعرية أم التربية ؟ ويكون الإقناع أم الإلزام ؟

لا يتحقق ذلك إلا بأن يربى فيهم الداعى روحَ العزة والكرامة وينشيء منهم قوةً ترفع الحق ،وتحقق الإنصاف والرحمة، والمؤاخاة والرفق، وكل ذلك يتطلب تربية طويلة المدى ومعاناة وصبر وجلد، لأن قيام هذه الدولة المسلمة تطبيق عملى للفضيلة والعدالة والمساواة، لتكون بذلك الحجة البالغة على الأرض للذين يدَّعون أن قيام دولة مسلمة فاضلة على مباديء الأخلاق والقيم والتصور من الأحلام والمنى ، بينما هو عمل ثبت تحقيقه، وقامت فى الوجود أعلامه.

وتأمل الرأى العام الذى قام فى مكة فى بداية الرسالة تجده وثنياً حارب

الوحدانية ، وأباح الخبائث، ولذلك اتجه الرسول ، ﷺ إلى تكوين رأى عام فاضل يُقَوِّمُ المعوجَ، ويمنع الخبائثَ، ويقتل الرذيلة، فلا تظهر، ويدعو إلى تكريم الإنسان وإقامة العدل بين الناس جميعاً والصفح الجميل عمن آذوا أهل الإيمان؛ وهذا يحتاج إلى صبر وقوة نَفَسٍ ، فليس الصبر فقط فى لقاء العدو، إنما فى ذلك أيضاً ، وفى عظم النفس عن شهوة الانتقام.

إن القوة ليست وسيلة لنشر الفكرة الإسلامية، لأن دعوتها تخاطب الأرواح وتناجى القلوب، وتطرق مغاليق النفوس، ومحالٌ أن تُثْبَتَ بالعصا، أو أن تصل إليها على شبا الأسنة والرماح والسهام، ولكن الوسيلة فى انتشار كل دعوة صحيحه وثباتها معروفة معلومة مقروءة لكل من له إلمامٌ بتاريخ الجماعات وخلاصة ذلك جملتان : إيمان وعمل ، ومحبة وأخوة.

ولسائلٍ أن يسأل،ماذا فعل رسول الله ﷺ فى غرس دعوته فى نفوس الرعيل الأول من أصحابه؟ كيف كوّن جماعة أقامت أمة ؟ هل هناك أكثر من أنه دعاهم إلى الإيمان والعمل.

ثم جمع قلوبهم على الحب والإخاء ، فاجتمعت قوة العقيدة إلى قوة الوحدة، وصارت جماعتهم هى الجماعةَ النموذجيةَ التى لابد أن تظهر كلمتُها وتنتصرَ دعوتُها، وإن ناوأها أهل الأرض جميعاً ، وماذا فعل الدعاة من قبل ومن بعد أكثرَ من هذا ؟ ينادون بالفكرة ويوضحونها، ويدعون الناس إليها فيؤمنون بها ، ويعملون لتحقيقها، ويجتمعون عليها ، ويزدادون عدداً فتزداد الفكرة بهم ظهورا وانتشاراً، حتى تبلغ مداها وتبتلع ما سواها ، وتلك سنة الله ولن تجدَ لسنةِ الله تبديلاً .

ولقد أجاب الإمام البنا، رضوان الله عليه ، على تساؤلات الناس فى زمانه عن موقف الإخوان من القوة ، والثورة والحكم فبين هذه المفاهيم وهى مفاهيم ثابتة لا تتغير بتغير الزمان والمكان فوضح :

الموقف من القوة والثورة:

يسرى مفهوم خاطيء مفاده أن الحركة الإسلامية تعد العدة للجهاد من غير حدود، وفى كل مكان، بل يقولون إن الحركة الإسلامية تتخذ من الديمقراطية وسيلةً لتحقيق أغراضها ، حتى إذا ما تمكنت ووصلت إلى الحكم فإنها لا تُبْقِى ولا تَذرّ ، وهذا ليس صحيحاً ، فالإسلام يفتح القلوب والعقول، ويدعو الناس بالإقناع قبل الدخول فيه ، وأكثر الأمم التى دانت للإسلام ، لم يحدث فيها قتال، فالحركة لا تفكر فى هذا إلا فى ظروف استثنائية وأماكن محدودة لا يكون أمامها خيارٌ ، مثل ما حدث فى حرب فلسطين، والقنال، وهذا لون من الجهاد مطلوبٌ ؛ وكذلك الموقف فى أفغانستان والبوسنة والهرسك وكل بلد يُضطَّهَدُ فيه الإسلامُ والمسلمون، أما أن يكون لمن يقول لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ويعمل بمقتضاهما فلا ثُمَّ لا، وسنتناول الموضوع بمشيئة الله بالتفصيل.

لأن شعار « الجهاد سبيلنا » ليس جهاداً بغير ضوابط فى كل اتجاه؛ فالجهاد أولاً المقصود منه ضد الاستعمار الأجنبى ، أو ضد المعتدى الذى يريد استئصال الإسلام، والذين يريدون استعباد المسلمين، كما يحدث اليوم فى فلسطين، وكرد عدوان عباد البقر فى الهند عن إخواننا أهل كشمير، أو حين يحال بين المسلمين وبين دينهم ويحكم ذلك قواعدُ شرعيةٌ ، وضوابطُ فقهيةٌ.

وموقفنا من بنى جلدتنا ووطننا النصيحةُ الخالصةُ، والتربيةُ الصالحةُ، وهذا موقف مبدئى استراتيجى وليس تكتيكياً حركياً كما يفترى أعداء الإسلام، لأننا نصدر فى كل أعمالنا عن أحكام الشريعة الإسلامية والحكم الشرعى يفرض علينا النصيحة لأئمة المسلمينَ وعامتهم وكما أنه يفرض علينا أن ننصر إخواننا المغلوبين على أمرهم إذا استنصرونا فلا نتردد ويحكمنا ضوابط الشرع.

ولقد أوضح الإمام البنا ـ رضوان الله عليه ـ هذه القضية فقال:

« يتساءل كثير من الناس: هل فى عزم الإخوان المسلمين أن يستخدموا القوة فى تحقيق أغراضهم والوصول إلى غايتهم؟ وهل يفكر الإخوان المسلمون فى إعداد ثورة عامة على النظام السياسى أو النظام الاجتماعى فى مصر ؟ ولا أريد أن أدع هؤلاء المتسائلين فى حيرة، بل إنى أنتهز هذه الفرصة فأكشف اللثام عن الجواب السافر لهذا ، فى وضوح وفى جلاء ، فليسمعْ من يشاء!!

أما القوة فشعار الإسلام في كل نظمه وتشريعاته، فالقرآن الكريم ينادى فى وضوح وجلاء : ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ** ﴾ [الانفال : ٦٠] والنبى ﷺ يقول: « المؤمن القوى خير من المؤمن الضعيف » بل إن شعار الإسلام حتى فى الدعاء وهو مظهر الخشوع والمسكنة، واسمع ما كان يدعو به النبى ﷺ فى خاصة نفسه ويعلمه أصحابه ويناجى به ربه : « اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال » ألا ترى فى هذه الأدعية أنه قد استعاذ بالله من كل مظهر من مظاهر الضعف : ضعف الجيب بالهم والحزن ، وضعف الإنتاج بالعجز والكسل، وضعف الإرادة والمال بالجبن والبخل ، وضعف العزة والكرامة بالدين والقهر ؟ فماذا تريد من إنسان يتبع هذا الدين إلا أن يكون قوياً فى كل شيء، شعاره القوة فى كل شيء ؟ فالإخوان المسلمون لابد أن يكونوا أقوياء ولابد أن يعملوا فى قوة.

ولكن الإخوان المسلمين أعمق فكراً وأبعد نظراً من أن تستهويهم سطحية الأعمال والفكر، فلا يغوصوا إلى أعماقها ولا يَزِنُوا نتائجها وما يقصد منها وما يراد بها، فهم يعلمون أن أول درجة من درجات القوة قوة العقيدة

والإيمان، ويلى ذلك قوة الوحدة والرباط، ثم بعدهما قوة الساعد والسلاح، ولا يصح أن توصف جماعة بالقوة، حتى تتوفر لها هذه المعانى جميعاً ، وإنها إذا استخدمت قوة الساعد والسلاح وهى مفككةُ الأوصال، مضطربة النظام، أو ضعيفة العقيدة خامدة الإيمان؛ فسيكون مصيرها الفناء والهلاك.

هذه نظرةٌ: ونظرةٌ أخرى : هل أوصى الإسلام - والقوة شعاره باستخدام القوة فى كل الظروف والأحوال ؟ أم حدد لذلك حدوداً واشترط شروطاً ووجه القوة توجيهاً محدوداً ؟

ونظرة ثالثة ـ هل تكون القوة أولَ علاجٍ أم أن آخر الدواء الكيّ ؟ هل من الواجب أن يوازن الإنسان بين نتائج استخدام القوة النافعة ونتائجها الضارة وما يحيط بهذا الاستخدام من ظروف؟ أم من واجبه أن يستخدم القوة وليكن بعد ذلك ما يكون؟

هذه نظرات يلقيها الإخوان المسلمون على أسلوب استخدام القوة قبل أن يقدموا عليه، والثورة أعنف مظاهر القوة، فنظرُ الإخوانِ المسلمينَ إليها أدقُّ وأعمق وبخاصة فى وطن كمصر جرب حظَّه فى الثورات فلم يجنِ من ورائها إلا ما تعلمون، وبعد كل هذه النظرات والتقديرات أقول لهؤلاء المتسائلين: إن الإخوان المسلمين سيستخدمون القوة العملية حيث لا يجدى غيرها، وحيث يثقون أنهم قد استكملوا عدة الإيمان والوحدة، وهم حين يستخدمون هذه القوة سيكونون شرفاء صرحاء وسينذرون أولاً، وينتظرون بعد ذلك ثم يقدمون فى كرامة وعزة، ويتحملون كل نتائج موقفهم هذا بكل رضاء وارتياح.

وأما الثورة فلا يفكر الإخوان المسلمون فيها، ولا يعتمدون عليها، ولا يؤمنون بنفعها ونتائجها، وإن كانوا يصارحون كل حكومة فى مصر بأن الحال إذا دامت على هذا المنوال ولم يفكر أولو الأمر فى إصلاح عاجل سريع لهذه

المشاكل فسيؤدى ذلك حتماً إلى ثورة ليست من عمل الإخوان المسلمين ولا من دعوتهم، ولكن من ضغط الظروف ومقتضيات الأحوال، وإهمال مرافق الإصلاح، وليست هذه المشاكل التى تتعقد بمرور الزمن ويستفحل أمرها بمضى الأيام إلا نذيرٌ من هذه النذر، فليسرع المنقذون بالأعمال ولقد صدقت توقعات الإمام البنا ـ رضوان الله عليه ـ فكان ما كان ولا حول ولا قوة إلا بالله.

الإخوان المسلمون والحكم :

ويتساءل فريق آخر من الناس: هل فى منهاج الإخوان المسلمين أن يكوِّنوا حكومة وأن يطالبوا بالحكم ؟ وما وسيلتهم إلى ذلك ؟ ولا أدع هؤلاء المتسائلين أيضاً فى حيرة ، ولا نبخل عليهم بالجواب.

فالإخوان المسلمون يسيرون فى جميع خطواتهم وآمالهم وأعمالهم على هدى الإسلام الحنيف كما فهموه، وكما أبانوا عن فهمهم هذا ـ فى أول هذه الكلمة ـ وهذا الإسلام الذى يؤمن به الإخوان المسلمون يجعل الحكومة ركناً من أركانه ، ويعتمد على التنفيذ كما يعتمد على الإرشاد ، وقديماً قال الخليفة الثالث ـ رضى الله عنه ـ « إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن» وقد جعل النبى ﷺ الحكم عروةً من عُرَىْ الإسلام، والحكم يعتبر فى كتبنا الفقهية من العقائد والأصول، لا من الفقهيات والفروع، فالإسلام حكم وتنفيذ، كما هو تشريع وتعليم، كما هو قانون وقضاء، لا ينفك واحد منها عن الآخر.

إن المصلح الإسلامى إذا رضى لنفسه أن يكون فقيهاً مرشداً يقرر الأحكام ويرتل التعاليم، ويسرد الفروع والأصول، وترك أهل التنفيذ يشرعون للأمة ما لم يأذن به الله ويحملونها بقوة التنفيذ على مخالفة أوامره، فإن النتيجة الطبيعية أن صوت هذا المصلح سيكون صرخة فى وادٍ، ونفخة فى رماد كما يقولون.

إقامة الدين وليس الاستيلاء على السلطة:

إسلامنا دين سلام ، وعلامة حب، ونظام وحدة، وجهاد قيم، ورسالة أخلاق، وشمول يحقق الظلال الوارفة التى يستظل العالم كله بظلها، ويقيم فيه منهجه، ويجمع الناس جميعاً تحت لواء الأخوة الإنسانية.

وهذه الأهداف ليس لها من عائق لتحقيقها إلا عدوان أعدائها عليها وعلى أهلها بكل أنواع الأسلحة، فإن سالموا فليس الإسلام براغب فى الخصومة، ولا متطوع بها، فإن دُفِعَ إلى الحرب دفعا فهى حرب كى لا تستذل فيها الرقاب، ولا يشتد فيها الباطل، ولا ينال من المسلمين عدو، وحتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله، هم إن اضُطُروا إلى الحرب يكونون شرفاء صرحاء، وسينذرون أولا، وينتظرون بعد ذلك ثم يقدمون فى كرامة وعزة، ويحتملون كل نتائج موقفهم هذا بكل رضا وارتياح ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾[الأنفال: ٥٨] أى إذا أحسست يا رسول الله ﷺ من قوم معاهدين خيانة للعهد ونكثاً بأمارات ظاهرة، اطرح إليهم عهدهم على بينة ووضوح من الأمر، هذا من معجز ما جاء فى القرآن، مما لا يوجد فى الكلام مثله على اختصاره وكثرة معانيه، والمعنى: وإما تخافن من قوم - بينك وبينهم عهد - خيانةً فانبذ إليهم العهد أى قل لهم قد نبذت إليكم عهدكم وأنا مقاتلكم ليعلموا ذلك فيكونوا معك فى العلم سواء «ولا تقاتلهم وبينك وبينهم عهد، ولا هم يثقون بك فيكون ذلك خيانة وغدراً»[1].

ولذلك فإن رسول الله ﷺ كان يقول للجند وهم متوجهون للقتال: تألفوا الناس وتأنوا بهم ، ولا تغيروا عليهم حتى تدعوهم، فما على الأرض من

---

(١) تفسير القرطبى ٨/ ٣٢.

أهل مدر ولا وبر أن تأتونى بهم مسلمين أحب إلىّ من أن تأتونى بأبنائهم ونسائهم وتقتلوا رجالهم » (١).

ولذلك فإن الإسلام فى حالة الخصومة يستبقى أسباب الود فى النفوس، بنظافة السلوك ، وعدالة المعاملة، وانتظاراً لليوم الذى يقتنع فيه الخصوم بأن هذا الخير تحت هذا اللواء الرفيع، ولا ييأس الإسلام من هذا اليوم ﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة : ٧ ـ ٨] .

فهل دينٌ هذا منهاجه يدعو إلى الثورة وهو الذى يقول ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف:٢٩] ؟فهو لا يرفض الأفكار، ولا يقهر العقول، ولا يجبر النفوس على اعتناقه، ولا يفرض على الناس بالقوة طريقه.

ولو كان الغرض هو الاستيلاء على السلطة بالقوة، لقبلها رسول الله ﷺ يوم أن قالوا له : « إن كنت تريد سيادة سودناك علينا»، أو استجاب لطلب ملك الجبال بعد عودته من الطائف بعد أن استقبله أهلها أسوأ استقبال ، فجاءه جبريل ـ عليه السلام ـ ومعه ملك الجبال فى طريق عودته وقال له : «لو أردت أن أطبق عليهم الأخشبين لفعلت» فلو كان استخدام القوة طريقة لإقامة الدولة لاستجاب الرسول ﷺ، لكن القضية بالنسبة لرسول الله ﷺ ليست قضية انتقام أو تشفى أو بطش بالعدو حتى يتمكن من الاستيلاء على السلطة ، ولكنها دعوة يتحمل فيها الداعى ألوان الإيذاء، وكان يستطيع ﷺ أن يدعو عليهم كما دعى نوح عليه السلام : ﴿ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ

---

(١) خاتم النبيين للشيخ محمد أبو زهرة ص ٢ ص ٥٨.

الْكَافِرِينَ دَيَّاراً ﴾ [نوح : ٢٦] أو يقول كما قال موسى : ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴾ [يونس : ٨٨] لكنه قال: « لعل الله يخرج من أصلابهم من يعبده من بعدهم » - أو كما قال ﷺ .

ذلك لأن القوة وحدها لا تقيم مبادىء ولا قيما، وإن أقامت دولة على البطش والعدوان فمآ لها الزوال لا محالة، فكم من حضارة قامت على القوة والبطش ولكنها زالت وبادت ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ [الفجر: ٦ - ١٤].

ولذلك خاطبهم المولى قائلاً : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ [الشعراء : ١٢٨ - ١٣١] ولقد أوضح القرآن ذلك من خلال قصصه وبيّن .

فما الفرق بين دعوة الإسلام وغيرها من الدعوات الأرضية إن أقامت نظامها على القوة فحسب ، فما شغل رسول الله ﷺ هلاكهم والاستيلاء على السلطة ، إنما كان يشغله الهداية واستمراريتها فى أجيال متلاحقة « لعل الله يخرج من أصلابهم من يعبده من بعدهم » .

فكان الدرس الذى تعلمه المسلمون أن سنة الله فى النصر ليست بقوة الساعد والسلاح، ولا بكثرة الجند ووفرة المادة ولا بقوة الحديد والنار، ولكن بقوة الإيمان والأخذ بالأسباب والثبات على الحق ﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ [الزخرف : ٤١ - ٤٤] .

إصلاح حال المجتمع سابق على إقامة الدولة :

إنْ التطلع إلى الوصـول للحكم عن طـريق العنف نموذج يعكس القـوانين والسنن ـ مع حسن النوايا ـ فلابد أن نعلم أن النتائج التى نريدها تختلف رغم حتميتها، تبعاً لما نمارسـه من الأسباب من سير فى طريق الواجبات، فلا تنتظر النتائج دون الأسـباب المحـققة لهـا ، والمطالبة بالدولة تتطلب إصـلاح حال المجتمع أولاً.

فلابد أن نعلم أن المطالبـة بالحكم، هى فى حقيقـتها مطالبة بـالحقوق دون أداء الواجبـات ، أو النظر إلى رؤية النتائج دون رؤية الأسـباب، والأسـباب الموصلة لذلك تبدأ بالـفرد ثم الأسرة ثم المجتـمع ثم الحكومة وهكذا، فتـقيم الدين فى نفسك أولاً ، فيقوم بك على أرضك ، وهذا هو الدخول من الباب الموصل، ولكن للأسف فإن بعض العاملين فى حقل الدعوة يأتون البيوت من ظهورها لا من أبوابها، فالكثير منهم يسلكون سـبيل المطالبة بالحقوق لا سبيل أداء الواجبات، ويـهتمون بنظام الدولة، وليس بإقـامة الدين، وأسلوب العنف والإكـراه، لا التـربية والمعـاناة ، وأسلوب الإلزام لا أسلـوب الإقناع العلمى والتفهـيم، والأسباب الأولى يخيّل إلى المتـسرعين المتعجلين أنهـا قريبة المنال بينمـا هى اتجاه ذو الكفـاءات والنظرات النافذة العـملية، لأن النظرة العـجلى تفسر الأمور تفسيراً سطحيا فتعجل بقطف الثمرة قبل نضجها.

إن الاستيلاء على السلطة شيء، وإقامة الدين شيء آخر ، والمطلوب إقامة الدين وليس الاسـتيـلاء على السلطة ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الـدِّيـنِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيـسَىٰ أَنْ أَقِيـمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيـهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾[الشورى : ١٣] أمران واضحان وضوح الشمس فى رابعة النهار: إقامة الدين ، والدعوة إليه.

وإقامة الدين بنيان يبدأ بالفرد المسلم. والدعوة إقناع وإيمان، أما الاستيلاء

على السلطة فهى سطو، وقوة وإجبـار، وإكراه لا إيمان فيه ولا دعوة، والذين يسلكون هذا الطريق مـدعين أن القـوة المسلحة هى السـبيل للاسـتيـلاء على السلطة والتحكم، ثم تسير الأمور بعد ذلك على شرع الله ، مستندين إلى[1]:

١ - أن تغيير المنكر باليد واجب لا يسقط إلا بالعجز.

٢ - أن القوة هى أضمن طريق لإحقاق الحق، وأسرع فى التغيير المطلوب.

٣- أن الجهاد لإقامة الحكم الإسلامى فريضة على المسلمين.

٤- أن النبى ﷺ استخدم القوة لقـهر أعدائه ، وأذن الله له فى القتال ولنا فى رسول الله ﷺ أسوة حسنة.

٥ - أن الحركة الإسلامية فى حاجة إلى قوة تحميها.

وبالرغم من بريق ذلك الرأى لـكننا نخالفـه أشـد المخالفـة ولا نعتـد به للأسباب الآتية [2].

١- أن النجاح فى الاستـيلاء بالقوة لا يعنى الإسراع فى تـطبيق المباديء، فكم من فئـات حزبية انقضت على السلطـة، وحكمت سنين طويلة والشعب عنها بمعـزل، أما إقـامة شرع الله فـإنه يقوم على دعائـم: روحية، وعـقلية ونفسية، وأخلاقية، وهذا لا يتحقق بانقلاب أو استيلاء على السلطة إنما بتربية ودعـوة وإقناع. وهذا الذى دعى رسـول الله ﷺ أن لا يصطدم قط بالأمـور الخارجـية قبل بناء الداخل واسـتكماله، ومن ثم ترك الأصنام منصـوبة حول الكعبة عشرين سنة، لم يهشم واحداً فـيها فى معركة طائشة ، بل الثابت فى سيـرته أنه ﷺ طاف فى العمرة فى الـسنة السابعة من الهـجرة حول الكعـبة والأصنام جاثمة حولها، وفى الأوضاع التى كانت عليها من بدء الدعوة.

(١) الحل الأسلامى الأستاذ الدكتور. يوسف القرضاوى.

(٢) هذا رأى الاستاذ الدكتور يوسف القـرضاوى وهو نفسه رأى الأستاذ الإمام الشهيـد حسن البناء ومدرسته يؤكدها أسـتاذنا الفـاضل الذى تربى على يديه ليلقم أعداء هذه الـدعوة الذين يشوهونهـا حجـر يخرس ألسنتهم.

أكان ذلك ابقاء عليها أو توقيراً لها ؟ كلا كان يعلم أن لها أجلاً لا ريب فيه ، وأنها عن قريب أو بعيد ستتحول جذاذاً.

ومَنْ الذى يقوم بهذا التحويل الحاسم؟ الرجال الذين استناروا من الداخل، فتوضأت أيديهم، وخشعت جوارحهم وطهرت نفوسهم، وهم الذين كانوا بالأمس يعبدونها، فصبر عليهم حتى تربوا دون استعجال، واهتم ﷺ بتحطيم الأصنام فى داخل قلوبهم، فحطموها هم بأيديهم على أرض واقعهم.

٢ - أن تغيير المنكر باليد - القوة - هو فى الأصل واجب كل ذى سلطان فى سلطانه، كالأب مع أولاده، والزوج مع زوجته ، والحاكم مع رعيته، وأما العكس فلا، وهناك قواعد وشروط وضعها العلماء لذلك، ليس المجال مجالها[١].

٣ - من الأضرار الخروج على القانون بالعنف، وتعريض الشباب للمساءلة والمواجهة والابتلاء، فضلاً عن نفور الناس من هذا المسلك لمخالفته لمنهج رسول الله ﷺ فالعنف لا يأتى بخير ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[النحل: ١٢٥] ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ وربما يعنى ذلك الانتقال من حكم دكتاتورى إلى آخر مثله، ولو تسمى باسم الإسلام.

٤ - الانقلاب العسكرى معناه فرض اتجاه معين، ورأى معين أو شخص معين، بل وإرهاب الشعب وليس تربيته ، وإجباره بقوة السلاح لا بقوة الحجة وتكون الغلبة لحجة القوة، لا لقوة الحجة والمنطق والإقناع ، والكلمة الأخيرة للأقوى ، لا للأتقى والأعلم، وللأحمق لا للأصلح، ولمن معه الدبابة والمدفع لا لمن معه الحق ثم الشعب والرأى العام [٢] إن القتال فى الإسلام إنما

(١) راجع كتاب الدعوة قواعد وأصول للمؤلف.

(٢) هذا رأى الإمام ابن تيمية والإمام ابن القيم فى كتابه القيم «هداية الحيارى فى أجوبة اليهود والنصارى» صـ٢٢.

شرع دفاعاً عن الدين، ودفع أذى المعتدين على المؤمنين - بقيوده - وقواعده الشرعية - حتى قال بعض العلماء من المتأخرين أن دعوى القتال للإكراه على الدين إنما دخل على المسلمين عن طريق النصارى، حيث كانوا يشنعون به دائماً على الإسلام والمسلمين، ويجعلونه فى مقدمة تبشيرهم إلى دينهم، وينشرونه فى كتبهم، ويلقنونه للطلاب فى مدارسهم بقصد تنفير الناس عن دين الإسلام وعلى المسلمين، فسرى هذا إلى اعتقاد بعض العلماء وأكثر العامة ، لظنهم أنه صحيح واقع، ومن طبيعة البشر كراهة اسم الإكراه والإجبار، مهما كانت عاقبته، وصاروا يتناقلون هذا القول فى كتبهم حتى رسخ فى قلوب العامة وبعض العلماء.

وإننا متى قلنا بهذا فقد اشتركنا مع القوم فى فريتهم وفى التنفير عن الدين، بدلاً من أن نصف الإسلام بما هو أهله ، وبما هو معلوم عن محاسنه اتصافاً بالرأفة والرحمة لسائر الناس؛لقول الله سبحانه **﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾** [الأنبياء : ١٠٧] أى للخلق أجمعين - بدلاً من أن نصفه بالعقاب والشدة لكل من لقيه من الكفار، فنصفه بأنه دين البشرية كلها عربهم وعجمهم، لا دين لهم سواه لقوله سبحانه **﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ ﴾** [آل عمران : ١٩] وقوله: **﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾** [آل عمران : ٨٥] .

إنه دين الرحمة المهداة من الله لجميع الناس، أوحى به إلى محمد ﷺ، ولذلك فإن الإسلام يسالم ولا يقاتل إلا - بالطرق الشرعية - من يقاتله أو يمنع نشر دعوته، ويقطع السبيل لمنع إبلاغها للناس؛ لأنهم بمنعهم بلاغها يعتبرون معتدين على الدين وعلى الخلق أجمعين.

فمتى أقبل الدعاة إلى الله على بلد ليدعوا أهلها إلى دين الله بالحكمة

والموعظة الحسنة، ويجادلوهم بالتى هى أحسن فإن فتح لهم الباب، وسهل لهم الجناب، وأذن لهم بالدخول ونشر الدعوة فهذا غاية ما يبتغون ، وليفرح المؤمنون فلا قتل ولا قتال، وكل الناس آمنون على دمائهم وأموالهم - متى كان لهم دولة وقوة ـ وقد فتح المسلمون كثيراً من البلدان بهذه الصفة مما يسمى صلحاً ، لأن الله سبحانه أمر بإبلاغ هذا الدين والتبشير به لجميع خلقه فقال سبحانه : ﴿ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ﴾ [الأنعام : ١٩] .

أما إذا نصبت لهم المدافع، ووجهت نحوهم أفواه البنادق، وسُلت فى وجوههم السيوف، ومنع الدعاة منعاً باتاً عن حرية نشر دعوتهم، وعن الاتصال بالناس فى إبلاغهم دين الله الذى فيه سعادتهم أو سعادة البشر كلهم، فإنهم حينئذ يكونون معتدين على الدين، بل وعلى الخلق أجمعين.

فعند ذلك يعتبر المسلمون الموجودون فى دولة الإسلام مكلفين باقتحام كل شدة ومشقة، وخوض كل خطر وضرر فى سبيل الله، وفى سبيل إبلاغ دين الله حتى يزول المنع والاضطهاد والفتن عن الدين، لقول الله سبحانه ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ﴾ [البقرة : ١٩٣] وللموضوع تفصيل فى حينه، بمشيئة الله تعالى .

بين الذين ينادون باستخدام القوة والمنادين بتطبيق الشريعة :

لإن كان الذين ينادون بالحكم بما أنزل الله بالقوة والاستيلاء على السلطة لم يصيبوا منهج رسول الله ﷺ ، فإن الذين يظنون أن تطبيق الشريعة مجرد تغيير قوانين، وخاصة قوانين العقوبات والحدود، مخطئون أيضاً لأنهم يظنون أن تطبيق الشريعة الإسلامية هى فى جلد شارب الخمر، وقطع يد السارق، ورجم الزانى أو جلده، وغير ذلك من الحدود وهذا خطأ فى الفهم عظيم.

فنحن نريد بتطبيق الشريعة الإسلامية استئنافاً لحياة إسلامية متكاملة ، حياة

توجهها عقيدة الإسلام ، وتحكمها شريعة الإسلام، وتضبطها أخلاق الإسلام، وتسودها قيمه وآدابه ، حياة مصبوغة بالقيم الإسلامية لحماً ودما وروحاً هذا ما نريده، أن نحيا بالإسلام، ونحيا للإسلام ، فالأمر لا يتطلب مجرد تغيير قوانين بل تغيير حياتنا تغييراً اجتماعياً وفكرياً ونفسياً ، وسلوكياً وأخلاقياً، ونحاول أن نعيش مسلمين صادقين ليس مجرد تغيير قوانين على الورق، فقد يحدث هذا كله ، وهو أن يعمل المربون على تغيير نفسية إسلامية ، فالتغيير النفسى هو أساس كل إصلاح كما قال المولى ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد : ١١] ، وليس كما يقول الماركسيون: غير الاقتصاد أو غير علاقات الإنتاج يتغير التاريخ بينما نحن نقول : «غير نفسك يتغير التاريخ وتتغير الحياة بتغيير النفس »، وتتغير الأنفس بالإيمان والتزكية، والتربية الإسلامية السليمة ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٧ ـ ١٠].

وسل التاريخ يوم ربى رسول الله ﷺ الصحابة على هذا المنهج وزكت نفوسهم ، كم يد قطعت؟ وكم زانٍ رجم؟ وكم شارب خمر جلد ؟ وكم قاطع طريق أقيم عليه الحد؟ وكم وكم وكم ؟ ندر إقامة الحدود فى مجتمعهم لأنهم حملوا الإسلام فكرة واضحة فى رءوسهم، وإيماناً صادقاً فى قلوبهم ، وعقيدة راسخة فى أفئدتهم ، وعبادة خالصة لربهم، وأخلاقاً متكاملة فى سلوكهم ، ونظاماً شاملاً فى حياتهم، وقالوا : ﴿ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [آل عمران : ٥٣] .

إنه جيل لا يتكون فى يوم وليلة، بل يحتاج إلى حضانة طويلة المدي، وتربية عميقة الجذور حتى يستطيع أن يغلب اليأس بالعمل، وينتقل من الانفعال إلى الفعل ، ومن الارتجال إلى التخطيط، ومن الغوغائية إلى

العلمية، ومن التشاحن إلى التعاون، ومن الاستبداد إلى الأصالة، ولا يتحقق ذلك كله إلا بهذا الفرد المسلم الصالح فى نفسه، المصلح لغيره [1].

والحقيقة التى يجب أن يعيها العاملون فى حقل الدعوة الإسلامية ، أن المد الإسلامى الأول كان وحياً يحدد المنهاج وتعليماً يفتق الألباب، وزيادة نفسية واجتماعية تفرش أشعتها على مساحات رحبة، ومسافات بعيدة بين أيدى المسلمين، نتيجة تربية رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فإذا بالإسلام الذى يبشرون به يسيطر على الأفكار والمشاعر قبل الإعلان بالحرب والمقارع.

فلابد إذن للحركة الإسلامية من بذل الجهود الفكرية والعملية لترشيد خطواتها، وتسديدها على الطريق الصحيح التى يجنبها المزالق والعثرات، وينأى بها عن الغلو والتفريط، ويقيها السقوط فى المهاوى التى يحفرها لها الحافرون، أو تحفرها لنفسها بسوء تقديرها.

إن بعض العاملين فى حقل الدعوة الإسلامية، يصورون ـ للأسف ـ الإسلام وكأنه دين دموى المزاج، شرس المسلك، يؤخر اللطف ويقدم العنف. والغريب أن الصورة التى تقدم ـ عالمياً ـ لدار الإسلام هى الدار التى ينتهب فيها المال العام. ويسودها حكم الفرد ، وتهون فيه كرامة المرأة بل تضيع ، وأن شوارعها ملأى بالقمامة ، ومدنها وقراها مظهر التخلف المادى والأدبى ، وأن الفوضى والتقطع هما الرباط الذى يسود الجماهير، وباختصار فإن الدعوة إلى الإسلام هى الدعوة إلى العودة إلى الهمجية ، ومعنى ذلك كله أن الحضارة الإنسانية فى خطر، وأعداؤنا يكذبون علينا بيد أننا نشجعهم على الكذب حين يضطرب فقهنا لديننا، ويضطرب علمنا به ، وتكون حياتنا الخاصة والعامة بعيدة عن جوهر الدين وغاياته العظيمة.

---

(١) قضايا إسلامية للدكتور يوسف القرضاوى ص ١٥ بتصرف

إن العربى كانت له غرائز حادة، ومشاعر جياشة، وخيال واسع، وخصائصه العقلية حسنة، وهو مقاتل يحب الشجاعة والإقدام، وهذه السمات إذا لم تضبطها كوابح حديدية هوت بصاحبها فى عرض الطريق، وإذا واتتها هذه الضوابط وراء نهضة دينية جيدة، حلقت بها فى الأوج[1] وصدق ابن خلدون حين قال: « يستحيل على العرب أن يقوم لهم ملك إلا على أساس نبوة، أو أن يقوم لهم دولة إلا على أساس دين» لذلك قال لهم ربهم فى أولى خطوات التربية ﴿ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ ﴾ [النساء : ٧٧] إنه الكف حتى تكتمل التربية.

حذار من الشَّرَك :

وقد دلت الشواهد ووقائع كثيرة أن هناك جهات أجنبية وقوى معادية خفية، تعمل بجد ودهاء وتدبر فى الظلام والخفاء، لإدخال هذه الصحوة الإسلامية فى متاهات لا تستطيع الخروج منها، وإقحامها فى معارك لا مبرر لها، وشغلها بالنوافل عن الفرائض، وبالفروع عن الأصول، وبالشكل عن الجوهر، وبالمختلف فيه عن المتفق عليه، أو تدفع البعض إلى التسرع والتهور والعنف، وتعمل على تغذية ما سموه بالتطرف الدينى أو الإرهاب، وتضخيمه واستخدامه لمصالحهم، وتشويه الحركة الإسلامية جميعها دون تفرقةبين معتدل ومتطرف.

إننا لا نحب أن نبالغ فى تصوير هذه الجهات وما تقوم به، وفى نفس الوقت لا نستطيع أن ننكر أن هناك قوى معادية لانتصار الإسلام، وعودته إلى قيادة المجتمع، استغلت هذه الظاهرة بخبث ودهاء، وحرصت على تغذيتها لتكبر وتنمو ، ورمت لها بالوقود لتظل متأججة ملتهبة، ثم أشاعوا أن الإسلام

---

(١) مشكلات فى طريق الحياة الإسلامية للشيخ محمد الغزالى ص ٦٤- ٦٥ بتصرف.

انتشر بالسيف والقهر والجبر، ولا همّ لأتباعه إلا الاستيلاء على السلطة والانقضاض على الحكام، فهو فى نظرهم شريعة العدوان والبطش والسطو، وتفننوا فى رسم صورة للمسلم، كلها رعب وفزع؛ فهو فى نظرهم إنسان متوحش، يتطاير الشرر من عينيه، انحصر تفكيره فى القتل والسلب والنهب، وهو بمجرد ما يرى من يخالفه رأياً أو اعتقاداً، ينقض عليه ويمسك بخناقه. إما أن يوافقه وإما أن يضرب عنقه.

إن هذا الافتراء الكاذب يدحضه قول رسول الله ﷺ وهو يوصى جنده، وقد أرسلهم للقتال يقول لهم ﷺ : « تألفوا الناس، وتأنوا بهم ولا تغيروا عليهم حتى تدعوهم ، فما على الأرض من أهل مدر ولا وبر ، أن تأتونى بهم مسلمين، أحب إليّ من أن تأتونى بأبنائهم ونسائهم وتقتلوا رجالهم» (١).

إن هذه القوى التى تتعمد تشويه الإسلام وتصوره على أنه دين دموى لاهم له إلا القتال والاقتتال تكسب بذلك جملة فوائد منها:

١- تنفير جماهير الناس من ظهور الإسلام نظاماً حاكماً للحياة، مادام الذين يدعون إليه ويجسدون صحوته، يتبنون التشديد والتضييق، وتحجير ما وسّع الله، وتعسير ما يسر الله على عباده، على عكس ما قال النبى ﷺ: «إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين »(٢)، وبذلك ينعزل الجمهور الذى ينشد اليسر، ويكره العسر عن الصحوة ، بل قد يقف منها موقف الجفاء والخصام ، وفى هذا خسارة كبرى .

٢ - شغل جيل الشباب الذى يمثل العمود الفقرى للحركة الإسلامية بالمسائل الجزئية، والقضايا الجانبية، وتبديد جهوده الفكرية، وطاقاته العملية

---

(١) خاتم النبيين للشيخ محمد أبو زهرة جـ٢ ص ٥٨.

(٢) رواه البخارى وأبو داود والترمذى وغيرهم.

فى الدعوة بحرارة لهذه الفرعيات، وإلهاؤه عن القضايا المصيرية الكبرى التى تتصل ببناء الإسلام، وسيادة أمته، وتحرير أوطانه وتحكيم شريعته فى الأرض.

٣ - شغل القوى الإسلامية المتحركة بعضها ببعض، فبدل أن توجه حركتها إلى عدوها المشترك، تتصارع فيما بينها ، وتتراشق بالتهم، حتى يصل الأمر إلى حد التأثيم، بل التكفير، وربما التقاتل ، وبهذا يهدم بعضها بعضاً ، والعدو المتربص يقف متفرجاً قرير العين بما يرى ، ولا مانع عند اللزوم أن يتدخل ليجهز على البقية الباقية.

٤ - إعطاء السلطات المتربصة بالدعوة الإسلامية ، التى تتوجس منها خيفة أو تضمر لها كرهاً، مبرراً لتضرب التحرك والعمل الإسلامى كله، وبجميع اتجاهاته وفصائله السوى منه والشاذ تحت مظلة التطرف ومقاومة المتطرفين.

٥- تيئيس الناس ـ فى النهاية ـ من الإسلام ودعاته ، وأن المد الإسلامى مصيره إلى جذر ، والصحوة مآلها إلى نوم، وأن لا فائدة فى أى عمل إسلامى ما دامت نتيجته أن يضرب من الخارج ، أو يتآكل من الداخل.

ولا يمكن أن يتحقق هذا المنهج الإسلامى ، وأن نتلافى هذه السلبيات أو المعوقات إلا بالاهتمام الزائد بالحاضر ، والإعداد للمستقبل ، وليس بالانكفاء على الماضى، وذلك بالعناية بالتربية لننتقل من سماء الأحلام إلى أرض الواقع، بدعوة حكيمة ، وتربية سديدة .

لقد اتضح لنا أنه ليس هناك اسوأ من استخدام العنف والقوة، حين يُدعى إلى الإسلام، وليس أضر على الدعوة منه، وليس هناك بديل عن الحكمة والموعظة الحسنة، وهذا هو مسلك الدعاة إلى الله تبيانا للحق ، ودعوة إليه بحكمة وموعظة حسنة ومجادلة بالتى هى أحسن، ثم تربية المستجيبين لهذه الدعوة تربية إيمانية، تربى رجالا صدقوا ما عاهدوا الله عليه، لا تلهيهم تجارة

ولا بيع عن ذكـر الله وإقام الصـلاة وإيتاء الزكـاة يخافـون يوما تتـقلب فـيه القلوب والأبصار.

ولقد جاءت هذه الدعوة فى زمان كانت الـقوة فيه هى ديدن الجميع، وهى الفـيصل فى فض المنازعـات، وفـرض الأفكار وحسم المواقف، ولا أقـول إن الدارس للتاريخ يعرف ذلك حق المعرفة، ولكنى أقول إن القارىء له يرى ذلك جلياً واضـحاً لا لبس فيـه ولا غموض، وسـواء داخل الجزيرة العـربية أو فى فارس والروم، ففى جميع الحضارات السابقة على الإسلام لا تعرف غير القوة ميزاناً، بل إن المجتمعات البشرية كلها قبله كانت تقوم على أساس مبدأ القوة؛ فالقوة هى الحق، والحق هو القوة، تراها فى الحضارة الآشورية، والبابلية إلى الفرعونية إلى الفارسية و إلى الرومانيه وغيرها من الحضارات المادية.

فالدولة الرومـانية كـانت تقسم العـالم إلى رومان وبرابرة لا يعـترف لهم بحقـوق، إلا تحت المظلة الرومانيـة، ولسنا بصدد سـرد وقائع تؤيد مـا نقول فالإشارة هنا تكفى عن العبارة، ويكفى أن أشير إلى سياسة قائد مشهور عرفته الدنيـا، هو الإسكندر المقدونى الذى سـعى إلى السـيطرة على العالم أجـمع ليجـعل منه مملكة واحدة ، تدين للأغريق بالولاء والـطاعة وتفرض سيـادتها ونفوذها على العالم ، فلما انهارت الدولة الإغـريقية، وآلت الأمور إلى روما آلت معها كـذلك فكرة السيطرة العالمية، وفعلاً تمكنت رومـا من جعل البحر المتوسط بحيرة رومانية، ومـا ظهر من سلم وأمن فى هذه الفترة لم يكن قائما على تعادل القوى بين دول متساوية، بل كان نتـيجة روح مسيطرة تسعى لقيام دولة عالمية.

وهكذا نجد علاقـة كل من الإغريق والرومان مع غيـرهم قامت على نزعة الغلبة والاستعلاء ، فقانونهم كان يهدر كل حق للمحارب، ولا يجعل للعدو

الأجنبى حقا، سواء فى الحرب أو السلم، والغريب أن أعداء الإسلام فى الغرب بوجه خاص، وفى العالم بوجه عام يتهمون المسلمين بالإرهاب وحب الدماء ، وهم أصحاب هذا الاتجاه الذى يريد أن يستأصل شأفة الإسلام والمسلمين، مستخدمين كل وسيلة خسيسة وكل آلة مدمرة لإبادة المسلمين.

ما أشبه الليله بالبارحة :

وتاريخنا اليوم خير شاهد على ذلك فى البوسنة والهرسك ، والفلبين، والشيشان، وفلسطين، وفى كل مكان يسمع فيه كلام الله أو حتى ينطق فيه بشهادة ألاَّ إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ.

فهم يدنسون المقدسات، وينتهكون الأعراض، ويسترخصون دماء المسلمين، ويحرقون كتابهم ويسخرون من شعائرهم وشرائعهم، ويبقرون بطون الحبالي، ويئدون الأولاد الذكور منهم والإناث، ولا يحترمون المعاهدات، ويفرضون السلام الذى يعنى عندهم الاستسلام.

وها نحن نرى نظاما يُفرض، وثقافة تُنشر، وعلوماً تُدرس، واقتصاداً يسيطر، وأصحاب هذا النظام لا يتعايشون، ولكنهم يجبرون ويفرضون ويسيطرون، والغريب أن هؤلاء لهم أتباع من جلدتنا يشهدون شهادتنا، ويصلون صلاتنا ويدَّعون الحرص على الإسلام، يحملون هذه الأفكار، ويؤيدون هذا الاستعمار، فإذا انتقدهم منتقد غيرةً على الدين والأوطان، رمى بكل نقيصة ، فعقله متحجر، وفكره متجمد ودينه رجعى، وسلوكه همجى، وكل ما يحمله من أفكار إنما هى ظلام فى ظلام حتى سموه ظلامياً .

وليس لدى ما أقوله لهؤلاء، إلا ما أستعيده من تصورات تحكمنا نحن المسلمين، فما أشبه الليلة بالبارحة فرحَى الأيام تدور﴿**وتلك الأيام نداولها بين الناس**﴾ فبعد عدل قائم، وقوة تحكم ، ورحمة تسود، ومنهج شامل كامل فيه

السمو والكمال والدوام والشمول، خلف من بعد ذلك كله خلف أضاعوا كل شيء حتى عادت القوة مرة أخرى هى التى تحكم، وليس هذا رأيى الذى أقول حتى لا أوصف بتلك الصفات المكرورة المكروهة ولكنها آراء بعض العقلاء فى وطننا الحبيب يكتبونها بأيديهم ، تؤيد ما نقول بالرغم من أن أصحابها لا يَمُتُّون إلى الاتجاه الذى ينادى به فصيل الإسلاميين بصلة، آثرنا أن ننقلها كما هى دون زيادة أو نقصان، لنرى مَنْ الإرهابى فى هذا الزمان، ومَنْ الذى يجعل من القوة حكما وفيصلا، أَهُمُ المسلمون أم غيرهم؟ فاسمع إلى هذا الكاتب العلمانى الأمين فيما يقول:

قانون النظام العالمى الجديد القديم :

إن السياسة الأمريكية قد أثبتت فى مناسبات كثيرة، قديمة وحديثة أنها وريث أمين لسياسة القوة الغاشمة الباطشة ، التى ولدت من رحم الحضارة الغربية عبر تسلسل تاريخى طويل ، بدأ بدبلوماسية البوارج وقبل قرون طويلة، وها هو يمارسها حتى اليوم.

فعند انتقال الحضارة الغربية القديمة من العصر اليونانى إلى العصر الرومانى انتقلت هذه الحضارة من تحكيم العقل والفلسفة والقانون والثقافة وسيلة للتفوق والإزدهار،إلى تحكيم القوة الرومانية الباطشة سلاحا للهيمنة والسيادة.

وهو السلاح ذاته الذى ورثته الامبراطوريات الغربية الصاعدة، منذ الكشوف الجغرافيه فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر، وصولاً لتصارع مراكز الإمبريالية الأوربية المتنافسة انجلترا وفرنسا وهولندا والبرتغال .. إلخ وعلى دبلوماسية البوارج فى الغزو والحروب الاستعمارية وبناء إمبراطوريات ما وراء البحار خصوصاً من أفريقيا وآسيا وأمريكا الجنوبية منذ القرن السابع عشر فى منتصف القرن العشرين.

وحين بدأ تراجع الإمبراطوريات الأوربية الإمبريالية التى شاخت، صعدت الإمبراطورية الأمريكية الشابة بكل عنفوان القوة الباطشة ترث الأرض ومن عليها، وتزيح مراكز التوازنات الدولية، وتهمش القوى الرئيسية، وصولاً لنجاحها المدوى فى اختراق الإمبراطورية السوفيتية وتفتيتها ، لكى ينعقد لها زمام القيادة المنفردة.

نحسب أن هذا هو المكون الثقافى والتراث التاريخى، الذى يشكل المحرك الرئيسى لدبلوماسية البوارج المعبرة عن انقلاب القوة الباطشة التى تمارسها الحكومات الأمريكية المختلفة وصولاً للشاب اليافع كلنتون، الذى يريد استعادة مجد أسلافه من الرؤساء ذوى القبضة الحديدية على شاكلة أحدثهم الرئيس الأسبق رونالد ريجان ، الذى أعاد على مدى سنوات حكمه استرجاع تاريخ القوة الغاشمة فى الغرب الأمريكى خلال الحرب الأهلية.

وليس هدفنا من هذه الخلفية التاريخية، محاولة فلسفة الأمور أو تعقيدها، ولكن هدفنا هو القول إن ما أقدم عليه كلينتون فى ممارسة القوة الباطشة واستسهال استخذامها ضد الشعوب الأخرى، على نحو ما فعله مؤخرا ضد العراق، هو وليد ثقافة وميراث حضارة، تؤمن منذ ازدهار الحضارة الرومانية حتى اليوم، بأن القوة هى سلاح السيادة والردع والهيمنة.

إذن لا جديد فى جوهر الأمور.

ولأهمية هذه المقالة استكمل معك سطورها: فيستطرد الكاتب : ربما يكون الجديد الذى نراه ويجب أن نرصده يتمثل فى الآتى:

أولاً: أن دبلوماسية البوارج والقوة الباطشة الأمريكية تكمل دبلوماسية الإحتواء، الاحتلال، ودبلوماسية التطويع، والتركيع، فعلى مدى سنوات بذلت السياسة الامريكية جهوداً جبارةً لاحتواء العرب أو تطويع شعوبهم،

وتركيع نظمـهم، واحتواء شـاردهم، واحتلال ترابهـم، فإذا بالهيـمنة تكتمل اكتمال البدر فى ليلة التمام ظاهرة جلية.

فحيثما وليت وجهك ، تلحظ البرق الأمريكى يخطف الأبصار، فالجيوش «الحليفة» تخترق الديار العربية من غربها إلى شرقـها، مضحية بأرواحها دفاعا عنا، والاقتصـاد الأمريكى يفرض نمطه الوحيـد الفريد علينا حماية لـفقرائنا، وليس إفقاراً لأغنيائنا كما يدعى المرجـفون، والمصالح الأمريكية تعلو على ما يراها حتى على المصالح الوطنيـة والقومية برضائنا، والثقافـة الأمريكية تسرى فى العروق قبل وبعد الدماء، والإعلام الأمريكى يغسل الأدمغة بمنظفات فائقة القدرة فلماذا تستغربون أن يرفع البعض منا العلم الأمريكى على نافذة بيته؟

ثانيا: تصديقـاً لكل ذلك فإن القبـول العربى بالهـيمنة الأمريكيـة، لم يعد تعبيراً عن رغبة طارئة، ولكنه صار شهوة غريزية دائمة، وها هو البعض الذى نراه يدلنا على اشتهاء التوحد المطلق مع سيدنا ومحبوبنا الذى أسرنا بقوته فى الدفاع عنا والوله بنا !!

إن أخطر ما قاله كبـار المسئولين الأمريكيين فى أعقاب الـهجوم العدوانى الأخير على العراق، هو أنهم أخذوا موافـقة الدول العربية المعنية على ضرب العراق قبل القـيام بالضرب، لكن هذه الدول طلبت أن تظل موافقـاتها سرية إتقاء للحرج أمام شعوبها.

لكن ماذا نفعل مع الأصدقاء الأمريكـيين الذين لا يخفون سراً ولا يسترون عورة حتى بورقة توت جافة.

ثالثا: إن النتيـجة الحتمـية لدبلوماسيـة البوارج واستسـهال استخـدام القوة الباطشة على الطريقة الأمريكية الراهنة هى إطلاق وحش العنف، بل وتشجيع التمـرد والتطرف وصـولا لتدعيم الإرهـاب كرد فعل مـن جانب المقـهورين

المخدوعين المظلومين، الذين يحسون بأن كرامتهم القومية والوطنية والشخصية تهان في اليوم عشرات المرات في أوطانهم، وأن أمنهم العام والخاص بات مربوطا بصواريخ هذه البارجة أو بمدفع تلك الحامية أو بقذائف تلك الطائرة.

رابعاً: بالقدر نفسه، فإن دبلوماسية البوارج والقوة الباطشة الأمريكية قد غذت النزعة نفسها عند إسرائيل، فإذا بحكومتها الجديدة برئاسة المغرور الأكبر «نيتانياهو» تتمادى في تطرفها وتمسكها بمبدأ أن القوة هي الأمن وهما معا صلب الهيمنة، وجوهر السيادة، وأصل السلام الذي تفرضه على العرب فرضا[1].

ولا تعليق لكني استدرك فأقول: لو أن إسلامياً في توجهه وتفكيره وتصوره قال هذا الكلام سيوصف بكل نقيصة ويرمى في فكره بل وعقله، وصدق الله القائل ﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[الحج: ٤٦] .

نحن وهم في الميزان:

أين هذا من الإسلام الذي يعترف بالآخر، فلا ينكر من سبقه من حضارات، كما يعترف بالأديان فلم يكن موقفه الرفض والعدوان، إنما القبول والاعتدال، فلقد خرج الإسلام من بيئة بدوية بدائية، ثم انتقل إلى بيئات حضارية عريقة في المدنية، كمصر وفارس، فبالرغم من اختلاف الوجهة والثقافة، بل التصور والفكر فلم يهدد أسلامنا حضارة، ولم يبدد تراث، ولم يهمل خيرا رآه، بل أقر الحسن وعدّل السيءَ وأنكر بالبرهان ما يمجه العقل السديد والفطرة السليمة.

بل أكثر من ذلك فإنه اعترف بأساس سبقه وبناء أكمله وشبه مَنْ سبقوه من

(١) من مقال للكاتب الاستاذ صلاح الدين حافظ - الأهرام في ١١ ستبمر ١٩٦٤ تحت عنوان «القوة الباطشة دعوة للعنف».

الأنبياء برجل بنى بيتا فزينه وأحسنه حتى نظر الناس إليه فاستحسنوه، غير أنهم كانوا يرون فى هذا البناء لبنة ناقصة فكان ﷺ وما جاء به هو هذه اللبنة وبذلك حفظ وصان ، وأضاف وأذاب رهبة الخوف أو التهيب أو التحفظ على أقل تقدير ومهما اختلفت الآراء فى الحضارة الإسلامية أو أصالتها، فمن المؤكد أنها كانت هى الشعاع الذى بدد ظلمات أوربا، ففتحت عينيها على معالم جديدة للحياة المزدهرة، بمجد العلم والمدنية، بل إن أشد الناس تعصبا لا يمكنه الإقلال من شأن النتائج الحضارية الخطيرة التى حدثت فى تاريخ البشرية، وترتبت على ظهور الإسلام، ولا يمكن مقارنة هذا الحدث بأى حدث آخر فى التاريخ الإنسانى ، ومهما اختلفت الآراء فى الحضارة الإسلامية فثمة حقيقة ثابتة لا يمكن إنكارها، وهى لولا العرب ما عرفت أوربا علوم اليونان والنهضة التى ترتبت عليها.

لقد ثبت أن أوربا نقلت علوم اليونان من العربية إلى اليونانية، فقد عكف الأسبان يتدارسونها ولا سيما فى قرطبة عاصمة الملك الحربى بالاندلس، حتى هال أسقفها « الفارو» الأمر، فكتب يشكو أنه لا يجد بين الألوف من أبناء طائفته من يتقن كتابة رسالة باللاتينية المقبولة، بينما يتقن الكثيرون العربية، ولذا كانت العربية هى لغة المثقفين الأوروبيين يومئذ، كل ذلك لأن الإسلام يؤمن فى جوهره بالحوار الحضارى وتبادل الخبرات والمعرفة [١].

إن الرسول ﷺ بعد هجرته إلى المدينة، وجد بها يهودا توطنوا، ومشركين مستقرين، لم يتجه فكره إلى رسم سياسة الإبعاد أو المصادرة. أو الخصام كما يفعل اليهود اليوم، وإنما قبل عن طيب خاطر وجود اليهود والوثنيين، وعرض على الفريقين أن يعاهدهم معاهدة على أن لهم دينهم وله دينه.

---

(١) من بحث مقدم أمام مؤتمر الإسلام ومستقبل الحوار الحضارى للدكتورة نعمات فؤاد بتصرف.

وأبرم مع اليهـود معاهدة نذكـر طرفاً مما جـاء فيها: « إن المـسلمين من قريش ويثرب ومن تبـعهم ولحق بهم وجاهد مـعهم أمة واحدة، وأن لليـهود دينهم وللمسلـمين دينهم، وأن بينهم النصح والنصيـحة والبـر دون الإثم، إن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم، وإن عليهم النصر على من دهم يثرب، وأنهم إذا دعوا إلى صلح يصالحونه فإنهم يصـالحونه ،وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المسلمين إلا من حـارب فى الدين، وإن ذمة الله واحدة يجـير على المسلمين أدناهم ، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصـحيفة، وأنه لا يجوز لمن أقر بما فى هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر مجرما أو يؤويه، فمن فعل ذلك فعليه لعنة الله وغضـبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل، وأن اليهود ينفقـون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وأن على اليهـود نفقتهم وعلـى المسلمين نفقتهـم، وأن من خرج من المدينة أمن، ومن بقى فيها أمن، إلا من ظلم وأثم، وأن الله جار لمن بر واتقى » .

وهكذا تنطق نصـوص الصحـيفـة بأن حرية الدين مكفـولة ، كمـا تنطق برغبة المسلمين فى التـعاون الخالصَ مع يهود المدينة لنشـر السكينة فى ربوعها والضرب على أيدى المجرمين أيا كان دينهم.

فهل فـعل غير المسلمين مـا فعله المسلمون إذا دخلوا بلداً؟ قل سـيروا فى الأرض فانظر كيف فعل هؤلاء بشـعوبنا وبلادنا وثرواتنا ؟ وما فعلوا ذلك إلا حين تركنا منهاجنا الذى أخرج الناس من الظلمات إلى النور، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن الفـرقـة إلى الوحـدة،ومن الـذل إلى العـزة ومن البـداوة إلى الحضارة ، ومن الحفاة العراة إلى خير أمة أخرجت للناس.

ولا شك أن ما آل إليـه حال المسلمين من انحطاط أثر على العـالم أجمع، فـانحط هو الآخر فلـم يتحـقق أمن ولا أمـان، ولا حب ولا سلام، حـتى

انتشرت الفحشاء والمنكر والبغى، وساد الظلم والبطش والمسغبة مصداقاً لقول ربنا ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى﴾[طه : ١٢٤ : ١٢٥] .

فضعف المسلمين الذى نراه اليوم ليس من الدين بل من أجل جهلهم به، وإعراضهم عنه، وتركهم أحكامه، فلما ضعف عملهم بالقرآن ولم يتخلقوا بأخلاقه ذهب ريحهم، وضعف سلطانهم، فتحكم فيهم أعداؤهم، فافتقروا بعد غنى، وذلوا بعد عز، وتفرقوا بعد وحدة ﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾ [مريم : ٥٩] يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ « كل من عرف سير الملوك والأمم رأى أن كل من كان أنصر لدين الإسلام وأعظم جهاداً لأعدائه وأقوم بطاعة الله ورسوله ، كان أعظم نصرة وطاعة وحرمة من عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وإلى هذا الزمان، وليعتبر المعتبر بسيرة نور الدين وصلاح الدين ثم العادل كيف مكنهم الله ، وفتح لهم البلاد ، وأذل لهم الأعداء بما قاموا به من الدين . وليعتبر بسيرة من والى النصارى وباع عليهم بلاد المسلمين كيف أذله الله وكبته وسلبه ملكه» .

فكيف نستعيد عزتنا وكرامتنا وقوتنا وأمتنا؟ هل بالعنف والقوة والثورة أم بالتربية والمعاناة حتى يغير الله حالنا إلى أحسن حال ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد : ١١] .

إنه تغيير النفوس بداية، فإذا انتصرنا عليها كان نصرنا على غيرها أهون.

***



الباب الثانى

المجاهدة والجهاد

* حرب على النفس إبتداءً .
* معركة التصحيح الشامل .
* جهاد الشيطان .
* ميدان المعركة الحقيقى .
* النبع الصافى .
* الأساسى الذى يقوم عليه البناء .
* بالأخوة يكتمل البناء .
* اساس الفوز .
* درس من غزوتين .
* الجهاد بالحجة والبيان مقدم .
* الكفار هم البادئون بالعدوان .

###



المجاهدة والجهاد

حرب على النفس ابتداءً :

إن أولى خطوات التغيير هى النفس الإنسانية وهذه هى الخطوة التى بدأ بها رسول الله ﷺ ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٧ - ١] فالفلاح فى التزكية، والخيبة والخسران فى التدسية، ولذلك عرَّفنا الرسول ﷺ أعدى أعدائنا أنفسنا التى بين جنوبنا ، فإن صلحت صلح الأمر كله ، وإن فسدت فسد الحال كله.

فلابد أن نعلن الحرب على النفس حتى تسلم ونحقق السلام أولا مع أنفسنا ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الإنعام: ٨٢]. فقبل أن نحقق السلام على الأرض وذلك ما نبغى، لابد من تحقيق السلام داخل الإنسان الذى يناط به تحقيقه على أرضه، لأن فاقد الشيء لا يعطيه.

إنه التعامل مع النفوس تغييرا، ومع القلوب تطهيرا، ومع العقول صياغة وليس مع الأجساد تقتيلا، ولا مع الأيدى إيذاء وتدميرا وتذبيحاً، من هنا كانت احدى مهام الرسول الأساسية لتغيير النفوس تربية إيمانية، ترى ذلك فى قول ربنا ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة: ٢] والتربية التى نبغى هى مجاهدة قبل جهاد، وجهاد وحجة وبيان قبل السيف والسنان.

لقد جاءت رسالة الإسلام لتصحح عقائد الناس عن ربهم، وعن حقيقة أنفسهم والوقوف بهم على حقائق الكون، ولتعريفهم أن الله هو الخالق المعبود، وأن الإنسان هو المخلوق العابد ﴿وما أرسلنا من قبلك من رَّسُولٍ إلاَّ نُوحِي

إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الإنبياء : ٢٥] فينزه الناس ربهم عن كل أمر دون مستوى الألوهية، ويحفظون أنفسهم من الإستكبار عن منصب العبودية لله عز وجل، فيتلقى الناس من الله وحده: في العقيدة والمناهج والنظم والأخلاق (١).

فإذا كان هذا هو هدف الدعـوة، كان لابد أن يكون لها وسائل لتحقـيقها بالعمل على نشـرها وإقامتـها على أرض الواقع، حـتى لا تكون دعوة نظرية يقوم بها من آمن بها وأصبح من أتباعها . . . وهؤلاء الأتباع في حركة دؤوبة لتحقيق الغاية الكبرى ، وفي إطار المنهج الذي رسـمه لها ربها، وهذه الحركة المستـمرة من الأتباع هي الجـهاد بمعناه العـام ولذلك عرفه ابن تيـمية فـقال: «الجهاد حقيقة الإجتهاد في حصول ما يحبه الله من الإيمان، والعمل الصالح، ومن دفع ما يبغضه الله من الكفر والفسوق والعصيان »(٢).

وعلى هذا فإن الجهاد كلمـة جامعة شاملة يدخل فيهـا جميع أنواع السعي وبذل الجهـود والكفاح، واستـخدام شتـى الوسائل المشروعـة لإحداث ذلك التغيير الذي تبتغي إحداثه دعوة الله المنزلة إلى بني البشر (٣).

فهو الوسيلة لتعريف الناس بالتـصور الصحيح عن الخالق والكون والحياة، وهو الوسيلة لإقناع الناس بالعـودة إلى ربهم وعبادته، وهو الوسـيلة للحيلولة بين الطغاة والمستغلين بين الناس، ولتمكينهم من الاختيار الحر، والنظر السليم وتذوق طعم الدلائل والبراهين، والآيات التي نصبها الله للـعباد والتي ما تفتأ الطواغيت تصد عنها عباد الله (٤) ﴿ أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ [هود : ١٨ ـ ١٩] .

---

(١) كتاب العبودية لابن تيمية ص ٨٣.

(٢) المصدر السابق صـ ١٠٤.

(٣) الجهاد في سبيل الله لابي الاعلا الموردي صـ ١٣

(٤) الجهاد ميادينه وأساليبه الدكتو محمد نعيم ياسين صـ ٦

فأهل الكفر والشر - كما أخبر المولى - يتربصون بالخير وأهله الدوائر، فإذا لم تجد هذه القوى الشريرة من يدفعها من أهل الخير والإيمان، فلا مناص من فساد الحياة الإنسانية.

والدفع هنا لا يبدأ بقتال ولا سنان وإنما يبدأ بدعوة وببيان وتوضيح بحجة قوية ولسان مبين وذلك لاستثارة الطاقات لمؤازرة الحق والخير، وصرفها عن طواغيت الأرض الذين يستثيرون هذه الطاقات لمصالحهم وأهوائهم ومطامعهم وشهواتهم.

ومن هنا تعددت ميادين الجهاد وأساليبه فهو يتعدد بتعدد أساليب أعداء الله فى تعطيل أهداف الدعوة، وهذا التعطيل ينتج من أعداء خمسة هم :

١- شهوات النفس وأهوائها.

٢- الشيطان وألاعيبه.

٣- الكفار وكيدهم ومكرهم.

٤- المنافقون ودهاؤهم.

٥- أهل المنكر وهم الظالمون والفاسقون.

لذا فإن كل ما نسلك فى سبيل تمكين هذه الدعوة هو من الجهاد، فتمكين الدعوة فى النفوس من الجهاد، وتربية الأفراد عليها من الجهاد، وإعلان الحرب على الشيطان حتى تنتصر النفس والإنسان هو من الجهاد، فليس الجهاد محصوراً فى القتال، من أجل ذلك كانت أول خطوة فى منهج الإسلام جهاد النفس.

معركة التصحيح الشامل :

فأولى المعارك ـ كما رأيت ـ هى معركة تصحيح شامل دائم ، لأن من

طبيعة الإسلام أنه فى معركة مستمرة ذات جوانب متعددة.

معركة مع الإنحراف عن التوحيد لتحرير العقول من الشك والشرك والخرافة والوهم والجمود وموروثات الباطل وتقليد الآباء.

ومعركة مع النفوس والضمائر ترمى إلى إقامتها على منهج الفطرة السوى فى صفائه ونقائه ونوره حتى لا تستبد بها الاهواء.

ومعركة مع الأوضاع الفاسدة فى علاقات البشر، وشئون الحكم، والتربية ونظم الإجتماع، والإقتصاد، وسائر ضروب النشاط الإنساني.

إنه فى معركة شاملة دائمة ليس بقتال ولكنها فى داخل النفوس تبدأ بمجاهدة وجهاد، لتحقيق النصر على النفس أولاً فى ميادين أربعة - كما ذكر بعض العلماء :

١- جهادها على تعلم الهدى ودين الحق من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ: وسيرة الصحابة والصالحين، فهذه هى البداية الصحيحة والسليمة فى جهاد النفس، فينبغى أن يكون قولك وفعلك للشرع تفعل المأمور، وتترك المحظور، وتصبر على المقدور. إذ العلم والعمل بلا اقتداء بالشرع ضلالة .

٢- جهادها على العمل والالتزام بما تعلمت، لأن معرفة الطريق لا تجدى إن أحجم الإنسان عن سلوكها، بل قد تضره هذه المعرفة إذ بها تقوم الحجة عليه عند ربه، وما أحسن قول الشاعر:

لو كان للعلم من دون التقى شرف   لكان أشرف خلق الله ابليس

وأول الالتزام وأجلُّه هو التزام القلب بعبادة الله عز جل بالإخلاص لله سبحانه وخشيته ورجائه ، وحبه ومراقبته، والتوكل عليه والإنابة إليه، والاستعانة به، وغير ذلك من أعمال القلوب، ثم التزام الجوارح بطاعة الله والانتهاء عما نهى عنه ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ ﴾[النجم ٣٩] ﴿ فَمَن

كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا ولا يُشرِكْ بعبادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ١١٠] .

٣- جهادها على الدعوة إلى ما تعلمت من الحق والهدى، وإلا كان صاحبها من الذين يكتمون ما أنزل الله من الهدى والبينات، وللدعوة قواعد وأصول أثبتناها فى كتابنا « الدعوة قواعد وأصول » فليرجع إليه .

٤- جهادها على الصبر على مشاق الدعوة، وزاد المؤمن فى هذا الجهاد الثقة بالله، وتذكر وعده لمن يجاهد فى سبيله ويدعو إليه ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [الحج:٣٨] والمثل الأعلى للنفس المؤمنة فى هذا الجهاد رسول الله ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم، فقد لاقوا من صنوف الأذى والتعذيب ما لا يعلم مداها إلا الله، فصبروا وصابروا وجاهدوا أنفسهم فى هذا الميدان، حتى نصرهم الله ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[العنكبوت:٦٩].

جهاد الشيطان:

والنفس والشيطان لا ينفصلان أبدا، فمجال عمل الشيطان هو نفس الإنسان، تفسد باتباعه وتصلح بعداوته ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت:٦٩] . فعداء الشيطان طاعة من الطاعات، لأنه يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير، بوسوسته وإغوائه وتزيينه ثم بأمره أتباعه، بل قد يصبح الشيطان تابعا للنفس الخبيثة فتقوده، ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ [الأعراف:١٧٥] فلم يقل المولى فتبع الشيطان بل قال فأتبعه الشيطان فمن فضل الله على العباد ورحمته بهم أن عرفهم على أعدائهم الذين ابتلاهم بهم فى هذه الحياة الدنيا، وعلى أساليبهم في الصد عن سبيل الله ، وعلى طرق مجاهدتهم، وأساليب الوقاية منهم ودفع شرهم ، فالأمر باتخاذ الشيطان عدوا معناه وجوب استفراغ

كل جهد ممكن لمحاربته ومجاهدته .

وللشيطان مداخل لابد للمؤمن من معرفتها ليسد هذه المداخل، وأهم هذه المداخل الهوى والشهوات، فهو يستخدم سلاحين لا ثالث لهما لا يبالى بأيهما يقتك بالمسلم : سلاح الشبهات ليفسد بها عقيدته، وسلاح الشهوات ليفسد بها عمله، فماذا بقى للمسلم بعد العقيدة والعمل .

ومن فضل الله أن منح الله المسلم سلاحين فى مواجهة أسلحته يحبطان كيد الشيطان ويردان كيده فى نحره هما اليقين يوجهه ضد الشبهات، والصبر يحارب به الشهوات، ترى ذلك فى قول ربنا ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجده : ٢٤] فإذا بالمسلم ينتصر عليه بهذين السلاحين ويصير ممن قال الله عنهم ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ [الحجر: ٤٢] .

ولن يتركنا الشيطان ولا أولياؤه، نسير طريق الهدى بهدوء، بل لابد وأن يرموا وأصحابه بسهام الترغيب فى الشهوات والمثيرات، وسهام الترهيب بالتخويف والسخرية والاستهزاء وغير ذلك مما يخوف به الشيطان أولياء الرحمن ﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[آل : عمران : ١٧٥].

وهذا موضوع كتب فيه الكاتبون، وشرح فيه العلماء المخلصون ولكننا نوجز أشد الإيجاز فنعدد بعض الأمور التى تقهر الشيطان، وتعين على مواصلة السير إلى الله منها :

١- أن نعزم على تغيير نفوسنا فإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، فلابد من تغيير المسار بحيث ندير ظهورنا إلى الشيطان وبضاعته وأساليبه ونتخذه عدوا ، ثم نتوجه إلى الله ورسوله وليكن الله غايتنا.

٢- أن نوثق صلتنا بالله تعـالى، بالإكثـار من عبـادته وذكره والتـفكر فى خلقه، والإخلاص له فى أعمالنا وأقوالنا وأحوالنا.

٣- أن نتـعـرف على مناهج الله فى قـرآنه بنيـة التـداوى بدوائه واتخـاذ اسلحته للوقاية من الشيطان وجنده.

٤- أن نأخذ مكاننا وراء رسولنا ﷺ، ونهرع إلى سنته الصحيحة . ونحن نحمل صحة فى اعتقاد ، وصدقا فى اتباع.

٥- أن نتخذ موقفا إيجـابياً فى جانب الحق، ولا نخشى فى الله لومة لائم يضبطه الشرع، ويحكمه الفقه، ويثبته الإيمان، وذلك لنصرة دينه .

٦- أن يبحث كل مـؤمن رضى بالله ربا وبالإسلام دينا وبمـحمد ﷺ نبـيا ورسولا عن أخـيه الذى يسير سـيره﴿ أَشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيراً ﴾ [طه : ٣١ ـ ٣٥] لنسير إلى الله مجتمعين لا متفرقين، فيـد الله مع الجماعة، كما أرشدنا الرسول ﷺ ، فنخطط فى سبـيله متفقين ، ونـنسق متآلفين، فعـقد الإيمان يجمعنا، وعـقد إخوة يوحدنا ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ [الصف: ٤] فالخير فى التجـمع، والشر كله فى التفرق﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩] والرسولﷺ يقول: «إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية».

٧- أن نحـمل فى قلوبنا ميـزان الله فى تقـويم الناس والأفكار والأشيـاء فنرفع ما رفع الله، ونخفض ما خفض الله ، ونحب ما أحب الله ، ونبغض ما أبغض الله، ونقيس بمقياســه، ونرى بما علمنا سبحانه ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾[سبأ: ٦] فيستـجيب المولى لنا ونحن نقول: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ اهْدِنَا الـــصِّرَاطَ

الْمُسْتَقِيمَ ﴾[الفاتحة : ٥ ـ ٦] فندخل جنة الدنيا قبل جنة الأخرة وننعم بالسلام فى الدارين معا.

ميدان المعركة الحقيقى :

قلنا أن المعركة تبدأ من داخلك ـ كما رأيت ـ بين وازع الدين ووازع الهوى لينتصر وازع الدين على هوى النفس أولا، فنحن فى حاجة إذن إلى يقظة الأرواح وحياة القلوب وصحوة حقيقة فى الوجدان والمشاعر، نريد نفوسًا حية قوية حقيقة، نتصور مُثلاً عليا، وأهدافا سامية لتسمو نحوها وتتطلع إليها ثم تصل إليها، لا تقبل جدلا ولا تتحمل شكا ولا ريبا ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة : ٥] من أجل ذلك فإن رسولنا ﷺ قذف فى قلوب صحابته أولا وقبل كل شيء مشاعر ثلاثة فى داخلهم إذا تحققت استعلى المؤمن بعقيدته واعتز بعبوديته، واندفع عاملا لها بكل ما أوتى من قوة.

١- قذف فى قلوبهم أن ما جاء به هو الحق فآمنوا بعظمة رسالته .

٢ - وقذف فى قلوبهم أنهم ماداموا أهل الحق فهم أساتذة العالم فلابد أن يعتزوا بهذا الحق .

٣- وقذف فى قلوبهم أنهم ماداموا على الحق مؤمنين به معتزين به فإن الله معهم، يعينهم ويرشدهم ويؤيدهم،إذا تخلى الناس عنهم فهو سبحانه معهم أينما كانوا، فصلاح النفوس مع المحافظة على الأجساد لتقوى، وعلى الأخلاق لترقى، وعلى الأفكار لتسمو، وعلى العقيدة لتسلم، وعلى العبادة لتصح، وعلى كل حركة وسكنة؛ لتكون خالصة لوجهه الكريم، كل ذلك من الجهاد وهذه البداية إن زلت الأقدام بالبعد عنها لا يتحقق النصر المبين بل الخذلان والمذلة والدونية والتبعية والغثائية والإمعية، وإن التزم المسلم بهذه

البداية كان له ما بعدها؛ لأن معية الله ستتحقق، ومعية الله تطرد الشيطان من طريق السالكين لرب العالمين فمن قال ﴿كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢]. كان عزيزا بعزة الله، قويا بقوته، حقق النصر الأكبر، وهكذا كانت المعركة مع النفس والشيطان، سابقة على معركة الكفار؛ ليتحقق إطمئنان النفس أولاً، والثبات على الحق ومواصلة السير فى الطريق، ولا يتحقق ذلك إلا بما وقر فى القلب وصدقه العمل؛ ليعيش المسلم مع نفسه ومجتمعه وسائر الناس فى سلام وأمان.

لقد طالت حرب النفس والشيطان فى مكة، ليتحقق للمسلم الفلاح، وحتى لا تكون الحرب لعصبية أو قومية أو أرض أو شهوة أو شهرة، إنما لتكون كلمة الله هى العليا فحسب.

والنفس الإنسانية لا تنتصر فى المعارك الحربية، إلا حين تنتصر فى المعارك الشعورية والأخلاقية والنظامية، فالذين تولوا يوم التقى الجمعان فى «أحد» ﴿إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ [آل عمران : ١٥٥] .

والجماعة التى تخوض مثل هذه المعارك المصيرية من أجل العقيدة، ليس لها من أمر النصر شيء، إنما تدبير الله سبحانه وتعالى لتنفيذ قدره من خلال جهادها وأجرها على الله ليس لها من ثمار النصر شيء ، ولكن يؤتيها الله النصر إذا يشاء ، ولا وزن فى نظر الإسلام للإنتصار العسكرى أو السياسى أو الإقتصادى مالم يقم على أساس المنهج الربانى فى الإنتصار على النفس والهوى أولا، ليكون النصر لله وإلا فهى مادية تنتصر على مادية، وجاهلية تنتصر على جاهلية، ولذلك فإن أى جيش يحمل فكرة يطمع قادته فى النصر، وتحقيق الغلبة على أعدائه لابد وأن تتوافر فيه عناصر أربعة :

١- وحدة العقيدة. ٢- وحدة الهدف.

٣- وحدة الصف. ٤- إيمان لا يتزعزع وثقة فى نصر الله.

النبع الصافى:

إن المسلم فى عهد رسول الله ﷺ، كان القرآن هو النبع الصافى الذى يستقى منه، بالرغم من وجود حضارة الرومان واليونان والفرس والهند والصين بل واليهود والنصارى فى قلب الجزيرة العربية. وكانوا يقرأون القرآن لا بقصد المتعة والثقافة، ولكن ليوضع موضع التنفيذ، حتى أن المسلم حين يدخل الإسلام كان يخلع على عتبته كل ماضيه فى الجاهلية، ويقف أمام الإسلام عاريا كيوم ولدته أمه ليكتس بكسائه﴿ وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ [الأعراف:٢٦] .

وكان يستمد قوته من إيمانه وعقيدته، ويهتدى بهما فى الحياة محدداً وجهته على ضوئها، متحليا بأخلاق هذه العقيدة التى تصلح الأفراد، وبصلاح الأفراد يتماسك المجتمع المسلم ويترابط لا بالنظام وحده، ولكن بوحدة المشاعر التى سادت بينهم، والقيم التى تحكمهم، والحب الذى يغشاهم، لأنه لا يمكن ان يسود التآلف والترابط والمحبة، ولا يتم التوافق الإجتماعى فى المجتمع إلا إذا وجدت الوحدة الأخلاقية، ووجد بين الأفراد اتفاق فى السلوك والإتجاه، فهل هذا المجتمع يتكون بقتل الأنفس بغير حق، وإزهاق أرواح دون دليل بين ، وترويع الأمنين ، ونشر الفزع والهلع أم بالمنهج الربانى الذى أشرنا إليه سلفا . وليس بالمنهج الغربى الذى يراد لنا اتباعه!!

وهذا الذى نقوله هو ما ميز المجتمع المسلم عن غيره، وللذين لا يؤمنون إلا بوحدة الغرب وقوة الغرب، بل قوة أمريكا على وجه الخصوص نقول لهم: اسمعوا إلى ما قاله: « جون فستر دالاس» وزير خارجية أمريكا من ١٩٥٢ ـ ١٩٥٩م. أسوقه لمن جعل الغرب قبلته ومنهاجه ومصدر تلقيه يقول: « إن هناك شيئا يسير بشكل خاطيء فى أمتنا، وإلا لما أصبحنا فى هذا الحرج وفى هذه الحالة النفسية، لا يجدر بنا أن نأخذ موقفا دفاعيا، وأن يتملكنا

الذعر، إن ذلك أمر جديد فى تاريخنا، إن الأمر لا يتعلق بالماديات؛ فلدينا أعظم إنتاج عالمى فى الأشياء المادية، إنما ينقصنا إيمان قوى؛ فبدونه يكون كل ما لدينا قليلاً وهذا النقص لا يعوضه السياسيون مهما بلغت قدرتهم، أو الدبلوماسيون مهما كانت فطنتهم، أو العلماء مهما كثرت اختراعاتهم، أو القنابل مهما بلغت قوتها؛ فمتى شعر الناس بالحاجة إلى الاعتماد على الأشياء المادية؛ فإن النتائج السيئة تصبح أمراً حتمياً . . . إلى أن يقول : ومتى تحطمت الصلة بين الإيمان والعمل فلن نستطيع بعد ذلك آن ننمى قوة روحية نستطيع نشرها فى أنحاء العالم» (١) .

فهل نقول: نعم من هنا نبدأ، كما علمنا المصطفى ﷺ، أم نقول كما قال جون فستر دالاس ليؤمن تلاميذ الغرب بما نقول.

الأساس الذى يقوم عليه البناء:

نريد رجالا لهم قلوب تأثرت بالقرآن تأثيراً جعلها تفيض بالروحانية فيضاً رقق مشاعرها ، وأرهف مسامعها ، فجعلتها ترتجف عند ذكر الله﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢] .

فالواحد منهم يحتاج أولا إلى قهر نفسه ليمتلكها، ويحسن قيادتها حتى يشعر بأن نفسه التى بين جنبيه ليست له ، بل هى وديعة يصرفها صاحبها كيف يشاء، ويأخذها أنى شاء، فإذا نادى مناد الجهاد قال: فلا نامت أعين الجبناء، بل ويستعجل النعيم الذى ينتظره وهو يردد: أبينى وبين الجنة تلك التمرات والله إنها لحياة طويلة.

إنه شعور يولد لديه انتماء لدينه، يدفعه للالتزام بأوامر الله سلما أو

---

(١) جون فستر دالاس حرب أم سلام.

حربا، فهو يتقن دوره حين يفعل المأمور ، بل يتعداه إلى حبه حباً جما، لأنه يسعى بهذا العمل لرضى الله، لذلك فإنه إن حقق النصر على الأرض فإنه يحقق بهذا النصر ما يرضى الله سبحانه وتعالى وما خلقه هو من أجله : ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ [الحج : ٤١] .

إنها شخصية فعالة، يتحقق فيها شروط ثلاثة لكى تؤدى رسالتها فى الوجود ،وتضحى من أجلها وتجاهد فى سبيل تحقيقها بكل ما تملك وتحب ، ولا تتحقق فاعليتها على أرض الواقع إلا بهم :

١- إيمان بما تقول وتعتقد، وتفتدى هذا الاعتقاد بكل غال وثمين .

٢- عمل مبنى على الدراسة والتخطيط لمنهج نبوى واضح، يبدأ بأن تقيم دولة الاسلام فى قلبك .

٣- تقويم للخطوات لمواصلة المسير أو لتصويب الطريق وللمحاسبة ولكى تستمر فى المسير بصحة فى اعتقاد ، وصدق فى إتباع .

فحق « لبن جوريون» أن يقول عن هذا المنهج : « نحن لا نخشى الإشتراكيات ولا الثوريات ولا الديمقرطيات فى المنطقة، نحن فقط نخشى الإسلام هذا المارد الذى نام طويلاً وبدأ يتململ » .

ولقد تربى الصحابة فى مكة على هذه المفاهيم التى سمت بهم فأعزتهم فى أعين أعدائهم؛ قبل أن يحملوا سلاحا أو يبدؤا قتالا أو يدخلوا فى معركة لأن الانتصار على النفس هو انتصار على غيرها من خارجها، فإذا عملوا أحسنوا، وليس حسنها فى ترتيب الأوضاع وإصلاح النظم ودقة التخطيط وتحديد الخطوات وامتلاك القوة المادية، إنما قبل كل ذلك فى صفاء هذه النفس وطهارة القلب، وسلامة الصدر وباختصار شديد فى حسن الخلق،فإذا أرادت

تخطيطا وتنظيما أو حرباً وغزواً جمعت وهى تخطط لذلك بين نور العقل، وإلهام وتسديد الرب سبحانه وتعالى وأخذت بالاسباب بما تملك من قوى ماديه وتقدم علمى فينصرها الرب وهى أهل لذلك، فما كانت الأمة الإسلامية خير أمة أخرجت للناس إلا لأنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله؛ فتميزت أولا بأخلاقها قبل انتصاراتها وما حفظها الله ورعاها ونصرها على أعدائها وأدام بقائها إلا بتميزها الأخلاقى .

ولقد آمنا بما قاله ربنا وهو يبين أن سبب انهيار الحضارات المادية هو سوء الخلق فقال عز من قائل : ﴿فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[العنكبوت : ٤٠] .

أما الذين لا يؤمنون بهذه الآيات ولا يصدقون ما يقوله الرسول والقرآن ، فإليهم ما قاله « ديجول » حين سئل لم هزمت فرنسا؟ - فى الحرب العالمية - قال: هزمها الإنحلال قبل الاحتلال، فهذه مقولة من لا يؤمن بالقرآن ولا برسوله ، فما بالكم بمن اتبع النور الذى أنزل على محمد ﷺ الذى ما ينطق عن الهوى . هذا هو الاساسى الذى يقوم عليه البناء يامن تتعسفون الطريق ، وتسرعون الخطى نحو التهلكه .

بالأخوة يكتمل البناء[1]:

لقد وضعت الأخوة عندنا موضع الركن من البناء ولا تتحقق الأخوة بقتال ولا نزال إنما تتحقق بتأليف القلوب ، والحب الذى يسود الجميع « سنقاتل الناس بالحب » لأن النهضة لقيام حضارتنا الإسلامية إنما تقوم على الوحدة بين

---

(١) سنتناول هذا الموضوع تفصيلا فى كتاب قادم بمشيئة الله تعالي.

القلوب والألفة بين الجنود، ولا تقـوم على التفرقة، والفـرقة، وقد تمكن هذا المعنى من الصحابة رضوان الله عليـهم حتى أنساهم أخوة النسب، ذلك لأن أخوة العقيـدة فوق كل أخوة، وهذا ما ظهر ملياً أثـره فى الغزوات، وما كان من الأخ مع أخيه، والابن مع أبيه، والأم مع وليدها، لأن رابطة الإيمان فوق كل رابطة ﴿ **إنما المؤمنون إخوة** ﴾ وانظر ماذا حدث فى غزوة بدر مع أبى بكر وابنه، وأبو عبيدة وأبيه بل مع جند الله ومن يتصلون بهم برحم ودم.

فالأخوة هى الـركن الثانى بعد العقـيده الذى قامت عليه نهـضة المسلمين الأوائل لتحقيق الحضارة الإسلامية وازدهارها، بعد فتوحات الإسلام الكبرى، لهـذا كان أول مـا فـعله الرسول ﷺ فـى المدينة بناء المسـجد والمؤاخـاة بين المسلمين.

فماذا يريد المسلم الذى هذه أخلاقه ؟ : إيمان وأخوة

يريد هو وإخوانه أن يضـعوا فى رءوس الناس عقـلا جديدا، وأن يقيـموا على ظهر الأرض دينا جديدا، وأن يبنوا كل البـشرية بناء جديدا، وأن يصلوا بين السماء والارض وهم يقولون : ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِين** ﴾[الفاتحة : ٥] .

يريدون أن يهدوا الناس بإذن ربهم نظاماً جديداً ، وإنسانية جديدة جمعت قلوب العبـاد على رب العباد، فقـال قائلهم : جئنا لنخرج الناس مـن عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن جـور الحكام إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة.

أهؤلاء يسفكون الدماء ؟ ويقتلون الرجال ؟ ويستحلون الأموال وينتهكون الأعراض، ويسترقون الناس ؟ أهؤلاء الذين عـرفوا الإيمان الكامل بفهم دقيق وحب وثيق، واجتـماع القلوب، وائتلاف الأرواح، والتضـحية التى دفعـتهم إلى بذل كل ما يملكون من النفس والنفـيس لله رب العالمين. . يرتكبون الآثام

ويفتحون البلاد بالسنان ويقتلون الأبرياء ليقيموا دولة الإسلام!!

إنهـا نفوس بنـيت على إيمان بالله لا يقـهر، وإيمان بكتـابه الذى لا يأتيـه البـاطل من بين يديه ولا من خلفـه وإيمان بالنبى ﷺ، اسـمع إلى رجل ممن رباهم محمـد ﷺ التقى برستم قائد الفرس ، فقـال له : ما الذى أخرجكم من دياركم ؟ فقال: مـا لهذه الدنيا خرجنا، بل كنا ضعفـاء فقوّانا الله، وكنا ضالين فهـدانا الله ، وأمرنا أن نبلغ الرسالة فإن دخلت فـيما دخلنا، فنحن وأنتم سواء وإلا السـيف بيننا وبينكم. فقـال رستم: أنظر إلى هذه الجـيوش، فنظر الرجل ثم قـال: يا هذا إنك لا تحـارب الناس ولكنك تحـارب القـدر ، فنحن قدر الله سلطنا الله عليك.

أمثل هذا المقـاتل الذى يعرف غايته ويعـمل لرسالته يهزم من كـثرة العدد والعتاد؟

أساس الفوز:

إن للنجاح الحقيـقى أساس لا يتغير، هو النفس الإنسانية، فـإذا استقر هذا المهاد لم يبق شيء ذى بال فإذا مـا حقق المسلم النصر على نفسـه، والعبودية فى قلبه، حسم المعـركة وحقق الفوز ، وما أعظم مـا قاله الإمام البنا فى هذا المقام قـال:كونوا عبّاداً قـبل أن تكونوا قوّادا، تصل بكم العبـادة إلى أحسن قيادة، مصداقا لقوله سبحانه: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة : ٢٤] إنها قلوب كريمة ونفوس كبار .

لابد لنا إذن أن نتعلم من دروس القرآن أن المسلمين ما انتـصروا فى معركة كانوا فيهـا أشد قوة وأكثر عددا، بل إنهم يوم حنين حين كـانوا كثرة قال لهم ربهم : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنـــكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ [التوبة : ٢٥] .

فالمسلم الذى تربى على الاعتزاز بدينه، يدخل المعركة وهو على يقين من أن الإسلام سينتصر، لأن الله ما أنزله إلا لينتصر ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة : ٢١] . ووعد الله باق ما بقيت السموات والأرض ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ [النور : ٥٥]. فالنصر والتمكين والأمن للمسلم الذى يحقق العبودية لربه وليس لمن اعتدى وبغى .

إن المشكلة ليست فى هزيمة الإسلام، فالإسلام لا يهزم، والإسلام باق وسيحفظه الله مادامت فى الأرض حياة ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر : ٩] ولكن حفظه يتحقق برجال ينتصرون على الأعداء، بصفاتهم التى انفردوا بها، وأخلاقهم التى تميزوا بها، وليس بأجسادهم وقوتهم، فهم كما وصفهم القرآن ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ ﴾ [التوبة : ١١٢] وبسبب تحقيقهم لهذه الصفات كانت لهم البشرى ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة : ١١٢] .

درس من غزوتين :

لقد بين لنا المولى فى غزوتين متتاليتين أسباب الهزيمة، وأسباب النصر ففى غزوة بدر بين لنا أسباب النصر، بطاعة الله ورسوله مع قلة العدد والعتاد، وفى أُحد بيّن لنا أسباب الهزيمة بمخالفة أمر رسول الله ﷺ.

فما عرف المسلمون النصر يوما بكثرة عدد وعدة، لأن العتاد سبب ووسيلة ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ [الأنفال : ٦٠] ولكن النصر ﴿مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ [آل عمران : ١٢٦] ويوم أن يصبح المسلمون على مستوى جيل النصر، سينزل المدد من السماء يحسم الله به المعركة لصالح المسلمين ﴿ فَلَمْ

تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ [الانفال : ١٧] .

إن الله يذكر الذين قالوا يوماً لرسول الله ﷺ ﴿ إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا ﴾ [الانفال:٢٦] فذكرهم بما قالوه يوم نصرهم على عدوهم وهم قليل مستضعفون ورد الفضل لله وحده فقال: ﴿ واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون﴾ [الانفال:٢٦] فالمسلم الحق لا يعرف يأسا إنما يقول لأعدائه﴿ قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين﴾ [التوبة : ٥٢] الشهادة أو النصر.

إن من الأمور التى يجب أن تكون واضحة للمسلم،أن ساحة المحنة والابتلاء والتمحيص لا تقتصر على الهزيمة دون النصر، بل لعل محنة النصر إنما تكون أشد وأعتى وأطغى، إذا لم تتوافق مع الوضوح الكامل لغاية الإنسان فى هذه الحياة، فإذا أصاب المسلم هزيمة فليقل لنفسه﴿ أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم ﴾[آل عمران : ١٦٥].

فلا ييأس ويقف مع النفس يراجع الحساب، حتى إذا صوب طريقه، وأخذ بالأسباب ورأى أعداء الله كثرة فليتذكر ﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين ﴾ [آل عمران : ١٧٣ ـ ١٧٥] فاليأس والإيمان لا يجتمعان أبداً بشرط أن نتأكد قبل أن نواجه عدونا من :

١-أن المنهاج محكم.

٢- أنه لا خلل يُخاف فى الصف نتيجة لنقص التربية.

٣- وأنه لا تفكك فى التنظيم لأداء المطلوب.

٤- ولا غموض فى الرؤية.

٥ ـ ولا عجز فى الإنجاز والاتقان وتحمل المسؤولية.

وبذلك نكون قد أخذنا بالأسباب فنقول بعدها: ﴿وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾ [إبراهيم:١٢] إن جيل النصر جيل فريد صاغه الإسلام صياغة ربانية.

يقول الإمام البنا:

استطيع أن أتصور المجاهد رجلا قد ملك الفكر عليه فيما هو فيه جوانب نفسه، ونواحى قلبه وملك زمام نفسه، إن نظرت فلا ترى فى قسمات وجهه، ولا تلمح فى بريق عينه إلا ما يعتمل فى قلبه من حزن عميق، وألم دفين، قد اتسمت الملامح على وجهه، وانطلق لسانه بما يفيض به قلبه، وبما تنطوى عليه جوانحه من رغبة فى البذل وفى العطاء، فإن كان فى طريقه مطاردا، فهو يعمل ولا يتخلى عن رسالته، حتى يحقق الله على يديه النصر المبين، والنصر لا يتحقق بالأمانى الخادعة، فهى كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء، حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه، وإنما يتحقق بالبذل والتضحية، والجهاد والمجاهدة، ببيع النفس والمال لله رب العالمين، إنه ثمن وثمن غال لنعيم لا ينفد والتمتع بالنظر لوجه ربنا الكريم« ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة». ألا يستحق ذلك كله جهاد بالحجة والبيان لتشويق الناس للإسلام حتى يأتونا مسلمين بدل ان نراهم مقاتلين أو مقتولين؟

الجهاد بالحجة والبيان مقدم على الجهاد بالسيف والسنان:

الجهاد هو سنام الإسلام وهو قولى وفعلى ، فالقولى باللسان وبالحجة والبيان والسنة والقرآن ، والفعلى بالسيف والسنان، لابد أن نقول للناس حسنا، قبل أن نرد العدوان بالسنان لأن الجهاد القولى لابد وأن يسبق الجهاد

الفعلى فهو مقدم عليه بداهة، ﴿ وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون ..﴾ وكيف يبلغ الرسول ﷺ أو اتباعه هذا الإسلام وهو مأمور بالتبليغ ؟ ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾[المائدة: ٦٧] يبلغه بالتبيان ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾[النحل : ٤٤] .

فالجهاد باللسان أمر محتوم على صاحب الدعوة، ذلك لأن من حق الناس جميعاً أن يطالبوه بتوضيح دعوته، علام يدعو، وما هى أهدافه من هذه الدعوة، وما هى غايته ؟ لأن ذلك الوضوح يساعد المدعو على الاقتناع بالفكرة، والايمان بها، ولأن الإيمان اختيارى لا اكراه فيه، فما بالك بمن يطلب من المدعوين أن يشاركوه الطريق، ويحملوا معه التكاليف، ويصبروا على مشاق السير إلى الله ، أليسوا فى حاجة إلى بيان لتجلو الحقيقة ؟ ويتضح الحق،ويزهق الباطل، فيجتث من القلوب ، فلا يصير له قرار فى أرض الواقع، دون استخدام سيف أو رمى برمح لإكراه الناس على الدخول فى الدين ؟ فلابد من المجاهدة والبيان كما قال القرآن: ﴿ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان :٥٢] جهاد بالحجة والبرهان ببيان دلائله وبراهينه ومعجزاته، من أجل ذلك قال ربنا عن إبراهيم الأمة عليه السلام ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾ [الأنعام : ٨٣] ذلك هو السبيل الأقوم والطريق الأصوب لسيادة المبدأ، وانتشار الفكرة.

وهذا الجهاد بالعلم والبيان نظير قوله ﴿وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا﴾ [سورة النساء ٦٣] أى يبلغ من أفهامهم ويعلق بأذهانهم، فالجهاد باللسان وبالحجة هو جهاد أنبياء الله ورسله وخاصة عباده.

فتعلم العلم وتعليمه والدعوة إليه، كل هذا من الجهاد فى سبيل الله ـ كما

قلنا ـ روى الترمذى عن فضالة بن عبيد أن النبى ﷺ قال: المجاهد من جاهد نفسه فى ذات الله عز وجل وكما قال ﷺ « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر »[(١)] .

فواجب العلماء جهاد عقائد الإلحاد والمضلين الذين يضلون الناس بالشبهات والتشكيك والافتراءات التى تزيغهم عن معتقداتهم الصحيحة ثم تقودهم إلى الإلحاد والزيغ عن سواء السبيل ، فعن أنس بن مالك أن النبى ﷺ قال : « جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم » [(٢)].

إن أخطر ما يصيب الإنسان فى حياته أن تلتبس عليه الأمور، وتختلط أمامه الحقائق، وتشوه المفاهيم ، وتتبدل المعانى، وتضطرب عنده الموازين، فإذا بالحلال حراما، والحرام حلالا، والحق باطلا، والباطل حقا، والمعروف منكرا، والمنكر معروفا، والصواب خطأ، والخطأ صواب، إلى أن يرى كل قبيح حسن، وكل حسن قبيح، فلا يعرف الإنسان حدوداً يقف عندها، ولا أصولا يستمسك بها، ولا ثوابت ينافح عنها، ولا مباديء يضحى من أجلها، ولا حتى أخلاق يتحلى بها، فتختل تصوراته، ويضطرب سلوكه، وتنمحى شخصيته فماذا يفيد السيف من فاقد الشيء وفاقد الشيء لا يعطيه ولو استخدم كل ما أوتى من قوة، فكان لابد من جهاد باللسان العفيف والقول البينّ للرد على حرب مثلها يعلنها اعداء الاسلام باللسان، أى بالكلمة الباطلة التى أشار إليها قول ربنا ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾ [آل عمران:١٨٦] وتأمل قول: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ﴾ فإن هذه الكلمة تدل على أن المعركة كلاميةباللسان إيذاء، فمن يتصدى لهذ الحرب الكلامية المسموعة إلا العلماء ؟ وليس هذا الذى

(١) رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه من حديث أبى سعيد الخدرى، وقال الترمذى: غريب.
(٢) رواه أحمد والنسائى وصححه الحاكم..

أقول محض خيال، أو استثارة عـواطف، أو افتراء بغير دليل، فحرب الكلمة معلنة من قديم ، واسمع إلى الصليبى كـاتلى يقول: يجب أن نستخدم القرآن وهو أخص سلاح الإسلام ـ ضد الإسلام نفسه، حتى نقضى عليه تماما،كما يجب أن نبين للمسلمين أن الصحيح فى القرآن ليس بجديد، وأن الجديد ليس بصحـيح» وهذا اللعين له أصحـابه وأخوانه بل لديه مـؤسسـات ودول تحذو حـذوه صبـاح مسـاء تشـويها وافـتراء وذلك بمـا وضحـه القرآن حين قـال مقولتهم﴿ لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ [فصلت : ٢٦] .

أليست هذه حرب دون سنان ؟ وقتال دون سـيف أو كراع ؟ أتقابل الكلمة بالكلمة أم بالسيف والقتال ؟ ألا يستـحق ذلك كله جهاد لا قتال فيه، بالقلم تبيانا، وباللسان دفاعا، وبالحجة برهانا، وبكل وسيلة حديثة تصلح دفاعاً عن الدين ؟ أنه فى حالة حرب الكلام لا نحتاج إلى سيف مسلط، وسلاح يقتل، ومدافع تهدم، وقنابل تفجر، وأرواح تزهق!!!

فسلاح بسلاح بمثل مـا اعتدوا علينا فإذا منعنا من استـخدام سلاح الكلمة لندافع عن عقائدنا التى شوهت، ودعوتنا التى حبست، ومنهجنا الذى عطل، وتاريخنا الذى طمس، وهـويتنا التى ضـاعت، وديننا الذى يحـارب، فمـاذا عسانا أن نفعل، وقد أوجب الله علينا أن ينذر به ويبلغ جـميع خلقه كما قال ﴿ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ [الأنعام : ١٩] .

ألا يعتبـر منعهم من تبليغ الهداية للناس اعـتداء على الدين بل على الخلق أجـمعين ؟ وهل أمـام المسلمين فى هذه الحـال أمـر غيـر الدفـاع عن الدين بالنفس والنفـيس،حـتى لو أزهقت الأرواح، وسـالت الدمـاء، كل ذلك لا للإكراه فى الدخول فى الدين والله يقول ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ [البقرة:٢٥٦] ويقول ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾[يونس:٩٩] ولكن الاعتداء على الدين هو الذى يوجب القتال الذى كُتب على المسلمين .

الكفار هم البادئون بالعدوان :

إن الدفاع عن الدين أوجب من الدفاع عن الأنفس والأموال، وهودفاع مشروع أمر به العزيز الحكيم فكيف إذا اجتمع الاعتداء على الدين، والأنفس، والأموال، والاعراض، فإن كان ولابد من القتال دفاعا مشروعا، فإن لهذا القتال قواعده وآدابها وأصوله التى تضبطه، وتبعده عن الأهواء والنزعات ،فلقد كان المؤمنون فى ابتداء الإسلام يعيشون فى بلاء شديد، وايذاء لا ينقطع، ومع هذا فقد أمروا بالصلاة والزكاة والعفو والصفح والصبر على أذى المشركين، بالرغم من أنهم كانوا يتحرقون شوقاً للقتال ويودون لو أمروا به ليتشفوا من اعدائهم لكن الحال لم يكن متاسبا إذ ذاك لقلة عددهم وعتادهم، وفى المقام الأول لعدم اكتمال تصورهم وتربتيهم فكان لابد من أن يُرَبوا تربية جهادية عقيدية، روى ابن أبى حاتم عن ابن عباس أن عبد الرحمن بن عوف وأصحابا له أتوا النبى ﷺ بمكة فقالوا : يا رسول الله كنا أعزة ونحن مشركون فلما آمنا صرنا أذلة ؛ فقال: إنى أمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم . فلما حوله الله إلى المدينة وصارت لهم دار منعة وأنصار فرض الله عليهم القتال فجزع بعضهم من فرضه ، وخافوا من مواجهة الأعداء خوفاً شديداً، لأن فيه سفك الدماء ، ويُتم الأولاد ، وتأيم النساء، فكانوا يكرهون فرضه عليهم بعد أن كانوا يتمنون قتال المشركين، فأنزل الله ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء : ٧٨] وكانت أول آية نزلت فى الإذن بالقتال هى قوله تعالى ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ

إلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴾ [الحج : ٤١] قال العوفى عن ابن عباس: نزلت فى القتال .

والمتأمل فى سيرة رسول الله ﷺ وصحبه الكرام يرى أن المشركين هم الذين بدأوا المسلمين بالقتال لإرجاعهم عن دينهم ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ [البروج : ٨] ولو لم يبدأوا فى كل واقعة لكفاهم ما فعلوه من:

١- اعتدائهم بإخراج الرسول من بلده وتمالئهم على قتله.

٢- فتنة المسلمين فى دينهم وإيذائهم بضربهم وأخذ أموالهم.

٣- منعهم من الدعوة إلى سبيل ربهم.

٤- منعهم الناس ونهيهم لهم عن الاستماع إلى القرآن خشية الإيمان به كما قال ربنا ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الانفال:٢٦] وما كانت حروب الصحابة كذلك إلا لحماية الدعوة ومنع الفتنة، وحماية المسلمين من تغلب القوم الكافرين والله تعالى يقول ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ﴾ [البقرة : ١٩٣] حتى لا يفتن المسلم فى دينه، ولا يمنع من الدعوة اليها، فهذه هى الغاية من القتال بعد دفع الاعتداء والظلم، واستتباب الأمن، وعبادة المسلمين لربهم، وإعلائهم كلمته، وتنفيذ شريعته، وبذلك يكون الجهاد لله، وفى سبيل الله، وتكون كلمة الله هى العليا.

ولا عبرة بما يقول به البعض، أن الدين قام بالسيف، وأنهم فى فتوحهم يجعلون القرآن فى يد والسيف فى اليد الأخرى، ومن لم يؤمن بالقرآن

حكموا فيه بالسيف، فهذا لا أصل له، والقرآن بجملته وتفصيله يرده، وحال المسلمين منذ قامت لهم دولة يرده كذلك.

فكل من نظر بعين الاعتبار والبصيرة إلى مقاصد الشريعة علم أن الدين انما اشتهر وانتشر بالدعوة والتبليغ لا بالإكراه والإلزام، ذلك لأن الحرب شر عظيم يترتب عليه سفك الدماء، ويُتم الأطفال، وتأيم النساء، ولذلك فإن القرآن لم يأذن بالجهاد إلا للضرورة التى هى المدافعة عن الحق، والسلم هو الأصل الذى يترتب عليه راحة الناس، واطمئنانهم ، لهذا سمى الله الإسلام سلما فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً ﴾ [البقرة : ٢٠٨] أى فى الإسلام لأنه دين السلام ، والأمان ولهذا أمر الله بايثارها على الحرب فقال ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ [الانفال : ٦١] .

***

الباب الثالث

الأصل فى الإسلام السلام

* قانون السلام فى الاسلام .
* حرب المسلمين وحرب غيرهم .
* الشهادة عند الجهال والأعداء .
* المبادىء والقيم والأخلاق ابتداءً وانتهاء .
* بين عالمية الاسلام والنظم الوضعية .
* تعليق خفيف .
* تعليق آخر .
* الأسلام ووجوب إقامة الدولة .
* دور الدولة فى الإسلام .
* مكونات الدولة فى القرآن
* مدنية دولة الاسلام .
* قضية محسومة سلفاً .
* الاجتراء على المشكلة .
* جهل أم مكابرة .

* * *



الأصل فى الإسلام السلام

قانون السلام فى الاسلام :

لقد دعا الإسلام إلى السلام العام بين البشر ، حتى أن كلمة السلام وردت فى أكثر من مائة آية ، بينما لم تذكر كلمة حرب ومشتقاتها إلا فى ست آيات فقط، وليست الحرب فى الإسلام للثأر أو الانتقام ، وإنما هى لإعلان الحق ودفع عدوان الباطل.

ولذلك فإن الإسلام يفتح باب الحوار مع كافة الأديان ليعيش الجميع فى أمن وأمان وهذا الحوار يستمد شرعيته من [1] :

أولا : المبدأ الإسلامى فى الدعوة إلى الكلمة السواء التى بينتها الآية الكريمة ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾[آل عمران: ٦٤].

وهذا الحوار يحكمه حسن اختيار الكلمة وقوة الحجة ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣] . ﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾[النحل : ١٢٥] .

ثانيا : استبعاد العنف بكل مظاهره المادية والمعنوية، فما انتشر الإسلام إلا بحكمة رجاله، وقوة إيمانهم، واسترشادهم بقول ربنا ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[النحل: ١٢٥] وتوجيهات الرسول ﷺ لصحابته باق ما بقيت السموات والأرض« بشروا ولا تنفروا ويسروا ولا تعسروا».

ثالثا : التعايش المطلوب مع أصحاب الديانات الأخرى ، وترك الحرية

---

(١) من بحث قدمه الدكتور ادريس العلوى العبودى رئيس جامعة القرويين وعضو أكاديمية المملكة المغربية فى مؤتمر القاهرة عن أسس الحوار الإسلامى بين الأديان ١٩٩٦م.

لممارسة شعائرهم ، فلا نكره أحداً على ديننا ، ونقول لهم :(لكم دينكم ولى دين) مع المحافظة على الدين ، والنفس ، والنسل ،والمال ، والعرض.

رابعاً: رفض الغلو فى جميع الأديان ، فالغلو مرفوض بنص الكتاب والسنة والقواعد الفقهية ، وها هو القرآن يوجه أهل الكتاب إلى عدم الغلو فى الدين ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ [النساء:١٧١] إنه سلام البشرية كلها، وليس سلام الأبيض دون الأسود ، ولا العجمى دون العربى ولا السيد دون العبد ﴿ ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً ﴾[البقرة : ٢٠٨] .

والحق يقال : وإن كان السلام هو روح الإسلام ، إلا أن السلام ليس هو الحقيقة الوحيدة فى الاجتماع البشرى الذى يعرف كذلك وبضراوة التنافس والتناحر، وفى هذاالمعنى يقول القرآن الكريم ﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج : ٤٠] .

إذن فدفع الباطل وكشف شر قوم عن غيرهم بما خلقه الله وقدره من الأسباب هو درء للمفسدة ومجلبة للخير، ومن بين صور هذا الدفع يذكر القرآن الكريم القتال ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١٦] فإذا كان القتال حقيقة من حقائق الحياة ، وشأنا من شؤون الدنيا، فما أحرى الإسلام وهو دين ودولة بأن ينظم أموره ، ويرتب أحكامه، بل لقد كان الإسلام أول هدى أضاء السبيل أمام بشرية بربرية هوجاء ، تجعل من الحرب عديلا للإبادة ، وبديلا للتخريب ، ولا ترعى فى العدو إلاَّ ولا ذمة.

لقد كانت الحنيفية السمحاء النقلة الكبرى التى أخرجت الناس من ظلمات الأفكار اليونانية والرومانية عن الحرب مع الأعداء إلى نور ملأ الأرجاء، يقر للعدو بحقوق ويضمن للمحارب حمايات، ولم تكن هذه النقلة

كبرى بالقياس إلى وحشية الحروب التى عرفها العصر الإغريقى الرومانى، بل إنها لازالت كبرى بالقياس إلى ما يشهده اليوم بعد جهود أربعة قرون سلخها القانون الدولى المعاصر فى محاولات لهدهدة أهوال الحرب وتخفيف ويلاتها[١].

وواضح أن القانون الدولى الانسانى لا يمكن أن يؤدى دوره إلا إذا وفق بين المتناقضين :

أولاً : إعتبارات الإنسانية .

ثانياً : متطلبات الضرورة.

فالانسانية تشده إلى التوادد والتراحم، والضرورة تدفعه إلى القوة والتزاحم وينجح القانون الدولى والإنسانى فى تحقيق أهدافه وغاياته بقدر ما ينجح فى التوفيق بين هذه المتناقضات، ولقد لخص الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه هذا الدور للقانون الدولى الإنسانى الإسلامى، فى حديثه الشريف «أنا نبى المرحمة، وأنا نبى الملحمة » فقرن الملحمة بالمرحمة، وقدم المرحمة حتى يقر فى قلب المقاتل المسلم بأنه يد العدالة ،وليس سيف النذالة، وقد كان الرسول ﷺ دقيقا فى اختيار اللفظ، فهو عندما اختار المرحمة قصد التعبير عن العواطف والتراحم فى علاقات متبادلة،ولذلك فضل الرحمة على الملحمة، أما الملحمة وإن كانت تعنى القتال الشديد والمعركة العظيمة، إلا أن معناها القتال فى الفتنة،وليس مجرد القتال، فدل بذلك على أن ملحمته ليست ملحمة الغلبة والسلطان، وإنما هى ملحمة درء الفتن وتحقيق الأمان. وفيها أيضا معنى الاصطلاح ففى اللغة لحم الأمر إذا أحكمه، وتلك هى غاية القتال فى الإسلام وهى أيضا ضابط يضبط سلوك المحارب المسلم[٢].

---

(١) قانون السلام فى الإسلام صـ ٢٧٢ دراسة مقارنة د. طلعت الغنيمى استاذ القانون الدولى العام بجامعة الاسكندرية .

(٢) المرجع السابق.

وفى هذه المعانى السامية تلتقى المرحمة مع الملحمة، ويظهر فى القرآن بوضوح وجلاء أن الأمم لها حق تقرير مصيرها، فإذا حيل بينها وبين ذلك كانت الملحمة، والقرآن يعزز ذلك فى قوله تعالى ﴿ وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء : ٧٥ ـ ٧٦] وهنا تختلف حرب المسلمين عن غيرها من الحروب ، فشتان بين حرب تبغى إقرار الحق والعدل والأمن وغايتها الله، وحرب تدمر كل شيء ابتغاء مرضاة الأهواء والنزوات والسيطرة والملك.

حرب المسلمين وحرب غيرهم:

فأين هذا من حروب الدول الأوربية؟ إن دولة النصارى فى فتوحاتها تحرص على نشر تعليم لغاتها ، وتاريخ عظمتها، وسياسة ملكها، وينالون من الإسلام بهضمه وذمه، وصد الناس عنه، وما الجزائر منا ببعيد بل وليست الجزائر فحسب ولكن ارجع البصر هل ترى من عدل أقيم فى أى بلد استعمره الغرب، أم طمسوا هويتها واستبدلوا الذى هو أدنى بالذى هو خير، فغزوها غزواً فكريا لا أقول صاغ العقول صياغة غربية فحسب بل جعل اللسان لسانا أعجميا، يقول المبشر تكلى: « يجب أن نشجع انشاء المدارس على النمط الغربى والعلمانى ، لأن كثيرا من المسلمين قد تزعزع اعتقادهم فى الإسلام والقرآن، حينما درسوا الكتب المدرسية الغربية وتعلموا اللغات الأجنبية»[١].

إن الناظر البصير يرى من يوم أن انحسرت الخلافة الإسلامية عن بلاد المسلمين وغاب الحكم الإسلامى عن واقع حياتهم، تحركت قوى خارجية

(١) التبشير والاستعمار عمر فاروخ صـ ٨٨.

وداخلية، عالمية ومحلية تعمل ليل نهار من أجل تحقيق هدف واحد أثيم، وغاية دنيئة، استخدم من أجلها شتى أنواع الحروب العسكرية والفكرية والاقتصادية والنفسية، تحاول أن تقوض بذلك أركان الإسلام، وتطوى راية الإيمان وتطفىء النور الذى أضاء الدنيا ، وبعد محاولات عدة جيشت جيوشها لتغزو بلاد المسلمين غزوا فكريا ؛ لتهدم به الشخصية الإسلامية، وتطمس معالمها الإيمانية ، وتشوه هويتها المتميزة بعد أن تأكدت أن سر قوة المسلمين فى هذه الشخصية الأخلاقية الإيمانية[١].

أليس هذا إعتداءً وإكراها والزاماً لمنهج لا نؤمن به ؟ أليس هذا طعنا لهدم مقومات دين الإسلام ليبقوهم فى رق الاستعمار وذل الاستعباد؟ فأين هذا من فتوحات المسلمين ؟ فما فتح الصحابة رضوان الله عليهم بلدا إلا والدعاة خلفهم يبينوا للناس حقيقة الإسلام وأحكامه وفرائضه ، وما يترتب عليه من الأجر والفضل فى الدنيا والآخرة ، والتاريخ شاهد على ذلك.

إن المسلمين عاملوا مَنْ دخل تحت سلطانهم معاملة حسنة بمقتضى العدل والانصاف ، حيث ساووهم بأنفسهم فى جميع المعاملات، وأقاموا أنفسهم مقام الحماة لهم دون دمائهم وأموالهم، فلا يتعرض لهم أحد بسوء ، ولا يجبرهم على الدخول فى الدين ، بل يحترم عقائدهم ومعابدهم ، فلا يتعرض لهدمها ، ولا يمنعون أهلها من دخولها ، وقد أوصى عمر بأهل الذمة خيراً ، بأن تقبل من محسنهم ويتجاوز عن سيئهم، وهذا مما تواترت به الأخبار والتاريخ تواترا صحيحا لا يقبل الشك فى جملته.

الشهادة عند الجهال والأعداء :

يظن البعض أن قول رسول الله ﷺ : « أمرت أن أقاتل الناس حتى

---

(١) التغير على منهاج النبوة للمؤلف صـ ٣٩.

يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، ويقيموا الصلاة يؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام ، وحسابهم على الله تعالى»(١) الثاني: يظنون أن الرسول ﷺ يلزم جميع الناس أبيضهم وأسودهم ، عربيهم وعجميهم ، يهوديهم ونصرانيهم ، مجوسيهم ومشركهم ، فى الدخول فى دين الإسلام ولا خيار إلا القتل.

والحق يقال هذا ظلم بيّن وجهل وافتراء فاضح وبيان ذلك:

أولا: أن المسلمين لم يضيقوا على أحد أو يحرجوه لأجل خروجه عن دينه ودخوله دين الإسلام لأن الله نهى عن ذلك بقوله ﴿ **لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ** ﴾[البقرة:٢٥٦].

ثانيا : إن مشركى العرب لم يكن لهم دين مبنى على عبادة أو معرفة ، ولم يكونوا يؤمنون بالبعث والحساب ولا يصدقون بالجنة ولا النار .

ثالثا: هؤلاء المشركون يسكنون جزيرة العرب وهى دار الإسلام ومأرز المسلمين وعقر دارهم، وجزيرة العرب هى الحجاز ونجد وفى غيرهما الخلاف.

رابعاً: هؤلاء هم الذين آذوا النبى ﷺ وصحبه إبتداء ، واعتدوا عليهم وآذوهم وأخرجوهم من ديارهم وأموالهم وقعدوا لهم كل مرصد ، ووقفوا فى سبيل الدعوة حتى هاجر المسلمون إلى الحبشة ثم إلى المدينة ، ورسول الله ﷺ يقول: « والله إنك لأحب بلاد الله الىّ ولولا أن قومى أخرجونى منك ما خرجت » .

خامسا: لم تقبل منهم الجزية وذلك بعد الإذن بقتالهم لما فعلوه بالنبى ﷺ، ولم يكن الإذن بقتالهم إلا للدفاع عن الحق وأذى الخلق، يقول الله تعالى: ﴿ **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ الَّذِينَ أُخْرِجُوا**

---

(١) رواه البخارى ومسلم فى حديث ابن عمر.

من ديَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[الحج : ٤٠ ـ ٤١]

سادساً : هم الأعداء الألداء الذين تحزبوا مع الأحزاب فى عام الخندق، وهم قتلة القرّاء فلم يبقوا صلحا مع النبى وأصحابه ، وهم الذين أنزل الله فيهم صدر سورة براءة ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾[التوبة : ٥] .

سابعاً : لذلك أمر رسول الله ﷺ ألا يترك فى جزيرة العرب إلا مسلم وهى كما قال البخارى فى فتح البارى « جزيرة العرب التى يُمنع المشركون من سكناها هى مكة والمدينة واليمامة وماوالاها لا فيما سوى ذلك مما يطلق عليه اسم الجزيرة » إن هذه مساكن العرب من قديم الزمان ، والعرب فيها من أرفع الناس رأسا وأقواهم بأسا، ولقد أوحى إلى النبى ﷺ بإخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا يبقى فيها إلا دين الإسلام.

ثامناً : المقصود إذن بقول رسول الله ﷺ « أمرت أن أقاتل الناس » هم مشركوا العرب فحسب وليس الناس جميعا ، فالذى ثبت عن رسول الله ﷺ وصحبة الكرام أنهم كانوا يخيرون الناس ـ كما سيأتى بمشيئة الله تعالى ـ ولم يجبروهم ، على دين الإسلام فالألف واللام فى كلمة « الناس » هى للجنس ويعنى بالناس هنا قريشا نظير قوله تعالى ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ ﴾ [آل عمران : ١٧٣] والقائلون أن الناس قد جمعوا، لكم هم فرد أو أفراد من الناس، كما أن الناس الذين جمعوا لقتالهم هم أبو سفيان ومن معه وليس الناس جميعا.

أما فتوحات الصحابة والمسلمين من بعدهم فاسألوا التاريخ من البادىء بالعدوان، أليس جيران جزيرة العرب من الروم فى الشام ومصر وفارس والعراق هم الذين اعتدوا على بعض من أسلم من المسلمين ، فأخضعوهم لسلطانهم؟

إنه من المعلوم أن فارس والروم كانتا أمتى حرب وقتال ولديهما الاستعداد التام بالعدد والعتاد ، وقد ضربتا بخبراتهم على ما جاورهما من بلاد العرب، وقد سعيا سعيهما فى إضلال العرب وفى فساد دينهم وفى تنكرهم على الرسول ، والعرب مستزلون تحت سلطانهم وسيطرتهم .

ومع هذا كله فإن المسلمين فى دعوتهم لهما لم يستعملوا القوة فى بداية أمرهم ، وإنما يطلبون من الممتنعين بأن يسمحوا لهم بنشر دين الله ، ودين الحق ، ودين جميع الخلق وهم فيهم ﴿ **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ [المائدة : ١٦] .

فمطالب الإسلام والمسلمين هى من الأمور السمحة السهلة ، غير أن الأمم المخالفة جاهدوا أشد الجهاد فى منع الدعوة وقبول الهداية ، لعلمهم أن ما يدعون إليه هو الحق الذى تقبله الفطر السليمة والعقل الحكيم ، فماذا يفعل المسلمون أمام هذه العداوة الضارية؟وربنا يقول ﴿ **قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ** ﴾ [التوبة ٢٩] وصاغرون هنا ليس معناها الذل والاحتقار ، إنما معناها يعطوا الجزية عن طاعة وإذعان للإسلام، وهى جزاء عن حمايتهم ، ومنعتهم ،تدوم بداومها وتزول بزوالها.

فقيام الإسلام إذن إنما هو بالدعوة والحجة، وانتشاره السريع على بلدان العالم انما هو بموافقته للفطرة ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ ﴾ [آل عمران : ١٩] ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٩].

فماذا عسانا أن نفعل حين يهم العدو والطامع باغتصاب بلادنا، أو شيء من حقوقنا ، أو أراد استذلالنا، أو العدوان على استقلالنا ، ونهب ثراوتنا، ومنع حرية دعوتنا ؟ ألا يستحق ذلك أن نتحلى بالشجاعة ، ونرتدى رداء العزة والكرمة ، ونتوكل على خالقنا ، ونركن إلى من بيده النصر فنقاتل بعد الإعداد ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الانفال: ٦٠].

حتى تكون حقوقنا محفوظة ، وكرامتنا مصونة ، وهويتنا واضحة ، فيكون هذا القتال فى سبيل الله بقصد إرهاب الأعداء ، وإخافتهم من عاقبة التعدى على المسلمين وعلى بلادهم وشعوبهم ، و نكون فى هذه الحال كالجسد الواحد إذا اشتكى بعضه اشتكى كله .

لقد كتب الله القتال على المؤمنين وهو مع كراهيتهم له خير لهم. وخير للبشرية كلها ، حيث هدى الله به وبدينهم ودعوتهم أعظم شعوب الأمم من النصارى والعجم وسائر الأمم فاسلموا وحسن إسلامهم ، حيث فتحوا الكثير من ممالك الشرق والغرب ، حتى استولوا على بعض بلاد أوربا وفارس، ونظموا فيها دولة عربية مسلمة كانت سعادة للبشرية كلها، وكانت زينة الأرض فى العلوم والفنون والحضارة والعمران.

ولقد انتشر الإسلام من أواسط أسيا شرقا إلى المحيط الأطلسى غربا ودخل الناس فى دين الله أفواجا ، حين عرفوا محاسنه ، وذاقوا طلاوته ، ورؤا

عدل سادته ، ومن اختار منهم البقاء على دينه فإنه آمن على ماله ودمه، وعاشوا فى ظل الإسلام والمسلمين فى أمن وأمان وسعادة واطمئنان .

ولقد شهد بذلك « **جوستاف لوبون** » وهو من أكبر فلاسفة الاجتماع والعمران والتاريخ من الافرنج بقوله: « إنه ما عرف التاريخ فاتحا أعدل ولا أرحم من العرب المسلمين فى فتوحاتهم » .

ويقول « ولز» الإنجليزى: « إن الإسلام قد ساد لأنه أفضل نظام اجتماعى وسياسى تمخضت به الأعصر، وإن الإسلام قد ساد لأنه وجد أمما استولى عليها الخمول، وكان فاشيا بها الظلم والنهب والعسف، وكانت بدون تهذيب ولا ترتيب، فلما جاء الإسلام لم يجد إلا حكومات مستبدة ومستأثرة، منقطعة الروابط بينها وبين رعاياها ، فأدخل الإسلام فى أعمال الخلق أوسع فكرة سياسية عرفها البشر، وقد مدّ إلى البشرية يد المعونة، ولم يبدأ المسلمون بالانحطاط إلا عندما بدأت البشرية تشكك فى صدق القائمين به [(١)].

ويقول «لوثروب ستودارد» الأمريكى « العرب المسلمون فى فتوحهم لم يكونوا قط أمة تحب إراقة الدماء ، وترغب فى الاستيلاب والتدمير، بل كانوا على الضد من ذلك أمة موهوبة جليلة الأخلاق والسجايا ، تواقة إلى ارتشاف العلوم ، محسنة فى اعتبار نعم التهذيب، تلك النعم التى انتهت إليها من الحضارات السابقة. . . . [(٢)].

وهذا هو السبب فى سرعة انتشار الإسلام فى الأقطار؛ إنه فى هذا الكتاب المنير الذى صنع هؤلاء الرجال، ففتحوا الكثير من الأمصار والأفكار، بدون أن تصل إليها السيوف، بل دخلوا فيه طائعين مختارين، فقويت شوكتهم

---

(١) مختصر التاريخ العام - لويلز صـ ٣٠٣.

(٢) حاضر العالم الإسلامى لوثروب ستودارد من مقدمة الكتاب.

وكثرت خيراتهم ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف : ٩٦] .

المبادىء والقيم والأخلاق ابتداءً وانتهاءً :

إن الإسلام الذى شرع الجهاد للدفاع عن الدعوة الإسلامية ولمنع الظلم والعدوان، وإرهاق الشعوب من أمرهم عسرا، وضع له قواعد وأصولا، ومباديء وحدود، لا ينبغى أن يتجاوزها المقاتلون لتعلوا القيمة ويرسوا المبدأ، وتسود الأخلاق التى بعث رسولنا ﷺ ليتمم مكارمها، فكان ﷺ إذا بعث جيشا أو سرية أوصى القائد والجنود تقوى الله قائلا لهم: اغزو باسم الله، قاتلوا من كفر بالله، ولا تقتلوا وليدا ،ولا تغلوا ،ولا تغدروا ،ولا تمثلوا».

وكذلك فعل الصحابة رضوان الله عليهم من بعده فأبو بكر الصديق يوصى جنده بتقوى الله، ثم يقول لهم مذكراً : « إنكم لن تنتصروا على عدوكم إلا بقدر قربكم من الله وبعدهم عنه» وعمر رضى الله عنه يقول لهم: «أخوف ما أخاف عليكم الذنوب فإن ذنوب الجيش أخوف عليه من عدوه» .

إنها حروب لا تنتهى بإثارة الأحقاد بل رحمة بالمغلوب، ورفقا به وعدم ذله واسترقاقه، ولهذا انتشر هذا الدين بأخلاق أصحابه ومبادئهم وليس بسيوفهم وأسلحتهم كما يدعى المغرضون.

وها هو الفيلسوف الفرنسى المعروف والشاعر الشهير « فولتير» يبدى وجهة نظره حول الإسلام، معلنا وقوفه بجانب الحق، وذلك بقوله: «ليس بصحيح ما يدعى من أن الإسلام استولى بالسيف قهرا على أكثر نصف الكرة الأرضية - كما يشيع المغرضون وأعداء هذا الدين السمح - بل كان سبب انتشاره شدة رغبة الناس فى اعتناقه بعد أن أقنع عقولهم، وأن أكبر سلاح استعان به المسلمون لبث الدعوة الإسلامية ،هو إنصافهم وتخلقهم بالشيم والخصال

الكريمة العالية اقتداء بالنبى محمد ﷺ»

ويقول الفيلسوف الإنجليزى « وينتوب كيهمبال » لم ينتشر الإسلام من أقصى المحيط الأطلنطى إلى أقصى المحيط الهادى فى مدة قصيرة، إلا لأنه امتاز بالمساواة والعدالة .. ويستطرد قائلا : وفى الفترة الأخيرة اعتنق الدين الإسلامى أهل الملايو والصين، والهند، وأوربا، واليابان، ونشر روح الإخاء الحقيقى المنزه عن المصالح والانانيات والغطرسة، ومما يجدر ذكره أن الدين الإسلامى قد انتشر الآن فى بلاد لم يصلها قبل الحكم الإسلامى، ولم تكن ضمن الفتوحات الإسلامية .

أما المؤرخ والفيلسوف الإنجليزى المعروف « هـ. ج ويلز» فيقول : كان محمد بن عبد الله الرجل الأمى العظيم هو الذى أرشد الجزيرة العربية والأمصار الأخرى وهداها إلى الحق المبين، وقد ظل حتى سن الأربعين لا يميز نفسه بشيء غير مادى عن بقية معاصريه وأبناء جلدته، مع أنه كان يحمل صفات ميزته كثيرا عن الآخرين، وكان أن اختاره الله لتبليغ الرسالة لجميع البشر ، وقد كان القرآن الكريم هو الكتاب المعجزة التى أسس من خلالها هذا الدين السمح المتسامح[١].

ويقول العالم الأمريكى « وول ديوارنت » : « اذا حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من أثر فى الناس، قلنا إن محمدا من أعظم عظماء التاريخ، وقد أخذ على نفسه أن يرفع المستوى الروحى والأخلاقى لشعب ألقت به الظروف فى دياجير الهمجية، وحرارة الجو، وجدب الصحراء ، وقد نجح فى تحقيق هذا الغرض نجاحاً باهرا، وقل أن نجد إنساناً غيره استطاع خلال جيل واحد أن ينشيء دولة عظيمة، وأن يبقى حتى يومنا هذا قوة ذات تأثير جلى جليل

---

(١) مختصر تاريخ الإنسانية . هـ . ج. ويلز.

في نصف العالم » [١].

ويقول المؤرخ « أرنولد توينبى » عن الإسلام أنه من أكثر العقائد الدينية اتفاقا مع المنطق ، وأشدها صرامة فى الإيمان . بمبدأ الوحدانية الحكيم، وأعظمها وضوحا فى إدراك الاستشراف الإلهى وتسامى الذات الإلهية»[٢].

ويقول المستشرق « فوف جرينارم» : «إن مجموعة التراجم التى انتجها العلماء المسلمون لشيء يدعو للإعجاب نسبة لكثرتها، ودقتها وأهميتها، وما جمعته من مادة رائعة، وأن علماء أوروبا فى العصور الوسطى لم يكن لديهم من العلم والمعرفة ما يقارن بعطاء ونتاج معاصريهم من علماء المسلمين فى هذا الميدان» .

وعن اكتشاف أمريكا يقول العالم الأوروبى « تايلر» : « إن الملاحين الأسبان والبرتغاليين الذين اكتشفوا أمريكا ورأس الرجاء الصالح، قد أخذوا الفنون البحرية وتعلموها عن معلمى العرب المسلمين وهم مدينون لهم بهذه الاكتشافات » [٣].

ويرجع كثير من العلماء والباحثين الأوربيين ومنهم « خوان بيرانيث » أستاذ العلوم العربية بجامعة برشلونة فى بحث له بالعدد الأول من مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، مشيراً إلى أسباب نجاح رحلة كولمبس مكتشف أمريكا ، بأنها نتيجة لإلمامه بالمعارف والعلوم البحرية للملاحين العرب المسلمين ، واطلاعه على المؤلفات الجغرافية العربية ، وقد كتب كولمبس عن نفسه أن من الدوافع التى دفعت به إلى اجتياز المحيط ، ما قرأه فى بعض مؤلفات ابن رشد عن استدارة الأرض

---

(١) موسوعة تاريخ الحضارة الإسلامية وول ديورانت.

(٢) مدخل تاريخى للدين - أرنولد توينبى

(٣) التاريخ الإسلامى - لتايلز.

وفى هذا المعنى يقول: « ولتر غالشيان» يعود الفضل فى كشف العالم الجديد إلى ما أعلنه علماء المسلمين عن كروية الأرض ، وإلى أبحاث ابن رشد التى اطلع عليها كولمبس » (١).

وعن الدين الإسلامى وشموله وعدالة أحكامه وتشريعاته الاجتماعية والروحية والسياسية يقول المفكر الأوروبى« المسيو أوجين بوغ » : إن الإسلام بالإضافة إلى أنه دين ربانى ونهج سياسى حكيم، يشتمل على خلاصة طيبة من البساطة والعدل وهو كذلك نهج روحى إجتماعى وإنسانى ، عادل وحكيم لا يمكن للعالم أن يتوفق إلى ايجاد نهج مثله يناسب سعة انتشاره، ومطابقته لمقتضيات العالم الحديث، وهو كذلك العدو الأكبر للاستعمار والمباديء الإباحية والهدامة، التى تستهدف إنسانية الإنسان وبنية عائلته ومجتمعه، وهو يلائم جميع الظروف، ويتسق مع جميع المدنيات وحركة التطور والنهوض الإنساني» (٢).

هذا هو الإسلام الدين الخالص الذى ارتضاه الله للناس كافة ليسعدوا فى دنياهم بحياة آمنة مطمئنة، وفى أخراهم بجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين فى دار السلام .

هذا هو الدين الذى قال فيه أعداؤه الجاحدون واتباعه الجاهلون إنه يسموا بالروح ولا شأن له بأمور الحياة ، فجعلوا منه دينا كهنوتياً لا يخرج من جدران المسجد ليكون واقعا على الأرض كمنهج حياة ، وقالوا : لا سياسة فى الدين ولا دين فى السياسة ، وفصلوه عن الدولة.

---

(١) تاريخ اشبيليه- ولترغالشيان.

(٢) يقظة الإسلام والعرب - المسيو أوجين بوغ . فى مقالة للأستاذ عصام مفلح فى جريدة الاتحاد الجمعة ١٩أكتوبر ١٩٩٠ بتصرف

وآخرون جعلوا منه دين العنف والقوة والسيف والقهر والإكراه ، وشوهوا صورته، وأساؤا إلى أتباعه ونفَّروا الجاهلين به ، وأعطوا الفرصة لأعدائه لتشويهه ، ووقف بعضهم يصف دولة الإسلام بأنها دولة دينية ، واعتبروها نقيضا للدولة المدنية وهم بذلك يتعمدون طمس الفروق الأساسية بين الدولة الدينية بمفهومها الغربى والتى تنهض على الحق الإلهى ، ويستمد حكامها سلطتهم من السماء، الأمر الذى يجعل الحكم أمراً دينيا فوق النقد والمساءلة، فهل دولة الإسلام كذلك؟

بين عالمية الإسلام والنظم الوضعية

يقول استاذ من اساتذة العلمانية[١]: متحدثاً عن النظام العالمى الجديد الذى يعترفون به لأنه أمريكى الصنع وضعى، أما إذا تحدثنا عن النظام العالمى الربانى الاسلامى . ينكرون علينا ذلك، بل ويسخرون مما نقول، أما هو المؤمن بالنظام الوضعى فيقول : إذا كان الديمقراطيون فى كل مكان قد أيدوا سقوط الشمولية السياسية ـ يقصد الشيوعية ـ فإنه مع تحكم الولايات المتحدة الأمريكية فى النظام الدولى بعد انهيار الاتحاد السوفيتى استنادا إلى قوتها الفائقة، بدأت موجة غلابة تسعى إلى فرض النموذج الرأسمالى على العالم،ـ يقول «فرض» وليس إقناعا ولا دعوة اليه إنما جبرا وفرضا وقسرا ـ باعتباره هو النموذج الأمثل وخصوصا بعد فشل الماركسية فى التطبيق.

« وجدير بالاهتمام الشديد الإلتفات إلى أن المحاولات الفكرية فى المعسكر الغربى لتحويل الرأسمالية إلى مذهب أيديولوجى شمولى، تمت منذ عقود عديدة سابقة بزمن طويل على انهيار الاتحاد السوفيتى عام ١٩٨٩م، وقد تم ذلك فى الواقع عبر طريقين متمايزين وإن كانا متكاملين.

---

(١) مارق الشمولية الفكرية السيد يس الأهرام السنة ١٢١ العدد ٤٠٠٧١ فى ٩٦/٨/٢٢.

الأول : تفرغ فـريق من أبرز المفكرين الغربيين لنقـد الماركسيـة فى النظريه والتطبيق وابراز مثـالبها الفكرية، والتركـيز على تقويض أسانيدها الفلسـمية، وبطلان مبـادئها السيـاسية ، ومن أبرز هذه المحاولات كـتاب هايك الشهـير «الطريق إلى العبـودية» بالإضافة إلى عـشرات من المفكرين والبـاحثين » هذا قوله .

تعليق خفيف :

« وهل يفعل الدعـاة إلى الله المعتدلين إلا هذا، وهم يـبينون للناس بطلان المشروع الوضعى البشرى، سواء أكان غـربيا أم شرقيا، أم أنهم إذا فعلوا ذلك كان ردة سلفية، ورجعـية متزمتة، وعقول متـحجرة، ويوصفون بكل وصف شاذ، لمجـرد أنهم يدعون إلـى مشروعـهم الحضـارى، إنها بلا شك الهـزيمة الداخلية والتبعية والدونية لدعاة المشروع الغربى».

ثم يواصل صاحبنا حديثه قائلاً:

« غير أن الطريق الثانى الذى فـتحه بذكاء واقتدار عالم الإجـتماع الفرنسى ريمون أرون حين صـرح قائلاً: إننا لن نسـتطيع أبدا أن ننافس الماركـسيـة فى صياغة أيديولوجية مقننة مثلها، تنهض على أساس نسق فكرى متكامل، ذلك أن لها عـدة مسلمـات فلسفـية تنهض على أسـاسها، وتـتميـز ببلورة المنهج الجدلى، ولها تطبيقات متسقة فى مـيادين عدة، كالقانون والسياسة والاقتصاد والثقافة والفن والأدب».

تعليق آخر :

تدبر هذا الكلام عن الماركـسـية التـى سقطت وأصـبـحت تاريخ ليس له جغرافيا : لها نسق فكرى متكامل، ولها عدة مسلمات فلسمية، ولها تطبيقات متسقة فى ميادين عدة، أمـا الإسلام عند هؤلاء فلا شأن له بالقانون والسياسة

والاقتصاد والثقافة والفن والأدب. فلا يصلح عند هؤلاء أن يكون نظاما عالميا، وقد كان كذلك أكثر من ألف عام»

فإذا قال : فوكو ياما في كتابه « نهاية التاريخ » إن المباراة بين الماركسية والرأسمالية قد حسمت ، وإن الرأسمالية ستصبح هي مذهب الإنسانية إلى أبدا الأبدين صدقوا وآمنوا وهللوا وطبقوا ، فإذا قلنا نحن المسلمين: ﴿ **تبارك الَّذي نزَّل الْفُرْقَان علَىٰ عبْده ليكُون للْعالمين نذيرا** ﴾ [الفرقان ١] قالوا . ﴿**وقالُوا أساطيرُ الأوَّلين اكْتتبها فهي تُمْلىٰ عليْه بُكْرة وأصيلا**﴾ [الفرقان. ٥] وقالوا: ما هذه الشمولية الفكرية والعصبية الجاهلية !!

حتى ولو دعونا إلى ذلك بالحكمة والموعظة الحسنة، نعتونا بكل صفة تأباها النفس السوية، أما من يدينون لهم بالولاء والانتماء؛ فهم الذين يقولون عنهم: بدأ فرض هذا التفكير الأحادي ـ يقصد النظام العالمي الجديد ـ على دول العالم المختلفة من خلال الممارسات السياسية، والضغوط الدولية التي تتمثل أساسا في آليات الأقراض، وبرامج المعونة الاقتصادية، والوزن الثقيل للمؤسسات الدولية في فرض سياسات ، وآليات السوق الحرة على دول العالم الثالث هذا قوله في مقالته » .

فأي الفريقين يفرض ويرهب ويجبر، بل ويقتل من يعارضه، أو يقف أمام نظام الإسلام الذي قال فيه ربنا ﴿ **الَّذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظُلْم أُولَٰئك لهم الأمْنُ وهُم مُّهْتدُون** ﴾ [الأنعام ٨٢] والذي قال ﴿ **من عمل صالحًا مِّن ذكرٍ أوْ أُنثىٰ وهُو مُؤْمنٌ فلنُحْيينَّهُ حياةً طيِّبةً** ﴾ [النحل ٩٧ فأين هذا من النظم القائمة على الإعراض عن ذكر الله ﴿ **ومنْ أعْرض عن ذكري فإنَّ لهُ معيشةً ضنكًا** ﴾ [طه ١٢٤]

وهؤلاء المفكرون لا يؤمنون بما نقول فهم . عن ـ عيبية، تعيش في خيال

ليس له من الواقع نصيب،وكأن دولة الإسلام لم تقم لها قائمة على مرور العصور والدهور،وكأنها لم يتسع ملكها حتى وصلت من أواسط آسيا شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا، يسوسها حاكم وينظم حياتها كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه،ويحفظون بيضتها رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه .إنهم حين يتكلمون عن الإسلام لا يفرقون بين المصدر الربانى والوحى السماوى ، وغيره من عقول البشر التى تضع القوانين الوضعية ، فتراهم يجمعون بين الإسلام والرأسمالية والشيوعية دون تميز، فيقول مثلا: «وفى تقديرنا أن سيادة نموذج أيديولوجية واحدة وفرضها على المجتمع، ماركسية كانت أو رأسمالية أو إسلامية سياسية ، وادعاء أنها وحدها تملك الحقيقة المطلقة سواء أكانت هذه الحقيقة اقتصادية أو دينية ، أو سياسية، يمثل خطورة بالغة، ليس فقط على بنية المجتمع واستقراره السياسى، بل على إزدهار الشخصية الانسانية ذاتها .

فهل يجوز أن يسوى بين الإسلام وغيره بالرغم من أن الإسلام لا يكره أحدا على الدخول فيه واعتناقه ـ وبالرغم من أنه حين يعرض على الناس بل على الكارهين والكافرين به لا يفرض على أنه الحقيقة المطلقة ـ وإن كان كذلك ـ ولكن سيد البشر المنزل عليه الكتاب كان يقول للجاحدين والكافرين والمكابرين ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة : ١١١] أو يقول ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ : ٢٤].

إنه الإسلام وكفى الذى سيسود ويحكم الأرض، لأنه ما نزل إلا لينتصر ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ [الأسراء : ٩] .

وهذا الذى أقوله كلام كثير من العقلاء والعلماء ذوى البصيرة والبصر، وسأحيلك إلى كتاب توزعه وزارة التربية والتعليم عنوانه «الألفية الجديد

الرابحون والخاسرون» وهو كتاب لم يقدم له المتطرفون ولا المتعصبون حتى نقدم شاهدا مبرىء من التهم، ترجمه « لاتالى » المركز القومى للبحوث التربوية والتنمية، ويوزع على المدارس الحكومية، وقدم له الأستاذ الدكتور عبد الفتاح جلال، ويبين الكتاب أنواع الحروب الحديثة، من اقتصادية وفكرية، وإن كانت الحروب التقليدية العسكرية ما زالت إلى يومنا هذا.

يقول : حين نتكلم عن النظام العالمى الجديد الذى يبشروننا به، وما ينشره من أمن وأمان، وسعادة ووفرة، فإننا حين نلقى نظرة متكاملة إلى ما قاله «أتالى» عن هذا النظام ، وعن سيادة القانون الاقتصادى فى النظام العالمى الجديد، وسيطرة القوة الاقتصادية على ما عداها من القوى العسكرية والفكرية والثقافية، وحلول أيدولوجية السوق الحر والاستهلاك، محل اعتناق الايديولوجيات والأديان، وضرورة توافر شروط لدى القوة العظمى المؤهلة فى القرن القادم لهذا الدور، ومنها تبنيها لقيم اجتماعية يمكن لشعوب العالم اعتناقها، وما ذكره الكاتب عن ظهور الفاشية والنارية الجديدة، وعدائها للمهاجرين السود وغيرهم، الذين قام على أكتاف الكثير منهم إعادة بناء أوربا بعد الحرب العالمية الثانية، وشاركت دولها الحلفاء فى هذه الحرب، حتى كتب لهم الانتصار، والصراع المنتظر بين المسيحية والإسلام، أو وضع الإسلام والمسلمين فى صورة العدو فى القرن القادم بدلا من العدو الشيوعى، نظرة متكاملة إلى كل هذا ـ مع قراءة لما يجرى من أحداث فى أوربا حاليا، وفيها أحداث البوسنة والهرسك، يحملنا على الاعتقاد بأن النظرة المقصودة للفكر فى النظام العالمى القادم، ما هى إلا امتداد للنظرة التى لا ترى محلاً لما وراء الميتافيزيقا، وترفض الألوهيات والأديان جملة وتفصيلا، وتسعى لأن تضع مكانها أيدولوجية بشرية .

وعندما زالت الشيوعية كأيدولوجية، نشط أصحاب الاجتهاد ليحلوا محلها أيدلوجية بديلة، وهنا تطرح على حد تعبير « أتالى » أيديولوجية السوق الحر والاستهلاك، محل اعتناق الايديولوجيات والأديان، والقانون الاقتصادى للربح المادى محل القانون الالهى للربح الخلقى والديني، وإن كان هناك ضرورة لتقوية القانون الاقتصادى فلنلجأ إلى بعض القيم الاجتماعية عامة التى يمكن لشعوب العالم اعتناقها.

وهكذا نرى فى هذا الفكر رفضا للأديان السماوية، وهو أمر نثق فى منطقتنا من العالم ـ مهد الأديان السماوية ـ أنه ليس فى صالح الإنسانية، بل أنه يؤدى إلى شقائها، ودليلنا على ذلك ما تكابده الآن الجمهوريات التى ورثت الاتحاد السوفيتى السابق، وما تعانيه ـ وبخاصة فى روسيا ـ من حالة ضياع وتفكك وانهيار، أدى بمافيا الجريمة ان تحل محل الدولة أو تكاد، وتفرض قوانين الغاب بدلا من القوانين التى تحمى حقوق الإنسان.

كذلك نعتقد فى إطار هذه النظرة أن أمرا يبيت لجعل الإسلام والمسلمين هم الخاسرون فى الألفية الجديدة، ونعتقد أن نارا يمهد لإشعالها بين أصحاب الديانات﴿ **كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا** ﴾ [المائدة : ٦٤] خاصة بين الديانتين الكبيرتين على الكوكب الأرضى الإسلام والمسيحية، ليدب بينهما الصراع، فتخلو الساحة لأصحاب الفلسفات والأيديولوجيات المادية، فتكون الفئة الأخيرة الرابحة، والفئة الأولى الخاسرة.

ونحن نعتقد أن الغلبة ستكون لأصحاب الدين والخلق ﴿ **إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ** ﴾ [غافر: ٥١] فالحضارة الإسلامية هى التى ستسود، فإذا ما تمسك أصحابها بأركانها وحسنوا فهمها وتطبيقها، لصاروا من الرابحين فى الألفية الجديدة ﴿ **وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ** ﴾ [الصافات: ١٧٣].

ولكن ليس على أساس الكسب المادى فـقط ، وإنما على أساس الكسب الذى يقوم على التـوازن بين التقدم العلمى، والدينى والخلقى، وبين التـقدم المادى على نحو يحقق للحضارة الإنسانية تقدماً فى أبهى صورة، ودون أن يكون له آثار جانبية ضارة، وإن فرض وقامت فقيامها مؤقت، ودوامها محال، وآثارها الضارة كفيلة بالقضاء عليها، وليس هذا اسـتنتاجا منطقياً أو تحليلا عقليا، إنما هو ما أخبـرنا به القرآن الكريم عن حضارات مـادية سادت ثم بادت ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ وَثَمُودَ الَّذِيـــنَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ فَأَكْثَرُوا فِيـــهَا الْفَسَادَ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر : ٦ : ١٤].

بيد أن هناك صراعات ستنشأ بين الاتجاهين سيطرة المادة حيث ينتظر ـ على حد قول المؤلف ـ أن تتعبد جميع الأنظمة الاقتصادية فى محراب المال، وتقدم القرابين لآلهة الربح، وبين الاتجاه العقلانى نحو الحرص على توافر قيم تكفل للإنسانية السلام والبقاء على كوكب الأرض.

وينتـهى« أتالي» إلى أن الألفيـة الجـديدة سوف تكون عـصرا مـزدهرا أو مخـيفاً، وذلك يعتـمد على قدرتنا على كـبح جماح أحلامنا، حـيث ينبغى تواجد قيـود أخلاقية وبيولوجـية تحاط بالانسانية عند تجـاوزها، وتحقيق ذلك يتطلب توافـر قادة أو ساسـة فى القوى العظمى يعـرفون الحـاجة إلى القـيود والضوابط، ولديهم الشجاعة للتخلى عن الأفكار التقليدية للسيادة والسيطرة، وتتوافر لديهم القدرة على بذل أقصى الجهد لحل المشكلات العالمية المستعصية، فى جو من الحرية والتسامح والبعد عن التعصب.

وأكاد أرى « جاك أتالى » قـد انتهى من رؤيته المستقبليـة إلى يوتوبيا وفر فيها، أو تمنى أن يتوافر فيها، عالم يسود فيه العدل والسلام مع الثراء والرخاء

والوفرة ـ وما زال الكلام للمترجم ـ ولست أدرى كيف يمكن أن يتحقق ذلك فى آن واحد دون قيم تحكم طريق الشراء بحيث لا يتم فيه أى نوع من الاستغلال أو الظلم أو الكسب الحرام !!!

نتمنى أن يكون عالم الألفية القادمة عالم عدل وسلام ورخاء ورفاهية، وبلا ظلم أو حروب أو تسلط أو قهر، حيث ترفرف قيم الأديان السماوية فى ظل إيمان بالإله الواحد، وصدق الله العظيم إذا يقول: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٢] ونؤمن بقوله عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُون ﴾ [الأعراف : ٩٦].

سيقول البعض من أصحاب الفكر المادى ـ هداهم الله ـ ما هذا إلا أفكاراً ميتافيزيقية، ومن بينهم من يزعم أن بها أفكاراً خرافية، ونقول لهم : قد سبقكم الكثير بهذا القول ، وأثبتت حكمة الأيام ودروس التاريخ فضلا عن كتاب الله الكريم ، أن التدين أمر لازم لتقدم الانسانية» [1] .

هذا هو الإنصاف للإسلام وهذه هى الحرب المعلنة عليه ليل نهار ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة : ٢١٧] فمن المعتدى الآثم بعد هذا الإيضاح، أهم المسلمون أم غيرهم؟ وهل دولتهم دولة دينية بعد هذا التبيان، أم هى دولة مدنية؟

الإسلام ووجوب إقامة الدولة:

إن إتهام الإسلام بأنه دولة دينية بالمفهوم الغربى لون من ألوان الحرب الكلامية التى يجب أن نرد عليها بسلاح الكلمة والحجة .

ونود قبل أن نتحدث عن مدنية دولة الإسلام أن نقول: تشهد الأحكام

---

(١) مقدمة الكتاب للدكتور عبد الفتاح جلال مدير المركز القومى للبحوث التربوية والتنمية.

العامة فى التصـور الإسلامى لوجوب إقامة الدولة، وتلك حقـيقة تقررت فى اجتماع السقيفة إذ لم يخالف أحد من الصحابة فى أصل إقامتها، وإنما انحصر الخلاف فى صـفات من يتولى رئاستـها، ولذا لم يعتـرض أحد على أبى بكر عندما قال: «لابد لهذا الأمر من قائم يقوم به فانظروا وهاتوا برهانكم»[١].

وقد أشـار القرآن الكريم إلى الدولة مـنذ أن قدر للإسلام أن يكـون نظاما وتشريعا أساسه الحق والعدل ،غير مقتصر فى ذلك على ظهورها بل وكل إلى الرسول ﷺ ثم إلى المؤمنين به تنفيذها والجهـاد الخالص فى سبيل هذا التنفيذ بقوله تعالي﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء : ٥٤] .

ووجه الاستدلال أن المقصود بقوله تعالي﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ﴾ النبى محمد ﷺ إذ حسـده اليهـود منذ أقام الدين على أسـاس الدولة، فكان الرد أن هذا الذى اضطلع به الرسول ﷺ، لم يكن بدعا فى النبوات، بل لقد سبق أن آتى الله تعالى الملك العظيم لمن سـبق من الأنبياء[٢]، إلا أن كمال الأمر بالـعقيدة والشريعة لإقامة الدولة جاء بها الإسلام من يوم أن قال لنا ربنا ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائده : ٣] .

فالإسلام إذن دين قائم على قاعدة الدولة منذ قدر له أن يكون تشريعاً[٣].

ومن السنن التى يحتج بها بعض الفقـهاء فى ضرورة إقامة الدولة رواية ابن عمـر « من خرج من الجـماعة قـيد شبـر فقـد خلع الإسلام من عنقـه حتى راجعه، ومن مـات وليس عليه إمام جماعـة فإن موتته موتة جـاهلية » وقول

---

(١) كتاب قانون السلام فى الإسلام صـ ٣١٩.

(٢) المصدر السابق صـ ٣١٩ .

(٣) خصائص التشريع الإسلامى فى السياسة والحكم ص ٣٢٨ فتحى الدرينى.

عثمان بن عفان « إن الله ليزع بالسلطان ما لم يزع بالقرآن» وهذه الروايات وإن كانت لا تعتبر نصاً مباشراً فى مقام الدولة،إلا أن الاستشهاد بها لا بأس به فى تدعيم مدرك الدولة وتأكيد معقوليتها شرعا، وذلك لإن تحقيق مقاصد الشريعة الغراء لا يتم إلا بتنفيذ أحكامها، وهذا لا يتحقق إلا بالدولة، فكانت إقامة الدولة واجبة الوجوب بداهة، ولذلك فإن الامام ابن حزم يقرر أن العقل يوجب إقامة الدولة إذ يقول: « وقد علمنا بضرورة العقل وبديهته أن قيام الدولة بما أوجبه الله تعالى من الأحكام عليهم فى الأموال، والجنايات، والدماء، والنكاح، والطلاق، وسائر الأحكام كلها، ومنع المظالم، وإنصاف المظلوم، وأخذ القصاصَ على تباعد أقطارهم وشواغلهم، واختلاف آرائهم، فلا تصح إقامة الدين إلا بالإسناد إلى واحد أو أكثر من واحد » [1].

ويقرر الإمام الغزالي: «أن ذلك ـ أى الفتن وموت السلطان ـ لو دام ولم يتدارك بنصب سلطان آخر مطاعَ دام الهرج، وعم السيف، وشمل القحط، وهلكت المواشى، وبطلت الصناعات، وكان كل من غلب سلب، ولم يتفرغ أحد للعبادة والعلمَ وإن بقى حيا، والكثيرون يهلكون تحت ظلال السيوف. . . ولهذا قيل: الدين والسلطان توأمان ، الدين أساس والسلطان حارس وما لا أساس له فمهدوم وما لا حارس له فضائع.

ثم يتابع الإمام الغزالى قوله « فبان أن السلطان ضرورى فى نظام الدنيا، ونظام الدنيا ضرورى فى نظام الدين، ونظام الدين ضرورى فى الفوز بسعادة أخرى، وهو مقصود الأنبياء قطعا، وجوب تنصيب الإمام من ضرورات الشرع الذى لا سبيل إلى تركه » [2].

---

(١) الملل والنحل لابن حزم جـ٤ صـ٨٧.

(٢) الاقتصاد فى الاعتقاد للغزالى صـ ١٠٥، ١٠٦.

ولهذا نرى أئمة الفقه السياسى ينتهى بهم إجتهادهم إلى أن إقامة الدولة من أعظم مقاصد الدين، فيقول الإمام الجرجانى « إن نصب الإمام من أهم مصالح المسلمين وأعظم مقاصد الدين » [١].

دور الدولة فى الإسلام:

ولقد رسم القرآن الكريم للدولة الإسلامية دورها فى الجماعة الدولية فى قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ [الحج : ٤١] ومقتضى هذا أن الدولة الإسلامية مجندة للقيام بمهمة الإصلاح فى الأرض، بجميع وجوهه ماديا ومعنويا، فأمرها ليس مقصورا على الإصلاح العقائدى فحسب، بل يسهم بجهوده فى تدعيم أسس الحضارة الإنسانية، ويدلى دلوه فى حقول الرفاهية العالمية [٢].

ولذلك لم تعرف الدولة الإسلامية فى بداية عهدها التصور الغربى الثلاثى الذى يجمع: السلطة ، والإقليم ، والشعب ، إذ كانت نظرة الفقه الإسلامى إلى الدولة منبعثه من غاية تلك الدولة ألا وهى نشر الدعوة الإسلامية فى ربوع العالم ، والوصول بكافة الناس إلى اعتناق الإسلام ، ودعوة لها هذه الصفة العالمية لا يمكن أن تنحصر فى مكان أو تحد بحدود، ولذا نظر الفقهاء إلى السلطة فى الدولة الإسلامية على أنها سلطة شخصية، تتابع المسلمين أينما كانوا، وحيثما حلوا، وليست سلطة مكانية، تنحصر فى إقليم بعينه، وقد ساعد على تزكية هذه النظرة ما لقيه الإسلام فى عصوره الأولى من انتشار وازدهار، فكانت العزة للمسلمين، وقد دكت قواهم القلاع والحصون، ولم تقف أمام جحافلهم مناعة المشركين، هكذا كان تصور المسلمين الأوائل.

---

(١) شرح الجرجانى على المواقف صـ ٨ صـ ٣٤٦

(٢) قانون السلام فى الإسلام صـ ٣٢١

مكونات الدولة فى القرآن:

والدولة تعبير دخل الاصطلاح الفقهى الإسلامى فى العصر العباسى، بيد أن القرآن الكريم اتخذ لفظة أخرى للدولة، تلك هى القريـة، والقرآن فى تسميته للدولة بالقرية يحرص أن يقدم لنا الدولة فى أصغر صورها، حتى يمكن البناء عليها، إذ ما دام أن قرية واحدة يمكن أن تكون دولة، فإن عدة قرى يمكن من باب أولى أن تكون دولة، أما الأخذ بالعكس فيوقعنا فى حرج؛ فلو أن القرآن وصف الدولة فى تصور أوسع؛ لأثـار ذلك مشكلة الوحدات الأقل اتسـاعا، بيد أنها قرية ذات حد من التعداد الكافى [1].

ونستطيع أن نـستخلص مـقومات الدولة من مـفهـوم إشارة بعض الآيات الكريمة ، منها قـوله تعالى: ﴿ الَّذِيـنَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الـظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾ [النساء : ٧٥] .

فالقرية هنا ـ وهى الدولة ـ ذات شعب هم أهلها الظالمون، ولا بد أن يكون لها إقليم، إذ كـيف يتم الإخراج إلا من مكان محـدد معين، أما السلطة فـقد عـبرت عنهـا الآية فى الولاية والنصرة، حـتى يمكن أن يحـمى المظلومين من السـلطة القائمة على تلك القرية .

والحق أن وجود الإنسـان فى جماعة أمـر تقتضيـه طبيعة البـشر وحقيـقة الاجتماع، لأن الانسـان إجتماعى بطبعه، فليس من إنسـان يستطيع أن يعيش فى عزلة، لأن الناس خلقوا كـى يعيشوا فى جمـاعات، لعل « الفارابي» فى أهل المدينة الفاضلة، وبعده الكواكبى عبروا عن هذا المفهوم الاجتماعى .

وقـد كانت دولة المدينة المنورة أول تـصور إسـلامى للدولة، وقد تبـدت ارهاصاتها فى عهـد العقبة، فالذين بايعوا الرسـول ﷺ هناك لم يبايعوا على

(١) المصدر السابق صـ ٣٢٢.

الولاء الدينى فحسب، بل على أن يمنعوا الرسول ﷺ مما يمنعوا منه أنفسهم، ثم تأكد ذلك فى عهد المدينة، حيث جعل المؤمنين من المهاجرين والانصار أمة واحدة، فكانوا بذلك عنصر شعب الدولة الناشئة إلى جانب اليهود كأقلية محمية، وكانت يثرب إقليما، ويقول المؤرخون إن الرسول ﷺ كلف كعب بن مالك بأن يحدد إقليم المدينة.

وقد اعترفت مكة بهذه الدولة فى عهد الحديبية، الذى أبرم بين وحدتين تتعاملان على قدم المساواة ، وجدير بالذكر أن الرسول ﷺ وقع هذا العقد بصفته السياسية، لأن العهد لم يصفه بأنه رسول الله ولم يتضمن ما يفيد إقرار مكة بالإسلام العقيدة.

وبدأت الدولة الإسلامية بعد فتح مكة وانتصار المسلمين فى حنين، تنشر لواءها فى ربوع شبه الجزيرة ، وبدأت القبائل تفد من كل حدب وصوب لتقدم الولاء للرسول ﷺ، حتى أن آخر عام فى حياة الرسول ﷺ عرف بعام الوفود لكثرتهم، فلما ولى أبو بكر وصرف حياته فى حروب الردة، كان يصدر عن فكرة الدولة الموحدة، لأنه أصر على محاربة القبائل، حتى التى لم ترجع عن الدين ولكنها رفضت أن تدفع الزكاة له ، واستقرت الدولة الإسلامية بمفهوم متكامل للدولة مع ولاية عمر بن الخطاب، فاصبح واضحاً أن للدولة سمات دينية وسمات سياسية.

وعلى كل الأحوال هى دولة مدنية بمفهومنا الحديث.

مدنية دولة الإسلام :

الفرق الأساسى بين الدولة الدينية والدولة الإسلامية، هو أن الأولى تقوم على فكرة أن الله مصدر السلطات، بينما فى الثانية ـ الإسلامية ـ فإن الله مصدر القانون، بينما الأمة هى مصدر السلطة.

ولأن كل قانون لابد أن يكون له مصدر، هو عند الغربيين يتراوح بين القانون الطبيعى أو الرومانى، لكن المصدر المعتبر عند المسلمين هو ما أنزله الله بالنص، أو بالوحى فى القران الكريم والسنة، والإقرار بذلك لا يعنى مصاردة جهد البشر، أو إغلاق الباب دون الاستفادة من المصادر الأخرى ، وإنما يعنى أن القرآن والسنة هما الإطار المرجعى الذى يهتدى به فى هذا وذاك، بحيث يشترط فى كل الأحوال ألا يتعارض الجهد البشرى المبذول، مع ما هو قطعى الثبوت والدلالة من نصوص القرآن والسنة ـ وهو فى المعاملات قليل ومحدود ـ وألا يتعارض مع مقاصد الشريعة فى نهاية المطاف.

قضية محسومة سلفا :

ذلك التمييز بين مصدر السلطة، ومصدر القانون فى المفهوم الإسلامى لم يدركه أكثر الذين تحدثوا عن النظام السياسى الإسلامى، واعتبروه متبنياً فكرة الدولة الدينية، تلك التى سادت فى التجربة الغربية إبان العصور الوسطى، وأضفت على الحكام صفات العظمة والقداسة، ومن ثمّ سوغت لهم حق الترفع فوق الخلق، وإطلاق أيديهم فى ممارسة مختلف صور الاستبداد والبطش.

ومن المفارقات اللافتة للنظر فى هذا الصدد، أن الحوار الدائر الآن حول الدولة الدينية أثير بنفس الصورة فى بداية القرن الحالي، وللإمام محمد عبده كتاباتٌ شرح فيها المسألة وحسمها فى سنة ١٩٠٢ م ، رد فيها على ما كتبه فرح أنطون صاحب مجلة « الجامعة» حول قضية السلطة الدينية.

فعند الأستاذ الإمام أصولٌ خمسة أتى بها الإسلام كان بينها ما أسماه قلب السلطة الدينية ، وقال تحت هذا العنوان ما نصه ، « هدم الإسلام بناء تلك السلطة ومحا أثرها حتى لم يبق لها عند الجمهور من أهله اسم ولا رسم» .

وأضاف: « الخليفة عند المسلمين ليس بالمعصوم، ولا هو مهبط الوحي، ولا من حقه الاستئثار بتفسير الكتاب والسنة، ومن ثم فإن الدين لا يخصه فى فهم الكتاب، والعلم بالأحكام بمزية، ولا يرفع به إلى منزلة، بل هو وسائر طلاب الفهم سواء، إنما يتفاضلون بصفاء العقل وكثرة الإصابة فى الحكم، ثم هو مطاع ما دام على الحجة ونهج الكتاب والسنة».

«والمسلمون له بالمرصاد، فإذا انحرف عن النهج أقاموه عليه، وإذا اعوج قوموه بالنصيحة، والإعذار إليه، ولا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق، فإذا فارق الكتاب والسنة فى عمله، وجب عليهم أن يستبدلوا به غيره، ما لم يكن فى استبداله مفسدة تفوق المصلحة فيه، فالأمة - أو نائب الأمة: مثل المجلس النيابى أو غيره هو الذى يُنَصِّبُه، والأمة هى صاحبة الحق فى السيطرة عليه، وهى التى تخلعه متى رأت ذلك من مصلحتها فهو حاكم مدنى من جميع الوجوه.

ومن ثم قرر الأستاذ الإمام أنه لا يجوز لصحيح النظر أن يخلط الخليفة عند المسلمين بما يسميه الافرنج «ثيوكر اتيك» -عربت الكلمة الآن صارت «ثيوقراطية »- أى سلطان إلهى، فإن ذلك عندهم هو الذى ينفرد بتلقى الشريعة عن الله ، وله حق الأثرة بالتشريع، وله فى رقاب الناس حق الطاعة لا بالتبعية وما تقتضيه من العدل وحماية الحوزة بل مقتضى الإيمان.

منذ قيل هذا الكلام قبل تسعين عاما لم نعرف أحدا من علماء أهل السنة المعتبرين قال بغيره، ولا يعنى ذلك أن الإمام محمد عبده تبنى رأيا جديدا فى الموضوع خالف فيه سابقيه لأن الفكرة الجوهرية فى كلامه مستقرة فى فقه وفكر المسسلمين منذ العصر الأول، وإنما الذى نعنيه هو أنه أرسل ذلك الكلام فى مقام الرد على مَنْ نسب إلى الإسلام أخذا بمبدأ السلطة الدينية ، وهو حوار لم يعرض على سابقيه من علماء المسلمين فيما نعلم.

غير أن اللافت للنظر - والمدهش حقا - أن ما قاله فرح أنطون فى مستهل القرن لا يزال يردده الناقدون للإسلام حتى الآن.

الاجتراء على المشكلة:

المفارقة الأخرى التى ينبغى أن تستلفت انتباهنا فى هذا السياق ، هى أنه بينما يُصِرُّ البعضَ على اعتبار المشروع الإسلامى دعوة إلى عصمة الحكام، والعودة إلى ذلك الحكم بالحق الإلهى، فإن إحدى الإشكاليات التقليدية فى تجربة المسلمين تمثلت فى ذلك الإجتراء الذى مارسه الناس على حكامهم .

لقد فتح النبى ﷺ بنفسه ذلك الباب، فهو القائل لمن تهيب رؤيته « هوّن عليك فإنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد فى مكة » وعندما تقاضاه آخر فى دينْه وأغلظ عليه فى كلامه غضب عمر بن الخطاب فقال له النبى ﷺ : «كنتُ أحوج إلى أن تأمرنى بالوفاء، وكان أحوج لأن تأمره بالصبر».

وفى خطبة الوداع وقف « المعصوم» عليه الصلاة والسلام أمام المسلمين وقال : أيها الناس مَنْ كنت جلدتُ له ظهراً فهذا ظهرى فليستقد منه، ومَنْ كنت شتمت له عرضاً فهذا عرضى فليستقد منه، ألا إن أحبَّكم إليَّ مَنْ أخذ منى حقاً إن كان له، أو حللنى فلقيت ربى وأنا طيب النفس» .

مضت الأمة على ذات الطريق فى التعامل مع حكامها، وكان الخلفاء الراشدون فى مقدمة مَنْ دعوا الناس إلى ممارسة حق الرقابة عليهم وإسداء النصح لهم ، فهذا أبو بكر رضى الله عنه يقول عندما ولى الخلافة: «إن أحسنت فأعينونى وإن أسأت فقوِّمونى» وهذا عمر رضى الله عنه يدعو الناس لأن يقوموه بالسلاح إذا اعوج، وفى عهده يضطر لأن يشرح للمسلمين من أين دبَّر ثوبه الذى يرتديه، لأن واحدا منهم أنكر عليه ارتداءه لثوب جديد، وعندما إجهضت امرأة من جراء فزعها إثر استدعائها للقاء الخليفة بسبب خطأ

ارتكبته، فـإنَّ القاضى حكم عليه بدفع دية المولود. وعندما اشتـرى فرسا ثم عطب منه أثناء ركوبه لأول مرة، ورفض صـاحبه تسلمه فإنهمـا أحتكما إلى القاضى « شريح» الذى قـضى على خليفة المسلمين وقال : خـذ ما ابتعث أو ردّه كما أخذت . أى أنفذ البيع، أو التزم برد الفرس كما أخذته.

وعلى عهد على بن أبى طالب، فـإن الخليفة فقد درعا ثم عثـر عليها عند يهودى، لكنه لم يستطع إن يثبت ملكيتها فحكم القاضى لصالح اليهودى ضد خليفة المسلمين.

وعندما دخل أحدهم على معاوية بن أبى سفـيان فى مجلسه، فإنه خاطبه قائلا : السلام علـيك أيها الأجير، ولما دخل طاووس اليمـانى على هشام بن عبد الملك ناداه باسمه مجردا وعندما سأله لماذا لم يلقبه بأمير المؤمنين كان رده «ليس كل الناس راضين بأمرتك فكرهت أن أكذب».

وعندمـا اخـتصم المأمـون مع رجل إلى قـاضى بغـداد، فـإنه دخل على مجلس القاضى وخلفـه خادمه يحمل حشية لجلوس الخليـفة، ولكن القاضى رفض أن يميزه على خصمه فى الجلوس أمامه، ولم ينظر فى المسألة إلا عندما جىء للخصم بحشية مماثلة حتى يستويا.

وهذا القـاضى أبو يوسف يبلغ هارون الرشـيد أنه لا يقـبل شهـادته لأنه يتكبر على الخلق، ولا يحضر صلاة الجماعـة فاضطر الخليفة لأن يبنى مسجدا فى قصره وأن يفتحه للصلاة فى مواقيتها بحيث يؤديها مع عامة المسلمين.

وهذا قاضٍ اسـمه محمـد بن عبد الله الصـحفراوى يرفض شـهادة الملك الكامل الأيوبى فى قضـية منظورة، ويعلل رفضه بأن الكامل يتـصرف بصورة تجرح عدالته، ومن ثم فإنه لا يعد أهلا للشهادة.

وهذا العز بن عبد السلام قاضى قضاة مصر يقرر أن يبيع أمراء الدولة من الأتراك، وعلى رأسهم نائب السلطنة، لأنه لم يثبت لديه أنهم أحرار، وأن حكم الرق مستصحب عليهم لبيت مال المسلمين.

جهل أم مكابرة :

وهى ليست مجرد شجاعة من القضاة الذين كانوا فقهاء فى القضاء ، بقدر أنها كانت تعبيراً عن الرؤية الإسلامية التى تعتبر الحاكم أمام القانون إنسانا عادياً لا شيء يميزه عن غيره من المسلمين، ولئن اشترط فقهاء المسلمين على الحاكم أو الخليفة شروطا لا تتوافر فى غيره، إلا أنهم أمام الشريعة وضعوه فى كفة واحدة مع باقى المسلمين.

وعندما تعرضت مناقشات أهل السنة إلى مسألة عقاب خليفة المسلمين على ما يرتكب من مخالفات وجرائم، فإن جمهور الفقهاء اعتبروه مسئولا عن كل جريمة يرتكبها ، ومن ثم فيجب أن يحاكم ويعاقب مثل غيره من الناس، على أن الإمام أبو حنيفة استثنى الجرائم التى تمس حقوق الجماعة «جرائم الحدود خاصة» ليس لأنه معفى من المحاكمة، ولكن لتعذر إقامة العقوبة عليه باعتبار أنه صاحب الولاية على الناس، وليس لغيره ولاية عليه حتى يقيم الحد ضده، فالفعل المجرم فى رأى أبى حنيفة يظل مجرما ويعتبر جريمة ولكن لا يعاقب عليه لعدم إمكان العقاب.

أما التكييف الفقهى لعلاقة الحاكم أو السلطة بالشعب، فهو محسوم بدوره منذ زمن مبكر، حيث اعتبر الفقهاء أن الإمامة عقد حقيقى وليس مجازياً قال بذلك الماوردى « فى الأحكام السلطانية» قبل عشرة قرون.

وأكده فقهاء القانون الدستورى المحدثون وعلى رأسهم الدكتور عبد الرازق السنهورى فى رسالته الشهيرة حول الخلافة، ورضا الناس هو شرط انعقاد

العقد والتـزام الحاكم بالشريعة التـى هى القانون السائد شرط لاسـتمرار ذلك العقد.

وللإمام ابن حزم مقولة شـهيرة تحدد الموقف من حكام المسلمين بوضوح ، فهو يقرر أنه على المسلمين إذا وقع شيء من الجور ولو قل، أن يكلموا الإمام فى ذلك ويمنعوه منه، فإن اقتنع ورجع إلى الحق فـلا سبيل لخلعه، وإن امتنع وجب خلعه وإقـامة غيره، ذلك الرصـيد الفقهى والتـاريخى الذى لا تخطئه عين أى منصف فى تجـربة الإسلام لا يراه الـبعض، ويصـرون كل حين على أنهـا مشروع يـقوم على اسـتمداد الـسلطة من السمـاء، وأن حكام المسلمين بمقتضاه معصومون وفوق النقد والمساءلة.

مـاذا تسـمى هـذا الموقف؟ قلة علمٍ أم مكابرة. أم افـتـراء على الإسـلام والمسلمين؟[1].

ولأهمية هذا الموضوع وكـثرة اللغو فيه أردت أن أريد البيـان فيه حتى نزيل كل لبس وغمـوض، ويصبح واضحا كـالشمس فى رابعة النهـارلأنه إذا كان الاسلام دين كهنوتى لا شـأن له بسياسية الدنيا أى أن دولته دولـة دينية فعلام الجـهاد وفـرضيـته عـلى المسلمين ؟ إننا لابد أن نحـدد لمن السيـادة فى دولة الاسلام حتى يتبين لنا مكان الجهاد فى شريعة الاسلام .

لمن السيادة فى الدولة الإسلامية :

إن مسألة البـحث فيمن هو صاحب السيـادة أو مصدر السلطات فى الدولة الإسلامـية، هل هو الله ؟أم الأمـة؟ وهل يستمـد الخليفة سلـطته من الله أم الأمة؟

هذه القضية أعرض علماء المسلمين القدامى عن الحديث فيها، بل وبعض

(١) من مقـالة بعنوا ن (دينية أم مدينة) للكاتب فهـمى هويدى الأهرام الثلاثاء ٤/٩/١٩٩٢ اثبتناها لأهميـتها وكذلك من مقالة لنرد للجهاد اعتباره فى الثلاثاء ٢٤/١٢/١٩٩١ م بتصرف.

العلماء فى العصر الحديث، كالإمام محمد عبده حتى لا يحدث الخلط بين النظرة الغربية والإسلامية، لدرجة أن عالما «كعبد الحميد متولى» يرى أنه إذا أريد إثارة هذه المشكلة فليكن لها المغزى السلبى الذى عرفت به نظرية السيادة بوجه عام، وسيادة الأمة بوجه خاص، فنقول: إن الدولة الإسلامية فى الإسلام لا سيادة فيها على الأمة لفرد أو لطائفة أو لطبقة، ومثل هذا التعميم السلبى عن مبدأ سيادة الأمة يحقق لنا المزايا التى تنسب إليه، ويجنبنا المساوىء التى تؤخذ عليه » (١).

وعلى كلٍ لكى نبين مدنيةَ دولة الإسلام كان لابد من أن نذكر الآراء المتباينة فى تفسير مصدر السيادة.

أولا : هناك فريق يرى أن الأمة مصدر السيادة؛ وسنده فى ذلك أن الأمة هى صاحبة الحق فى توجيه الحاكم ونصحه ومساءلته ومن ثمّ فهى الأصل، ورئيس الدولة نائبها، والمنطق يقضى بأن يكون مصدر السيادة هو الأصيل وليس الوكيل(٢).

يقول الدكتور الغنيمى: «ولهذا الرأى أصالته، غير أنه يقصر بمفاهيمه دون حل بعض المشكلات العملية، وأهمها تكييف طبيعة السلطة العامة فى الدولة»(٣).

ثانيا : وفريق آخر يرى أن الله وحده هو مصدر السيادة، لأنه هو الحاكم الحقيقى، فليس فى الدولة الإسلامية سلطةٌ إلا سلطةُ الله عز وجل باعتبار أن سلطة الأمر والحكم والتشريع كلها مختصة به وحده، وقد انحاز مؤتمر العلماء الإسلامى الذى عقد فى كراتشى سنة ١٩٧٠ إلى هذا الرأى، إذ تنص المادة

---

(١) مبادىء نظام الحكم فى الإسلام عبد الحميد متولى صـ ١٧٥- ١٩٣.

(٢) السياسة الشرعية- عبدالوهاب خلاف صـ ٢٨.

(٣) قانون السلام فى الإسلام صـ ٣٤٠.

الأولى من المشروع الذى اقترحه عن المبادى الأساسية للدولة الإسلامية على ما يلى« أن الحاكم الحقيقى ـ من حيث التشريع والتكوين هو الله رب العالمين»[١].

ثالثا : فريق ثالث لا يستبعد السيادة الشعبية كلية، وإنما يجمع بينها وبين السيادة الإلهية، ويبنى هذا الفريق نظريته على أساس التفرقة بين النص القطعى والنص الغامض، فإذا كان النص قطعيا كانت السيادة لله، أما فى حالة النص الغامض، أو عند عدم وجود نص يحكم القضية فإن السيادة تكون شعبية.

وفى قول آخر فإن أصحاب هذا الرأى يقرون لأفراد الأمة بسيادة شعبية محدودة، ولذا فإنهم يعتبرون أن كل فرد من الأمة بمثابة خليفة عن الله فى ذاته، ومن أصحاب هذا الرأى أبو الأعلى المودودى، الذى أفرط فأضفى بعضاً من السيادة على كل فرد من أفراد الأمة، والخوف من تفتيت السيادة على هذا النحو قد يؤدى إلى تفتيت وحدة الأمة.

رابعا : وتذهب مدرسة رابعة إلى أن إرادة الله العليا هى وحدها مصدر السيادة، لا يشاركها أحد لأن السيادة لا تتجزأ، ويرفض إشراك أفراد الأمة فرادى مع الله، حتى بعض مظاهر السيادة؛ لأن السيادة لا تكون إلا فى حق الغائب ، أما فى حق الحاضر وهو الله فأمر لا يسلم به الفقهاء.

ومن ثمّ فإن ممارسة السلطة فحسب، هى التى يقوم عليها المحكومون، بيد أن هذا ليس لفرد معين أو لطائفة ، وليس هذا سيادة، بل هو ممارسة لواجب كفائى يقع على الأمة بأسرها، لأن الإسلام يفرض وجوب قيام سلطة عامة لصالح المسلمين، وعندئذ يمكن أن نقول إن الإمام وكيل عن الأمة فى ممارسة هذه السلطات [٢].

---

(١) مبدأ المشروعية وضوابط خضوع الدولة للقانون فى الفقه الإسلامى - فؤاد محمد النادى صـ ٤٠- ٤١.
(٢) قانون السلام فى الإسلام صـ ٣٤١.

والملاحظ أن القرآن الكريم قد ذكر السيادة على أنها لله تعالى، ولكن شاءت حكمته أن يُفَوِّضَ فى بعض هذا الملك أثناء الحياة الدنيا ﴿ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ ﴾ [البقرة: ٢٤٧] وأن ينفرد بالملك وحده فى الأخرة ﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾[غافر : ١٦] .

إن الشطر من الملك الدنيوى الذى يؤتيه الله من يشاء هو استخلاف زمنى، بمعنى ملك البشر على البشر، مشتق من الإرادة العليا، والخلافة واضحة فى قوله تعالى ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ ﴾ [ص:٢٦] هكذا حكم رسول الله ﷺ ، ثم انتقلت السلطة بوفاة الرسول ﷺ بغير استخلاف إلى الأمة ممثلة فى أهل الحل والعقد، أبى بكر خليفة للرسول ﷺ فاعتبروا أن السلطة فيما عدا التشريعية قد فوضت للأمة، وأما السلطة العليا فهى لله . . . وفى كل الأحوال يتضح أن دولة الإسلام دولة مدنية، وليست دينية بالمفهوم الغربي، فما هى مقاصد هذه الدولة؟

مقاصد الإسلام :

إن للإسلام مقصدين عظمين هما :

المقصد الأول: إقامة أمة صالحة ولا تصلح الأمة إلا إذا توفرت فيها شروط :

١- أن يكون لها رسالة من مبادىء عليا تحملها، فالأمة التى تعيش بغير رسالة ، ولا هم لها إلا الرغيف تعيش وتبقى ببقائه وتفنى بفنائه، لكن الأمة التى تجد أمامها رسالة سامية، ومثلا عليا ، فهى تجاهد فى سبيل تلك المثل العليا، وتتجه إلى الكفاح كلما بقيت تلك الرسالة التى تعيش لها.

٢- أن تكون الأمة موحدة متحابة، يقول ربنا عز وجل ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ

والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ﴾ [التوبة:١٧] ويقول ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ [الحجرات:١٠] وصدق رسولنا الكريم ﷺ القائل «المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا » ويقول « وكونوا عباد الله إخوانا».

٣- أن تكون مضحية فادية مستعدة لبذل الدماء والمال في سبيل الله ، ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن﴾ [التوبة:١١١] على أن الأمة التي وطنت نفسها على ذلك لا يفوتها شيء، بل يحفظها الله تعالى ويحقق لها رسالتها على أرض الواقع بهذه التضحية، وذلك لأن الإسلام إنما جاء ليخلق أمة مؤمنة متجمعة متحابة مضحية بدمها ومالها ونفسها فى سبيل الله.

المقصد الثاني: أن يكون على رأس هذه الأمة حكومة إسلامية صالحة خادمة للشعب، لا حكومة طغيان واستبداد، فهذا أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - لما تولى الخلافة قال: «وليت عليكم ولست بخيركم أطيعونى ما أطعت الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لى عليكم..» وهذا عمر رضى الله عنه يقول: «لو عثرت بغلة فى العراق لسئل عنها عمر لِمَ لَم تمهد لها الطريق».

ويوم أن حمل أسلافنا هذه الدعوة، دعوة الحق، فشرّقوا وغرّبوا وانتصر بهم الإسلام، ورفعت رايته، لم يكن لصلصلة سيوفهم، وكثرة عددهم، ولا لكثرة أموالهم، ولا لزيادة عتادهم - كما ذكرنا - إنما سر ذلك كله سلاحُ الإيمان وأثر عقيدة التوحيد حين قالوا : ﴿ربنا إننا سمعنا مناديا ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ﴾[آل عمران : ١٩٣] فأقاموا دولتهم بجهدهم انطلاقا من هذه العقيدة ومقوماتها.

مقومات دولتنا :

لقد ضحك علينا الغرب العلمانى حين عدد لنا مقومات الدولة وحصرها فى الارض المشتركة، والجنس الواحد ، واللغة الواحدة، والمصالح المشتركة، هكذا قال لنا وصدقنا وبنينا تصوراتنا ونظمنا على ذلك، وتحددت العلاقات والمصالح على هذا التصورالخاطىء.

والحقيقة أن القرآن أخبرنا بغير ذلك، يقول ربنا عز وجل ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠] فأصبح مع هذه المقومات السابقة مقوم آخر يضاف إلى هذه المقومات هو الأساس بل بدونه لا قيمة لأى مقوم آخر غيره ألا وهو :

١-الإيمان بالله. ٢- والأمر بالمعروف.

٣- والنهى عن المنكر.

هذا هو الذى يوحد الأبيض والأسود والعربى والعجمى، وليست الأرض والجنس ولا حتى اللغة ولا المصالح، فهذه المقومات كانت موجودة قبل الإسلام، فهل وحدت العرب وصنعت منهم أمة ؟ أم أن التناصر والتفاخر والتكاثر والقبلية والعصبية فرقتهم ومزقتهم، حتى ذكرهم ربنا عز وجل بذلك ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ [آل عمران: ١٠٣] .

إنه الإيمان أولا الذى صنع شخصية صاحب العقيدة الحقة التى تغير المجتمع ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد : ١١] هى العقيدة التى تجمع وليست الأرض ولا الجنس ولا اللغة ولا المصالح المشتركة كما ذكرنا من قبل [1].

---

(١) الدعوة قواعد وأصول للمؤلف صـ ٤٣ .

وها نحن نرى أمماً ودولا تجمعها هذه المقومات التى ادعوها، ومع هذا تفرقت شيعا وأحزاباً لاختلاف العقائد، وسل التاريخ الحديث ما الذى فرق ألمانيا إلى شرقية وغربية، وفيتنام إلى شمالية وجنوبية، وقبرص إلى تركية ويونانية، بل اليمن إلى شمالية مسلمة وجنوبية ملحدة.

إنها العقيدة التى فرقتهم بصرف النظر عن فسادها أو صحتها ، إن «مكاريوس» كان يحارب لكى يحقق الوحدة بين قبرص التركية المسلمة وقبرص اليونانية المسيحيه، بل ماذا يفعل الآن زعماء الصهيونية فى إسرائيل، ألم يجمعوا بالعقيدة الفاسدة بين الإسرائيلى الروسى والأمريكى الصهيوني، واليهودى المغربي، والفلاشا الحبشية فى بلد واحد هى إسرائيل الغاصبة، والتى ترفع شعارها من النيل إلى الفرات حسب اعتقادهم المزعوم، فعلام يجتمعون ؟ وكيف؟ ألم يحاربوا من أجل هذا؟ فَلِم يتعجب القوم من تجمع المسلمين على عقيدتهم، بصرف النظر عن اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغتهم وأوطانهم ومصالحهم، كما اجتمع أبو بكر القرشى مع سلمان الفارسى مع بلال الحبشى مع صهيب الرومى على عقد الإيمان والأخوة.

لقد جاء على المسلم زمان كان ينتقل فيه من الأندلس إلى الشمال الإفريقى إلى مصر والشام والعراق، بل إلى أقصى مكان فى الصين والهند لا يشعر بغربة ولا وحشة، فأينما توجه ثمَّ اسم الله ووجد أخوة الإسلام، وسمع النداء المحبب إلى قلبه لا إله إلا الله يرهف الأذان، وأن محمداً رسول الله تطرب القلوب والأسماع، فعاش آمنا فى سربه ، معافى فى بدنه يناديه ربه: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء : ٩٢] .

وكان سبيلهم إلى تحقيق ذلك أمرين.

أولهما : اتباع الرسول ﷺ فى صغير الأمر وكبيره، والتحلى بأخلاقه مع صحة فى اعتقاد .

ثانيهما : النصرة ـ نصرة الله ونصرة رسوله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ﴾ [الصف:١٤] ليتحقق الفلاح بها ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[الأعراف: ١٥٧] .

وهكذا لحق رسول ﷺ بالرفيق الأعلى، وقد أرسى قواعد الدولة والدعوة وأقامها، بجهد بشرى، فمن أراد أن يعيد للأمة الإسلامية مجدها، وللدولة المسلمة عزها، فعليه بذل الجهد واتباع خطوات المصطفى ﷺ داعيا الى الله على بصيرة . مجاهدا فى سبيله لتكون كلمة الله هى العليا ، لتحقق الغاية باقامة دولة تقوم بوظيفتها العقيدية .

الوظيفة العقيدية للدولة : .

لقد أقيمت الدولة فى الإسلام إذن بجهد بشرى، عبر عملية طويلة متدرجة تم خلالها صياغة مجتمع متكامل ـ كيان أمة ـ إنطلاقا من عقيدة التوحيد الجامعة، التى رسمت الخطوط الأساسية والأطر العامة التى يهتدى بها فى عملية تأسيس البناء، واضعة مباديء النظم وقواعدها ، ومحددة مجالات الممارسة والحركة لتكون الدولة نتاجاً ومحصلة طبيعية لهذا المجتمع العقيدى.

ومن ثم كان من البديهى أن تلتزم الدولة بأساس وجودها العقيدى الذى قام عليه المجتمع، واستقام على طريقته، ويعنى هذا أن يجعل غايات حركتها وممارستها السياسية نابعة من تلك الغايات، التى تحددها وتوجهها العقيدة، وبالتالى تصبح الدولة أداة ووسيلة لتحقيق الغاية التى حددتها لوجود الفرد والمجتمع، من خلال ترجمتها فى عمليات وأدوار متمايزة، ووظائف محددة.

ولقد قدمت الدولة الإسلامية نموذجا يمثل نوعا من الخصوصية والتفرد فى تاريخ الحضارات الإنسانية، فالوظيفة العقيدية لها من الفروض الواجبة على الدولة يدور حولها حراسة الدين وسياسة الدنيا، فالدولة فى الإسلام أداة

الجماعة ووسيلتها فى تحقيق عقيدتها أو مكانتها السياسية، ذلك أساس شرعيتها ومبرر وجودها ومحورا لتعاملها الداخلى والخارجى [١].

فالوظيفة العقيدية للدولة هى وظيفة أصلية سواء من حيث إطارها القيمى، أو مبادئها وأشكالها النظامية ، أو ممارستها الواقعية العملية تؤكد تلك الأوامر من جانب، والخبرة التاريخية من جانب آخر ، وأن هذه الوظيفة المحورية الحاكمة لباقى وظائف الدولة الإسلامية، وبالتالى يترتب على إنجازها بفاعلية، فاعلية قيامها بباقى وظائفها.

إن ثمة علاقة بين نجاح أو إخفاق الدولة الإسلامية فى ممارسة وظيفتها العقيدية وبين عاملين [٢].

الأول : نجاح الدولة فى تحديد واضح لمضمون جوهر العقيدة وأبعادها.

ثانيا : تحديد المبادىء النظامية المحققة لجوهر الوظيفة العقيدية والمترجمة لأبعادها وجوانبها فى الواقع العملى هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى نجاح الدولة فى بناء وتطوير الاشكال النظامية (المؤسسات) الكفيلة بترجمة وتطبيق هذه المبادىء النظامية، وأن ثمة علاقة بين ممارسة الدولة لوظيفتها العقيدية وشرعيتها.

فجوهر وظائف الدولة الإسلامية هى القيم الإسلامية الأساسية، فتحقيق وممارسة تلك الوظائف بمثابة إنجاز وتحقيق للمقاصد الشرعية، وبديهى أن المقاصد الشرعية مشتقة من القيم الأساسية.

ونستطيع القول أن الوظيفة العقيدية يمكن ان نحددها فى ثلاثة أمور [٣]:

---

(١) حامد ربيع نظرية القيم السياسية ص ١٩٤.

(٢) الوظيفة العقيدية للدولة الإسلامية حامد عبد الماجد قديس - صـ ٢٢.

(٣) الحكمة فى خط الإسلام محمد حسين فضل الله - مع صـ ١٤٤.

١- تحديد موقف واضح من العقيدة، أى إعلان الإلتزام بالعقيدة وما يستتبعه ذلك من حماية تلك العقيدة من كل ما يشكل إرتداد عنها، أو تحريفا فيها بأى شكل من الأشكال.

٢- بناء وتأسيس الكيان العقيدى ـ بكل ما يحويه من نظم مجتمعية مختلفة وسياسة الدنيا بمقتضى الشرع.

٣- نشر الدعوة، أى القيام بواجب الدعوة من خلال الإقناع ، فالدولة مدعوة لأن تؤدىَ وظيفه معينة فى النظام الخارجى ـ والدولة الإسلامية من النماذج القليلة التى تتعامل من منطلق نشر الدعوة وحماية الجبهة الداخلية من الاختراق الخارجى

وهذه الأبعاد كلها مشتقة من القيمة الأساسية، وهى قيمة التوحيد «أردت بهذا التفصيل الذى يخيل للقارىء أنه أطناب أن أبين : ان فاقد الشيء لا يُعطيه، وجُند وقادة لا يحملون هذه العقيدة فى قلوبهم تصيغهم صياغة ربانية، لا يستطيعون استعادة دولة الإسلام التى افتقدناها، ولا نستطيع أن نحقق فريضة الجهاد واقعا على الأرض إلا بجند يعرفون غايتهم بوضوح وعلام يضحون بالنفس والنفيس إذا لم يكن هناك وضوح ؟ فحق لنا أن نتعرف على الجند والقادة بصفاتهم وأخلاقهم ومواقفهم ، ليكتمل لدينا فهم هذه الفريضة فنصحح الفهم ونمعن النظر قبل أن نقول :« حى على الجهاد».

فالمجاهدون لهذه الغاية رجال عقيدة ، فهم رهبان بالليل فرسان بالنهار ولذا كان « الجهاد ماض إلى يوم القيامة ».

***

الباب الرابع

الجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة

* الجهاد ماض إلى يوم القيامة .
* الجهاد أنواع ومراتب .
* جهاد الأمس لا إرهاب اليوم .
* رجال العقيدة المجاهدون وقائدهم ﷺ .
* (سعد بن أبى وقاص) .
* ابن عمر وغزوة بدر .
* لو كان غير الجنة .
* الشباب فى المعركة .
* يوم كله لطلحة .
* اسلام قائد رومى فى المعركة .
* من صفات القيادة .
* الإدراك الواسع .
* إيمان صادق عميق .
* عدل وانصاف .
* الحرص على الجند .
* التحرر من المنافع المادية .
* الصبر وضبط النفس .
* عدة النصر .
* أثر العقيدة فى المجاهدين .
* مع القادة غير المسلمين .
* فهم لابد أن يسبق الجهاد .
* ركيزتان لابد منهما .
* كف الأيدى لتربية النفوس
* أنموذج المجاهد لابطولاته
* حكمة تأخير نصر الله .
* هزيمة المسلمين حادث عابر
* النصر الحقيقى .
* النصر رهن أمرين .
* اعتبروا يا أولى الألباب .

###



الجهاد ماض إلى يوم القيامة

أدين هذا شأنه ، وهذه رسالته ، منهج حياة. ونظام دولة يراد له أن تفصل عقيدته عن شريعته، ونظامه عن أخلاقه ، وهيهات أن يحدث هذا لأن لهذا الدين رجال أصطفاهم الله لهذه الرسالة يذودون عن حوضه، ويورّثونه لأجيال بعدهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وحتى يهيأ المولى لهذه الأمة أمر رشد ، ويصطفى لها حاكما ، يجرى الله الخير على يديه يتحلى بأخلاق المصطفى ﷺ .

فحكام المسلمين الذين يتحلون بأخلاق القرآن والقيم الرفيعة ـ التى ذكرنا طرفا منهما ـ لا يمكن أن يسفكوا دماء بغير حق ، أو ينشروا نظاما بحد السيف، فما نشر السيف يوما فضيلة بل قتلها، وما أقام عدلا بل حمى ظلما، وما ساوى بين الناس بل قسّمهم إلى طبقات يتميز بعضها على بعض.

لهذه المعانى السامية ودوامها وحمايتها كان الجهاد بكل أساليبه وأنواعه، ولحماية الدولة العادلة والدفاع عنها من إعتداء الظالمين والكارهين كان القتال لتثبيت القيم والمبادىء ولصيانة الحدود حتى لا تنتهك، ولتحافظ الدولة على عقيدتها وشرعيتها، وهويتها، ونظامها، وأخلاقها، من عدوان المعتدين، وبغى الباغين وقتال الكافرين للمؤمنين.

هذا هو الحق الذى نحميه، ونضحى من أجله ونجاهد فى سبيل بقائه نفتديه بأنفسنا ومُهجنا وأموالنا وأولادنا وكل ما نملك ، مجاهدين فى الله حق جهاده ، لأن الجهاد فى عقيدة المسلمين قيمة عظمى ، قد تستغرق حياة المرء كله، بحيث يصير كل أدائه ـ إن صدقت نيته ـ جهاد فى سبيل الله ، ولذا فقد اعتبره الحديث النبوى ماضيا إلى يوم القيامه

وهو ليس قتالا فقط ، وإن كان القتال فى سبيل الله هو ذروة الجهاد، إذ

ليس فوق التضحية بالنفس مرتبة، ولكنه كما قال ابن القيم يكون بالقلب والجنان والدعوة والبيان ، والسيف والسنان.

وعندما ذكر الجهاد فى اثنين وسبعين موضعا فى القرآن الكريم، استعرض صوره العديدة فقوله تعالى للنبى ﷺ ﴿ فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان : ٥٢] قصد به مجاهدة المشكك بالقرآن، والآيات كثيرة ومشهورة تلك التى تحث المسلمين على الجهاد بالأنفس والأموال وفى الاحاديث : أفضل جهاد كلمة عدل عند سلطان جائر « والمجاهد من جاهد نفسه فى ذات الله » وعرّف ابن عباس الجهاد بأنه استفراغ الطاقة فيه، وألا يخاف فى الله لومة لائم، ونقل عن الحسن البصرى قوله : إن الرجل ليجاهد، وما ضرب يوما من الدهر بسيف.

الجهاد أنواع ومراتب:

قسم ابن القيم الجوزية الجهاد أربع مراتب : جهاد النفس ، وجهاد الشيطان، وجهاد الكفار والمنافقين، وجهاد فى مواجهة الظلم والبدع.

وقد فصلّ فى أنواع كل مرتبة حتى بلغ عدد مراتب الجهاد التى صنفها ثلاثة عشرة مرتبة ، يمثل الجهاد باليد (القتال) واحدة فقد منها.

ولهذا فإن كل قتال فى سبيل الله يعد جهاداً حقاً، ولكن من وجهة نظر التأصيل العلمى فليس كل جهاد فى سبيل الله ينبغى أن يكون قتالا ، وإذا كان الجهاد أنواعا ومراتب ودرجات ، فإن القتال نوع واحد له صيغة واحدة.

ومن ثم فإن الجهاد بهذا المعنى متصل وماض حقا إلى يوم القيامة، بينما القتال عارض يقوم ويزول بقيام أو زوال سببه، فهو قيمة عالية المقام عظيمة القدر تمثل ركنا ركينا فى منهج الإسلام، فضلا عن أن لتلك القيمة رنينها المجلجل فى عمق التاريخ الإسلامى ، وعمق الضمير المسلم.

فلا يقلل من شأن الجهاد إساءة البعض توظيفه،أو إبتذاله للمصطلح باعتبار أن القيم لا تجرح أو تهدم بمجرد أن طرفا حاول الاتجار بها أو انتهاكها،وإلا لما بقيت قيمة على وجه الأرض،حيث تاريخ الشر فى العالم هو سجل حافل بانتهاكات مختلف القيم،والذى نفهمه أن مواجهة العبث بأى قيمة لا تكون بنفيها أو اغتيالها،وإنما التصرف المسئول يكون بوضع القيمة فى إطارها الصحيح.

نقول هذا الكلام كله لأن بعض الناس فى زماننا هذا يطالبون بحذف كلمة الجهاد من لغة الخطاب العام وكأنها وصمة،وكأن الشعوب ليس لها أن ترفع راية الجهاد فى وجه من يغتصب الأرض والعرض، بل ويذهبون إلى أن وضع الجهاد يتعارض وهو فى موقف التناقض مع السلام،وهذه صياغة ملتبسة ومغلوطة فالمولى سبحانه وتعالى الذى أمر بالقتال ﴿ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾ [البقرة: ١٩١] هو الذى دعى للدخول ﴿ فِي السِّلْمِ كَافَّةً ﴾ [البقرة : ٢٠٨] فهذه الصياغة إذن لا تمت بصلة إلى ما هو مستقر فى ثقافة العرب والمسلمين.

وإلا ما الذى دفع إسحاق شامير رئيس الوزراء الاسرائيلى الأسبق وهو المدجج بأكثر من مائة قنبلة ذرية، غير أنواع الأسلحة الأخرى البيولوجية والهيدروجينية، أن يقول بصراحة فى افتتاح مؤتمر مدريد يوم الثلاثين من أكتوبر مطالباً العرب بالغاء كلمة « الجهاد».

لا يستطيع منصف أن يقول: إن شامير وهو يخص كلمة الجهاد دون غيرها بالاستبعاد والنفى، واعتراض نتنياهو على تسمية المناورة الحربية لجيشنا الباسل « بدر ٩٦» مجرد الاسم الذى لا يمت إلى اليهود بصلة، وإنما هى غزوة بين المسلمين والمشركين، ولكن لأن اسم بدر يذكر المسلمين بأمجاد الجهاد - أقول - فلا نتنياهو يوم أن اعترض على اسم بدر كان يدعو إلى

السلام، ولا شامير أيضا كان يدعو إليه، ولكنهما كانا يدعوان إلى تجريد الأمة الإسلامية من صفة من أخص صفاتها كـأمة مجاهدة، إذ أن شامير وأمثاله لا يطيق سماع كلمـة الجهاد بأى صورة أو معنى ، لأنها تمثل صـيغة الوصل بين العقـيدة والعمل ، وتمنح النـضال قداسـة حتى يصبح الموت دونه شـهادة فى سبيل اللهِ، يتسابق على نيل شرفها كل المؤمنين الصادقين.

ومن هنا فإن شامـير وهو يقول ذلك أراد أن يُجرد الأمة العـربية من أحد أمضى أسلحتها ، بل السلاح الوحـيد الذى يمكن أن يصمد أمام قنابله الذرية وينتصر عليها أيضا ، وما الانتفاضة منا ببعيد، بل البوسنة والهرسك والشيشان وكل بلد مجاهد فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا،وكلمة الذى كفروا السفلى، وصدق رسول الله الكريم صلوات الله وسلامه عليه القائل: «ما ترك قوم الجهاد إلا ذلوا » .

جهاد الأمس لا إرهاب اليوم :

إن الذين يصـفون الجهـاد بالإرهاب، إنما يمنعون حـق الشعوب فى تـقرير مصيرها، والذود عن أوطانها، والمحافظة عـلى هويتها، ولذلك فهم يقومون بتشويه المصطلحـات وتزييف المعانى ، والحق يقال : إنه لم يشهـد عصر من العصور ما شهده عصـرنا الحاضر من انقلاب المفاهيم، وتبدل الأفكار، وزرع المصطلحات، حتى غدا الناس يعانون صعوبة بالغة فى تمييز الحق من الباطل، ومعرفـة الأصيل من الدخيل ، والثابت من المـتغير مما نتج عنه ضـياع الهوية الإيمانية والشخصية الإسلامية، حتى أصبحت شـخصية إمعية غثائية، أفقدتنا التفرد المتميز والخيرية، بل وأورثتنا التبعية الذليلة والدونية البغيضة، ذلك لأن أخطر ما يصـيب المسلم فى حيـاته أن تلتبس عليـه الأمور، أو تختلط أمـامه الحقائق، وتشوه المفاهيم، وتضطرب عنده الموازين، فإذا به يرى الحلال حراما

والحرام حلالا ، والحق باطلا والباطل حقا ، والمعروف منكرا والمنكر معروفاً، والجهاد إرهاباً والاستسلام سلاما، والصواب خطأً والخطأ صواباً ، إلى أن يزين له سوء عمله فيرى كل قبيح حسن، وكل حسن قبيح ، فلا يعرف لدينه حدودا يقف عندها، ولا أصولا يستمسك بها، ولا ثوابت ينافح عنها، ولا مباديء يضحى من أجلها، ولا أخلاق يتحلى بها، فتختل تصوراته ويضطرب سلوكه، وتنمحي شخصيته، ويصبح لقمة سائغة في فم الأعداء يلتهمونها أو يلفظونها أنّا شاءوا، وهذه خطورة نشر المصطلحات المقلوبة. والفريضة المفترى عليها « الجهاد» من المصطلحات التي أراد أعداؤنا أن يشوهوها ويهدموا معناها، ويستبدلونها بمفردات أخرى أكثر رقة، لا لشيء إلا لإبعاد المسلمين عن مصطلحاتهم وتشويه تاريخهم.

إننا نقول لهؤلاء : إننا حينما نراجع الحضارة الإسلامية العملاقة ، وكيف توالت عليها الجروح والاستنزافات، وكيف تتابعت المحاولات المسعورة للنيل من الإسلام فما من حيلة إلا واستغلت، وعاونت الاقنعة لتستر النوايا الشريرة، ومع هذا كله وصل الإسلام في القرن العشرين بمليار من البشر، دون أن يرتكز على صواريخ أو عابرات قارات، ولكنه يعبر القلوب والعقول بحجته القوية، وبيانه المنير، وعقلانيته السوية، دون إكراه لأحد على الدخول فيه ، أو إرغام لدولة بالقهر والجبر والسيف على اعتناقه.

والمجتمع المعاصر ـ باعتراف الجميع ـ بقدر ما يفخر بإنجازاته في الأشياء بقدر ما يعاني من غيبة الإنجازات بالنسبة للإنسان، الذى ضمر وجف كما يقول كبار المفكرين في حضارة الغرب ، لأنه اختزل الأمكنة والأزمنة ، وبالتالي اختزل الإنسان كما أختزل الأجهزة.

ونحمد الله أن إنسان الإسلام لم يجف، فمازالت لدى المسلم العواطف

والمشاعر والتطلع للتعادل بين الجسد والنفس والروح، تحت راية عقيدتنا الخالدة.

والذين يريدون تشويه الإسلام من خلال مصطلح من المصطلحات ، وقلب المفاهيم لابعاد الناس عنه نقول لهم : ليس هذا هو المنهج العلمى ـ كما تدعون ـ،فلا يحكم على الإسلام بأنه دين السيف والقتل والسفك والإزهاق، من خلال تشويه المصطلحات ، أو ارتكاب بعض ابنائه تصرفات لا تستند إلى فقه أو فهم أو دليل ،ولكن هناك مقاييس حددها علماء الإصلاح، يقولون إذا أردنا أن نقيّم أى مذهب يقدم للناس لابد أن نتأكد من معرفة هذا المذهب من حيث[1] :

أولا: القوانين والمباديء والقيم التى يقوم عليها، من حيث عدالتها وشمولها، وأساسها الفكرى والعقيدى الذى قامت عليه ، ونظرة هذه المباديء للكون ـ الإنسان ـ الحياة.

ثانيا : الاشخاص الذين يدعون لهذا المذهب من حيث سلوكهم، أخلاقهم،تكوينهم العقلى،مدى تطبيقهم لما يدعون إليه، موقفهم بين الناس.

ثالثا : نتائج هذا المذهب وأثره فى حياة معتنقيه أولا،ثم أثره النافع فى المجتمع.

رابعا : هل هذه النتائج والآثار وقتية ستنتهى بزوالهم وزوال مبدأهم ، أم أنها مستمرة من بعدهم.

خامسا: هل هذا المذهب يرغم الناس ويجبرهم على اعتناقه ولا يسمح لمعارضيه بصوت ولا نصح ، أم أن معتنقيه يلتزمون به ولا يلزمون غيرهم ويقنعون ولا يكرهون ويتركون الناس يختارون.

---

(١) التغيير على منهاج النبوة للمؤلف صـ ١٨

فهل هناك غير دين الإسلام وكتاب الله ومنهجه وشريعته التى أحاطت بهذا كله؟ ومَنْ غير محمد ﷺ أكتملت فيه الصفات؟ فاكتمل البناء دعوة وداعية ، نظاما ورجالاً.

هذا هو الإنصاف لتقييم نظام ما، لا أن نجتزأ منه ركنا من الأركان، أو فرعا من الفروع، ثم يشوه هذا الركن أو الفرع ثم يصدر الحكم على النظام كله من خلال التشويه والتضليل، أو يقيم بفعل خاطىء من بعض أتباعه الذين يسيئون اليه وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا . فهذا هو الظلم بعينه وصدق الله القائل ﴿ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّه يَجْحَدُون ﴾ [الأنعام: ٣٣]. ولذلك ارتبط جند الله فى الإسلام بنظامهم المبنى على الأخلاق والقيم ، فكان الواحد منهم أنموذجاً لهذا النظام، القائم على قاعدة أخلاقية إيمانية ، فكانوا أصحاب أخلاق قبل أن يكونوا أصحاب فتوحات.

رجال العقيدة المجاهدون وقائدهم ﷺ :

إن هداية الله التى جاءت على لسان محمد ﷺ ورعايته، والتى تمثلت فى كتابه الكريم وسنته الحكيمة، وأخذت بقلوب هؤلاء الجهلة فى مكة فصاروا أعلم الناس، ودخلت أفئدتهم وهم الحفاة العراة فصاروا أهل الخير والرحمة، ورسل العدالة والسماحة، وأضاءت قلوبهم المظلمة بنور العقيدة، فانطلقوا كأشعة ناصعة تنير أركان الدنيا ﴿أُولَئِكَ الَّذِين هدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ [ابأنعام: ٩٠].

والحق يقال إن هؤلاء الرجال حول الرسول ﷺ لم يشهد التاريخ رجالاً عقدوا العزم والنوايا على غاية تناهت فى العدالة والسمو، ثم نذروا لها حياتهم على نسق تناهى فى الجسارة والتضحية والبذل، كما شهد فى أولئك الرجال.

لقد شيدوا بالقرآن عالما جديدا يهتز نَضْرةً، ويتألق عظمة، ويتفوق إقتداراً بقدرة نفسية، صاغوا بها فضائلهم ، واعتصموا بالإيمان حتى جعلوا منه حياة على الأرض.

وحين تنصلح حياتهم، وتدرس أحوالهم ترى إيمانهم وثباتهم وولاءهم لله وللرسول، فترى البذل الذى بذلوه، والهول الذى احتملوه، والفوز الذى أحرزوه، والدور الجليل الذى نهضوا به فأقاموا خير أمة أخرجت للناس.

كيف لا؟ وقدوتهم فى ذلك كله رسول ﷺ الذى تحلى بالإيمان ،والعزم والمضاء، و الصدق،والطهر، والنقاء ، والتواضع، والحب، والوفاء.

فلقد آتاه الله من أنعمه ما جعله بحق الصادق الأمين صاحب الخلق العظيم، مما جعل المؤمنين به يرون فيه الهدف والطريق. هذا الذى جعل ضعفاء قومه يلوذون بحماه ، ويهرعون إلى رايته ودعوته، وهم يبصرونه أعزل من المال ومن السلاح. ينزل به الأذى ، ويطارده الشر فى تحد رهيب دون أن يملك عليه الصلاة والسلام له دفعا، ويقول لأصحابه صباح مساء : « لا أملك لكم نفعا ولا ضرا » ولا أدرى ما يفعل بى ولا بكم،لقد رأوا فيه رأى العين كل فضائله، فرأوا طهره وعفته. وأمانته، واستقامته، وشجاعته، وعقله ، وبيانه ، وحنانه.

فحين رأوا هذه القيم العليا، والمبادىء السامية، والأخلاق الفاضلة جذبتهم إليه ﷺ فصدقوا ما قاله ، صدقوا أن الدنيا ستفتح عليهم أقطارها، وأن أقدامهم ستخوض خوضاً فى ذهب العالم وتيجانه، وأن هذا القرآن الذى يتلونه فى استخفاء ستردده الآفاق عالى الصدح، قوى الرنين، لا فى جبالهم وجزيرتهم فحسب بل عبر جميع الزمان والمكان.

فإنسان له كل هذه الحياة المضيئة الطاهرة لا يمكن أن يكذب على الله،

بهذا المنطق وهذا العقل اتبعوه ، فلم يكذب مرة، وما خان أخرى، ولا ظلم إنسانا، ولا خفر ذمة، وما قطع رحم، ولا أهمل تبعة، حياة كلها نقاء، وصفاء، وصدق وعمل ، لكل هذا رأى المؤمنون نور الله فاتبعوه.

وعبر هذه الحياة تبين كضوء النهار أن صاحب هذه الحياة وهذه الرسالة لم يكن يسعى إلى جاه أو مال، ولا سيادة، فحين جاءته كل هذه معقودة بألويتها الظافرة رفضها جميعا ، وعاش حياته الأواب المتبتل، لم يخلف موعده مع الله فى عبادة ولا جهاد، فلا يكاد النصف الأخير من الليل يبدأ حتى ينهض قائماً، فيتوضأ ويظل كما اعتاد أبدا يناجى ربه ويبكى .

دانت له الدنيا كلها بدعوته، ووقف أكثر ملوك الأرض أمام رسائله التى دعاهم بها إلى الإسلام وجلين ضارعين ، فما استطاعت ذرة من زَهْو وكبر أن تمر به بل حين رأى بعض القادمين عليه يهابونه، قال لهم : «هونوا عليكم، إن أمى كانت تأكل القديد بمكة » .

ألقى كل أعداء دينه السلاح، ومدوا اليه أعناقهم ليحكم فيها بما يرى، بينما عشرة آلاف سيف تتوهج يوم الفتح فوق رُبى مكة فى أيدى المسلمين، فلم يزد على أن قال لهم: « اذهبوا فأنتم الطلقاء » إنه إمام المجاهدين ﷺ .

إنسان نذر حياته لدعوته ، ليس له فيها أى مغنم شخصى من ثراء أو منصب، أو جاه أو نفوذ ، فثباته على الحق وصموده مع الرسالة، وصبره على الهول فى سبيل الله ، كل ذلك كان حريا أن يبهر العقول الذكية ويوقظها، فما أدخل رجلا الإسلام بسيف، ولا أجبره برمح، فهو ﷺ يرفض أن يكون للإيمان ثمن من دنيا، فحين عرض نفسه على قبيلة « بنى عامر بن صعصعة» وجلس يحدثهم عن الله ويتلوا عليهم كلماته ، سألوه: أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك أيكون لنا الأمر من بعدك؟ فأجابهم عليه الصلاة والسلام قائلا: الأمر لله يضعه حيث يشاء.

عندئذ انفضوا قائلين: لا حاجة لنا بأمرك.

فهو ﷺ كما لم يعد أحدا بملك ولا سيادة بعده فهو لا يُكره أحداً فى الدخول فى دينه.

هذا هو معلم البشر. وخاتم الأنبياء وقائد الغر المحجلين ، هذا هو النور الذى رآه الناس وهو يحيا بينهم بشراً، ثم رآه العالم بعد رحيله عن الدنيا حقيقة وذكراً.

فمن أراد سيرته ونهج نهجه وسار طريقه فليسمع إلى قول الله تعالى﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٣١] فإذا كان هذا هو القائد القدوة، فمن هم الجنود الاتقياء الأنقياء؟

مع مصعب : أول سفراء الإسلام :

إنه رجل من أولئك الذين صاغهم الإسلام، ورباهم محمد ﷺ وقال فيه: « لقد رأيت مصعبا هذا وما بمكة فتى أنعم عند أبويه منه، ثم ترك ذلك كله حباً لله ورسوله».

هذا الذى بعثه رسول الله ﷺ إلى المدينة أول سفير للإسلام هو الذى قال لأمه وهى عليه غاضبة، وقد أخرجته من بيتها تقول له اذهب لشأنك لم أعد لك أمّاً.

فقال لها : « يا أم إنى لك ناصح، وعليك شفوق، فاشهدى أنه لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله » فرفضت.

وخرج مصعب من النعمة الوارفة التى كان يعيش فيها مؤثرا الشظف والفاقة، لا يُرى إلا مرتديا أخشن الثياب ، يأكل يوما ويجوع أياما، ولكن روحه المتأنقة بسمو العقيدة والمتألقة بنور الله، كانت قد جعلت منه رجل عقيدة ومبدأ.

اختاره الرسول ﷺ ليكون سفيره إلى المدينة، يفقه الذين آمنوا وبايعوا الرسول عند العقبة، ويدخل غيرهم فى دين الله، يُعّد المدينة ليوم الهجرة والمدينة يومها تعج بالكفر والشرك.

فهذه بلد يحكمها الشرك ويغزوها الكفر، دخلها مصعب لغاية نبيلة، فغزا أفئدة أهل المدينة بزهده وإخلاصه وأخلاقه، وليس بسيفه ولا رمحه ولا حربته، فلقد فهم رسالته فوقف عند حدودها عرف أنه داعية إلى الله، ومبشرٌ بدينه ليس عليه إلا البلاغ، فما قاتل أحداً سالمه، وما أكره أحداً خالفه، وما شهر سيفاً ليقيم نظاما على الأرض.

ذات يوم فاجأه «أسيد بن حضير» سيد بنى عبد الأشهل بالمدينة شاهرا حربته، يتوهج غضبا وحنقا على هذا الذى جاء يفتن قومه عن دينهم، حينئذ ظل مصعب ثابتا هادئاً.

فقال له أسيد: ما جاء بكما إلى حيّنا ـ كان معه أسعد بن زرارة ـ تسفّهان ضُعفاءنا؟ اعتزلانا إذا كنتما لا تريدان الخروج من الحياة».

وفى هدوء وتهلل قال مصعب أَوَلاَ تجلس فتستمع؟ فإن رضيت أمرنا قِبلْتَه وإن كَرِهْتَهُ كففنا عنك ما تكره، اسمع دون إكراه فإن اقتنعت اتبعتنا، وإن لم تقتنع تركنا حيّك وعشيرتك وتحولنا إلى مكان آخر.

فماذا يملك العاقل إلا أن يقول: أنصفت وهكذا قال أُسيد وألقى حربته، وجلس يصغى فأسلم، هكذا دون قتال أو إكراه، ويصف لنا ابن سعد مصعب يوم أُحد فيقول أخبرنا ابراهيم بن محمد بن شرحبيل العبدرى عن أبيه قال:

حَمل مصعب بن عمير اللواء يوم أحد، فلما جال المسلمون ثبت به مصعب، فأقبل ابن قميئة وهو فارس فضربه على يده اليمنى فقطعها، ومصعب يقول وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل....

وأخذ اللواء بيده اليسرى وحنا عليه ، فضرب يده اليسرى فقطعها فحنا على اللواء وضمّه بعضُديه إلى صدره وهو يقول: وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل . . . ثم حمل عليه الثالثة بالرمح فأنفذه واندق الرمح ووقع مصعب وسقط اللواء » (١).

وقع بعد أن خاض فى استبسال عظيم معركة الفداء والايمان، وسقط شهيدا ولم يوجد له شيء يكفن فيه، إلا غرة كان الصحابة إذا وضعوها على رأسه تعرت رجلاه ، وإذا وضعوها على رجليه برزت رأسه، فقال لهم رسول الله ﷺ : « اجعلوها مما يلى رأسه واجعلوا على رجليه من نبات الإذخر» .

ووقف رسول الله ﷺ عند مصعب وعيناه تلفانه بضيائهما، ثم ألقى فى أسى نظرة على بردته التى كفن فيها، وقال لقد رأيتك بمكة وما بها أرق حلة ولا احسن لمّةً منك ، ثم ها أنت ذا أشعث الرأس فى بردة».

مع سعد بن مالك الزهرى (سعد بن أبى وقاص):

الأسد فى براثنه، صاحب الأمجاد الكثيرة والذى كان يتغنى بشيئين عظيمين:

أولهما: أنه أول من رَمى بسهم فى سبيل الله ، وأول من رُمى.

ثانيهما: أنه الوحيد الذى افتداه الرسول ﷺ بأبويه فقال له يوم أحد: «ارم سعد ، فداك أبى وأمى».

فهو نفسه الذى قال: والله، إنى لأول رجل من العرب رمى بسهم فى سبيل الله وقال عنه على بن أبى طالب: «ما سمعت رسول الله ﷺ يفتدى أحدا بأبويه إلا سعداً فإنى سمعته يوم أحد يقول: «ارم سعد، فداك أبى وأمى».

كان رضى الله عنه من أشجع الرجال، وكان يملك سلاحين لا يخطئان

(١) طبقات بن سعد - غزوة أحد.

أبدا: رمحه، ودعـاءه، فإذا رمى عدواً فى الحرب أصـابه، وإذا دعا الله دعاءً أجابه. وكيف لا ؟ ورسول الله ﷺ الذى دعا له فـقال :«اللهم سدد رميته، وأجب دعوته ».

كان كثـير البكاء من خشيـة الله ، وكان هو الأسد فى براثنه كمـا وصفه عبد الرحـمن بن عوف رضى الله عنهما، وكـان مستجـاب الدعوة، إذا سأل الله النصـر أعطاه إياه، ومع هذا فـهو الفـارس يوم بدر، وأحـد ، وفى كل مشهد يشهده مع رسول الله ﷺ .

أما وأنه كذلـك خلقا ودينا، فهمـا وعملا، وشجاعـة وثباتا، فليغـرس أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه لواء القادسيـة فى يمينه، وليرم به الفرس المتجمعين فى أكثر من مـائة ألف من المقاتلين المدربين المدججين بأخطر ما كـانت تعرفه الأرض يومئـذ من عتاد وسلاح، تقـودهم أذكى عقول الحـرب، وأدهى دهاتها يومئذ:

فيـخرج سعـد رضى الله عنه فى ثلاثين ألف مقـاتل، فى أيديهم رماح، وفى قلوبهم عزم وتصـميم وإيمان وثقة وشوق للموت والشـهادة، ويتلقى فى هذا الموقف كتـاب أميـر المؤمنين عمر إليـه يقول له: « يا سـعد بن وهيب لا يغرنك من الله أن قـيل: خال رسول الله وصاحبـه، فإن الله ليس بينه وبين أحد نسب إلا بطاعته».

والناس شريفهـم ووضيعهم فى ذات الله سواء ، واللـه ربهم وهم عباده، يتفاضلون بالعـافية، ويُدركون ما عند الله بالطاعـة، فانظر الأمر الذى رأيت رسول الله ﷺ منذ بعث إلى أن فارقنا عليه فالزمه فإنه الأمر .

ثم يقول : اكتب إليّ بجميع أحوالكم وكيف تنزلون ؟ وأين يكون عدوكم منكم، واجعلنى يكتبك إليّ كأنى انظر إليكم .

ويكتب إليه سعد صغير الأمر وكبيره، وبعد أن تولى رستم قيادة جيش الفرس يكتب إليه عمر رضى الله عنه يقول له: «لا يكربنك ما تسمع منهم، ولا ما يأتونك به، واستعن وتوكل عليه، وابعث إليهم رجالاً من أهل النظر والرأى والجلد يدعونه إلى الله واكتب إليّ فى كل يوم».

ويواجه سعد هذا الجيش لا بغرور القوة ولا صلف الزعامة، بل بالتوكل على الله ، والثقة فى نصره، وقبل أن يلتقى الجيشان ينفذ سعد وصية عمر، فيرسل إلى رستم قائد الفرس نفراً من أصحابه يدعونه إلى الإسلام فيأبى، وعندئذ هبّ واقفاً فى جيشه خطيبا مستهلا حديثه بقول الله تعالي: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٥] ثم صلى بالجيش صلاة الظهر ثم استقبل جنوده مكبرا أربعا ، ثم صاح فى جنده: هيا على بركة الله.

وتهاوى جنود الفرس كالذباب المترنح ، وتهاوت معهم الوثنية وعبادة النار، وطارت فلولهم المهزومة بعد أن رأوا مصرع قائدهم وحيرة جنودهم وطاردهم الجيش المسلم حتى « نهاوند» ثم « المدائن» فدخلوها ليحملوا لواء كسرى وتاجه غنيمة وفيئا.

وعند دجلة أمر سعد المسلمين أن يقولوا « حسبنا الله ونعم الوكيل » ثم اقتحم بفرسه دجلة واقتحم الناس وراءه، والناس لم يتخلف أحد فيها ، فساروا كأنما يسيرون على وجه الأرض حتى ملأوا ما بين الجانبين ولم يَعُد وجه الماء يُرى من أفواج الفرسان والمشاة، وجعل الناس يتحدثون وهم يسيرون على وجه الماء كأنهم يتحدثون على وجه الأرض، وذلك بسبب ما شعروا من الطمأنينة والأمن والوثوق بأمر الله ونصره ووعده وتأييده .

حتى قال فى ذلك سلمان الفارس إن الإسلام جديد، ذُللت والله لهم

البحار كمـا ذُلل لهم البر، والذى نفس سلمان بيده ليخرجُن منه أفـواجا كما دخلوه أفواجا».

هؤلاء هم جند الله الذين نصر الله بهم الدين ، فصـفاتهم الكريمة سبقت سيوفهم المسلولة. ما تخلفوا عن غزو وما تأخروا عن خير.

يقول صهيب الرومى:

لم يشهد رسول الله ﷺ مشهـداً قط إلا كنت حاضره، ولم يبايع بيعة قط إلا كنت حاضرها، ولم يسر سريـة قط إلا كنت حاضرها، ولا غزا غزوة قط أول الزمان وآخره إلا كنت فـيها عن يمينه، أو شماله ، ومـا خاض المسلمون أمـامهم قط إلا كنت أمـامهم ، ولا خـاضوا وراءهم إلا كنت وراءهم، ومـا جعلت رسول الله ﷺ بينى وبين العدو أبدا حتى لقى ربه .

وهذا الذى قال حين خرج مهاجراً إلى رسول الله ﷺ:

« يا معشر قريش لقـد علمتم أنى من أرماكم رجلاً ، وأيم الله لا تصلون إليّ حتى أرمى بكل سهم معى فى كنانتى، ثم أضـربكم بسيفى حتى لا يبقى فى يدى منه شيء، فـأقـدمـوا إن شئـتم ،وإن شـئـتم دللتكم على مـالي، وتتركونى وشأنى، وترك لهم كل شيء وهاجر بدينه إلى رسول الله ﷺ فقال له : ربح البيع أبا يحـيى، ربح البيع أبا يحـيى، فنزل قول ربنا ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾[البقره : ٢٠٧] .

ابن عمر وغزوة بدر :

عن ابن عمر رضى الله عنهما قال:

عرضت على رسول الله ﷺ يوم بدر فاستصـغرنى، فلم يقبلنى، فما أتت على ليلة قط مثلها من السهر والحزن والبكاء ، إذ لم يقبلنى رسول الله ﷺ.

فلما كان من العام المقبل عرضت عليه، فقبلنى فحمدت الله على ذلك.

لو كان غير الجنة :

عن سليمان بن بلال، رضى الله عنه،أن رسول الله ﷺ لما خرج إلى «بدر» أراد سعد بن خيثمة وأبوه جميعاً الخروج معه، فذكر ذلك للنبى ﷺ فأمر أن يخرج أحدهما، فاستهما ، فقال خيثمة بن الحارث لابنه سعد رضى الله عنهما: إنه لابد لأحدنا من أن يقيم، فأقم مع نسائك، فقال سعد: لو كان غير الجنة لآثرتك به ، إنى أرجو الشهادة فى وجهى هذا ، فاستهما فخرج سهم سعد، فخرج مع رسول الله ﷺ ، إلى «بدر» فاستشهد.

الشباب فى المعركة :

عن عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه قال:

«إنى لواقف يوم « بدر» فى الصف ، فنظرت عن يمينى وشمالى فإذا أنا بين غلامين من الأنصار، حديثة أسنانهما، تمنيت أن أكون بين أضلع منهما فغمزنى أحدهما فقال:

« يا عماه أتعرف أبا جهل» ؟

فقلت: « نعم وما حاجتكما إليه»؟

قال : « أخبرت أنه يسب رسول الله ﷺ ، والذى نفسى بيده لئن رأيته لايفارق وجهى وجهه حتى يموت الأعجل منا » ، فتعجبت لذلك ، فغمزنى الآخر قال لى أيضاً مثلها. فلم يطل الوقت إلى أبى جهل وهو يجول فى الناس فقلت : « ألا تريان، هذا صاحبكم الذى تسألان عنه » ؟

فابتدراه بسيفيهما فضرباه حتى قتلاه، ثم انصرفا إلى النبى ﷺ ، فأخبراه فقال: أيكما قتله ؟

قال كل منهما أنا قتلته .

قال: هل مسحتما سيفيكما ؟

قالا : لا .

قال: فنظر النبى ﷺ، فى السيفين فقال: كلاهما قتله ، وقضى بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح ، والآخر معاذ بن عفراء رضى الله عنهما.

ولقد ترس أبو دجانة بنفسه دون رسول ﷺ حتى وقع النبل فى ظهره وهو منحنى عليه حتى كثر فيه النبل .

وقاتلت دون رسول الله ﷺ، أم عمارة ، وهى نسيبة بنت كعب. تقول أم سعد بنت سعد بن الربيع: دخلت على أم عمارة فقلت لها: « يا خالة، أخبرينى خبرك» ؟

فقالت : « خرجت أول النهار أنظر ما يصنع الناس ، ومعى سقاء فيه ماء، فانتهيت إلى رسول الله ﷺ،وهو فى أصحابه ، والدولة والريح [(١)] للمسلمين.

فلما انهزم المسلمون انحزت إلى رسول الله ﷺ ، فقمت أباشر القتال، وأذب عنه بالسيف ، وأرمى عن القوس حتى خلصت الجراح إلىّ » .

قالت أم سعد : فرأيت على عاتقها جرحاً أجوف له غور فقلت : من أصابك بهذا ؟

قالت: ابن قمئة ، أقمأه الله .

ثم تابعت حديثها قائلة: « لما ولى الناس عن رسول الله ﷺ ، أقبل ابن قمئة، يقول: دلونى على محمد، فلا نجوت إن نجا ، فاعترضت له أنا، ومصعب بن عمير، وأناس ممن ثبت مع رسول الله ﷺ ، فضربنى هذه

---

(١) أى أن النصر لهم.

الضربة ، ولكن قد ضربته على ذلك ضربات، لكن عدو الله كان عليه درعان، ثم جاء المسلمون فأجلوا المشركين عن رسول الله ﷺ ». ولقد قال رسول الله ﷺ عنها: « ما التفت يميناً ولا شمالا ، إلا وأراها تقاتل دونى ».

يوم كله لطلحة :

عن عائشة رضى الله عنها قالت: كان أبو بكر رضى الله عنه إذا ذكر يوم (أحد) قال:

« ذاك يوم كله لطلحة، رضى الله عنه» : ثم أنشأ يحدث فذكر الحديث، وفيه فانتهينا إلى رسول الله ﷺ ، وقد كسرت رباعيته، وشج فى وجهه، وقد دخل فى وجنته حلقتان من حلق المغفر، قال رسول الله ﷺ، « عليكما صاحبكما».

يريد طلحة، رضى الله عنه ، وقد نزف فذكر الحديث، وفيه : ثم أتينا طلحة، رضى الله عنه، فى بعض تلك الحفار، فإذا به بضع وسبعون بين طعنة ورمية وضربة ، وإذا قد قطعت أصبعه، فأصلحنا شأنه.

﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام: ٩٠] جند الله الذين حملوا نوره قبل أن يحملوا سيفه، كانوا قانتين لله، صاموا النهار وقاموا الليل، فكانوا رهبان الليل فرسان النهار بحق.

نذكر هؤلاء الذين أقاموا دولة الإسلام فى قلوبهم، قبل أن تقم بهم على أرضهم، ليتعلم مَنْ رفع راية الجهاد أن العبرة بالأيدى المتوضئة والجباه الساجدة، والأعين الدامعة، والألسن الذاكرة، والأقدام المتورمة، والأجساد الخاشعة، وليست بالسيوف اللامعة، الرماح المدببة، والأسلحة المتنوعة، فذنوب الجيش أخوف عليه من عدوه،مع الأخذ بالأسباب إعداداً واستعدادا.

إنه لا يرفع راية الجهاد إلا من قال الله فيهم : ﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ ﴾[النساء : ٧٤] إنهم المخلصون الباذلون أنفسهم وأموالهم فى سبيل الله ، الذين يشرون الحياة الفانية بالحياة الباقية، والذين يفوزون بإحدى الحسنيين : الشهادة أو النصر كما أخبر المصطفى ﷺ حين قال: «تضمن الله لمن خرج فى سبيله لا يخرجه إلا جهاد فى سبيلى وإيمان بى وتصديق برسلى، فهو علىّ ضامن أن أدخله الجنة أو أرجعه إلى مسكنه الذى خرج منه نائلا ما نال من أجر أو غنيمة » [١].

إنهم رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، ترى صدقهم فى موقف كموقف «المقداد بن عمرو» فى ذلك اليوم الذى بدأ عصيبا حيث أقبلت قريش فى بأسها الشديد وإصرارها العنيد، وخيلائها وكبريائها، والمسلمون قلة لم يمتحنوا من قبل فى قتال من أجل الإسلام، فهذه أول غزوة لهم يخوضونها، فى هذا الموقف تقدم المقدام فقال: «يا رسول الله امض لما أمرك الله فنحن معك والله لا نقول لك كما قالت بنو اسرائيل لموسي: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون بل نقول لك: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون.

والذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى بَرْك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه ، ولنَقاتلنّ عن يمينك وعن يسارك، وبين يديك ومن خلفك ، حتى يفتح الله لك».

لقد بلغت كلمات المقداد غايتها من أفئدة المؤمنين ، فقام سعد بن معاذ زعيم الأنصار، وقال : يا رسول الله لقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ماجئت به هوالحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا ، فامض يا رسول الله لما أردت ، فنحن معك والذى بعثك بالحق ، لو استعرضت بنا هذا البحر

---

(١) أخرجه مسلم.

فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا. إنّا لصبُرٌ فى الحرب، صُدْق عند اللقـاء، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينيك فسر على بركة الله».

فامـتلأ قلب الـرسول بشـراً. وقال لأصحـابه، سيـروا، وأبشروا والتـقى الجمعان، وكان فرسان المسلمين يومئذ ثلاثة لا غير. المقداد بن عمر، ومرثد بن أبى مرثد، والزبير بن العوام، بينما كانْ بقية المجاهدين مشاة أو راكبين إبلا.

وانتصر يومها القليل على الكثـير، والضعيف على القوى ، والأعزل على المسلح وصـدق الله القائل ﴿ **فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ الـلَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَنًا** ﴾[الأنفال : ١٧] .

ومع هذه الشهـامة ، وهذا الإقدام والثبـات على الحق ، وصور البطولة، يتمنى المسلم لو أنه عاش هذه الأيام، ولكن اسـمع إلى حكمة المقداد حين مر به رجل : فقال مُخـاطباً المقداد : طوبى لهاتين العـينين اللتين رأتا رسول الله ﷺ ، والله لوددنا أنا رأينا ما رأيت وشهـدنا ما شهدت ، فأقـبل عليه المقداد وقال: مـا يحمل أحدكم على أن يتمنـى مشهدا غـيّبه الله عنه، لا يدرى لو شهده كيف كـان يصير فيه ؟ والله لقد عاصـر رسول الله ﷺ أقوامٌ كبّهم الله عـز وجل على مناخـرهم فى جهـنم ، أولا تحمـدون الله الذى جنبكم مـثل بلائهم، فأخرجكم مؤمنين بربكم ونبيكم»؟

إن الواحد منهم كان يقـول: لقد كان لى أصحاب سبـقونى إلى الله ، وما أحب أن انحرف عن طريقهم ولو كانت لى الدنيا ومـا فيها ، ملك حبهم لله ورسولـه عليهم حيـاتهم كلها. ترى ذلك فى مصـرع خُبَيب الأنصارى بمكة، وقد بعضت قريش لحمـه، وحملوه على جذعة . وهم يقولون له : « أتحب أن محمداً مكانك وأنت سليم معافى فـيجيبهم قائلاً : والله ما أحب أنى فى

أهلي وولدى ، معى عافية الدنيا ونعيمها ، ويصاب رسول الله بشوكة» . ليس هذا فعل الرجال فحسب ، بل شاركهم النساء ، فلقد مرّ رسول الله ﷺ بسيدة من بنى دينار استشهد أبوها وزوجها وأخوها ، وحين أبصرت المسلمين العائذين من الغزو ، سارعت نحوهم تسألهم عن أنباء المعركة ، فنعوا إليها الزوج والأب والأخ ، وإذا بها تسأل فى لهفة : وماذا فعل رسول الله ﷺ. قالوا : خيراً هو بحمد الله كما تحبين ، قالت : أرونيه ، حتى أنظر إليه ، ولبثوا بجوارها حتى اقترب الرسول ﷺ ، فلما رأته أقبلت نحوه تقول كل مصيبة بعدك أمرها يهون .

أم نتحدث عن أمين هذه الأمة ـ أبى عبيدة بن الجراح ـ يقول أبو بكر الصديق رضى الله عنه: « لما كان يوم أحد ، ورمى رسول الله ﷺ حتى دخلت فى وجنته حلقتان من المغفر ، أقبلت أسعى الى رسول الله ﷺ، وإنسان قد أقبل من قبل المشرق يطير طيراناً ، فقلت : اللهم اجعله طاعة حتى إذا توافينا إلى رسول الله ﷺ إذا هو ابو عبيدة بن الجراح قد سبقنى، فقال: أسألك بالله يا أبا بكر أن تتركنى فأنزعها من وجه رسول الله ﷺ، فتركته فأخذ أبو عبيدة بثنيته إحدى حلقتى المغفر فنزعها، وسقط على الأرض وسقطت ثنيته معه، ثم أخذ الحلقة الأخرى بتثنية الأخرى فسقطت فكان أبو عبيدة فى الناس أثرم ».

أى رجال هؤلاء الذين لم يضعوا لكثرة العدد أى اعتبار، ولا لسلاحه أى مكانة وهم يقرأون قول ربهم ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة:٢٤٩] فمتى كانت معارك الإيمان معارك كثرة ؟ وها هم فى مؤته وجيش الروم يبلغ مائتى ألف مقاتل، لكن جيش الإيمان لا يبالى ، فأقدموا وهم تواقون للشهادة، وقد أبلغهم الله أياها بصدق إيمانهم وثباتهم على الحق الذى يحملون، وهم يرددون: يا نفس إلا تقتلى تموتى.

وقالها: ابن رواحة : « يا قوم إنا والله ، ما نقاتل أعداءنا، لا بقوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هى إحدى الحسنيين : النصر أو الشهادة » .

ولا يفوتنا موقف سيف الله المسلول خالد بن الوليد الذى قال له قائد الروم، قد علمنا أنه لم يخرجكم من بلادكم إلا الجهد والجوع، فإن شئتم أعطيتُ كل واحدٍ منكم عشرة دنانير وكُسوة وطعاما، وترجعون إلى بلدكم، وفى العام القادم أبعث إليكم بمثلها.

أدرك خالد سوء أدب هذا القائد فقال له: « إنه لم يخرجنا من بلادنا الجوع كما ذكرت ، ولكننا قوم نشرب الدماء ، وقد علمنا أنه لا دم أشهى ولا أطيب من دم الروم فجئنا لذلك ».

ثم عاد إلى صفوف جيشه ورفع اللواء مُكبرا ، هكذا : هبى رياح الجنة . ثم يقول:.من يبايع على الجنة. فيبايعون ثم ينتصرون.

إسلام قائد رومى فى المعركة :

لقد بهرت أخلاق خالد القائد المسلم قواد الروم وأمراء جيشهم، مما حمل أحدهم واسمه « جرجه» أن يناقش خالد وهو يقاتله:

قال: « يا خالد اصدقنى، ولا تكذبنى فإن الحر لا يكذب « هل أنزل الله على نبيكم سيفا من السماء فأعطاك إياه فلا تسلّه على أحد إلا هزمته؟ » .

قال خالد : لا.

قال القائد الرومى : فبم سميت سيف الله؟

قال خالد إن الله بعث فينا رسوله، فمنا من صدقه ومنا من كذّب ، وكنت فيمن كذّب ، حتى أخذ الله قلوبنا إلى الإسلام وهدانا برسوله

فبايعناه، فدعا لى الرسول، وقال لى أنت سيف من سيوف الله فهكذا سميت سيف الله.

قال القائد: فإلام تدعو؟

قال خالد: إلى توحيد الله والى الإسلام.

قال: هل لمن يدخل الإسلام اليوم مثل ما لكم من المثوبة والأجر؟

قال خالد : نعم وأفضل.

قال: كيف وقد سبقتموه؟

قال خالد: لقد عشنا مع رسول الله ﷺ ورأينا آياته ومعجزاته ، وحق لمن رأى ما رأينا وسمع ما سمعنا أن يسلم فى يسر، أما أنتم يا مَنْ لم تروه ولم تسمعوه ، ثم آمنتم بالغيب فإن أجركم أجزل وأكبر إذا صدقتم الله سرائركم ونواياكم.

فصاح القائد الرومى ، وقد دفع جواده ناحية خالد ووقف بجواره يقول: علّمني الإسلام يا خالد .

قلب تفتح من اخلاق قائد مسلم ، بالرغم مما يحمل فى يده من سلاح وخبرة قتالية ، وهكذا أسلم، وصلى لله ركعتين لم يصل سواهما فقد استأنف الجيشان القتال ، وقاتل « جرجة الروماني» فى صفوف المسلمين مستميتا فى طلب الشهادة حتى نالها وظفر بها [(١)].

أأسلم هذا القائد بالسيف كرها ؟ أم دخل الإسلام طوعا لأنه رأى صنفاً من البشر على الأرض كأنهم ملائكة يحلقون فى السماء ، رجال انتصروا على أنفسهم أولاً، فانتصروا بعد ذلك على أعدائهم، لا يحاربون الا ابتغاء

---

(١) رجال حول الرسول - خالد بن خالد صـ ٤٢٥

وجه الله، سواء كانوا أمراء أو جنودا، كلاهما سبب يؤدى به واجبه نحو الله الذى آمن به ، ونحو رسوله الذى بايعه ، ونحـو الدين الذى اعتنقه، وجاهد تحت رايته، فجهده المبذول وهو أمير مطاع كجهده المبذول وهو جندى مطيع.

إن إيمان هذا الرعيل الأول من المسلمين ليضفى على البشرية كلها فى شتى أديانها وأزمـانها ، وأجناسهـا وألوانها ، من الثـقة ما يجـدد لها على الدوام شبابها النضير وعزمها القدير.

فلقد كانوا قبـائل متنافرة متصارعة، وكانوا أكـثر الناس فقراً، وأقل الناس عددا ، عـاشوا جـاهلية مظلمة، فـما الذى جـعل منهم أكثـر الناس عدداً، وأغناهم مجتمعا، وأنعمهم حضارة؟ أهى قوة السلاح وكثرة الجيوش؟

لقد كان الاسكندر الأكبر من قبلهم ، وجنكيز خان من بعدهم أشد قوة ، وأوفر سلاحاً ، وأكثر ضداً ، فأين هم الآن ؟ ماذا بقى منهما ومن أمثالهما؟ لاشيء ! فلا مـبادىء ولا قيم اللهم إلا تاريخ وذكـرى انتصارات مـادية وأما القيم والمباديء فلا أثر لها ولا وجود .

إذن لم تكن القوة المادية فى كل صـورها هى التى جعلت من هؤلا الرجال خيـر أمة أخرجت للناس . . . إنما هو الإيمـان بالحق والخير والعـدل، وتربية رجال يتـرجمون هذه المبـاديء السامية إلى واقع ملمـوس، تتمثل فـيهم أولاً كنمـاذج تُرى، ثم يضـحون مـن أجل ذلك كله بالنفس والنفـيس، والغـالى الثمين، فإذا بالظلام يتحول بمبـادئهم وقيمهم إلى نور، والفوضى إلى نظام، والضعف إلى قوة، والضـياع إلى منعة والمهانة إلى عزة، والجهـالة إلى معرفة وحضارة،كل ذلك نتاج التربية الإيمانية، لا بعدد الجند وعتاد الجيش فبالتربيه الايمانية تنشر دعـوة الحق والخير والعدل، وتسود المبـاديء والقيم، ويفتح الله القلوب الغلف، والأعين العمى، والآذان الصم، وتمتد وتتسع دولة الإسلام.

من صفات القيادة :

من هذه القاعـدة المؤمنة الصلبة خرجت القـيادات الحكيمة بعـد رسول الله ﷺ، التى تتحلى بصفات الجند المؤمنين ، وتزيد عليها قدرات أخرى تؤهلهم للقيـادة ، وتبرزهم للإمارة والريادة فـتميـزوا بذلك عنهم، وبرزوا عن الجند بمواقفـهم وصفاتهم وأخلاقـهم وقدراتهم، فكانوا متمـيزين بصفـات خاصة، ويشتركون مع الجند فـى صفات عامة، كالصدق والأمـانة والرحمة والايثار، ويسبق ذلك كـله الإخلاص فى القول والعـمل، لأن الاخلاص إذا امـتلأ به القلب أشرق، وقـذف الله تعالى فيه نور الحكمـة، فيجمع المرء بـين رجاحة العـقل، وتوفيق وإلهـام الرب، فهـو على نور من عقله، ونور من ربـه فإذا بتفكيره صائبا، ولسانه قويما، وعمله مستـقيما، وإدراكه حكيما فلا يكون معه التواء ولا عوج ولكن توفيق وتسديد،كما يتميزون أيضاً بقدرات منها :

الإدراك الواسع :

ولا يتسنى هذا الادراك إلا بالعلم بما حوله، وتعـرف الأمور من وجوهها، وإدراكها من مصادرها.

فهو بهذه الصفة يعرف خصمـه، ويدرك مراميه ، حتى إنه ليتوقع الهجوم من عدوه وإعلان الحرب فى مـيقاتها، قبل أن يعلنها وقـبل أن يفكر فيها من سيكونون حطبها، لأنه يعلم الخصم ومآربه وحاله ويتعرف من ذلك مآله بنظر ثاقب وتوفيق

إيمان صادق عميق :

بالله تعالى ورسـوله النبى الأمين، ويجعل من سيرة السـالفين نبراسا، بل ونوراً يهتدى به ، ومع هذا الإيمان الراسخ والاتباع المستقيم، فإنه يهضم ماجدّ فى عصره، بكياسة المؤمن ، ودمعة المتهجد .

وبهذا يجمع بين العقيدة والقيادة، لأن القيادة الرشيدة لابد أن تدفعها عقيدة مؤمنة، وقلب لم يركس فى المعاصى، ونفس لم تدنس بالفسوق والانحراف، وإرادة حازمة قوية وضابطة، غير خاضعة لهوى يهوى بها ، بل هى سيدة على النفس حاكمة لها.

فإذا كان الأمر كذلك فإنه يعقد العزم على الاستمساك بأمر الله ونهيه، ويجعل له مثلاً أعلى يسمو إليه ويتبعه جنده فى هذا الإيمان وهذا العزم والاستمساك كما يتبعون قيادته، وهم فى هذه الحال يتبعونه رغبا لا رهبا، وتكون طاعتهم له من إيمان، ليكون لجهادهم معنى سام عال،: ولا يكون ذلك قسراً ولا كرهاً لمجرد النظام العسكرى الملزم، إنما حبا وفهما وطاعة .

عدل وانصاف:

ذلك لأن العقيدة فى القائد المؤمن بعقيدته هى سر نجاحه ، وهى التى تدفعه إلى الجهاد، لأن المحارب يتقدم بنفسه لحماية مجتمعه المسلم، فلابد أن تكون له قوة تحمله على تقديم نفسه فى سبيل مُثل عالية ، تجعله يقدم نفسه راضيا مطمئنا.

فضلا عن أن هذه العقيدة تدفع صاحبها إلى العدل، ولا يدفع الجندى والقائد داخل الصف وهو يجاهد إلى الرضا، إلا أن يحس بأنه يعمل فى ظل عدالة لا تحابى ولا تمارى، ويعطى كل ذى حق حقه، وما من قائد يستطيع النجاح فى قيادته إذا أخفق فى فهم العوامل البشرية فى الحرب، فينبغى أن يكون دارساً للطبيعة البشرية، مدركا حق الإدراك للحقيقة القائلة إن المعارك تكسب فى قلوب الرجال أولاً، وإن التزام جانب العدل أمر حيوى فى إدارة المعارك.

الحرص على الجند :

إن العقيدة وإخلاص المؤمن لها وإذعانه لما تتقاضاه منه، تجعله حريصا على جنده، يحنو عليهم ويقرب منهم ، فالقائد يقود نفوسا، ولا يرص بنيانا ماديا ، ومن يقود النفوس عليه ان يدنو منها ويحنو عليها.

إن العقيدة تجعل القائد لا يفكر فى نفسه ، ولا فى ماله ، ولا فى أى مأرب من أمور الدنيا، غير أن ينتصر فى ميدان يحسب أنه فيه يحمى الفضيلة، ويصون الدم ، ويزود عن العرض ، ويدافع عن الحق ، وبذلك يعلو فى نفسه ويسمو.

التجرد من المنافع المادية :

فيجب على القائد أن يتجرد من المنافع المادية، حتى يكون مثلاً صادقا لما يجاهد من أجله، ولتعلوا المبادىء والقيم وتسمو، فهو لا يجاهد لمال ولا لجاه، ولا لشهرة ومركز، وإنما لتكون كلمة الله هى العليا، إن قائداً ليس بمسلم هو «مونتجومرى» القائد البريطانى يقول: «يجب أن يكون القائد خادماً للحقيقة، وأن تكون هذه الحقيقة لغرض عام، يقصد بها النفع العام، ويروض نفسه على ذلك ، حتى يكون له ملكة نفسية من شأنها أن توحى إلى الآخرين أن يتبعوه » [١].

ذلك لأن النواحى المعنوية والنفسية، تسرى إلى النفوس كما يسرى الماء الطاهر من المكان العالى إلى ما دونه، فيتقدم الجند طائعين واثقين مطمئنين، لأن وجدانهم يتبع وجدانه، إنهم خاضعون لنفسه ونزوعه إلى الخير والفضيلة الإنسانية، قبل أن يخضعوا لما يأمر وينهى.

---

(١) السبيل إلى القيادة - للمشير مونتجومرى لورد العلمين الباب الأول صـ ١٤٠ .

الصبر وضبط النفس :

وعلى القائد أن يكون ضابطاً لنفسه صبوراً، وإن الجنود من ورائه يضبطون أنفسهم بضابط الصبر، لأن المحاربة تكون بالمصابرة كما تكون بالمقاتلة، بل إن أساس القوة فى المقاتلة هو المصابرة، من أجل ذلك دعانا القرآن لها فقال: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾** [آل عمران: ٢٠٠].

إن تربية النفس مع الصبر ، وتربية القائد والجند مع ضبطها أمران متلازمان، وضبط النفس ألاّ تفزع ولا تطمع، وأن تقمع شهواتها وملاذها، وألا تيأس فى هزيمة، ولا تأشر وتبطر وتزدهى فى نصر، وأن تتلقى السراء بثبات جأش ، والضراء بعزيمة تعلو ولا تهبط **﴿ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ ﴾** [النساء : ١٠٤] .

من أجل ذلك وصف المولى فى كتابه العزيز الإنسان الذى لا ينال سجية ضبط النفس فقال: **﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُور وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُور إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِير ﴾** [هود : ٩ : ١١].

إن الصبر وضبط النفس لا يظهران إلا عند الصدمات ، كما قال ﷺ : «إنما الصبر عند الصدمة الأولى » (١).

هذه صفات القائد المنتصر على نفسه أولاً، قبل أن ينتصر على عدوه، لأننا للأسف نرى فريقا من الناس يقولون ما لم يقله الغربيون ولا الشرقيون ولا أى رجل له دين أو عقيدة أيًّا كانت هذه العقيدة: يقولون بفصل العقيدة عن القيادة، والأخلاق الفاضلة عن الجندية المجاهدة ويحسبون أنهما لا يتلازمان

(١) حديث صحيح.

وإن القائد المنتصر قد يكون غير متدين، وسكير يعربد ولا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر لكنه يجيد فنون الحرب،ولا شأن للأخلاق ولا الدين بتفوق القائد .

نقول : إذا كان بعض القواد انتصر فى بعض المواقع مع انحرافه فى دينه وخلقه، فإن ذلك لا يعد نظاما مطردا، بل هو نتيجة خطأ العدو، وليس ثمرة قيادة حكيم ، فذنوب الجيش أخوف عليه من عدوه ، ولقد قالها «ديجول» بعد هزيمته فى الحرب العالمية حين سؤل لم هزمت فرنسا؟ فقال:«هزمها الانحلال قبل الاحتلال» .

ومن هنا فإن أمة جادة تريد أن تجاهد لتسترد مجدها وشرفها ، قيمها ومبادئها، هويتها ودينها يجب أن تعرف أولاً ما يجب أن تتحلى به، وما يجب أن تتخلى عنه ، فتفعل المأمور، وتترك المحظور، وتصبر على المقدور ، وتحمل لواء عقيدة التوحيد.

تحمل العقيدة فى أعلى سماتها ، فإذا بالمجاهد قائداً أومقودا لا يجعل لشخصه مكانا فى مقصده ، بل تفنى نفسه فى الجهاد أفضل العبادات ، وهو يشم للجنة ريحا طيبة ، لذلك كان المجاهدون أصحاب رسول الله ﷺ إذا أوشكوا على الشهادة نادى أحدهم : فزت ورب الكعبة، فالعقيدة لم تكن صفة القائد وحده ، بل صفة كل جندى يحارب فى سبيل الله ، فهو راهب فى محراب قبل أن يكون جندى فى ميدان ، وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: « لكل أمة رهبانية ورهبانية أمتى الجهاد » (١).فليت المتحمسين والمتهورين والمستعجلين يدركون ويفقهون كم من الجهود تبذل وكم من البرامج والمناهج تخطط لها تبعا لما جاء به المصطفى ﷺ كى نصنع قائدًا ونربى جندا » قبل أن يقال: حى على الجهاد !! .

---

(١) بين العقيدة والقيادة اللواء الركن محمود شيت خطاب صـ ١٦

عدة النصر :

إن عدة النصر عند السلف الصالح ليست السيوف البتارة وحدها ، ولا النبال تقطع الاجساد، إنما كانت العدة : الإيمان والصبر.

كما قال فارس المسلمين على بن أبى طالب رضى الله عنه حين تكاثر الفرس على المؤمنين، فخشى عمر على أهل الإيمان فأراد أن يخرج معهم إلى الميدان، فاستشار أصحاب رسول الله ﷺ ، فمنهم من وافق على خروجه، ومنهم من خالفه فى الخروج، وعلى رأسهم على رضى الله عنه، فقال له : «إن هذا الأمر لم يكن نصره ولا خذلانه بكثرة ولا قلة ، وهو دين الله الذى أظهره ، وجنده الذى أعده وأمده ، حتى بلغ ما بلغ ، وطلع حيثما طلع ، ونحن على موعد من الله ، والله منجز وعده ، وناصر جنده ، ومكان القيِّم من الأمر مكان النظام من الخرز ، يجمعه ويضمه ، فإذا انقطع النظام تفرق الخرز ، ثم لم يجتمع بحذافيره.

والعرب وإن كانوا قليلا، هم كثيرون بالإسلام، عزيزون بالاجتماع، فكن قطبا، واستدر الرحى بالعرب، وأصلهم دونك نار الحرب، فإنك إن شخصت من هذه الأرض انقضت عليك العرب من أطرافها وأقطارها حتى يكون ما تدع وراءك من العورات، أهمَّ إليك مما بين يديك، إن الأعاجم إن ينظروا اليك غدا يقولوا: هذا أصل العرب، فإن قطعتموه استرحتم، فيكون ذلك أشد لكلبهم عليك وطمعهم فيك، فأما ما ذكرت من سير القوم إلى قتال المسلمين، فإن الله تعالى اكره لمسيرهم منك، وهو أقدر على تغيير ما يكره، وأما ما ذكرت من عددهم، فإنا لا نقاتل بالكثرة وإنما نقاتل بالنصر والمعونة»[1] فما أحوج من ينادون بالجهاد ويستعجلونه أن يتدبروا هذا الكلام المنير .

---

(١) المصدر السابق صـ ١٨ .

إن القواد المسلمين الذين شقوا بنور السيف والعقيدة، والكتاب المبين فلول الظلام المتكاثف، وانسابوا فى الأرض بقوة الاعتقاد ونور الهداية أولا، وبالإقدام على الموت طلبا للحياة العزيزة الكريمة ثانيا، وإزالة لطغيان الأكاسرة والقياصرة ، ليغزوا الشعوب التى منيت بحكمهم ثالثا ، فكانت العقيدة ونور الحق مع الاستعداد ، هى التى تأتى لهم بنصر الله العزيز الحكيم.

وحتى لا نقف مع جيل الصحابة رضوان الله عليهم فحسب ولكى نبرهن على أثر العقيدة « وأخلاقها فى صياغة الرجال مع إختلاف الزمان والمكان فإننا نتجاوز الصحابة الى ما بعدهم .

أثر العقيدة فى المجاهدين:

إن العقيدة هى التى دفعت قتيبة بن مسلم لأن ينساب بجيوشه المؤمنة من أرض العرب إلى أن يصل إلى الصين، ويجتاز بلاد ما وراء النهر والهند، هاديا مؤمنا مجاهدا يحمل فى قلبه إيمانا ، وفى سلوكه أخلاقاً ، وفى تعامله قيما، وفى يده سيفا بتارا يشق ظلام الشرك والجهالة.

وهذا موسى بن نصير ورئيس أركان حربه طارق بن زياد المؤمن، يسير قاطعا شمال أفريقيا، حتى يصل إلى المغرب، ويجتاز البحر بجيشه حتى يصل إلى ساحل الأندلس، فيحرق سفنه ولم يبق له ولجنده إلا العقيدة المؤمنة الدافعة، والسيوف المشهورة المحاربة، ويقول فى قوة إيمان وسر الحقيقة ينطقه؛ « العدو أمامكم والبحر وراءكم» وهو بهذا يبث فيهم روح الإيمان والفداء والإقدام، فلو لم يتربوا على هذا الفهم، ما تقدموا وما ضحوا وما انتصروا.

لكنهم يتقدمون بقوة الإيمان والعقيدة، وقوة القيادة فى أرض الاندلس فتحا وعمارة، ورفعا للواء الحق والإيمان، ويسير من ورائه رئيسه موسى بن نصير، مجانبا طريقه، ولكن الطمع فى الغنائم ممن وراء هذا الجيش الفاتح

العظيم، يسحب الجندى المؤمن والقائد المجرب ويذهب هذه الجولة التى أدخلت الإسلام فى غصنه الرطيب « الأندلس» وتجيء من بعد ذلك جولات بقيادات معتقدة مؤمنة، حتى يصل عبدالرحمن الغافقى بجند الإسلام إلى جنوب فرنسا، ويصاقب وسطها، ولكن يجيء الجزر بعد المد، ويقف الغزو لأن النفوس قد عراها التردد بعد الاعتقاد، والطمع بعد الإيمان، والانغماس فى الشهوات بعد العزيمة القوية، والضبط الكامل، والصبر الناصر.

وأصبح درس الإيمان مستوعبا، وأخلاق الجنود والقادة يدن منْ أراد النصر، بعد أن خلت نفوس القواعد من العقيدة، وصار الذى يحرك القائد حب الغلب، وحب السلطان، وصار التنازع وظهرت النزاعات الإقليمية، عندئذ صار المسلمون يُغزون ولا يفتحون، وصاروا يرامون ممن كانوا هم يفتحون بلادهم.

فكانت الحروب الصيلبية فى الشرق، وأخذوا بيت المقدس ، فعندئذ تحركت همم بعض القواد ، وتقدم جند مؤمنون ، بقيادة قواد يؤمنون ويعتقدون ، ويزعنون لأمر الله ونهيه.

فتقدم محمود نور الدين زنكى ، وكان مؤمناً كثير الورع، كثير الركوع قانتا عابدا ضارعا ، فأخذ وجه الحرب يتغير ، وتكاتفت جنود أوربا بملوكها، وحمل الراية معه من بعده صلاح الدين الأيوبى ، وبقوة إيمانه وإخلاصه جمع العرب ، وقادهم بقوة العقيدة ، وحكمة القيادة ، حتى استرد بيت المقدس من غاصبيه.

ثم جاء من بعدهم التتار الذين انحطوا كالصخرة من الصين، إلى أرض الإسلام، لا يلوون على شيء إلا حطموه، ولا على صالح إلا أفسدوه، ولا على أرض طيبة إلا جعلوا عاليها سافلها، وانسابوا فى البلاد الإسلامية وأزالوا الخلافة من بغداد، ولكن عبد الله قطز الذى تحلى بالعقيدة والإيمان،

والقيادة الحكيمة ، حطم صخرتهم في عين جالوت ، وجعل السيوف تعمل فى أقفيتهم لأول مرة بعد إندفاعهم المنتصر السريع.

وتوالت هجماتهم ، ولكن توالى مع ذلك فى دفعهم القواد المؤمنون ، ومن أعظمهم إيمانا السلطان الناصر قلاوون ، الذى كان يحمل السيف فى أحد أجنحة الحرب مع اللواء شيخ الإسلام تقى الدين بن تيمية ، الذى كان ينير قلوب الجند فى الميدان.

ثم بزغ نجم قوى يهاجم ذلكم النجم الذى سطع فى هذا الديجور هو محمد الفاتح، الذى فتح القسطنطينية ، وقد رامها من قبل معاذ بن أبى سفيان ، وملوك بنى أمية من بعد ، ورامها العباسيون فى صدر دولتهم ، فافتتحها الفاتح ودخل الإسلام فى ربوع أوربا من الشرق ، كما دخلها فى الأندلس من الغرب، وما كان ذلك إلا بقوة إيمانه، وكان مع قيادته، عقيدة قوية جعلته يذعن لما أمر الله تعالى به فيأتمر، وينهاه عنه فينتهى، ثم جاء بعد ذلك دخول الإسلام شرق أوربا فى بلاد البلقان [١].

ولما تخلى القواد الأتراك عن الاعتقاد ، وعن تسربلهم سربال التقوى فى حروبهم ، وصار مقصدهم أن تزداد رفعة سلطانهم ، تخلى عنهم النصر جزاء بما كسبوا ، وهذه سنة الله فى الدعوات ﴿ **فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلا** ﴾.[فاطر : ٤٣] فما ضاعت البلاد والعباد إلا بضياع الهوية الإيمانية والشخصية الأخلاقية وظهور الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض ما عملوا لعلهم يرجعون » .

فلا سبيل إلى استعادة ما فقدناه إلا: بالتخلق بهذه الأخلاق، والتحلى بهذه الصفات، والعمل الدائب واتقانه، والحرص الشديد على أداء الواجب

(١) بين العقيدة والقيادة من مقدمة الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله واسعه صـ ٢١ بتصرف.

وإحسانه، واستيعاب العلوم العسكرية بدقائقها، والسهر على تدريب الجنود وتربيتهم التربية الإيمانية والأخلاقية والعسكرية فلنكن أولا عبادًا قبل أن نكون قوادا تصل بنا العبادة إلى أحسن قيادة .

يقول « مونتجومرى » فى صفات القائد المعنوية: تتطلب القيادة الصفات الجوهرية التالية: اليقين، والأمانة، والصلابة، والشجاعة ، ويقول: إن العظمة الحقة لا يمكن بلوغها إلا بالفضائل الأخلاقية، فإذا اجتمعت هذه الفضائل مع مواهب أقل نوعا منها ، فإن هذه المواهب ستتحسن وقد تصبح ملهمة»[(١)] .

« إن القوة فى إمارة الحرب ، ترجع إلى شجاعة القلب ، وإلى الخبرة بالحروب والمخادعة فيها ، فإن الحرب خدعة ، وإلى القدرة على أنواع القتال، من رمى وطعن وضرب، وركوب وفر وكر، ونحو ذلك»[(٢)] .

مع القاده غير المسلمين :

هذا الذى نقول عن العقيدة وأثرها قد يتصور البعض أن المسلمين انفردوا وحدهم بالاهتمام بها وبناء الرجال عليها، وهذا فهم خاطىء، لا يستند إلى دليل، والعكس هو الصحيح، فإن العسكريين المحدثين فى الغرب والشرق يهتمون بالعقيدة والمثل العليا، بالرغم من بطلان هذه العقائد وفسادها، وليس الإسلام بدعاً من النظم، واسمع إلى ما قاله أحد القادة الغربيين هو « ويفل » أحد القادة البريطانيين النارزين، فى الحرب العالمية الثانية يقول : « يجب أن يكون القائد عفيفا وقورا ، يتحمل المشاق ، وأن يكون مؤدبا ودوداً سهل الاقتراب منه، رزين الطبع » .

(١) السبيل إلى القيادة - مونتجومرى صـ ٢٤١ .
(٢) السياسة الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية لابن تيمية صـ ١٥ .

أما ما قاله المشير مونتجومرى القائد البريطانى، فما زاد المسلمون العاملون لدينهم أكثر مما قال، اللهم إلا ربط هذه المعانى بعقيدتهم الإسلامية، فلعل كلامه يطرب تلامذة الغرب، ونأمل ألا يرمى بالتطرف والتعصب ـ وإن كان كذلك فهو رجل متعصب فعلا لدينه ، فهو يحث القادة بصفته مسيحيا على الاقتداء بالسيد المسيح عليه السلام فيقول : « فالمسيح قد قدم إلى أتباعه مجموعة من المبادىء ، ومثالا من نفسه لا ينسى ، وهذا ما يجب ان يفعله القادة الوطنيون فى يومنا هذا ، وهو ما ينقصهم على ما يظهر» وعلى القادة الوطنيين فى العالم الحر أن ينظروا إلى التناقض بين السلطة والعقيدة الدينية بمنظار أحسن » [1].

فلو وضعنا بدل كلمة عيسى عليه السلام اسم محمد ﷺ مع العلم بأن محمدا ﷺ قدم تضحيات مذهلة فى الحرب والسلام، قد لا تعتبر تضحيات السيد المسيح عليه السلام إلى جانبها شيئا مذكورا، فماذا عسانا أن نسمع من أعداء الدين، حين يسمعون هذا الكلام منسوبا إلى المصطفى ﷺ ؟

يقول هذا القائد الغربى غير المسلم : « اجعل غرضك الأكبر واضحاً، ودع عنك كل ما يعرقل بلوغ هذا الغرض، وتمسك بقوة بكل ما يساعدك على بلوغه ، ومن ثم تقدم نحو إدراكه بضمير حى نقى، وبشجاعة وإخلاص، وبروح مجردة من الإنانية » [2].

ويقول : « على اننى اعتقد بأن الاستقامة فى القضايا المعنوية الكبرى -يقصد التمسك بالمثل العليا والفضائل الأخلاقية - وفى الفضائل الدينية أمر ضرورى لنجاح القائد » [3].

---

(١) السبيل إلى القيادة الباب الرابع صـ ٦٦.
(٢) المصدر السابق الباب الأول صـ٤٦.
(٣) المصدر السابق الباب الأول صـ ١٩.

ويقول: «إن الميزة الأولى للقائد الذى ننشـده، هى أن يكون مخلصا إخلاصا عميـقا وعظيما وحقـيقيا، والإخلاص الذى أعنيـه هو النوع الذى ينبعث من القائد دون تكلف، فـهو فيه بالطـبيعة، وهو لا يملك إلا أن يكون مـخلصا، ويضاف إلى الاخلاص نكران الذات ، وأعنى بذلك الولاء التـام للقضية التى يخدمها، من غير أن يفكر فى جزاء أو شكور » [١].

ولمن يؤمن بقـادة الغرب ويعتـبرهم قـدوة نذكر ما قـاله « إبراهام لنكولن» الذى قال عنه مونتجومرى : «كان كـثير الأمانة والاخلاص، وأن الإنجيل كان موجودا فى بيته ولا شك، بل ربما كان الإنجـيل هو الكتاب الوحيد فيه، على أننا نلحظ قراءته للإنجيل من خطبه، وكتاباته الأخيرة» وكان سلوكه من حيث الاساس مسيحى الأصول دائما، ويبدو أنه كان يتبع طبيعيا التعاليم التى ذكرها المسيح فى الخطبة التى ألقاها فى الجبل[٢] ولم يكن ذلك تظاهرا منه بالتقوى ، بل لأنه كان يعتقد بأن الفضائل الدينية هى فضائل ديمقراطية أيضا، فهى تهدى الناس إلى أن يعيشوا حياة كريمة محترمة » [٣].

هذا ما قاله أعظم قادة عصره الحـربيين من الأوربيين، ماذا لو نعينا عصرنا كما نعى هو العـالم فى عصره فى تخليه عن المثل العليا ، ويتـوجه إلى قومه برأيه صريحاً واضحاً يقول : « لكى نخـدم بريطانيا ونفتخر بأننا إنجليز، ليس من الضـرورى أن نملك قنابل ذرية بقـدر أمريكا، أو علـماء بقـدر روسيـا، فليست البلاد التى تنقصـها القنابل الذرية أو القوات الكبرى، هى التى يجب ان تدعى دولا من الدرجة الثـانية، بل ينبغى أن يطـلق ذلك على البلاد التى تعوذهـا المثل العليا، وهذه المثل تبـقى وغيـرها يفنى » ثم يقـول « إن أول ما

(١) المصدر السابق الباب الأول صـ ٢١.

(٢) وهى التى اثنى فيها المسيح على المتواضعين والفقراء قال انهم سيرثون الارض من بعده .

(٣) السبيل إلى القيادة - الباب الخامس من ص ٩٠- ٩٨

نحتـاج إليه هو معـالجة الجهل المتفـشى بيننا عن الحقـائق الأولية للدين »[1]
ودعنى أزيدك مما قال لنعقد مقارنة بين ما يـقوله هذا القائد الغربى الميسيحى، وما يدعو اليه قادة الحركة الإسلامية المعتدلة اليوم، فلن تشعر بفارق بين كلام كل منهـما، اللهـم إلا الفرق فى العـقائـد، إلا أن الأول يُسمع له بأمـتنان، والآخر تُصم له الآذان ويرمى بـكل نقيصـة واختلال، يقـول مونتجـومرى : «إنى من المؤمنين إيمانا راسخـا بوجوب توجيه الشبـاب نحو العلا، ويجب أن نوضح لهم ما ينـبغى أن يفعلوه لبلوغ ذلك، وأن نبـين لهـم السبب، إن ذلك أمر مهم لأن المستقبل للشـباب، فهم الذين يجب أن يستلموا المشعل منا، إن مهمـتنا أن نوحى إلى الشباب أن يستـهدفوا غرضا أخـلاقياً عاما، مـبنياً على إيمان واع قوى بالدين ، فإذا استطعنا بعدها أن نوحد شـبابنا وراء قادة يهتمون بهذا الدين، كما يهتم الشيوعيون بـعقيدتهـم، فما من شيء نخشاه لا الأعداء ولا المشكلات الاقتصادية، إذ يمكن التغلب عليهما معا» .

إن أهم ما فى الـتربية ـ وفى الحـياة كـذلك ـ هو أن يكون لدى الولد أو الشاب إحساس بالغرض قوى، إلى درجة تمكنه من مواجهة الصعاب والتغلب عليها، إن غرضا كهذا لا يبنى إلا على العـقيدة، ولا يمكن تنمية هذه العقيدة إلا فى زمن الصبا، لكنه يجب أن تكون هذه العقيدة حسنـة، فالعقيدة السيئة هى السبب فى معظم ما نعانيه اليوم من اضطرابات »[2].

ثم يختم حديثه قائلا: «يجب على الغـرب المحافظة على تراثنا المسيحى، فذلك بنظره كفيل لمصاولة الشيوعية، لأن العقيدة لا تكافح إلا بعقيدة كما هو معروف» .

فهـل نقول نحن بغـير هذا الكلام ـ غـير أننا نسنده لرسـول ﷺ ـ ونحن نخاطب به قـومنا وبنى جلدتنا ، و شعوبنا المؤمنة ، وبلادنا الإسـلامية ، أم

(١) المصدر السابق الباب الحادى عشر صـ ٢٠٥
(٢) السبيل القيادة الباب الحادى عشر صـ ٢١٣

إننا إذا ذكرنا ﴿ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [الزمر : ٤٥] .

فإن كان هذا كلام قاله رجل بريطانى، فإن بعض الأمريكان لا يقلّون عن ذلك فهماً، فهم يقولون : إن القائد عنوان قواته، فقد ثبت بالبرهان القاطع أن القوات تتأثر تأثرا كبيرا لسلوك القائد، وبالمثل الذى يضربه لها، لذلك يجب أن يتحلى بخصلة نكران الذات ، والعدالة والاستقامة.

وقد كان أيزنهاور القائد العام لقوات الحلفاء فى أوربا خلال الحرب العالمية الثانية، والذى أصبح رئيسا للولايات المتحدة الأمريكية فيما بعد، متدينا ورعا ملتزما بتعاليهم الدين، ويرضخ لاراء قسيس الكنيسة حتى فى القضايا السياسية[١].

أما الفرنسيون فكانوا يرون أن الجدارة الخلقية من أهم مزايا القائد المنتصر، ويجب أن يتحلى القائد بالنزاهة المطلقة، والعدالة والصدق، والإنصاف والتجرد، وكان ديجول رئيس الجمهورية الفرنسية متدينا غاية التدين ، ولما توفى سنة ١٩٧٠م كتب أحد رجال الدين عنه مقترحاً إعطاءه لقب قديس، لأنه كان متمسكا بدينه، وهو القائل: « لم يعد الجيش الفرنسى اليوم شابا، ومهما كان وضعه فإننا لا نراه قويا، إلا إذا استقى مثله الأعلى من المشاعر السائدة في عصره، واستخرج من ذلك فضيلة واستقامة »[٢].

وأما الألمان فكانوا أشد تمسكاً بالمثل العليا، والتقاليد العسكرية، والصدق والاستقامة، والشهامة والشجاعة، والشرف الرفيع، ولقد كان أبرز قادتهم فى الحرب العالمية الثانية ملتزما بالفضيلة والدين، وعرف عنه أن أول عمل كان

(١) بين العقيدة والقيادة صـ ٧٤.

(٢) ديجول - حد السيف- صـ ٣٧ ترجمة أكرم ديرى وهيثم الأيوبى بيروت ١٩٦٩

يبدأ به بعد احتلال مدينة من المدن هو السؤال عن الكنيسة، والذهاب إليها، فإذا علم بأن البلد محرومة من الكنائس أو أن كنائسها مغلقة بسبب ظروف الحرب، أو لأسباب أخرى بادر إلى الأمر بفتحها وإقامة الشعائر الدينية فيها للناس [١].

حتى الاتحاد السوفيتى فى الحرب العالمية الثانية، فالبرغم من أنها دولة قامت على الالحاد إلا أن الناس كانوا يقبلون على دور العبادة، لأن المرء حين يداهمه الخطر، فإنه يعود إلى الله يدعوه سرا وعلانية ، حتى أن الروس طالبوا الشعوب بإجراء الصلوات فى الكنائس من أجل النصر.

فضلا عن أن الشيوعيين يتعصبون للعقيدة الشيوعية الماركسية، ومهما يكن رأى الناس بوجه عام، والمسلمون بوجه خاص، فى هذه العقيدة، إلا أنها عقيدة بالنسبة لمعتنقيها يؤمنون بها، ويضحون من أجلها، ويعملون على نشرها بين الناس ، بالرغم من بطلانها و إفكها وكفرها ؛ فما بالك بأهل الحق وحزب الله؟

فالعقيدة ضرورية للغاية بالنسبة للقائد والجنود على حد سواء، والتمسك بعقيدة فاسدة خير من التخلى عن أى عقيدة، فما بالك بالتمسك بالعقيدة الصحيحة السليمة ؟ وما آلت إليه بلادنا الإسلامية من انتصار الأعداء علينا إلا لبعدنا عن عقيدتنا، ويوم نعود لهذه العقيدة لن نغلب من قلة أبدا، فالذى افتقدناه فى زماننا هذا هو رجل العقيدة بل هى شخصيتنا الاسلامية الأخلاقية التى إن استعدناها أولا أثابنا مولانا الفتح المبين، لذلك كان لابد من فهم للتربية الجهادية والأخذ بها لنستعيد مجدنا وأمتنا .

***

(١) بين العقيدة والقيادة صـ ٨٠ .

منهج الإسلام فى التربية الجهادية

فهم لابد أن يسبق الجهاد :

للقرآن منهاج فريد فى التربية بوجه عام، والتربية الجهادية بوجه خاص، ولما كانت رسالة الإسلام رسالة تربية قبل أن تكون رسالة تشريع ونظام، كانت التربية سابقة ومرافقة وملازمة لكل خطواته التنظيمية، والتعليمية، والاقتصادية، والسياسية،و والجهادية ... إلخ.

وتناول هذه النواحى دون الالتزام بالتربية القرآنية لكلٍ، يفصلها فصلاً تاماً عن أصلها، وتصير شكلا من الأشكال المتعددة التى لا صلة لها بالإسلام، أو تصير قالبا بلا قلب، وجسدا بلا روح، فالذين يريدون أن يقيموا نظام الإسلام دون تربية الأفراد تربية إيمانية وأخلاقية، أنّا لهم إقامة هذا النظام الذى إهتم بالمشاعر قبل الشرائع، وبالقلوب قبل الصفوف، وتربية روحه وحياته لذلك فإن الذين يتصورون الجهاد استخداماً للقوة، وإمساكاً بالسلاح، وقتلاً للأعداء فحسب، واهمين بل وجاهلين بطبيعة هذا الدين، فلو أن الأمر كذلك، لفرض القتال على المسلمين فى مكة قبل المدينة، والعرب يومها أهل حرب وشجاعة وفتوة .

لكن هذه الفريضة أتت متأخرة لتعطى للجماعة المسلمة الفرصة لكى يتربوا بالأحداث تربية إيمانية، لتصفوا النفوس، وتتعلق القلوب بخالقها، ويكون الدين لله، فلا تكون الحرب لعصبية، أو قبلية، أو شجاعة، أو فروسية، إنما هى لله رب العالمين لا شريك له.

لذلك اهتم الإسلام بصفات الجندى وليس بنوع السلاح فحسب، وبكيف الجنود لا بعددهم، وبالأيدى المتوضئة، والجباه الساجدة، والعيون الدامعة،

والأجساد الخاشعة، قبل أن يهتم بالعدد والخطط والعتاد واحراز النصر، وفى الختام اهتم بايجاد صنف من الرجال يعملون للأخرة، وإن عمروا الدنيا، فهم يبتغون فضلاً من الله ورضوانا، لذلك قال ربنا ﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ ﴾ [النساء : ٧٤] .

والمتأمل فى القرآن الكريم، والمتدبر فى السنة المطهرة، يلحظ هذا المنهج الفريد فى صناعة الرجال ليصبحوا من هذا الصنف الذى قال الله فيهم ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ﴾ [الأحزاب: ٢٣] إنهم خريجوا بيوت الله، ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾[الذريات : ١٧] فهم ﴿ رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ ﴾ [النور : ٣٧] فإذا لم تكن هذه هى البداية فلن تصح النهاية ، فمن صحت بدايته صحت نهايته .

وأمام أعيننا أمثلة لحركات جهادية، لم تحظ بالتربية الكافية، لكنها أمسكت السلاح ـ وكان لها أن تمسكه ـ دفاعاً عن عقيدتها ووطنها، لكنهم بعد النصر أصبحوا طلاب دنيا أساؤا إلى المجاهدين، وشمتوا فينا الحاسدين، وأدخلوا السرور على الكافرين، وأسالوا دماء المسلمين بعد أن انتصروا على الكافرين، ولسنا بصدد الحديث عن هذه الحركات التى خذلت المسلمين، بعد ما انتصرت على الملحدين، وأعطت الفرصة لأعداء الدين أن يشهروا بالجهاد والمجاهدين، وأشاعوا اليأس بين المسلمين.

لكن الكيس من دان نفسه، واكتسب من المواقف والدروس والعبر، والتزم بمنهاج القرآن الكريم، ومواقف المصطفى الأمين صلوات الله وسلامه عليه؛ ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [الأحزاب : ٣٦] وما كانت السيرة بتسلسلها وأحداثها ومواقفها إلا

منهجاً يلتزم به المسلمون، اتباعا لمنهج، والتزاما لقواعد ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف : ١٥٧].

ركيزتان لابد منهما :

تقوم الجماعة المسلمة على ركيزتين ، تؤدى بهما دورها الشاق العظيم ، فإذا انهارت واحدة منهما لم تكن هناك جماعة مسلمة ولم يكن هناك دور لها تؤديه، ولا كان لها انتصار فى معركة، ولا قيمة فى حياة.

أولاها: ركيزة الإيمان والتقوى ، التقوى التى تبلغ أن توفى بحق الله الجليل، التقوى الدائمة اليقظة، التى لا تغفل ولا تفتر لحظة من لحظات العمر، حتى يبلغ الكتاب أجله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٢] .

فكلما اقترب العبد بتقواه من الله، تيقظ شوقه إلى مقام أرفع مما بلغ، وإلى مرتبة وراء ما ارتقى، وتطلع إلى المقام الذى يستيقظ فيه قلبه فلا ينام، ولا يزال كذلك حتى يوفيه أجله، والموت غيب لا يدرى الانسان متى يدركه، فمن أراد ألا يموت إلا مسلما فسبيله منذ اللحظة مسلما، وأن يكون فى كل لحظة مسلما، إنه الاستسلام لله طاعة له واتباعاً لنهجه، واحتكاما إلى كتابه.

هذه هى الركيزة الأولى التى تقوم عليها الجماعة المسلمة، لتحقق وجودها، وتؤدى دورها أى أنه بدون هذه الركيزة لاتقوم لها قائمة، ولا تسمى مسلمة، إذ لا يكون هناك منهج لله تتجمع عليه أمة ، وهذا الذى بدأ به، رسول الله ﷺ منذ قرأ باسم ربه فقام الليل إلا قليلا، فتهجد بالقرآن، وذكر الله كثيرا، وربى أصحابه على هذه المعانى، فكانوا خير أمة أخرجت للناس، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله .

ثانيا : ركيزة الأخوة فى الله، على منهج الله، لتحقيق هذا المنهج ،أخوة تنبثق من التقوى والإسلام ـ من الركيزة الأولى ـ أساسها الاعتصام بحبل الله ـ أى عهده ونهجه ودينه ـ ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [آل عمران:١٠٣] .

إنها الأخوة المعتصمة بحبل الله، وهى نعمة يمتن الله بها عليهم، ويهبها لمن يحبهم من عباده دائما، فتتألف بها القلوب، وتتوحد بها الصفوف، وتقوى بها الجيوش، وما كان إلا الإسلام وحده الذى يجمع القلوب المتنافرة، ولا يمكن أن يجمع القلوب إلا أخوة فى الله، تصغر إلى جانبها الاحقاد التاريخية، والثارات القبلية، والاطماع الشخصية، والرايات العنصرية، ويتجمع الصف تحت لواء الله الكبير المتعال ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾[الأنفال : ٦٣] .

وهكذا ترجع هذه الجماعة إلى ميزان واحد، تقوّم به كل ما يعرض لها فى الحياة، وتتحاكم إلى شريعة واحدة من عند الله، يقوم كيانها على الحب والتكافل اللذين تختفى فى ظلالهما مشاعر الأثرة، وتتضاعف بها مشاعر الإيثار، فينصبط سلوكها فى الحرب والسلم على حد سواء ، وعلى مثل ذلك الإيمان وبمثل هذه الأخوة يقوم منهج الله فى الأرض فى كل زمان، ينشر الأمن والأمان، ويحقق الرخاء والاطمئنان، ويسود السلام مشارق الأرض ومغاربها، حين يطبق هذا المنهاج.

ولذلك كان من مهام هذه الجماعة المسلمة صيانة الحياة من الشر والفساد، وأن تكون لها القوة التى تمكنها من نشر المعروف فتأمر به، ومن منع المنكر فينتهى عنه ، لأنها خير أمة أخرجت للناس ، فعملها العمل الإيجابى لحفظ

الحياة البشرية من المنكر ، وإقامتها على المعروف ، والنهى عن المنكر هو النهوض بتكاليف الأمة الخيرة بحكمة بالغة وموعظة حسنة ، ومجادلة بالتى هى أحسن ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة : ٨٣] مع تحمل ما وراء هذه التكاليف من متاعب، وبكل ما فى طريقها من أشواك ، إنه التعرض للشر ، والتحريض على الخير ، وصيانة المجتمع من عوامل الفساد، لتحقيق الصورة التى يحب الله أن تكون عليها الحياة، دون إكراه أو إلزام أو تفريط أو إفراط، باعداد نفسى ومادى ﴿ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّه ﴾ [البقرة : ١٩٣] وبهذا المنهج يُصنع الرجال الذين يجاهدون فى الله حق جهاده ، ولا يخافون فى الله لومة لائم ، ويربون تربية إيمانية جهادية.

كف الأيدى لتربية النفوس :

ومن أجل تربية إيمانية ، وغاية سامية كان لابد من كف الايدى فى بداية الدعوة وكان هذا الكف لحكمة قدرها الله وأول ما نراه من أسباب الكف، أنه كان يراد أولاً تطويع نفوس المؤمنين من العرب للصبر، امتثالا لأوامر الله، وخضوعا للقيادة، وانتظاراً للإذن، وقد كانوا فى الجاهلية شديدى الحماسة، يستجيبون لأول ناعق، ولا يصبرون على الضيم، وبناء الأمة المسلمة التى تنهض بالدور العظيم الذى نيطت به هذه الأمة، يقتضى ضبط هذه الصفات النفسية، وتطويعها لقيادة تقدر وتدبر وتطاع فيما تقدر وتدبر، حتى لو كانت هذه الطاعة على حساب الأعصاب التى تعودت الاندفاع والحماسة والخفة للهيجاء عند أول داع ، ومن ثم استطاع رجال من طراز عمر بن الخطاب فى حميته، وحمزة بن عبد المطلب فى فتوته،وأمثالهما من أشد المؤمنين الأوائل أن يصبروا للضيم يصيب الفئة المسلمة، وأن يربطوا على أعصابهم فى انتظار الرسول ﷺ، وأن يخضعوا لأمر القيادة العليا وهى تقول لهم ﴿ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ [النساء : ٧٧] ومن ثم وقع التوازن بين الاندفاع

والتروى، والحماسة والتدبر، والحمية والطاعة، فى هذه النفوس التى كانت تعد لأمر عظيم.

أما الأمر الآخر هو أن البيئة العربية كانت بيئة نخوة ونجدة، وقد كان صبر المسلمين على الأذى وفيهم من يملك رد الصاع صاعين مما يثير النخوة، ويحرك القلوب نحو الإسلام، وقد حدث بالفعل عندما اجتمعت قريش على مقاطعة بنى هاشم فى شعب أبى طالب، كى يتخلوا عن حماية الرسول ﷺ، عندما اشتد الاضطهاد لبنى هاشم ثارت نفوس نجدة ونخوة، ومزقت الصحيفة التى عاهدوا فيها على المقاطعة، وانتهى هذا الحصار تحت تأثير هذا الشعور الذى كانت القيادة الإسلامية فى مكة تراعيه فى خطة الكف عن المقاومة، كما وضح ذلك من خلال السيرة.

ومما يتعلق بهذا الجانب أن القيادة الإسلامية لم تشأ أن تثير حربا دموية داخل البيوت، فقد كان المسلمون حينذاك فروعا من البيوت، وكانت هذه البيوت هى التى تؤذى أبناءها وتفتنهم عن دينهم، ولم تكن هناك سلطة موحدة هى التى تتولى الإيذاء العام، ولو أذن للمسلمين أن يدافعوا عن أنفسهم يومذاك. لكان معنى هذا الإذن أن تقوم معركة فى كل بيت، وأن يقع فى كل أسرة، مما كان يجعل الإسلام فى نظر البيئة العربية يبدو دعوة تفتت البيوت، وتشعل النار فيها من داخلها، فأما بعد الهجرة فقد انعزلت الجماعة المسلمة كوحدة مستقلة تواجه سلطة أخرى فى مكة، تجند الجيوش، وتقود الحملات ضدها، وهذا وضع متغير عما كان عليه الوضع الفردى فى مكة بالنسبة لكل مسلم فى داخل اسرته.

وقد يضاف أن المسلمين إذ ذاك كانوا قلة، وهم محصورون فى مكة، وقد يأتى القتل عليهم لو تعرضوا لقتال المشركين فى صورة جماعة ذات قيادة حربية ظاهرة ، فشاء الله أن يكثروا وأن يتميزوا فى قاعدة آمنة ، ثم أُذن لهم

بعد هذا فى القتال.

ذلك لأن الصـراع بين الحق والبـاطل قديم قـدم هذه الحـياة،لا يهـدأ ولا ينتـهى، ولا يزول إلى أن يرث الله الأرض ومن عليهـا، فلابد لكل أمـة من أمم الأرض تريد أن تحيا حياة العزة والكرامة مـن أن تستعد الاستعداد الكامل لمجابهة عدوها، بكل ما تملك من قوة،وأن تأخذ بأسباب النصر،فتهيء شبابها للجهاد والقتال لأ نه طبقا لمنهاج الله لا عيش فى هذه الدنيا إلا للأقوياء.

ولما كان الإسلام ديـن الله إلى الإنسانية، يهتم بدعـوة الناس إلى الدخول فى هدايته، والانضواء تحت رايته، لينعموا بحيـاة الأمن والاستقرار، ويعيشوا العيشـة الكريمة التى أرادها الله لبنى الإنسان، ولما كانت الأمة الإسـلامية هى الأمة التى اختارها الله لإعلاء دينه، وتبليغ وحيه، وايصال الهدى والنور إلى أمم الأرض،كان لزاماً عليها إذا وقف أحد فى طريق الدعوة، وأراد أن يصدها عن المضى فى طريقها،كان لابد من دحـره، وتطهير الأرض من شره، لتصل الهداية إلى النفوس، وتعلوا كلمة الحق،ويأمن الناس على حريتهم الدينية فى الإيمان بالله الواحـد القـهـار ،ولذلك شرع القـتـال لدفع عـدوان الظالمين، ولتحطيم كل قوة تعترض طريق الدعـوة وايصالها للناس فى حرية واطمئنان، وصدق الله ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ﴾[البقرة : ١٩٣] .

ولا تقاتل إلا الباغى المعتدى، الذى يريد أن يفرض إرادته على الأمة بالقهر والسلطان ، وأن يصد عن دين الله بقـوة الحديد والنار، ويفتن المؤمن بوسائل الفتنة والإغراء ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾[البقرة : ١٩٠] ولكن من هؤلاء الذين يقاتلون؟

أنموذج المجاهد لابطولاته :

الذى يتأمل فى الرجال الذين كانوا حول رسول الله ﷺ - كما ذكرنا بعضهم - يجدهم نماذج فريدة فى كل شيء، وفى كل موقع كانوا فيه، وفى كل موقف وقفوه بين يدى الله، رجال أفذاذ، أبطال مغاوير، ونسأل من الذى صنعهم هذه الصنعة، ورباهم هذه التربية، فلا نجد إجابة إلا كلمات قلائل، تقول إنه الإسلام هو الذى حدد طريقهم وسلوكهم فى الحياة، وصاغها هذه الصياغة الربانية، حتى أصبحوا أبطالاً أفذاذا، الواحد منهم أمة وحده، وصدق عمر بن الخطاب حين قال: وما عمر لولا الإسلام ؟ .

ومجتمعهم يعرف هذه الحقيقة مع بساطتها، حتى أن الواحد منهم يقول : كنا أذلة فأعزنا الله بالإسلام، فمن ابتغى العزة فى غير الإسلام أذله الله؛ لذلك حين قيل لخامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز: جزاك الله خيرا عن الإسلام . قال : بل جزى الله الإسلام عنى خيراً .

فالإسلام بعقيدته قوة هائلة قادرة على العطاء بغير حدود، ومازال وسيزال قادرا على مدّ الحياة بأمثال هؤلاء الرجال، الذين كانوا قليلا من الليل ما يهجعون، وبالأسحار هم، يستغفرون وفى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم، رهبان الليل ، فرسان النهار.

لذلك فإن من ينظر إلى هذه النماذج الإسلامية الفذة على أنها بطولات ذاتية، أو أنها عبقريات نادرة حققت فى الحياة ما حققت لشخصيتها المستقلة، واهم ومخطىء فى التقدير والتحليل، لأنهم إذا انفصلوا عن هذا المعين ذبلوا، وإذا سقطوا من هذه الشجرة جفّوا وماتوا، فالإسلام هو الذى صنع تلك المثل، وهو الذى ربى هؤلاء الرجال، وهو الذى صاغ ذلك الحشد الهائل من البطولات على مدار التاريخ الإسلامى.

إن منهج الفصل بين الإسلام وبين تلك المُثل الرفيعة، فضلا عما فيه من البعد عن الحق أو تضليل الخلق ظلم للإسلام، وإبعاد عن منهجه، لأننا إن فعلنا ذلك ابعدنا تلك المثل عن الناس والاقتداء، ويجعل منها فلتات بعيدة المنال، تأتى مصادفة كأنها من فلتات الحياة، ليس لها سبب واقعى، ولا باعث مستطاع، والحق أن الفهم الصحيح، والاتباع السليم، والتطبيق الواعى لمبادىء الإسلام، يؤدى تلقائيا إلى هذه المواقف، وتلك البطولات التى سجلها التاريخ.

وهذا لا يعنى بطبيعة الحال إنكار المواهب والقدرات الذاتية، إنما يعنى أن الإسلام بمبادئه وقيمه يصقلها وينميها ويوجهها الوجهة المثلى، بما يعود على الإنسانية بالخير العميم، وذلك بتهيئة المناخ الذى تعمل فيه وتبلغ فيه مداها.

وما أحوج الإنسانية فى هذا العصر إلى منهج للتاريخ، يحفظ لها إيمانها نظيفا، وضميرها سليما، وقيمها ثابتة، وقدوتها صالحة، لابد لهذا المنهج من ميزان توزن به البطولة، ويقدر به الرجال، وتقدم به الأعمال، فالتاريخ الذى يجعل من الظالم عظيما، ومن الخائن أمينا، ومن المنافق زعيما، ومن الكذوب سياسياً، ومن الجبان شجاعاً، ومن الرعديد بطلاً، تاريخ خاطىء المنهج، مختل الموازين.

فليست العظمة فى الزعامة التى تتقن الكذب والخداع، ولا فى السياسة التى تقوم على الإفك والنفاق، ولا فى القيادة التى تبرع فى الغدر والخيانة، ولا فى الحكم الذى يبطش ويذل بالسلطان، مهما بلغت شخصية الزعيم السياسى من قوة وتأثير، ومهما اتسعت فتوحات القائد، ومهما حقق الحاكم من أعمال وإنجازات.

إنما يوزن الرجال، وتقدر العظمة، ويحسب العظيم عظيما بما قدم

للإنسانية من خير، وبما أرسى فى واقع الحياة من مثل، وبما أقر فى الضمير الإنسانى من قيم، وبما التزم فى حياته من خلق، وبما سكب فى قلوب الناس من إيمان[1] ولا يتحقق ذلك إلا بمنهج التربية الإسلامية، وبهذا تتقدم الإنسانية ويرقى الإنسان، فإذا خلد التاريخ المنافقين والطغاة، فسيكون الخاسر هو ضمير الإنسان وروح الانسان.

لقد فتن العالم الإسلامى فى فترة طويلة بمدنية الغرب وثقافته، فأخذ عنه كثيرا من القيم والتصورات والفلسفات ومنهاج السلوك، وكان ذلك على حساب تراثه الخالد وقيمه الإيمانية، ومنهجه الربانى، وهى فتنة كان لها الأثر المدمر فى كثير من مجالات الحياة، إذ أصبحت البطولة لها مقاييس ومعايير تختلف اختلافا بيّنا عن مقاييسنا كمسلمين، واندثرت معالم تاريخنا الإسلامى، وكأن الإسلام ما صنع أبطالا، ولا ربيّ أفذاذا، حتى أصبحت تسمع عن أسماء غربية فى كل الميادين، يحفظها الطفل قبل الشاب، والنساء قبل الرجال، باعتبارهم المثل الأعلى الذى يُصبى إليه.

ونحن لا نعارض الأخذ من الغرب، وذكر علماءهم الذين أفادوا الإنسانية بعلومهم واختراعاتهم، ونعترف لهم بالجميل، فلنأخذ من الغرب ما وسعنا من كل ما أبدعه وسبقنا فيه من علوم وتطبيقات، أما فى مجال الثقافة ومناهج الفكر والسلوك ، فحسبنا ما لدنيا من قيم ومباديء، ومناهج الفكر والخلق ، فنحن بها أعظم مكانة وأهدى سبيلا.

لذلك اعتنى الإسلام: بسمو الفكرة وربانية البناء الفكرى. فالمسلم المدافع عن دينه يعلم أن منهجه يقوم على دعائم ثلاثة:

١- الفكرة الربانية وهى الإيمان الراسخ.

٢- العمل الدءوب الذى يتميز بالإخلاص.

---

(١) رجال فى معارك الإسلام ـ محمد شديد صـ ٧٦ بتصرف.

٣- الدعاء وهو العبادة التى نستجلب به التوفيق الإلهى.

لذا كان من الأهمية بمكان أن يكون منهج التربية الجهادية واضحا وضوح الشمس فى رابعة النهار ، قبل أن تمتد يد لمواجهة عدو، أو مجابهة صاد عن دين الله، لأن التحرك إلى الجهاد فى غياب المنهج، لا أقول قد يسبب هزائم، ولكن أقول قد ينجح بالعتاد الوفير، ولكن مع النجاح قد تزل قدم بعد ثبوتها، وقد تنحرف، وقد تسقط حتى ولو توهمت نصرا فى ميدان، والأخطر أن تنزع راية الجهاد، ويقوم آخرون غير مؤهلين لحملها حتى يصطفى المولى من هم اهلا للنصر ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد : ٨٣] .

صحيح أننا جميعا نتمنى نصراً على الأعداء فى معركة ﴿ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الصف : ١٣] ولكن للنصر سننه، كما أن لتأخيره أسباب ، وفى كلا الأمرين لله حكمته.

حكمة تأخير نصر الله :

إن حكمة الله فى هذا هى العليا، وأن لله الحجة البالغة، والذى ندركه نحن البشر من تلك الحكمة ويظهر لعقولنا ومداركنا من تجاربنا ومعارفنا أن الله سبحانه لم يرد أن يكون حملة دعوته وحماتها من (التنابلة) الكسالي، الذين يجلسون فى استرخاء ، ثم يتنزل عليهم نصره سهلاً هيناً بلا عناء، لمجرد أنهم يقيمون الصلاة، ويرتلون القرآن ، ويتوجهون إلى الله بالدعاء كلما مسهم الأذى، ووقع عليهم الاعتداء!

نعم صحيح يجب أن يقيموا الصلاة وأن يرتلوا القرآن، وأن يتوجهوا إلى الله بالدعاء في السراء والضراء ، ولكن هذه العبادات وحدها، لا تؤهلهم لحمل دعوة الله وحمايتها، إنما هى الزاد الذي يتزودونه للمعركة، والذخيرة التي يدخرونها للموقعة، والسلاح الذى يطمئنون إليه ، وهم يواجهون الباطل

بمثل سلاحه أو بما استطاعوا ، ويزيدون عنه سلاح التقوى والإيمان والاتصال بالله الواحد الديان .

لقد شاء الله تعالى أن يجعل دفاعه عن الذين آمنوا ـ يتم عن طريقهم هم أنفسهم، كى يتم نضجهم هم فى أثناء المعركة، فالبنية الإنسانية لا تستيقظ كل الطاقات المذخورة فيها،كما تستيقظ وهى تواجه الخطر ، وهى تدفع وتدافع، وهى تستجمع كل قوتها لتواجه القوة المهاجمة. عندئذ تتحفز كل خلية بكل ما أودع فيها من استعداد لتؤدى دورها، ولتتساند مع الخلايا الأخرى فى العمليات المشتركة، ولتؤتى أقصى ما تملكه، وتبذل آخر ما تنطوى عليه، وتصل إلى أكمل ما هو مقدور لها، وما هى مهيأة له من الكمال.

والأمة التى تقوم على دعوة الله فى حاجة إلى استيقاظ كل خلاياها، واحتشاد كل قواها ، وتوفر كل استعدادها، وتجمع كل طاقتها كى يتم نموها، ويكمل نضجها ، وتتهيأ بذلك لحمل الأمانة الضخمة والقيام عليها [(١)].

وكثيراً ما يقف الدعاة والمجاهدون وهم فى منتصف الطريق، يتساءلون عن نصر الله عز وجل، وهم قد يخوضون المعارك ـ ويقدمون التضحيات، ويبذلون الدماء والأرواح والمهج، فيستبطئون النصر، ويقفون أمام قول الله عز وجل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [الحج : ٣٨] وقوله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ﴾ [الحج : ٤٠] .

ويجيبنا سيد قطب رحمه الله على هذه التساؤلات بقوله : (والنصر قد يبطىء على الذين ظُلِمُوا ، وأُخرِجُوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا: ربنا الله ، فيكون هذا الإبطاء لحكمة يريدها الله تعالى.

قد يبطىء النصر لأن بنية الأمة المسلمة لم تنضج بعد، ولم يتم بعد تمامها،

---

(١) فى ظلال القرآن /٤/ ٢٤٢٥، ٢٤٢٦.

ولم تحشد بعد طاقاتها، ولم تتحفز كل خلية، وتتجمع لتعرف أقصى المذخور فيها من قوى واستعدادات، فلو نالت النصر حينئذ، لفقدته وشيكاً لعدم قدرتها على حمايته طويلاً.

وقد يبطىء النصر، حتى تبذل الأمة المؤمنة آخر ما فى طوقها من قوة، وآخر ما تملكه من رصيد، فلا تستبقى عزيزاً، ولا غالياً لا تبذله هيناً رخيصاً فى سبيل الله.

وقد يبطىء النصر حتى تجرب الأمة المؤمنة آخر قواها، فتدرك أن هذه القوى وحدها بدون سند من الله لا تكفل النصر، وإنما يتنزل النصر من عند الله عندما تبذل آخر ما فى طوقها، ثم تكل الأمر بعدها إلى الله.

وقد يبطىء النصر لتزيد الأمة المؤمنة صلتها بالله، وهى تعانى وتتألم وتبذل، ولا تجد لها سنداً إلا الله، ولا متوجهاً إلا إليه وحده فى الضراء، وهذه الصلة هى الضمانة الأولى لاستقامتها على النهج بعد النصر عندما يتأذن به الله، فلا تطغى ولا تنحرف عن الحق والعدل والخير الذى نصرها به الله.

وقد يبطىء النصر لأن الأمة المؤمنة لم تتجرد بعد فى كفاحها وبذلها وتضحياتها لله ولدعوته، فهى تقاتل لمغنم تحققه، أو تقاتل حمية لذاتها، أو تقاتل شجاعة أمام أعدائها، والله يريد أن يكون الجهاد له وحده وفى سبيله، بريئاً من المشاعر الأخرى التى تلابسه، وقد سئل رسول الله ﷺ الرجل يقاتل حمية، والرجل يقاتل شجاعة، والرجل يقاتل ليرى، فأيها فى سبيل الله فقال: « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله »[1].

كما قد يبطىء النصر لأن فى الشر الذى تكافحه الأمة المؤمنة بقية من خير، يريد الله أن يجرد الشر منها ليتمحص خالصاً، ويذهب وحده هالكاً،

---

(١) رواه الشيخان.

لا تتلبس به ذرة من خير تذهب فى الغمار.

وقد يبطيء لأن الباطل الذى تحاربه الأمة المؤمنة لم ينكشف زيفه للناس تماماً ، فلو غلبه المؤمنون حينئذ ـ فقد يجد له أنصاراً من المخدوعين فيه، لم يقتنعوا بعد بفساده وضرورة زواله، فتظل له جذور فى نفوس الأبرياء الذين لم تنكشف لهم الحقيقة ، فيشاء الله أن يبقى الباطل حتى يتكشف عارياً للناس، ويذهب غير مأسوف عليه.

وقد يبطيء النصر لأن البيئة لا تصلح بعد لاستقبال الحق والخير والعدل الذى تمثله الأمة المؤمنة ، فلو انتصرت حينئذ للقيت معارضة من البيئة ، لا يستقر لها معها قرار، فيظل الصراع، قائما حتى تتهيأ النفوس من حوله لاستقبال الحق الظافر ولاستبقائه.

من أجل هذا كله، ومن أجل غيره مما يعلمه الله، قد يبطيء النصر، فتتضاعف التضحيات ، وتتضاعف الآلام، مع دفاع الله عن الذين آمنوا وتحقيق النصر لهم فى النهاية.

وللنصر تكاليفه وأعباؤه حين يتأذن الله به بعد استيفاء أسبابه وأداء ثمنه، وتهيؤ الجو حوله لاستقباله واستبقائه: ﴿ **وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ** ﴾ [الحج : ٤٠ ـ ٤١] فوعد الله المؤكد الوثيق المتحقق الذى لا يتخلف، هو أن ينصر من ينصره، فمن هؤلاء الذين ينصرون الله . فيستحقون نصر الله القوى العزيز الذى لا يهزم من تولاه) .

ولا وعد من الله بالنصر إلا لمن أقام الصلاة وآتى الزكاة، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، فالذين يمكن الله لهم فى الأرض، ويجعل الكلمة فيها

---

(٢) المصدر نفسه٤/ ٢٤٢٦، ٢٤٢٧.

والسلطان لهم ـ ومع ذلك لا يقيمون الصلاة ولا يؤتون الزكاة، ولا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر؛ ليس لهم وعد من الله بالنصر لأنهم ليسوا من حزبه، ولا من أوليائه الذين وعدهم بالنصر، بل هم حزب الشيطان وأولياؤه، فلو طلبوا النصر من الله بناء على أنه وعدهم إياه، فمثلهم كمثل الأجير الذى يمتنع عن عمل ما أجر عليه، ثم يطلب الأجرة، ومن هذا شأنه فلا عقل له)[1].

ويوضح سيد قطب رحمه الله هذه الفكرة المرتبطة بنصر الله تعالى فيقول: « فهو النصر القائم على أسبابه ومقتضياته، المشروط بتكاليفه وأعبائه، والأمر بعد ذلك لله يصرفه كيف يشاء فيبدل الهزيمة نصراً، والنصر هزيمة عندما تختل القيم أو تهمل التكاليف» .

إنه النصر الذى يؤدى إلى تحقيق المنهج الإلهى فى الحياة من انتصار الحق والعدل، والحرية المتجهة إلى الخير والصلاح، المنظور فيه إلى هذه الغاية، التى يتوارى فى ظلها الأشخاص والذوات والمطامع والشهوات.

وهو نصر له سببه، وله ثمنه، وله تكاليفه، وله شروطه، فلا يعطى لأحد جزافاً أو محاباة، ولا يبقى لأحد لا يحقق غايته ومقتضاه) [2].

والجماعة المسلمة حين تجد الطريق طويلاً والنصر بطيئا، عليها ان تعيد حسابها اليوم وتراجع موازينها، وتتعرف على نواميس الله فى النصر والهزيمة، لا أن تلقى باللوم على أعداء الله ، وكأنها مبرأة من العيوب والأخطاء. وما أحوجها إلى مراجعة الحساب ، والانكفاء على الذات لتعيد بناءها على ضوء ذلك من جديد، وتلتزم بمنهج التربية الإسلامية بوجه عام ومنهج التربية الجهادية فى الإسلام بوجه خاص.

---

(١) أضواء البيان/ ٥/ ٤، ٧. الشنقيطى . .

(٢) فى ظلال القرآن/ ٤/ ٢٤٢٨.

هزيمة المسلمين حادث عابر وليست سنة ثابتة:

إن انتصار المشركين الكافرين فى معركة مع المسلمين ليس هو السنة الثابتة، إنما هو حادث عابر، وراءه حكمة، ويتطلب الصبر والاستعلاء بالإيمان، فإن يكن أصابتهم جراح وآلام فقد أصاب الكفار مثلها فى المعركة نفسها ـ كما حدث فى أحد ـ فكان هناك حكمة وراء ما وقع، كشف لهم عنها: حكمة تمييز الصفوف، وتمحيص القلوب ، واتخاذ الشهداء الذين يموتون دون عقيدتهم، ووقوف المسلمين أمام الموت وجها لوجه، وقد كانوا يتمنونه، ليزنوا وعودهم وأمانيهم بميزان واقعى ، ثم فى النهاية محق الكافرين، وإعداد الجماعة المسلمة ذلك الإعداد المتين، إنها الحكمة العليا من وراء الأحداث كلها، سواء كانت هى النصر أو هى الهزيمة.

لقد أصاب المسلمين القرح فى هذه الغزوة - غزوة أحد - وأصابهم القتل والهزيمة، وأصيبوا فى أرواحهم، وأصيبوا فى أبدانهم بأذى كثير، قتل منهم سبعون صحابيا، وكسرت رباعية الرسول ﷺ، وشج وجهه، وأرهقه المشركون، وأثخن أصحابه بالجراح، وكان من نتائج هذا كله هزة فى النفوس، وصدمة لعلها لم تكن متوقعة بعد النصر العجيب فى بدر، حتى قال المسلمون حين أصابهم ما أصابهم «أنَّى هذا ؟» كيف تجرى الأمور هكذا معنا ونحن المسلمون؟.

والقرآن الكريم يرد المسلمين هنا إلى سنن الله فى الأرض، يردهم إلى الاصول التى تجرى وفقها الأمور، فهم ليسوا بدعا فى الحياة، فالنواميس التى تحكم الحياة جارية لا تتخلف، والأمور لاتمضى جزافاً، إنما هى تتبع هذه النواميس، فإذا هم درسوها وأدركوا مغزاها، تكشفت لهم الحكمة من وراء الأحداث، وإلى وجود الحكمة الكامنة وراء هذا النظام.

واستشرفوا خط السير على ضوء ما كان فى ماضى الطريق ، ولم يعتمدوا على مجرد كونهم مسلمين لينالوا النصر والتمكين ، دون الأخذ بأسباب النصر ، وفى أولها طاعة الله وطاعة الرسول ﷺ.

والسنن التى يشير إليها سياق الآيات التى أشارت إلى هذه المعانى من قوله تعالى ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران : ١٣٧] إلى قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [آل عمران : ١٤٣] هذه السنن هى :

١- عاقبة المكذبين على مدار التاريخ.

٢ـ مداولة الأيام بين الناس.

٣- الابتلاء لتمحيص السرائر.

٤- امتحان قوة الصبر على الشدائد.

٥- استحقاق النصر للصابرين والمحق للكافرين.

ومن هذا الدرس الربانى تعلم المسلمون أن الله قد كتب النصر فى معارك الجهاد لمن يجاهدون فى سبيله، لا ينظرون إلى شيء من عرض هذه الدنيا الزهيد، فإن أخطأوا الغاية وهزموا فمن عند أنفسهم، وفى هذه الحالة يصحح المسلمون خطأهم، ولا يهنوا ولا يحزنوا إن كانوا مؤمنين بحق؛ لأن الذى حدث معهم إنما هى سنة الله، أن يصابوا أويصيبوا على أن تكون لهم العقبى بعد الجهاد والابتلاء والتمحيص.

فلا يألو المسلم بعد ذلك جهداً فى كفاح الباطل وطرده من حياة الناس، حتى ولو دفع ثمنه روحه التى بين جنبيه، فهو فى هذه الحالة الشهيد، ومقتضى هذه الشهادة أن يجاهد إذن لتصبح الألوهية لله وحده فى الأرض،

كما بلغها محمد ﷺ ، فيصبح المنهج الذى أراده الله للناس والذى بلغه الرسول ﷺ هو المنهج السائد الغالب المطاع، وهو النظام الذى يصرف حياة الناس كلها بلا استثناء.

فإذا اقتضى هذا الأمر أن يموت فى سبيله، فهو إذن شهيد رزق هذا المقام أى شاهد طلب الله إليه أداء هذه الشهادة فأداها، واتخذه الله شهيداً ورزقه هذا المقام.

فلا يكفى أن يجاهد المؤمنون ، إنما هو الصبر عل تكاليف هذه الدعوة أيضا. التكاليف المستمرة المتنوعة التى لا تقف عند الجهاد فى الميدان، فربما يكون الجهاد فى الميدان أخف تكاليف هذه الدعوة التى يطلب لها الصبر، ويختبر بها الإيمان ، ولقد انتصر المسلمون فى الجولة الأولى فى أُحد ، ولكن كانت الهزيمة حين لعلعت لهم الغنائم ، وأسرعوا إليها طالبين دنيا ، فكان جهاد النفس أشق، إن هناك المعاناة اليومية التى لا تنتهى:

- معاناة الاستقامة على أفق الإيمان.

- والاستقرار على مقتضياته فى الشعور والسلوك.

- والصبر فى أثناء ذلك على الضعف الإنسانى فى النفس وفى الغير ممن يتعامل معهم المؤمن فى حياته اليومية.

- والصبر على الفترات التى يستعلى فيها الباطل وينتفش ويبدو كالمنتصر.

- والصبر على طول الطريق وبعد الشقة وكثرة العقبات.

- والصبر على وسوسة الراحة وهفوة النفس لها فى زحمة الجهد والكرب والنضال.

- والصبر على أشياء كثيرة ليس الجهاد فى الميدان إلا واحداً فيها ، فى

الطريق المحفوف بالمكاره طريق الجنة التى لا تنال بالأمانى وبكلمات اللسان، ولذلك يقول ربنا:

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٢] .

إنه منهاج فى التربية فريد يتحقق بقدر الله الذى يعد الجماعة المسلمة للقيادة، ويمضى فى طريقه بشتى الأسباب والوسائل ، وشتى الملابسات والوقائع، يمضى أحيانا عن طريق النصر الحاسم للجماعة المسلمة فتستبشر، وترتفع ثقتها فى نفسها ـ فى ظل العون الإلهى ـ وتجرب لذة النصر، وتصبر على نشوته ، وتجرب مقدرتها على فاعلية النظر والزهو والخيلاء ، وعلى التزام التواضع والشكر لله ، ويمضى قدر الله أحيانا عن طريق الهزيمة والكرب والشدة ، فتلجأ إلى الله وتعرف حقيقة قوتها الذاتية، وضعفها حين تنحرف أدنى انحراف عن منهج الله، وتجرب مرارة الهزيمة، وتستعلى مع ذلك على الباطل لما عندها من الحق المجرد ، وتعرف مواضع نقصها وضعفها، ومداخل شهواتها، ومزالق أقدامها، فتحاول أن تصلح من هذا كله فى الجولة القادمة، وتخرج من النصر ومن الهزيمة بالزاد والرصيد ، ويمضى قدر الله وفق سنته لا يتخلف ولا يحيد.

ويضمن المولى للمؤمنين النصر وسلامة العاقبة ضمانة صريحة حيثما التقوا بأعدائهم هؤلاء ، وهم معتصمون بدينهم وربهم فى يقين كما بينت الآية الكريمة ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ [آل عمران: ١١١].

فلن يكون ضررا عميقا ولا أصيلا يتناول أصل الدعوة، ولن يؤثر فى كينونة الجماعة المسلمة ، ولن يجلبها من الأرض، إنما هو الأذى العارض فى

الصدام، والألم الذاهب مع الأيام، فأما حين يشتبكون مع المسلمين فى قتال، فالهزيمة مكتوبة عليهم - فى النهاية - والنصر ليس لهم على المؤمنين ، ولا ناصر لهم كذلك ولا عاصم من المؤمنين ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾ [غافر : ٥١] .

النصر الحقيقى :

إن النفس لا تنتصر فى المعارك الحربية إلا حين تنتصر فى المعارك الشعورية والأخلاقية والنظامية ، لذلك كانت الذنوب سببا من أسباب الهزيمة، أما التوكل على الله طاعة ، والاستغفار من الخطايا والذنوب والالتجاء إلى الله، والالتصاق بركنه الركين، والتطهر من الذنوب ، وتحقيق معية الله، والرجوع إلى كنفه كل ذلك من عدة النصر .

فالسيطرة على النفس قوة من قوى المعركة ، والتضامن والتواد فى المجتمع المتسامح قوة ذات فاعلية كذلك ، ولذلك ما قامت المعارك الإسلامية إلا بعد أن تحقق فى المجاهدين عقدين : عقد الإيمان ، وعقد الأخوة ، ليكون القتال فى سبيله سبحانه وتعالى .

وإذا كان القتال فى سبيل الله ، كان لابد من الأخذ بالأسباب عبادة ، ثم يرد الأمر بعد ذلك وقبله لله جملة ، وفى نفس الوقت معرفة سنة الله فى ترتيب العواقب التى تحل بالبشر على ما يصدر من سعيهم ونشاطهم، وخطئهم وإصابتهم، وطاعتهم ومعصيتهم، وتمسكهم بالمنهج وتفريطهم فيه ، واعتبارهم بعد هذا كله ستاراً للقدرة، وأداة للمشيئة، وقدرا من قدر الله يحقق به ما يشاء سبحانه .

ثم فى النهاية إشعار المجاهدين أن ليس لهم من أمر النصر شيء، إنما هو تدبير الله لتنفيذ قدره من خلال جهادهم، وأجرهم على الله ، وليس لهم من

ثمار النصر شيء من أشياء هذه الأرض، ولا لحسابها الخاص ، يؤتيها الله النصر إذ يشاء، إنما لحساب الأهداف العليا التي يشاؤها الله، وكذلك الهزيمة فإنها حين تقع بناء على جريان سنة الله، وفق ما يقع بين المجاهدين من تقصير وتفريط، إنما تقع لتحقيق غايات يقدرها الله بحكمته وعلمه. لتمحيص النفوس، وتمييز الصفوف، وتجلية الحقائق، وإقرار القيمة ، وإقامة الموازين، وجلاء السنن للمستبصرين.

ولا قيمة ولا وزن في نظر الإسلام للانتصار العسكري أو السياسي أو الاقتصادي ، ما لم يقم هذا كله على أساس المنهج الرباني، في الانتصار على النفس ، والغلبة على الهوى، والفوز على الشهوة وتقرير الحق الذي أراده الله في حياة الناس؛ ليكون كل نصر لله ولمنهج الله، وليكون كل جهد في سبيل الله، ومنهج الله ، وإلا فهي جاهلية تنتصر على جاهلية ولا خير فيها للحياة ولا للبشرية ، إنما الخير أن ترتفع آية الحق لذات الحق، الذي لا يتحقق ولا ينتصر حتى يتم الانتصار أولاً في ميدان النفس البشرية ، وحين تخلص النفس من حظ ذاتها في ذاتها ، ومن مطامعها وشهواتها، ومن أدرانها وأحقادها، ومن قيودها وأصفادها ، وحين تفر إلى الله متحررة من هذه الأثقال والأوهاق، وحين تنسلخ من قوتها ومن وسائلها ومن أسبابها، لتكل الأمر كله لله، بعد الوفاء بواجبها من الجهد والحركة، وحين تُحكِّم منهج الله في الأمر كله ؛ وتعد هذا التحكيم هو غاية جهادها وانتصارها ، حين يتم هذا كله يحتسب الانتصار في المعركة الحربية أو السياسية أو الإقتصادية إنتصارا في ميزان الله ، وإلا فهو إنتصار نظام وضعي على آخر، وهوالذي لا وزن له عند الله ولا قيمة.

ولقد حرص القرآن الكريم على تقرير قاعدة التصور الإسلامي المتمثل في قوله تعالى ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ [آل عمران: ١٢٦]

لينحى المجاهدون الأسباب الظاهرة والوسائل والأدوات عن أن تكون هى الفاعلة، لتبقى الصلة المباشرة بين العبد والرب ، بين قلب المؤمن وقدر الله، بلا حواجز ولاعوائق ولا وسائل ولا وسائط . كما هى فى عالم الحقيقة .

فهم مأمورون من قبل الله بإتخاذ الوسائل والأسباب وبذل الجهد، والوفاء بالتكاليف ، فاستقبلوا الحقيقة، وأطاعوا الأمر، فى توازن شعورى حركى عجيب، ولقد ظهرت هذه المعانى جلية واضحة فى غزوة بدر.

فالنصر فى بدر تم بغير أداة من الأدوات المادية المألوفة للنصر ، لم تكن الكفتان فيها ـ بين المؤمنين والمشركين ـ متوازنتين ولا قريبتين من التوازن ، فلقد خرج المشركون حوالى ألف لاستغاثة أبى سفيان ، لحماية القافلة التى كانت معه، مزودين بالعدة والعتاد، والحرص على الأموال ، والحمية للكرامة،وكان المسلمون حوالى ثلاثمائة لم يخرجوا لقتال هذه الطائفة ذات الشوكة، إنما خرجوا لمقابلة القافلة العزلاء، وأخذ الطريق عليها،وهم القلة فى العدد والعدة، ولذلك قال لهم القرآن ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣] فالله هو الذى نصرهم لحكمة هى ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾ [آل عمران : ١٢٧] فالنصر من عند الله لتحقيق قدر الله، ليس للرسول ﷺ ولا للمجاهدين معه فى النصر من غاية ذاتية، ولا نصيب شخصى، كما أنه ليس له ولا لهم دخل فى تحقيقه، إن هم إلا ستار القدرة تحقق بهم ما تشاء، فلا هم أسباب النصر وصانعوه، ولا هم أصحاب هذا النصر ومستغلوه، إنما هو قدر الله يتحقق بحركة رجاله، وبالتأييد من عنده، لتحقيق حكمة الله من ورائه وقصده.

وكلما التقى الحق والباطل، ويقف الباطل مدججا بالسلاح، أمام الحق الأعزل نراه يحتشد احتشاد المرعوب، ويرتجف من كل حركة ، وكل صوت ـ

وهو فى حشده المسلح المحشود، فإذا أقدم الحق وهاجم فهو الذعر والفزع والشتات والاضطراب فى صفوف الباطل، ولوكان له الحشود، وكان للحق القلة ، تصديقا لوعد الله الحق: ﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ﴾ [آل عمران : ١٥١] وفى الأخرة ﴿ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴾ [آل عمران : ١٥١] .

فالنصر العزيز على درب الجهاد رهن أمرين :

أولهما : الإيمان القوى بالله، والالتزام بأوامره ، والبعد عن نواهيه. والثقة التامه فيما يعظ به ويوجه إليه.

ثانيهما : الحكمة الهادية ، والخطة الراشدة ، والفطنة التى تعى كل متغيرات الموقف.

وقد شهدت دولة الإسلام التى قامت بعد الهجرة ، وقد مضى من عمرها عام وبعض عام أول اختبار حقيقى، وابتلاء صادق لمدى توافر هذين الأمرين فيها، ومدى استمساك أبنائها بما وراء همامن قيم عظيمة .

فكان هذا الابتلاء الصعب ممثلا فى يوم بدر، أو يوم الفرقان، كما ورد ذكره فى القرآن، باعتباره معلما متميزا فى تاريخ أمتنا، بما أحاطه ووقع فيه وترتب عليه من أحداث حتى أن رب العالمين قال فى ذلك: ﴿ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأنفال: ٤١] .

لقد سلك النبى عليه الصلاة والسلام كل سبيل توصله إلى النصر فى هذه المواجهة الصعبة ، فاطمأن أولا إلى سلامة الجبهة واقتناع المسلمين المجاهدين بالمعركة، وبالدوافع التى دفعت إليها، وأنهم ليسوا عادين ولا باغين، وإنما هم يجاهدون بغاة على دين الله، واستهانوا بالإنسان ، وعبثوا بقيم الحق

والعدل، وكان إصرار المسلمين على المعركة مع أهل البغى ، وجحافل الشرك عظيمـا رائعاً، وقـد بدا ذلك خلال كلماتهم التـى دعت إلى هذا الإصرار ، وعبرت عـن ذلك اليقين، إذ قال قائل منهم: « يا رسـول الله إمض لما أمرك الله ، فوالله لو استعرضت بنا هذا البحر فـخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد، إنا لصدق عند الحرب، صبر عند اللقاء، لا نقول لك ما قال قوم مـوسى لموسى: اذهب أنت وربك فـقاتلا إنا ههنا قـاعدون ولكنا نـقول اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ».

ثم يستشـير النبى عليه الصلاة والسلام أصحـابه فى موضع الجيش المسلم، كما يلجأ إلى أساليب الاستخبـارات الحربية لجمع أكبر قدر من المعلومات عن أعدائه. ثم يصفّ الجنود للمعركة بخبـرة واعية، وطبقاً لإمكانات كل محارب ودوره فى المعركة.

ثم يصنع لأول مرة فى تاريخ حروب العرب مقرا للقيادة تصدر فيه الأوامر للمحاربين، حـتى إذا اطمأن إلى سلامة خطته وبدأت المعـركة، اتجه إلى الله تبارك وتعالى بيـقين المؤمن الذى تهون أمامه كبـار الأحداث وعظائم الأمور، ليقول قـولته العظيمة: « اللهم إن تهلك هذه العصـابة لا تعبد فى الأرض ، اللهم أنجز ما وعدت » ثم يتبعها بما يعـبر عن ثقته فى نصر مولاه ، تالياً قوله تعالى: ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ [القمر : ٤٥] .

وتدور أحداث المعركة ويظهر فيها ما يبهر ويعجب : الطائفة المؤمنة مع قلة العدد والعُدَد تدحر الكثرة الباغيـة ، إذ كانت الأولى بتقدير رب العالمين ترى الكثرة الكافرة قلة ، والأخـرى تري القلة المؤمنة كثرة؛ ليقـضى الله أمراً كان مفـعولا ، بل إن المدد الملائكى بجانب المـؤمنين يدعمهم؛ لأنهم صـدقوا فى عهـدهم مع الله ، فـلابد أن تكلأهم عناية الله ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾[آل عمران : ١٢٦] .

وتترك قريش سبعين من كبارها صرعى البغى والضلالة ، ومثلهم أسرى فى يدى المسلمين، ويصبح هذا النصر على امتداد مسيرة التاريخ الإسلامى آية من عند الله لمن ابتغى عون الله وتأييده ، يقول سبحانه وتعالى : ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ [آل عمران : ١٣] .

وستظل أسباب النصر ـ كما أرادها الله ـ رهينة بالأمرين : قيادة خبيرة محنكة تأخذ بالأسباب ، وتقدر احتمالات الموقف ، وإيمان بالله يتمثل فى الثقة به والالتزام الصحيح بشريعته، وبذلك يدنو النصر من طالبيه، ويكون غير بعيد من الراغبين فيه .

وفى غيابهما أو غياب أحدهما يعزب النصر ، ويتحول الى مجرد أمنية مكانها الخيال ، مهما ارتفعت الشعارات حلوة براقة [1] .

اعتبروا يا أولى الألباب :

إن كان الذى تحدثنا فيه عن بدر ، فإليك ما حدث فى موقعة ذات الصوارى :

كانت للدولة البيزنطية (الروم) فى العصور الوسطى السيطرة والسيادة على البحر الأبيض المتوسط بلا منافس، فعلى شواطئه الشمالية امتدت أملاك إلى شبه جزيرة البلقان والجزر الملحقة بها وأسيا الصغرى ، ومن الشرق كان يتبعها سوريا وفلسطين، ومن الجنوب مصر، والشمال أفريقيا، وكذلك امتد سلطانها السياسى إلى وسط وجنوب إيطاليا وبعض بلاد محدودة ولفترة قصيرة على الساحل الجنوبى الشرقى لأسبانيا القوطية .

(١) من مقال بجريدة الأخبار فى ٣١/ ٣/ ٩١ للدكتور السيد الطويل عميد كلية الدراسات الإسلامية العربية .

وكان لبيزنطة أسطول دائم ومهيب وعدة قواعد بحرية ، ودور لصناعة السفن في القسطنطينية وعكا و الإسكندرية ، وقرطاجة وسرقوسة بصقلية، ورافانا بإيطاليا وغيرها ، فقد بلغت عناياتها بالسلاح البحرى أقصاها فى عهد جستنيان (يوستانيوسس) فى منتصف القرن السادس الميلادى ، فى عهد هرقل قبل منتصف القرن السابع ومن جاء بعده من الأباطرة .

وإلى جانب الأسطول البحرى، كان لبيزنطة عدد من السفن التجارية تستخدم فى عمليات نقل الجند والإمدادات، وكانت تتحكم فى منافذ البحر الأبيض: القسطنطينية ومصر وسبته ، مما استحال معه دخول أية تجارة خارجية الى هذا البحر دون موافقتها، وشملت تجارتها العالم كله آنذاك ووجد المسلمون خلال فتوح الشام - أن الأسطول البيزنطى مصدر تهديد خطير ومباشر لأمنهم ،وأمن المناطق المفتوحة واستقرار السلام فيها، فأدركوا أن بناء أسطول إسلامى ضرورة حيوية من الناحية الاستراتيجية ، فكانت نواة هذا الأسطول من السفن التى وجدوها فى موانىء الشام ومصر. ثم انطلقوا إلى صناعة السفن فى دور الصناعة، وهكذا دخل السلاح البحرى فى الاستراتيجية العسكرية الإسلامية لأول مرة فى تاريخ المسلمين ، وبدأ هذا السلاح الناشىء فى سرعة مذهلة فى ممارسة العمليات البحرية .

وكان من الطبيعى ألا تقف بيزنطة مكتوفة الأيدى أمام تلك القوة البحرية التى قامت فى البحر الأبيض المتوسط، وأصبح تحت يدها أغلى ما كانت تملك من دور للصناعة وقواعد بحرية فى عكا والأسكندرية. الأمر الذى يشكل تهديدا خطيرا لسيادتها البحرية التى امتدت زمنا بلا منافس.

وقد اتخذت العمليات البحرية للأسطول الإسلامى شكلين:

الأول : عمليات إغارة على جزر البحر الأبيض ذات الأهمية الاستراتيجية فى تأمين الشام ومصر مثل قبرص ورودس وغيرهما .

الثاني : معركة ذات الصوارى [١] .

وقد ألتقى الأسطول الإسلامى (فى موقعــة ذات الصوارى) بقيادة عبد الله بن سعد بن أبى ســرح والى مصر. وكان يتألف من مــائتى سفينة بالأسطول البيــزنطى بقيادة الأمــبراطور قســطنطين الثانى(٦٤٢ - ٦٦٨م) وسار يقــصد ملاقاة الأسطول الإسلامى أو يقصد أحــتلال الأسكندرية العظمى أكبر موانى البحــر الأبيض، وكان يتألف من ســبعمــائة إلى ألف سفينة،وبدأ القــتال بين الأسطولين عندمــا أصبــحت المســافة بينهــما فى مــرمى الســهام - بالتــراشق بالسهام[٢] .

يقول ابن الأثيــر: فخرجــوا (يعنى البيزنطيين) فى خمســمائة أو ستــمائة مركب، وخــرج المسلمون، وعلى أهل الشام مــعاوية بن أبى سفــيان، وعلى البحر عبد الله بن سعد بن أبى سرح. وكانت الريح على المسلمين لما شاهدوا الروم ، فأرسى المــسلمون والروم، وسكنت الريح، فــقال المسلمــون :الأمان بيننا وبينكم، فــباتوا ليلتــهم والمسلمون يقــرأون القرآن، ويصلــون ويدعون، والروم يضربون بالنواقيس، وقربوا من الغد سفنهم، وقرب المسلمون سفنهم، فربطوا بعضها مع بعض، واقتتلوا بالسيوف والخناجر، وقتل من المسلمين بشر كثــير ، وقتل من الروم ما لايحــصى، وصبروا يومــئذ صبرا لم يصــبروا فى موطن قط مثله، ثم أنزل الله نصره على المسلمين، فــانهزم قسطنطين جريحا ولم ينج من الروم إلا الشريد. وأقــام عبد الله بن ســعــد بذات الصوارى بعد الهزيمة أياماً ورجع [٣] .

فالمسلمون فى هذه الموقعة حين قبلوا التــحدى أمام أسطول عريق مهيب له

---

(١) فى معركةالصوارى من مقال فى مجلة الأزهر- الجزء الحادى عشر ذو القعدة ١٤١٢هـ- مايو ١٩٩٢ م.

(٢) عبد المنعم ماجد - التاريخ السياسى للدولة العربية صـ ٢٤٤- ٢٤٥.

(٣) بن الأثير الكامل من التاريخ صـ٣ صـ٥٨. وابن عبد الحكم- فتوح مصر وأخبارها صـ ١٢٩.

السيادة على البحر، وله تاريخ طويل فى العمليات البحرية، ورجاله على درجه عالية من الكفاءة فيها، وعدد سفنه يزيد ثلاثة أضعاف عدد سفن المسلمين، إنما قبلوا هذا التحدى لأنهم تعلموا دروسا مستفادة من السنة المطهرة، والتاريخ الإسلامى الصادق، أن نصر المسلمين فى المعارك يرجع إلى:

قوة العقيدة والإيمان، والإدارة السليمة للمعركة، والاستغلال الأمثل للقدرات المتاحة، والتعاون والتكامل اللذين برزا فى هذه الموقعة.

أردت بذكر هذه الموقعة بالذات لأجيب على من يهول من قوة أعداء الإسلام، وينسى أن الله ﴿ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف:٢١] فما أشبه الليلة بالبارحة، فاليوم يملك أعداء الإسلام القوة، فأين إذن المجاهدون الصادقون وكيف نوجدهم؟ من أجل ذلك كان الحث على الجهاد أمر لازم فى منهج الاسلام ليعرف المجاهد ما ينتظره من الأجر والجزاء، لقاء ما بذل وما ضحى وليصبح الموت فى سبيل الله اسمى الأمانى.

***



الباب الخامس

الحث على الجهاد و آدابه

* لا تحيا الدعوة الا بالجهاد .
* مع أحاديث رسول الله ﷺ .
* الفرق بين رجلين .
* درس قرآني للمجاهدين .
* حقيقة تملأ قلب كل مؤمن .
* للجهاد آداب وأخلاق وقيم ومبادىء .
* عدم الاعتداء ابتداءً .
* الهدف والمدىّ .
* القتال والمسجد الحرام .
* القتال فى الاشهر الحرم .
* حتى لا يكون المؤمن جباناً .
* هاجس الموت
* الموت ليس نهاية المطاف .
* الموت فى سبيل الله حياة .
* حقيقة ينساها الكثير .
* نماذج من الشهداء .
* النهى عن التولى يوم الزحف .
* التولى من الكبائر .
* هاجس الرزق .
* حاجة الجهاد للمال .
* الجهاد فى سبيل الله وفضل النفقه عليه .
* الانفاق والجهاد.
* من موازين الايمان .
* يبكون شوقاً إلى الجهاد لا الغنائم .
* التربية إبتداء وانتهاءً .

###



« الحث على الجهاد وآدابه »

فرض الله الجهاد على كل مسلم فريضة لازمة حازمة لا مناص فيها ولا مفر منها ورغّب فيه أعظم الترغيب . وأجزل ثواب المجاهدين والشهداء ، فلم يلحقهم فى مثوبتهم إلا من عمل بمثل عملهم . ومن اقتدى بهم فى جهادهم، ومنحهم من الامتيازات الروحية والعملية فى الدنيا والآخرة مالم يمنحها سواهم، وجعل دماءهم الطاهرة الزكية عربون النصر فى الدنيا وعنوان الفوز والفلاح فى العقبى، وتوعد المخلفين القاعدين بأفظع العقوبات، ورماهم بأبشع النعوت والصفات، ووبخهم على الجبن والقعود، ونعى عليهم الضعف والتخلف، وأعد لهم فى الدنيا خزيا لا يرفع إلا إن جاهدوا، وفى الآخرة عذاباً لا يفلتون منه ، ولو كان لهم مثل أحد ذهباً ، واعتبر القعود والفرار كبيرة من أعظم الكبائر وإحدى السبع الموبقات المهلكات.

ولست تجد نظاما قديما أو حديثا دينياً أو مدنيا عنى بشأن الجهاد والجندية واستنفار الأمة ، وحشدها كلها صفا واحداً للدفاع بكل قواها عن الحق كما تجد ذلك فى دين الإسلام وتعاليمه ، وآيات القرآن وأحاديث الرسول ﷺ فياضة بكل هذه المعانى السامية ، داعية بأفصح عبارة وأوضح أسلوب الى الجهاد والقتال والجندية ، وتقوية وسائل الدفاع والكفاح بكل أنواعها من بريّة وبحرية وغيرها على كل الأحوال والملابسات [١].

فللقرآن منهج فريد فى الدعوة إلى الجهاد وبيان فضله ، وحث المؤمنين عليه، وتبشير أهله بالثواب الجزيل، والجزاء الجميل، فهو يبدأ بتحديد مهام المسلم وغايته فى الحياة، بعد أن حدد غايات الناس ومقاصد الناس فيها، فبين أن قوماً همهم من الحياة الأكل والمتعة ، فقال تبارك وتعالى ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ [محمد : ١٢] .

(١) رسالة الجهاد للإمام حسن البنا.

وبيّن أن قوماً آخرين مهمتهم الزينة والعرض الزائل، فقال تبارك وتعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾[آل عمران: ١٤]

وبيّن أن قوماً آخرين أيضا شأنهم من الحياة إيقاد الفتن، وإحياء الشرور، وأولئك الذين قال الله فيهم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [البقرة: ٢٠٤] .

تلك مقاصد من مقاصد الناس فى الحياة نزه الله المؤمنين عنها ، وبرأهم منها، وكلفهم مهمة أرقى ، وألقى على عاتقهم واجبا أسمى ذلك الواجب هو : هداية البشر إلى الحق ، وإرشاد الناس جميعا إلى الخير ، وإنارة العالم كله بشمس الإسلام (١).

فذلك قول الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج : ٧٦ ـ ٧٨] .

والمؤمن فى سبيل هذه الغاية قد باع نفسه وماله ، فليس له فيها شيء ، إنما هى وقف على نجاح هذه الدعوة ، وإيصالها الى قلوب الناس، وذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ

---

(١) رسالةإلى أى شيء ندعو الناس للإمام حسن البنا.

يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة : ١١١] .

ومن ذلك نرى أن المسلم يجعل دنياه وقفا على دعوته. وليكسب آخرته جزاء تضحيته، وهو على يقين من أن جُبنه وخوفه من السير فى هذا الطريق لا يطيل عمرا ، ولا جرأته وشجاعته وإصراره على السير مهما كانت الصعاب والتضحيات لا يُقصر أجلاً ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [الأعراف : ٣٤] فنقول : «فلا نامت أعين الجبناء» ، وقد تحرر من رق المادة، وتطهر من لذة الشهوات، وترفع من سفاسف الأمور ودنايا المقاصد ووجه وجهه لله الذى فطر السموات والأرض ليعلى كلمة الله ، ويجاهد فى سبيل الله ، وينشر دينه ، ويزود عن حياض شريعته، بكل وسائل الدعوة إلى الله ويجاهد فى الله حق جهاده بهذه الفريضة الماضية الى يوم القيامة، والمقصود بقول رسول الله ﷺ: « مَنْ مات ولم يغز ولم ينو الغزو مات ميتة جاهلية» وأول مراتب هذا الجهاد إنكار القلب ، وأعلاها القتال فى سبيل الله، وبين ذلك الجهاد باللسان والقلم واليد ـ بقواعده الشرعية وضوابطه الفقهية ـ وكلمة الحق عند السلطان الجائر.

لا تحيا الدعوة إلا بالجهاد :

ولا تحيا الدعوة إلا بالجهاد، وبقدر سمو الدعوة وسعة أفقها تكون عظمة الجهاد فى سبيلها، وضخامة الثمن الذى يطلب لتأييدها، وجزالة الثواب للعاملين.

هذه المعانى التى تربى عليها المجاهدون فهانت الدنيا فى أعينهم، وعظمت الآخرة وهم يرون جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين، فيها مالا

عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولاخطر على قلب بشر، فأسرعوا إليها راغبين فى نعيمها وأبديتها.

والمتأمل فى كتاب الله يرى كيف يحض المولى المسلمين على الحذر وممارسة القتال فى جيوش، أو عصابات، أو فرادى، كما يقتضيه الحال، وكيف يوبخ القاعدين والجبناء والمخلفين والنفعيين، وكيف يستثير الهمم لحماية الضعفاء، وتخليص المظلومين، وكيف يُقرن القتال بالصلاة والصوم، ويبين أنه مثلهما من أركان الإسلام، وكيف يفند شبهات المترددين، ويشجع الخائفين أكبر تشجيع على خوض المعامع ومقابلة الموت بصدر رحب وجنان جرىء، مبيناً لهم أن الموت سيدركهم لا محالة، وأنهم إن ماتوا مجاهدين فسيعوضون عن الحياة أعظم عوض، ولا يظلمون فتيلاً من نفقة أو تضحية .

كما ترى فيه إشادة بموقف المجاهدين، وعلى رأسهم سيدهم الكريم ﷺ، وبيان أن هذه هي مهمته المطهرة، وسنة أصحابه الغر الميامين فى قوله تعالى ﴿لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[التوبة: ٨٨].

وفى القرآن سورة بأكملها تسمى «سورة القتال» فى كتاب الله الحكيم تبين أن أساس الروح العسكرية كما يقولون أمران : الطاعة ، والنظام، وقد جمع الله هذا الأساس فى آيتين من كتابه، فأما الطاعة ففى قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾[محمد : ٢١] .

وأما النظام ففى سورة الصف فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾[الصف : ٤] وترى إشادة بموقف رائع

من مواقف الجهاد الكريم تحت ظل الشجرة المباركة، حيث أعطيت البيعة على الثبات والموت ، فأثمرت السكينة والفتح، وذلك فى قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح : ١٨] ، وفى السنة المكرمة ترى هذا الحث البليغ على الجهاد من رسول الله ﷺ إلى جند الله .

مع أحاديث رسول الله ﷺ

إن المجاهدين من المسلمين الأوائل كانت الجنة تنسيهم الهموم والمصائب، وتحملهم على الصبر عند المكاره، فعن أم حارثة بنت سراقة أنها أتت النبى ﷺ فقالت : يانبى الله ألا تحدثنى عن حارثة ، وكان قبل يوم بدر أصابه سهم غرب فإن كان فى الجنة صبرت، وإن كان غير ذلك اجتهدت عليه فى البكاء ، قال :يا أم حارثة إنها جنان فى الجنة وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى [١].

وعن عبد الله بن أبى أوفى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «اعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف» [٢] .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: ألا أخبركم بخير الناس وشر الناس؟ إن من خير الناس رجلاً عمل فى سبيل الله على ظهر فرسه أو ظهر بعيره أو على قدمه حتى يأتيه الموت ، وإن من شر الناس رجلاً يقرأ كتاب الله تعالى لا يرعوى بشيء منه» [٣] .

وعن ابن عباس رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

---

(١) رواه البخارى ـ والسهم الغرب. الذى لا يُعرف راميه ـ واجتهدت عليه فى البكاء ، أى بكيت عليه بكاء شديدا.

(٢) أخرجه الشيخان وأبو داود.

(٣) رواه النسائى لايرعوى لا يتعظ ولا ينزجر .

عينان لا تمسهما النار . عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس فى سبيل الله »[(١)] .

وعن سهل بن حنيف رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: مَنْ سأل الله تعالى الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه»[(٢)].

وعن المقداد بن معد يكرب قال : قال رسول الله ﷺ : « للشهيد عند الله ست خصال: يغفر له في أول دفعة ، ويرى مقعده من الجنة، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار الياقوته منه خير من الدينا وما فيها ، ويزوج إثنتين وسبعين زوجة من الحور العين ، ويشفع فى سبعين من أقربائه» [(٣)] .

وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : لما قتل عبد الله بن عمرو بن حزام يوم أحد قال رسول الله ﷺ : يا جابر ألا أخبرك ما قال الله عز وجل لأبيك؟ قلت : بلى ـ قال : ما كلم الله أحدا إلا من وراء حجاب وكلم أباك كفاحا. فقال : ياعبدى تمنى على أُعطك، قال : يارب تحيينى فأقتل فيك ثانية. قال: إنه سبق منى أنهم إليها لا يرجعون . قال يارب فأبلغ من ورائى، فأنزل الله عز وجل هذه الآية ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾ [آل عمران : ١٦٩] .الآية [(٤)].

الفرق بين رجلين :

ولكن لضعف اليقين فى الآخرة ، وشدة تعلق الإنسان بالدنيا ، يكره المرء الجهاد . يقول ربنا : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ

---

(١) رواه الترمذي .

(٢) أخرجه الخمسة إلا البخارى .

(٣) رواه الترمذى وابن ماجه .

(٤) رواه ابن ماجه .

مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾ [محمد : ٢٠].

هذا الذى وصفه المولى هو قلب مريض ، وسبب المرض هو اقتراف الذنوب، وعلاجها بالتوبة الصادقة التى تصقل القلب حتى يصفو ، فإذا ما صفا القلب وطهر وصار سليما ، أحسن استقبال وحى الله عز وجل ، وبذل كل غال وثمين طاعة لله ورضاء له ، ولكي يستمر هذا الصفاء القلبى يجب أن نراعى :

أولاً : قطع علائق الدنيا ، واخراج حب غير الله من القلب ، فأحد أسباب ضعف حب الله ، قوة حب الدنيا ، فبقدر ما يأنس القلب بالدنيا، ينقص حبه وأنسه بالله، والدنيا والآخرة ضرتان ، لذلك كان سبب الغثائية فى أمتنا الإسلامية كما بين الحديث الشريف: حب الدنيا وكراهية الموت. وإذا أحب المرء الدنيا وكره الموت فإن معنى ذلك أن كرهه للجهاد أشد أحد أسباب الموت الذى يكرهه .

ثانياً : معرفة الله تعالى، لأنه إذا حصلت المعرفة تبعها المحبة ، ولايوصل إلى هذه المعرفة، إلا التفكر والتدبر، وتفاوت الحب إنما يرجع إلى تفاوت المعرفة، والجهل بالله سبب كل بلاء وكفر، والمعصية ليست دليلاً على عدم حب الله، ولكن دليلاً على عدم كمال ذلك الحب ونقصانه، والدليل على ذلك قصة الصحابى النعمان الذى كان يؤتى به إلي رسول الله ﷺ ليحدّه إلى أن أتي يوماً فحدّه، فلعنه رجل ، وقال : ما أكثر ما أوتى به !! فقال رسول الله ﷺ « لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله » . فلم تخرجه المعصية عن المحبة، وإنما تخرجه عن كمالها .

فالإنسان إما أن يعيش لدنياه فتصبح أكبر همه ، أو يعيش لآخرته فيعمل

لها ويضحى من أجلها ، وذلك كله يرجع إلى العقيدة الصحيحة قوة وضعفا لأن العقيدة هى صانعة الرجال.

وما أعظم الفرق بين رجلين ، يعيش أحدهما وهو يعتقد فى نفسه أنه مجرد حيوان من فصيلة راقية ليس له قبل حياته جذور وليس بعد موته امتداد، وليس له فى حياته صلة بالوجود الكبير أكثر من صلة القرود به .

ويعيش الآخر وهو يعتقد أنه خليفة الله فى الأرض، ونائبه فى إقامة الحق، وإفاضة الخير، وإشاعة الجمال فى هذا الكون، ويشعر أن الكون كله فى خدمته والملائكة فى حراسته ، وأن رب الوجود فى معيتة، وأنه من فصيلة الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وأن وجوده لا ينتهى بالموت ، ودوره لا ينتهى بالقبر، فإنما خلق للخلود الأبدى الذى لا ينقطع ولا يزول[١] هذا هوالمجاهد بحق.

لذلك يجب على المسلم أن يحصن نفسه، ويطهر قلبه، ويحاسب جوارحه العين على ماترى ، والأذن على ما تسمع ، واليد على ما أمتدت، والرجل علي ماسعت ، والبطن على ماحوت، بل يكون حارسا لخواطره حذراً من إهمالها والاسترسال معها ، فإن أصل الفساد كله يكون من قبلها، لذلك يقول رسول اللهﷺ : « لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع مالا بأس به حذرا مما به بأس »[٢].

يقول الإمام البنا : إن رجل القول غير رجل العمل ، ورجل العمل غير رجل الجهاد ، ورجل الجهاد فقط غير رجل الجهاد المنتج الحكيم، الذى يؤدى إلى أعظم النتائج بأقل التضحيات ، إن كثيرين يستطيعون أن يقولوا ولكن قليل من هذا الكثير يثبتون عند العمل، وكثير من هذا القليل يستطيعون أن

(١) الإيمان والحياة د. يوسف القرضاوى .

(٢) أخرجه الترمذى وابن ماجه قال حديث حسن غريب.

يعملوا، ولـكن قليل منهم يقدرون على حـمل أعباء الجـهاد الشـاق والعمل العنيف، وهؤلاء المجـاهدون هم الصفوة القـلائل من الأنصار، قـد يخطئون الطريق ولا يصيبون الهدف إن لم تتداركهم عناية الله، وفى قصة طالوت بيان لما أقول، فأعدوا أنفسكم وأقبلوا عليها بالتربيـة الصحيحة، والاختيار الدقيق، وامتـحنوها بالعمل القـوى البغـيض لديها ، الشـاق عليها، وأفطـموها عن شهواتها ومألوفاتها وعاداتها[1] أننا كى نحـقق الآمال الكبار التى نـنشرها فى حـاجـة إلـى أصـحـاب النفـوس الـعـاليـة ذات الإرادة القــوية، والوفـاء الثابـت، والإيمان الصادق، والتـضحيـة الكريمة بكل غال ليـعلوا المبدأ وتـبقى القيمة، ويستمر فيض القرآن يروى الظمأى إليه .

درس قرآني للمجاهدين:

يقول ربنا عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِيـــنَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[البقرة: ٢٤٣: ٢٤٥] إلى قوله تـعالى : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الـــلَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [البقرة : ٢٥٢] .

هذه الآيات الكريمة تبين لنا منهج القرآن فى حث المسـلمين على الجهاد فى سبيل الله، بأسلوب يـستجيش العواطف ، ويناقش العـقول ويعمق الإيمان، فيقبل المؤمن على الجـهاد بقلب ملىء بالإيمان ، مطمئنا لقضاء الله، محـتسباً مخلصا له الدين مقبلا غير مدبر، وهو يسمع كلمات الله، فيلبى نداءه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيـتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ الـــلَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الانفال: ١٥]. فيخش عاقبة الإدبار فـيردد بثقة واطمئنان نفس: ﴿ وَمَا

(١) طريق الدعوة الأستاذ مصطفى مشهور صـ ٣٨ .

لَنا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [ابراهيم :١٢] فيتوكل على الله وهو حسبه آخذاً حذره، طائعاً لقيادته، ثابتاً على عقيدته، ذاكراً الله في كل حين، محافظاً على أخوته ووحدته، مصغياً لنداء ربه ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾[الأنفال : ٤٥] .

على هذه المعانى يربى القرآن أتباعه ، لا يخشون فى الله لومة لائم ، فلا يهابون الموت ، ولا يخافون الفقر . وفى الآيات السابقة :

ترى جماعة ﴿خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ ﴾ [البقرة : ٢٤٣] فلم ينفعهم الخروج والفرار والحذرمن الموت وأدركهم قدر الله الذى خرجوا حذرا منه، فقال لهم الله: ﴿ مُوتُوا﴾ ﴿ ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ﴾ . . لم ينفعهم الجهد فى إتقاء الموت ولم يبذلوا جهد فى استرجاع الحياة، وإنما هو قدر الله فى الحالين.

وفي ظل هذه التجربة يتجه إلى الذين آمنوا يحرضهم على القتال، وعلى الإنفاق فى سبيل الله، واهب الحياة، وواهب المال،والقادر على قبض الحياة وقبض المال.

إنه تصحيح التصور عن الموت والحياة وأسبابه الظاهرة، وحقيقتهما المضمرة، ورد الأمر فيهما إلى القدرة المدبرة، والاطمئنان إلى قدرة الله فيهما، والمعنى فى حمل التكاليف والواجبات ، دون هلع ولا جزع، فالمقدر كائن، والموت والحياة بيد الله فى نهاية المطاف.

يراد أن يقال : الحذر من الموت لا يجدى ، وإن الفزع والهلع لا يزيدان حياة ، ولا يمدان أجلا ، ولايردان قضاء ، وإن الله واهب الحياة، وهو آخذ

الحياة ، وإنه متفضل فى الحالتين ، حين يهب، وحين يسترد ، والحكمة الإلهية الكبرى كامنة خلف الهبة وخلف الاسترداد ، وأن مصلحة الناس متحققة فى هذا وذاك ، وإن فضل الله عليهم متحقق فى الأخذ والمنح سواء، ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة : ٢٤٣] .

ومن هنا فليس الفزع والجزع والحذر يغير المصير ، ولا يدفع الموت ولم يرد القضاء، فالأولى الثبات والصبر والرجوع إلى الله واهب الحياة بلا جهد من الأحياء، إذن فلا نامت أعين الجبناء.

أما الدرس الثاني: فكان فى حياة بنى إسرائيل من بعد موسى عليه السلام، وبعد ما ضاع ملكهم، ونهبت مقدساتهم، وذلوا لأعدائهم. وذاقوا الويل بسبب إنحرافهم عن هدى ربهم، وتعاليم نبيهم، ثم انتفضت نفوسهم انتفاضة جديدة، واستيقظت فى قلوبهم العقيدة، واشتاقوا القتال فى سبيل الله، فقالوا: ﴿ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾[البقرة :٢٤٦] .

ومن خلال القصة يتعلم المسلمون الأوائل أن انتفاضة العقيدة على الرغم من كل ما يعتورها من نقص وضعف ـ كما فى القصة ـ ومن تخلى القوم عنها فوجا بعد فوج فى مراحل الطريق، على الرغم من هذا كله فإن ثبات حفنة قليلة من المؤمنين، قد حقق لبنى إسرائيل نتائج ضخمة جدا، فقد كان فيها النصر والعز والتمكين، بعد الهزيمة المنكرة، والمهانة الفاضحة. والتشريد الطويل، والذل تحت أقدام المتسلطين ، ولقد جاءت لهم بملك داود ، ثم ملك سليمان، وهذه أعلى قمة وصلت إليها دولة بنى إسرائيل فى الأرض ، وهى عهدهم الذهبى الذى يتحدثون عنه ، والذى لم يبلغوه من قبل فى عهد النبوة الكبرى، وكان هذا النصر كله ثمرة مباشرة لانتفاضة العقيدة من تحت الركام ، وثبات حفنة قليلة عليها أمام جحافل جالوت، كل ذلك ليتعلم المسلمون الدروس المستفادة من هذه المواقف فى كل زمان ومكان والتى تعود

عليهم بالنفع العميم ، ومن هذه الدروس:

١ - أن الجماعة المسلمة المجاهدة لا تخدع القيادة فيها الحماسة الجماعية الظاهرة، ويجب أن يضع القادة هذه الحماسة على محك التجربة قبل أن يخوضوا بها المعركة الحاسمة، فهذا النبى الكريم أراد أن يستوثق من صحة عزيمة الجند على القتال، وقال لهم: ﴿**هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا**﴾ [البقرة :٢٤٦] فاستنكروا عليه هذا القول، وارتفعت حماستهم إلى الذروة وهم يقولون له ﴿ **وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا**﴾[البقرة :٢٤٦].

ولكن هذه الحماسة البالغة مالبثت أن انطفأت شعلتها. وتهاوت على مراحل الطريق ـ كما تذكر القصة ـ فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم.

٢- أن اختبار الحماسة الظاهرة والاندفاع الغائر فى نفوس الجماعات ينبغى أن لا يقف عند الابتلاء الأول ، فإنه مع كثرة بنى إسرائيل هؤلاء إلا أنهم تولوا بمجرد أن كتب عليهم القتال استجابة لطلبهم، ولم يتبق إلا قلة مستمسكة بعهدها مع نبيها. وهم الجنود الذين خرجوا مع طالوت بعد الحجاج والجدال حول جدارته بالملك والقيادة. ووقوع علامة الله باختياره لهم، ورجعة تابوتهم، وفيه مخلفات أنبيائهم تحمله الملائكة، ومع هذا فقد سقطت كثرة هؤلاء الجنود فى المرحلة الأولى، وضعفوا أمام الامتحان الأول الذى أقامه لهم قائدهم ، وحتى القليل لم يثبت كذلك إلى النهاية .

فأمام الهول الحى ، أمام كثرة الأعداء وقوتهم ، تهاوت العزائم وزلزلت القلوب ﴿ **قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ** ﴾ [البقرة : ٢٤٩] وأمام هذا التخاذل ثبتت الفئة القليلة المختارة ، اعتصمت بالله ووثقت وقالت: ﴿ **كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴾[البقرة . ٢٤٩] وهذه هي التى

رجحت الكفة ، وتلقت النصر، واستحقت التمكين .

وفى ثنايا هذه التجربة تكمن عبرة القيادة الصالحة الحازمة المؤمنة ، تبرز منها الخبرة بالنفوس، وعدم الاغترار بالحماسة الظاهرة، وعدم الاكتفاء بالتجربة الأولى، واختبار الطاعة والعزيمة فى نفوس الجند قبل المعركة، وفصل الذين ضعفوا وتركهم وراء،وعدم التخاذل والثقة فى قوة الإيمان الخالص، ووعد الله الصادق للمؤمنين .

٣- إن القلب الذى يتصل بالله تتغير موازينه وتصوراته ، لأنه يرى الواقع الصغير المحدود بعين تمتد وراءه إلى الواقع الكبير الممتد الواصل ، وإلي أصل الأمور كلها وراء الواقع الصغير المحدود، فهذه الفئة المؤمنة الصغيرة التى ثبتت وخاضت المعركة وتلقت النصر، كانت ترى مع قلتها وكثرة عددها ما يراه الآخرون الذين قالوا ﴿ لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ [البقرة : ٢٤٩] ولكنها لم تحكم حكمهم على الموقف، إنما حكمت حكماً آخر، فقالت: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٤٩] ثم اتجهت لربها تدعوه ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة : ٢٥٠] وهى تحس أن ميزان القوى ليس فى أيدى الكافرين، إنما هو فى يد لله وحده، فطلبت منه النصر، ونالته من اليد التى تملكه وتعطيه، وهكذا تتغير التصورات والموازين للأمور عند الاتصال بالله حقا وعندما يتحقق فى القلب الإيمان الصحيح، وهكذا يثبت أن التعامل مع وعد الله الواقع الظاهر للقلوب أصدق من التعامل مع الواقع الصغير الظاهر للعيون .

حقيقة تملأ قلب كل مؤمن :

ويتعلم المسلمون الأوائل ـ ويجب أن يتعلم منْ بعدهم ـ أن الفئة القليلة الواثقة بلقاء الله، والتى تستمد صبرها كله من اليقين بهذا اللقاء وتستمد

قوتهـا كلها من إذن اللـه، وتستمـد يقينهـا كله من الثقـة فى الله ، وإنه مع الصابرين، فلا تزلزلها كثرة العدو وقوته، مع ضـعفها وقلتها، هذه الفئة هي التى تقرر مـصير المعركـة، بعد أن تجدد عهـدها مع الله، وتتجه بقلوبهـا إليه وتطلب النصر منه وحده، وهى تواجه الهول الرعيب باخلاص وصبر وتقى.

وهكذا يتضح التـصور الكامل لحقيـقة ما يجرى فى هذا الكون، ولطبـيعة القوة التى تجريه ، إن المـؤمنين ستار القدرة، يفعل الله بهـم ما يريد ، وينفذ بهم ما يختار بإذنه ليس لهم من الأمر شىء ، ولا حول لهم ولا قوة ، ولكن الله يختارهم لتنفيذ مـشيئته فيكون منهم ما يريده بإذنه ، وهى حقـيقة خليقة بأن تملأ قلب المؤمن بالسلام والطمأنينة واليقين [١].

ليس لهم فى شىء من هذا كله إرب ذاتى، فاستحقوا النصر بالنية الطيبة، والعزيمة الصادقة، والطاعة لأوامـر الله ومنهجه بإخلاص وعمل ﴿ **فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا** ﴾ [النساء : ٧٤] .

أى تصور هذا . . أى فهم دقيق . . فليس كل من أمسك بسلاحه حتى ولو حقق نصرا مـؤقتا كان كذلك، لأن العـبرة ليست بوفرة السـلاح، إنما العبرة بعد الأخذ بالأسباب بالأيدى المتوضـأة التى تمسكه، والجباه الساجدة التى تدعو الله بالنصـر، ولذلك بعد هذه الـدروس التى يجب أن يتعلمـها المجـاهدون المخلصون ووعاها الجميع قادة وجندا فلتبدأ المعركة وليخضها المخلصون ولذلك كان أمـر ربنا بعد ذلك: ﴿**وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾[البقرة: ٢٤٤].

وكأن المولى ـ وهو أعلم بمراده ـ يقـول للجماعة المسلمـة فى جيلها الأول

---

(١) فى ظلال القرآن المجلد الأول صـ ٢٦٤ - سيد قطب بتصرف

وفى أجيالها المتابعة: إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ألا يقعدن بكم حب الحياة وحذر الموت عن الجهاد فى سبيل الله، فالموت والحياة بيد الله، فقاتلوا فى سبيل الله لا فى سبيل غاية أخرى، وتحت راية الله لا تحت راية أخرى ، لا يقعدكم الخوف من الموت ، ولا الحذر من نهاية الحياة .

للجهاد آداب وأخلاق وقيم ومبادىء :

لقد جاءت العقيدة الإسلامية فى صورتها الأخيرة التى جاء بها الإسلام لتكون قاعدة للحياة البشرية فى الأرض من بعدها ، ولتكون منهاجا عاما للبشرية جميعها ، ولتقوم الأمة المسلمة بقيادة البشرية فى طريق الله وفق هذا المنهج، المنبثق من التصور الكامل الشامل لغاية الوجود كله ، ولغاية الوجود الإنسانى ، كما أوضحه القرآن الكريم المنزل من عند الله، وقيادتها إلى هذا الخير الذى لاخير غيره من مناهج الجاهلية جميعا ، ورفعها إلى هذا المستوى الذى لا تبلغه إلا فى ظل هذا المنهج ، وتمتيعها بهذه النعمة التى لا تعدلها نعمة ، والتى تفقد البشرية كل نجاح وكل فلاح حين تحرم منها، ولا يعتدى عليها معتد بأكثر من حرمانها من هذا الخير ، والحيلولة بينها وبين ما أراده لها خالقها من الرفعة والنظافة والسعادة والكمال .

ومن ثم كان حق البشرية أن يبلغ اليها الدعوة إلى هذا المنهج الإلهى الشامل ، وألا تقف عقبة أو سلطة أو قوة غشوم فى وجه التبليغ بأى حال من الأحوال . ثم كان من حق البشرية كذلك أن يترك الناس بعد وصول الدعوة إليهم أحرارا فى اعتناق هذا الدين ، لا يصدهم ولا يقف فى سبيل اعتناقهم أى سبب من الأسباب، فإذا أبى فريق منهم أن يعتنقه بعد البيان، لم يكن له أن يصد الدعوة عن المضى فى طريقها، وكان عليه أن يعطى من العهود ما يكفل لها الحرية والاطمئنان ، وما يضمن للجماعة المسلمة المضى فى طريق التبليغ بلا عدوان. فإذا اعتنقها من هداهم الله اليها كان من حقهم

ألا يفتنوا عنها بأى وسيلة من وسائل الفتنة، لا بالأذى ولا بالإغراء، ولا بإقامة أوضاع من شأنها صد الناس عن الهدى وتعويقهم عن الاستجابة، وكان من واجب الجماعة الإسلامية أن تدفع عنهم بالقوة من يتعرض لهم بالأذى والفتنة - بالقواعد الشرعية المرعية والواجبة الاتباع - ضمانا لحرية العقيدة. وكفالة لأمن الذين هداهم الله وإقراراً لمنهج الله فى الحياة أو حماية البشرية من الحرمان من ذلك الخير العام.

وينشأ عن تلك الحقوق الثلاثة واجبٌ آخر على الجماعة المسلمة، وهو الجهاد - بقيوده وقواعده الشرعية - لتزيل كل قوة تعترض طريق الدعوة وإبلاغها للناس فى حرية، أو تهدد حرية اعتناق العقيدة وتفتن الناس عنها، وأن تظل تجاهد حتى تصبح الفتنة للمؤمنين بالله غير ممكنة لقوة فى الأرض، بحيث لا يخشى أن يدخل فيه من يريد الدخول، ولا يخاف قوة فى الأرض تصده عن دين الله أن تبلغه، وأن يستجيب له وأن يبقى عليه بحيث لا يكون فى الأرض وضع أو نظام يصد عن سبيل الله، بأية وسيلة وبأية أداة، وفى حدود هذه المبادىء العامة كان الجهاد فى الإسلام.

وكان لهذه الأهداف العليا وحدها؛ غير متلبسة بأى هدف آخر، ولا بأى إشارة أخرى، إنه الجهاد للعقيدة، من الاعتداء عليها أو حصارها، وحمايتها من الفتنة، وحماية منهجها وشريعتها فى الحياة، وإقرار رايتها فى الأرض، بحيث يرهبها من يهم بالاعتداء عليها قبل الاعتداء، وبحيث يلجأ إليها كل راغب فيها لا يخشى قوة أخرى فى الأرض تتعرض له أو تمنعه أو تفتنه، وهذا هو الجهاد الوحيد الذى يأمر به الإسلام، ويقره ويثبت عليه، ويعتبر الذين يقتلون فيه شهداء والذين يحتملون أعباءه أولياء[1].

---

(١) فى ظلال القرآن صـ ١ صـ١٨٦ الجزء الأول.

ولذلك لا يذكـر فى القرآن الكـريم لفظ (القتـال) أو (الجهـاد)، إلا وهو مقـرون بعبـارة (فى سبـيل الله) وذلك يدل على الغاية أو المغنـم، أو إظهار الشجاعة ،أو الاستعلاء فـى الأرض ، وقد وضّح هذه الغاية النبيلة قوله عليه السلام : « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » [1].

ولذلك كان الجهاد فى سبيل الله أفضل القربات عند الله، ولا يعدله شىء من العبـادات، لقوله عليـه الصلاة والسلام : « مـثل المجاهد فى سـبيل الله كمثل الصائم القائم ، القانت بأيات الله ، لا يفـتر من صلاة ولا صيام حتى يرجع المجاهد فى سبيل الله » [2] ، فحبس المسلم لنفسه فى مسجد يصوم فيه ويصلى ويقرأ القرآن ، ويقوم الليل لا يعدل الجهاد فى سبيل الله .

كتب عبد الله بن المبارك للفضيل بن عياض هذه الأبيات :

يا عابد الحرمين لو أبصرتنـــا لعلمت أنك فى العبادة تلعب
مَنْ كان يخضُب خدّه بدموعه فنحورنا بدمائنـــا تتخضّـب
أو كان يُتْعب خيله فى باطـل فخيولنا يوم الصبيـــحة تتعب
ريح العبير لكم ونحن عبيرنـا وهَجُ الـسنابل والغبار الأطيب

فلما قرأها الفضيل ذرفت عيناه وقال: صدق أبو عبد الرحمن ونصحنى[3].

ولذلك كان ترك الجـهاد والإنفاق فى سـبيله هو التهلكة بعـينها، روى بن جرير الطبرى عن أسلم أبى عمران قـال : كنا بالقسطنطينية وعلى أهل مصر عقبة بن عـامر، وعلى الشام فضالة بن عُبيـد ، فخرج صف عظيم من الروم فصففنا لهم ، فحـمل رجل من المسلمين على صف الروم حتى دخل فيهم،

---

(١) من حديث صحيح.
(٢) رواه الخمسة عن أبى هريرة رضى الله عنه
(٣) ذكره ابن عساكر فى ترجمة عبد الله بن المبارك.

فصاح الناس وقالوا: سبحان الله ألقى بيده إلى التهلكة ، فقام أبو أيوب الأنصارى ، صاحب رسول الله ﷺ فقال : أيها الناس إنكم تتأولون هذه الآية على هذا التأويل، وإنما نزلت هذه الآية فينا معاشر الأنصار ، إنّا لما أعز الله دينه، وكثر ناصريه ، قال بعضنا لبعض سراً دون رسول الله ﷺ : إن أموالنا قد ضاعت، وإن الله قد أعز الإسلام، فلو أقمنا فى أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها ، فأنزل الله فى كتابه يرد علينا ما هممنا به ﴿**وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ**﴾ [البقرة : ١٩٥] فكانت التهلكة الإقامة فى الأموال واصلاحها، وتركنا الغزو[١] فما زال أبو أيوب الأنصارى غازيا فى سبيل الله، حتى قبضه الله ودفن فى القسطنطينية [٢] .

عدم الاعتداء ابتداء:

تسيطر الأخلاق على معاملات المسلمين سلما وحربا ، فإن كانت القيم والأخلاق تظهر فى حياتهم السلمية ، فإن حياتهم فى الحروب لا تختلف عن حياتهم فى السلم حيث الآداب والقيم والمبادىء والأخلاق، فهم لا يعرفون اعتداءً فى جهادهم لأن المولى.جل وعلا قال لهم: ﴿ **وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ** ﴾ [البقرة : ١٩٥] ويدخل فى ذلك :

أولا: ارتكاب المناهى كما قال الحسن البصرى ـ من المثلة، والغلول، وقتل النساء، والصبيان، والشيوخ، الذين لا قدرة لهم على القتال ، ويدخل فيه قتل الرهبان، وتحريق الأشجار، وقتل الحيوان لغير مصلحة، فكل هذا داخل فى النهى «ولا تعتدوا»، ويدل عليه ما رواه مسلم عن بريدة أن رسول الله ﷺ قال: « اغزوا باسم الله، فى سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله ، اغزوا ولا

---

(١) رواه أبو داود والترمذى وصححه، أنظر جامع البيان للطبرى ٢/ ٢٠٤ والدر المنثور للسيوطى ٢٠٧٠ وتفسير القرطبى ٢/ ٣٣٩.

(٢) روائع البيان جـ١ صـ٢٢٤ محمد على الصابونى.

تغلّوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا الوليد، ولا أصحاب الصوامع»(١)، وفي الصحيحين عن ابن عمر أنه قال: « وجدت امرأة في بعض مغازي النبي ﷺ مقتولة فانكر رسول الله ﷺ قتل النساء والصبيان » (٢) .

ثانيا: قيل المراد بقوله: ﴿ وَلَا تَعْتَدُوا ﴾ [البقرة : ١٩٥] النهى عن البدء بالقتال، وهو مروى عن مقاتل.

ثالثا: وقيل المراد به النهى عن قتال من لم يقاتل، وهو قول سعيد بن جبير، وأبى العالية.

قال القرطبي: والقتال لا يكون في النساء ولا في الصبيان ومن أشبههم كالرهبان، والزّمْنىَ، والشيوخ، فلا يقتلون، ولهذا أوصى أبو بكر الصديق رضي الله عنه يزيد بن أبي سفيان حين أرسله إلى الشام. إلا أن يكون لهؤلاء إذاية، وللعلماء فيهم صورٌ ستٌ :

الأولى: النساء إن قاتلن قُتلن لعموم قوله تعالى، وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلوكم.

الثانية: الصبيان فلا يقتلون للنهى الثابت عن قتل الذرية ولأنه لا تكليف عليهم .

الثالثة : الرهبان لا يقتلون ولا يُسترقون يقول أبو بكر فذرهم ما حبسوا أنفسهم له .

الرابعة : الزمنى إن كانت فيهم إذاية قتلوا. وإلا تركوا وما هم بسبيله من الزمانه.

الخامسة : الشيوخ قال مالك: لا يقتلون وهو قول جمهور الفقهاء إذا كان

---

(١) رواه مسلم وأحمد وابن كثير جـ صـ ٢٢٦.

(٢) رواه البخارى ومسلم وتفسير القرطبى جـ٢ صـ ٣٢٧

لا ينتفع بهم فى رأى ولا مدافعة.

السادسة: العسفاء وهم الأجراء والفلاحون ، يقول عمر: اتقوا الله فى الذرية ، والفلاحين الذين لا ينصبون لكم الحرب [(١)].

فلا عدوان إلا على الظالمين، ذلك لأنه قتال لله، لا لأى هدف آخر من الأهداف التى عرفتها البشرية فى حروبها الطويلة، القتال فى سبيل الله لا فى سبيل الأمجاد والاستعلاء فى الأرض، ولا فى سبيل المغانم والمكاسب، ولا فى سبيل الأسواق والخامات، والتى بسببها يهلك الزرع والضرع والحرث والنسل، ولا فى سبيل تسويد طبقة على طبقة أو جنس على جنس، فتكون الحروب العنصرية والدينية، إنما هو القتال لتلك الأهداف المحددة التى من أجلها شرع الجهاد فى الإسلام، القتال لإعلاء كلمة الله فى الأرض، وإقرار منهجه فى الحياة، وحماية المؤمنين به أن يفتنوا عن دينهم، أو أن يجرفهم الضلال والفساد، وما عدا هذه، فهى حرب غير مشروعة فى حكم الإسلام، وليس لمن يخوضها أجر عند الله ولا مقام.

الهدف والمدى :

ومع تحديد الهدف، تحديد المدى ﴿ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٥] لتنضبط المعايير والمعاملات ولا ينفلت عيار المسلم وهو فى هذه الحالة ، ولذلك كان لهذه الحرب آداب عرفتها البشرية أول مرة على يد الإسلام.

عن أبى هريرة رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ : « إذا قاتل أحدكم فليجتنب الوجه »[(٢)] .

(١) تفسير القرطبى جـ٢ صـ ٣٢٧ بشىء من التصرف ، وانظر احكام القرآن لابن العربى جـ ١ صـ ١٠٥، واحكام القرآن للجصاص جـ١ صـ ٣٠٢.

(٢) أخرجه الشيخان.

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: بعثنا رسول الله ﷺ فقال: «إن وجدتم فلانا وفلانا (رجلين من قريش) فأحرقوهما بالنار» فلما أردنا الخروج قال: «كنت أمرتكم أن تحرقوا فلانا وفلانا، وإن النار لا يعذب بها إلا الله تعالى، فإن وجدتموهما فاقتلوهما»[١] وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أعفّ الناس قِتْلةً أهل الإيمان » [٢] .

وعن عبدالله بن يزيد الأنصارى ـ رضى الله عنه ـ قال: « نهى رسول الله ﷺ عن النُّهْبَى والمُثلة » [٣] .

وعن أبى يعلى قال: غزونا مع عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، فأتى بأربعة أعلاج من العدو ، فأمر بهم فقتلوا صبرا بالنبل ، فبلغ ذلك أبا أيوب الأنصارى رضى الله عنه ـ فقال : سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن قتل الصبر ، فوالذى نفسى بيده، لو كانت دجاجة ما صَبَّرْتُها، فبلغ ذلك عبد الرحمن، فأعتق أربع رقاب[٤] .

وعن الحارث بن مسلم بن الحارث عن أبيه ـ رضى الله عنه – قال : «بعثنا رسول الله ﷺ فى سرية ،فلما بلغنا المغار[٥] استحثثت فرسى فسبقت أصحابى فتلقانى أهل الحى بالرنين ، فقلت لهم : قولوا لا إله إلا الله تُحرزوا[٦]، فقالوها فلامنى أصحابى، وقالوا: حرمتنا الغنيمة،فلما قدمنا على رسول الله ﷺ أخبروه بالذى صنعت ،فدعانى فحسن لى ما صنعت، ثم قال لى: إن الله تعالى قد كتب لك بكل إنسان منهم كذا وكذا من الأجر»[٧].

---

(١) أخرجه البخارى وأبو داود والترمذي.

(٢) أخرجه أبو داود. (٣) أخرجه البخارى.

(٤) أخرجه أبو داود وقيل الصبر ، القتل بصفحة السيف لا بشفرته، وفيه نوع من التعذيب بالموت البطيء واعتق عبد الرحمن بن الوليد أربعة رقاب وهى كفارة القتل الخطأ.

(٥) أى مكان الإغارة على العدو.

(٦) تحفظوا وتصانوا وتحرم دماؤكم وأموالكم.

(٧) أخرجه أبو داود.

القتال والمسجد الحرام :

ومن هذا الباب أيضا قول ربنا : ﴿ وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ﴾ [البقرة : ١٩١] على حرمة القتال فى الحرم ، إلا إذا بدأ المشركون بالعدوان ، فيباح لنا قتالهم دفعا لشرهم وإجرامهم، ولا يجوز لنا أن نبدأهم بالقتال عملاً بالآية الكريمة وعلى هذا تكون الآية محكمة غير منسوخة .

وقد روى عن مجاهد فى قوله تعالى ﴿فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ﴾ [البقرة:١٩١] أنه قال لا نقاتل فى الحرم أحداً أبداً ، فمن عدا عليك فقاتلك فقاتله كما يقاتلك[(١)]

وروى عن قتاده أنه قال: الآية منسوخة نسختها آية براءة ﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ [التوبة : ٥] .

قال العلامة القرطبى: وللعلماء فى هذه الآية قولان : أحدهما أنها منسوخة، والثانى أنها محكمة.

قال مجاهد : الآية محكمة ، ولا يجوز قتال أحد فى المسجد الحرام إلا بعد أن يقاتل، وبه قال طاووس ، وهو الذى يقتضيه نص الآية ، وهو الصحيح من القولين، وإليه ذهب أبوحنيفة وأصحابه .

ويدل عليه ما روى فى الصحيح عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ، خطب يوم فتح مكة فقال « يا أيها الناس، إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض، ولم تحلّ لأحد قبلى ، ولا تحل لأحد بعدى، وإنما أحلت لى ساعة من النهار، ثم عادت حراماً إلى يوم القيامة»[(٢)] قال ابن العربى: فثبت النهى

(١) جامع ٤ البيان لابن جرير الطبرى جـ٢ صـ ١٩ .

(٢) رواه البخارى ومسلم من حديث عبد الله بن عباس - القرطبى - جـ٢ صـ ٣٣٠ .

عن القتل فيها قرآناً وسنة، فإن لجأ إليها كافر فلا سبيل إليه ، وأما الزانى والقاتل فلابّد من إقامة الحد عليه ، إلا أن يبتدىء الكافر بالقتال فيها فيُقتل بنص القرآن [١].

لأن المسجد الحرام كتب الله فيه الأمن، وجعل جواره آمنا استجابة لدعوة خليله إبراهيم عليه السلام، وجعله مثابة يثوب إليه الناس فينالون فيه الأمن والحرمة والسلام، فلا قتال عند المسجد الحرام إلا للكافرين الذين لا يرعون حرمته، فيبدأون بقتال المسلمين عنده ، وعند ذلك يقاتلهم المسلمون ولا يكفون عنهم حتى يقتلوهم ، فذلك هو الجزاء اللائق بالكافرين الذين يفتنون الناس عن دينهم ، ولا يرعون حرمة المسجد الحرام، الذى عاشوا فى جواره آمنين، وتفظيع القرآن للفتنة واعتبارها أشد من القتل، ينشىء مبدأً عظيماً يعنى فى حقيقتة ميلاداً جديداً للإنسان على يد الإسلام ، ميلاداً تتقرر فيه قيمة الإنسان بقيمة عقيدته ،وتوضع حياته فى كفة وعقيدته فى كفة ، فترجح كفة العقيدة، كذلك يتقرر فى هذا المبدء من هم أعداء الإنسان ، إنهم أولئك الذين يفتنون مؤمنا عن دينه، ويؤذون مسلما بسبب إسلامه، أولئك الذين يحرمون البشرية أكبر عنصر للخير ويحولون بينها وبين منهج الله [٢].

وهؤلاء هم الذين يقاتلون ولو كانوا عند المسجد الحرام الذى اعلنوا قتال المسلمين فيه، يقول بن جرير: حلف لى عطاء بالله أنه لا يحل للناس الغزو فى الحرم، ولا فى الأشهر الحرام إلا على سبيل الدفع[٣].

القتال فى الأشهر الحرم :

يقول المولى فى كتابه العزيز ﴿الشَّهْرُ الْحرامُ بالشهر الْحرامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَن

(١) احكام القرآن لأن العربى جـ١ صـ١٠٧ وانظر القرطبى حـ٢ صـ ٣٣١.

(٢) فى ظلال القرآن جـ١ صـ ١٩٠ والآيات من سورة البقره

(٣) التفسير الكبير للامام الفخر جـ٦ صـ ٣٣، والكشاف جـ١ صـ١٩٦

اعتدىٰ عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدىٰ عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين﴾[البقرة: ١٩٤] .

قال ابن عباس : لما سار رسول الله ﷺ معتمرا فى سنة ستة من الهجرة وحبسه المشركون من الدخول والوصول إلى البيت ، صدوه بمن معه من المسلمين فى ذى القعدة وهو شهر حرام حتى تحاضاهم على الدخول من قابل، فدخلها فى السنة الآتيه هو ومن كان معه من المسلمين ، وأقصه الله منهم فنزلت فى ذلك هذه الآية ﴿ الشهر الحرام بالشهر الحرام ﴾ . وعن جابر بن عبد الله قال : لم يكن رسول الله ﷺ يغزو فى الشهر الحرام إلا أن يغزى وتغزوا فإذا حضره أقامه حتى ينسلخ [١] . ولهذا كما بلغ النبى ﷺ وهو مخيم بالحديبية أن عثمان قتل ، وكان قد بعثة برسالة المشركين ، بايع أصحابه وكانواالفا وأربعمائة تحت الشجرة على قتال المشركين ، فلما بلغه أن عثمان لم يقتل كف عن ذلك وجنح الى المسالمة والمصالحة ، وكذلك لما فرغ من قتال هوازن يوم حنين وتحصن لهم بالطائف عدل إليها فحاصرها ودخل ذو القعدة وهو محاصر لها بالمنجنيق واستمر عليها الى كمال أربعين يوما كما ثبت فى الصحيحين عن أنس ، فلما كثر القتال فى أصحابه انصرف عنها لم تفتح، ثم كسر راجعا إلى مكة واعتمر من الجعرانة حيث قسّم غنائم حنين وكانت عمرته هذه فى ذى القعدة أيضا عام ثمان صلوات الله وسلامه عليه .

يقول العونى عن ابن عباس فى قوله تعالى﴿ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به ﴾ [البقرة : ٢١٧]. وذلك أن المشركين صدوا رسول الله ﷺ وردوه عن المسجد فى شهر حرام قال : ففتح الله على نبيه فى شهر محرام من العام المقبل ، فعاب المشركون على رسول الله ﷺ

---

(١) رواه أحمد قال ابن كثير : إسناده صحيح .

القتال فى شهر حرام ، فقال الله : ﴿ **وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد واخراج أهله أكبر عند الله** ﴾ من القتال فيه ، وأن محمداً ﷺ بعث سرية ، فلقوا (عمر بن الحضرمى) وهو مقبل من الطائف فى آخر اليلة من جمادى، وأول ليلة من رجب ، وأن أصحاب محمد ﷺ كانوا يظنون أن تلك الليله من جمادى ، وكانت أول رجب ولم يشعروا فقتله رجل منهم وأخذوا ما كان معه ، وأن المشركين أرسلوا يعيرونه بذلك فقال الله تعالى « يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ـ **الأية** » أى أن إخراج أهل المسجد الحرام أكبر من الذى أصاب أصحاب محمد ﷺ والشرك أشد منه [1] .

قال ابن اسحاق فلما قدموا على رسول الله ﷺ قال : ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام ، فوقف العير الأسيرين وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً ، فلما قال ذلك رسول الله ﷺ أسقط فى أيدى القوم فظنواأنهم قد هلكوا ، وعنفهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا ، وقالت قريش قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام ، وسفكوا فيه الدم ، وأخذوا فيه الأموال وأسروا فيه الرجال ، فلما أكثر الناس فى ذلك أنزل الله على رسول الله ﷺ ﴿ **يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ..** ﴾ الأية .

وأنشد عبد الله بن جحش وقيل أبو بكر الصديق رضى الله عنه يقول :

تعدون قتلا فى الحرام عظيمة ... وأعظم منه لو يرى الرشد راشد

صدوكم عما يقول محمد ... وكفر به والله راء وشاهد

واخراجكم من مسجد الله أهله ... لئلا يرى الله فى البيت ساجد[2]

وإنّا وإن عيرتمونا بقتله ... وأجف بالاسلام باغٍ وحاسد

(١) مختصر تفسير ابن كثير للصابونى جـ ١ صـ١٩٠ .

(٢) قال ابن هشام : هى لعبد الله بن جحش .

سقينا من ابن الحضرمى رماحنا بنخلة لمّا وأوقد الحرب واقد

دماً وابن عبدالله عثمان بيننا يُنازعه غُلٌّ من القدّ عاندُ

واختلف العلماء فى نسخ هذه الآية ، بالجمهور على نسخها ، وأن قتال المشركين فى الأشهر الحرم مباح ، واختلفوا فى ناسخها ، فقال الزهرى : نسخها « وقاتلوا المشركين كافة » ، وقيل نسخها غزو النبى ﷺ ثقيفها فى الشهر الحرام ، وكانت العرب قد جعل الله لها الشهر الحرام قواما تعتدل عنده، فكانت لا تسفك دماً ، ولا تغير فى الأشهر الحرم ، وهى رجب ، وذى القعدة ، وذى الحجة ، والمحرم . ثلاثة سرد [١] وواحد فرد .

فالغريب فى الأمر أن المشركين استعظموا القتل فى الشهر الحرام مع أنهم فعلوا ما هو أفظع وأشنع ، من الصد عن دين الله والفتنة للمؤمنين، والفتنة عن الدين اعتداء على أقدس ما فى الحياة الإنسانية، من ثم فهى أشد من القتل ، أشد من قتل النفس وازهاق الروح وإعدام الحياة، ويستوى أن تكون هذه الفتنة بالتهديد والأذى الفعلى ، أو بإقامة أوضاع فاسدة من شأنها أن تقتل الناس وتفسدهم وتبعدهم عن منهج الله، وتزين لهم الكفر به أو الإعراض عنه ،وأقرب الأمثلة على هذا هو النظام الشيوعى الذى يحرم تعليم الدين ويبيح تعليم الإلحاد، ويسنّ التشريعات التى تبيح المحرمات كالزنا والخمر، ويحسنها للناس بوسائل التوجيه بينما يقبّح لهم اتباع الفضائل المشروعة فى منهج الله، ويجعل من هذه الأوضاع فروضا حتمية، لا يملك الناس التفلت منها، ومن يعترض أو يعتنق أو يدين بغير هذا فمآله العذاب الشديد، والسجن المديد، والموت المرير ، فهل هؤلاء الذين لا يرقبون فى مؤمن إلاً ولا ذمة يحترمون العهود أو المقدساتوالحرمات حتى لا نقاتل عند المسجد الحرام أو فى الأشهر الحرم إن هم بدءوا القتال ؟

---

(١) السرد : التتابع ولذلك سمى رجب فرد لأنه يأتى بعده شعبان ورمضان وشوال .

إن هذه النظرة الإسلامية لحرية العقيدة وإعطاؤها هذه القيمة الكبرى فى حياة البشرية ، هى التى تتفق مع طبيعة الإسلام ونظرته إلى غاية الوجود الإنسانى، فغاية الوجود الإنسانى هى العبادة ويدخل فى نطاقها كل نشاط خير يتجه به صاحبه إلى الله وأكرم ما فى الإنسان حرية الاعتقاد ، فالذى يسلبه هذه الحرية ويفتنه عن دينه فتنة مباشرة أو بالواسطة ، يجنى عليه ما يجنى عليه قاتل حياته، ومن ثم يدفعه بالقتل، لذلك لم يقل المولى: «وقاتلوهم» إنما قال : ﴿ واقتلوهم ﴾ مع مراعاة أدب الإسلام فى عدم المثلة أو الحرق بالنار ، أو القتال عند المسجد الحرام ، أو فى الأشهر الحرم بالقواعد الشرعية والأحكام الفقهية التى تحكم تصرفاتنا .

فالقتال فى سبيل الله ـ كما رأيت ـ تحكمه قواعد ، وتضبطه أخلاق ، ويوجهه ويدفعه قيم ومبادئ فكان لزاماً على جند الله أن يعيشوا لهذه القيم والمبادئ ويدافعوا بل ويجاهدوا من أجلها لا تغرنهم الحياة الدنيا ولا يغرنهم بالله الغرور ، لأن الدنيا ليست دار بقاء بل هى دار بلاء زين للناس فيها حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا ، وبعد هذا كله عش ما شئت فإنك ميت وأحبب من شئت فإنك مفارقه ، واعمل ما شئت فإنك مجزى به، ومن أجل ذلك عالج القرآن قضية الموت والحياة ليزن كلا بميزان المنهج القرآنى فيعطى لكلٍ قدره ومقداره ، فحين يحث القرآن المؤمن على بذل الروح فى سبيل الله تهون أمامه الحياة ولا يخشى الموت .

حتى لا يكون المؤمن جباناً :

إن الإنسان منذ أن وجد يخاف الموت ويخشاه، خشية لا تعدلها خشية، وحين يبعد عن التصور السليم للموت يصاب بالجبن، لذلك بين لنا القرآن إن مالك الملك ، إنما هو وحده الذى يملك الموت والحياة:

﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [تبارك : ١] هو الكريم سبحانه إنه يملك إماتة الطغاة أو تركهم ، لحكمة يعلمها سبحانه ، وهو الذى قرر الآجال وحددها ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف : ٣٤] والحرص على الحياة أو الجبن ، ليس من أسباب إطالة الأجل، والشجاعة والإقدام ليس من أسباب تقصير الأجل، وقد بين الله ذلك فى كتابه الكريم ، إبانة تامة ، وكما أنه لكل أجل كتاب فإنه لكل أمة أجل.

أما هؤلاء الذى قالوا: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا﴾ [آل عمران: ١٥٤] .

فإن الله سبحانه وتعالى يرد عليهم:

﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤] وهؤلاء الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾.

فإن الله سبحانه وتعالى، يأمر رسول الله ﷺ، بأن يرد عليهم قائلا: ﴿فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران : ١٦٨] .

أما الذين يفرون أمام أعداء الله ، فهؤلاء : ﴿إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ [آل عمران : ١٥٥] .

فالمؤمن الصادق الإيمان، لا يعرف الجبن ، ولا يستزله الشيطان موسوساً له بالخوف من غير الله تعالى ، فهناك هاجسان لابد من طردهما ، من نفس المسلم المجاهد : هاجس الموت، وهاجس الرزق.

هاجس الموت :

إن هاجس الموت يطارد الذين لم يكتمل فى نفوسهم حقيقة الإيمان، هؤلاء الذين شغلتهم أنفسهم وأهمتهم ، فهم فى قلق وفى أرجحة ، يحسون أنهم

مضيعون، وهم فى معركة غير واضحة الأهداف ولا التصور ، بل ربما يرون أنهم دُفعوا إليها دفعاً ولا إرادة لهم فيها، وهم مع ذلك يتعرضون للبلاء المرير، ويؤدون الثمن فادحا من القتل والألم، وهم لا يعرفون الله على حقيقته فهم يظنون بالله غير الحق، إذ يتصورون أنهم دفعوا إلى المعركة ليموتوا ، وسيتركون فريسة للأعداء

نفوسهم ملأى بالوساوس والهواجس، حافلة بالاعتراضات والاحتياجات، وهو هاجس يجيش فى النفوس التى لم تخلص للعقيدة ، حينما تصطدم فى موقعة ربما يتفوق العدو فيها عليهم ، فيرون الثمن فادحا بظنهم، فيقولون كما وضح القرآن : ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا﴾ [آل عمران : ١٥٤] فالمسألة فى اعتبارهم خسارة وضياع.

لذلك ردهم القرآن إلى التصور الصحيح لأمر الموت والحياة ، ولأمر الحكمة الكامنة وراء الابتلاء ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[آل عمران : ١٥٤]

قل لو كنتم فى بيوتكم ، ولم تخرجوا للمعركة ، تلبية لنداء قيادتكم، وكان أمركم كله لتقديركم ، لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم، إن هناك أجلا مكتوباً لا يستقدم ولا يستأخر ، وإن هنالك مضجعا مقسوما لابد أن يجىء إليه صاحبه فيضجع فيه !! فإذا حان الأجل سعى صاحبه بقدميه إليه، وجاء إلى مضجعه برجليه، لا يسوقه أحد إلى أجله المرسوم، ولا يدفعه أحد إلى مضجعه المقسوم .

فهو مضجع إذن ذلك الرمس الذى تستريح فيه الجنوب ، وتسكن فيه الخطى ، وينتهى إليه الضاربون فى الأرض، مضجع يأتون إليه بدافع خفى لا

يدركـونه ولا يملكونه، إنما هو يدركهم ويملكـهم، ويتصـرف فى أمرهم كـما يشاء والاستسلام له أروح للقلب، وأهدأ للنفس، وأريح للضمير.

إنه قدر الله، ووراءه حكمته ﴿ وَلِيَبْتَلِيَ الـلَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران : ١٥٤] .

فليس كـالمحنة مـحك يكشف مـا فى الصدور، ويظهـر مـا فى القلوب، فينتفى عنهـا الزيف والرياء، ويكشفها على حقـيقتها بلا طلاء، فـهو الابتلاء والاختبار لما فى الصدور ليظهر على حقيقته، وهو التطهير والتصفية للقلوب، فلا يبقى فيها دخل ولا زيف، وهو التصحيح والتجلية للتصور، فلا يبقى فيه غبشٌ ولا خلل ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [آل عمران : ١٥٤] .

ولذلك فإن الله وهو يبين لنا حـقيقة الموت والحيـاة، وزيف تصورات أهل الباطل والكفـر عن هذا الأمر، ينادى الذين آمنوا مـحذرا إياهـم من أن تكون تصوراتهم كتصورات هؤلاء، ويردهم فى النهاية إلى قيم أخرى وإلى اعتبارات ترجح الآلام والتضحيات ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيـنَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِيـنَ كَفَرُوا وَقَالُوا لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِنـــدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيـر وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٥٨] .

فهـذه الآيات تبين الفارق الأسـاسى فى تصور صاحب الـعقيـدة، وتصور المحروم منها للسنن التى تسير عليها الحياة كلها وأحداثها، سراؤها وضراؤها.
إن صاحب العقيـدة مدرك لسنن الله، متعرف إلى مشيئـته ، مطمئن لقدره ، إنه يعلم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له وأن ما أصابه ما كان ليخطئه ، وأن ما أخطـأه لم يكن ليصـيبـه ، ومن ثم لا يتلقى الضراء بالجـزع ، ولا يتلقى

السراء بالزهو، ولا تطير نفسه لهـذه أو تلك ، ولا يتحسر على أنه لم يصنع كذا ليتقى كذا ، أو ليستجلب كـذا ، بعد وقوع الأمر وانتهائه ، فمجال التقدير والتدبير والرأى والمشورة كله قبل الإقدام والحركة ، فأما إذا تحرك بعد التقدير والتدبير ـ فى حدود أمر الله ونهيه ـ فكل ما يقع من النتائج فهو يتلقاه بالطمأنينة والرضا والتسليم، موقنا أنه وقع وفـقاً لقدر الله وتدبيره وحكمته، فأما الذى يفزع قلبه من العقيدة فى الله على هذه الصورة المستقيمة فهو أبدا مستطار، وأبدا فى قلق ويخاف الموت وما أدرك أن « الله يحيى ويميت » فبيده إعطاء الحياة، وبيده استرداد ما أعطى، فى الموعد المضروب والأجل المرسوم ، سـواء كان الناس فى بيـوتهم وبين أهليـهم ، أو فى مـيادين الكفـاح للرزق والعقيدة وعنده سبحانه الجزاء ، وعنده العوض.

الموت ليس نهاية المطاف :

على أن الأمر لا ينتـهى بالموت أو القتل - كـما يظن أهل الباطل ـ فـهذه ليست نهـاية المطاف ، وعلى أن الحياة فى الأرض ليـست خير مـا يمنحه الله للناس من عطاء فـهناك قيم أخرى ، واعـتبارات أرقى فى مـيزان الله﴿ **وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ** ﴾[آل عمران: ١٥٨] .

فالموت أو القتل فى سبيل الله ـ بهذا القيد وبهـذا الاعتبار ـ خير من الحياة وخيـر مما يجمـعه الناس فى الحـياة من أعراضـها ! من مـال ومن جاه ومن سلطان ومن متـاع، خير بما يعقـبه من مغفـرة الله ورحمته، وهى فـى ميزان الحقيقة خير مما يجمـعون، وإلى هذه المغفرة وهذه الرحمة يكل الله المؤمنين ، إنه لا يكلهم فى هذا المقام ـ إلى أمجـاد شخصية ولا إلى اعتـبارات بشرية ، إنما يكلهم إلى ما عند الله ، ويعـلق قلوبهم برحمة الله وهى خيـر مما يجمع

الناس على الإطلاق ، وخير مما تتعلق به القلوب من أعراض.

والجميع مرجوعون إلى الله ، محشورون إليه على كل حال، ماتوا على فراشهم أو ماتوا وهم يضربون فى الأرض ، أو قتلوا وهم يجاهدون فى الميدان، فما لهم مرجع سوى هذا المرجع ، وما لهم مصير سوى هذا المصير والتفاوت إذن إنما يكون فى العمل والنية وفى الاتجاه والاهتمام ، أما النهاية فواحدة موت أو قتل ، ورجعة إلى الله وحشر فى يوم الجمع والحشر، ومغفرة من الله ورحمة ، أو غضب من الله وعذاب ، فأحمق الحمقى من يختار لنفسه المصير البائس ، وهو ميت على كل حال، وبذلك تستقر فى القلوب حقيقة الموت والحياة وحقيقة قدر الله ، وبذلك تطمئن القلوب إلى ما كان من ابتلاء جرى به القدر، وإلى ما وراء القدر من كلمة، وما وراء الابتلاء من جزاء [1] ولعل الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا، لم يكتفوا بالتخلف والمعركة على الأبواب ، وما يحدثه هذا التخلف من رجة وزلزلة فى الصفوف والنفوس ، بل راحوا يثيرون الزلزلة والحسرة فى قلوب أهل الشهداء وأصحابهم - كما حدث فى أُحُدْ - بعد المعركة وهم يقولون . لو أطاعونا ما قتلوا فيجعلون من تخلفهم حكمة ومصلحة، ويجعلون من طاعة الرسول ﷺ واتباعه مغرماً ومضرة ، وأكثر من هذا يفسدون التصور الإسلامى الناصع لقدر الله ولحتمية الأجل ، ولحقيقة الموت والحياة ، وتعلقهما بقدر الله وحده، ومن ثم يبادرهم بالرد الحاسم الناصع ، الذى يرد كيدهم من ناحية ويصحح التصور الإسلامى، ويجلو عنه الغبش من ناحية ﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران : ١٦٨] .

فالموت يصيب المجاهد والقاعد ولا يرده حرص ولاحذر ، ولا يؤجله جبن

---

(١) الظلال جـ ١ صـ ٤٩٩ .

ولا قعـود ، والواقع هو البرهان الذى لا يقـبل المراء ، وهذا الواقع هو الذى يجبهم به القرآن الكريم ، فيرد كيدهم اللئيم ، ويقر الحق فى نصابه ، ويثبت قلوب المؤمنين، ويسكب عليها الطمأنينة والراحة واليقين .

الموت فى سبيل الله حياة :

ثم يقرر حـقيقة أن الذين قـتلوا فى سبيل الله لـيسوا أمواتا بل أحـياء عند ربهم يرزقـون ، لم ينقطعوا عن حـياة الجـماعـة المسلمة من بعـدهم ولاعن أحداثها ، فهم مـتأثرون بها ، مؤثرون فيها ، والتأثيـر والتأثر أهم خصائص الحـياة، وبذلك يزيد القلـوب المؤمنة طمأنينـة وراحة، حين يكشف لهـا عن مصـير الشهـداء - الذين قتلوا فى سـبيل الله - وليس هناك شـهداء إلا الذين يقـتلون فى سبـيل الله خالصة قلوبهـم لهذا المعنى -مجردة من كل مـلابسة أخرى - فإذا هؤلاء الشهداء أحياء لهم كل خصائص الأحياء،فهم ﴿يرزقون﴾ عند ربهم ، وهـم (فـرحون) بمـا آتاهم الله من فضلـه ، وهـم يستـبشـرون بمصـائر من وراءهم من المؤمنـين، وهـم (يحـفلون) الأحـداث التى تمر بمن خلفهم من إخـوانهم فهذه خصـائص الأحياء: من متـاع واستبشـار واهتمام وتأثيـر ، فـما الحـسـرة على فراقـهم؟ وهم أحـيـاء موصـولون بالأحـداث وبالأحياء، فوق ما نالهم من فـضل، وفوق ما لقوا عنده من الرزق والمكانة، فليس الموت خـاتمة المطاف، بل لـيس حاجـزا بين مـا قـبله ومـا بعـده على الإطلاق، إنها نظرة جديدة لهذا الأمر، ذات آثار ضخمة فى مشاعر المؤمنين، واستقبالهم للموت والحياة وتصورهم لما هنا وهناك.

فالمجاهدون فى حاجـة إلى تعبئة روحية ، وتقويم لـتصورهـم لما يجرى فى أثناء الجهـاد من جذب ودفع ، وبين تضـحيـات وآلام، فهم فى حـاجة إلى التصـورات الصحيـحة التى تقدر بهـا القيم فى هذه المعركـة الطويلة مع أهل

الباطل، وخلال المعركة سيجدون قتلى يخرون شهداء فى معركة الحق، شهداء فى سبيل الله ، قتلى أعزاء أحياء ، قتلى كراماً أزكياء ، فالذين يخرجون فى سبيل الله ، والذين يضحون بأرواحهم فى معركة الحق . هم عادة أكرم القلوب وأزكى الأرواح وأطهر النفوس ، هؤلاء الذين يقتلون فى سبيل الله ليسوا أمواتاً ، إنهم أحياء ، فلا يجوز أن يقال عنهم أموات ، لا يجوز أن يعتبروا أمواتاً فى الحس والشعور ، ولا أن يقال عنهم أموات بالشفة واللسان إنهم أحياء بشهادة الله.

إن سمة الحياة الأولى هى الفاعلية والنمو والامتداد ، وسمة الموت الأولى هي السلبية والخمود والانقطاع، وهؤلاء الذين يقتلون فى سبيل الله فاعليتهم فى نصرة الحق الذى قتلوا من أجله فاعلية مؤثرة ، والفكرة التى من أجلها قتلوا ترتوى بدمائهم وتمتد ، وتأثر الباقين وراءهم باستشهادهم يقوى ويمتد ، فهم ما يزالون عنصرا فعالاً دافعاً مؤثرا فى تكييف الحياة وتوجيهها ، وهذه هى صفة الحياة الأولى ، فهم أحياء بهذا الاعتبار الواقعى فى دنيا الناس، ثم هم أحياء عند ربهم ، إما بهذا الاعتبار ، وإما باعتبار آخر لا ندرى نحن كنهه، وحسبنا إخبار الله تعالى به ، وصدق الله القائل: ﴿**وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ**﴾[البقرة : ١٥٤] (١) .

يقول رسول الله ﷺ « إن أرواح الشهداء فى حواصل طيور خضر تسرح فى الجنة حيث شاءت، ثم تأوى إلى قناديل معلقة تحت العرش ، فاطلع عليهم ربك اطلاعة فقال : ماذا تبغون ؟ فقالوا يا ربنا . وأى شيء نبغى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك؟ ثم عاد عليهم بمثل هذا ، فلما رأوا أنهم لا يتركون من أن يسألوا قالوا : نريد أن تردنا إلى دار الدنيا، فنقاتل فى

(١) ظلال القرآن جـ١ صـ ١٤٥ .

سبيلك حتى نقتل فيك مرة أخرى ـ لما يرون من ثواب الشهادة ـ فيقول الرب جل جلاله : إنى كتبت أنهم إليها لا يرجعون» [١].

ويقول ﷺ فيما رواه أبو هريرة رضى الله عنه : قال رسول الله ﷺ : «تضمن الله تعالى لمن خرج فى سبيل الله لا يخرجه إلا الجهاد فى سبيلى وإيماناً بى وتصديقا برسلى ، فهو عليّ ضامن أن أدخله الجنة وأرجعه إلى مسكنه الذى خرج منه نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة ، والذى نفس محمد بيده ما من كَلْمٍ يكلم فى سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهيئته يوم كلم ، لونه لون دم وريحه ريح مسك، والذى نفس محمد بيده لولا أن أشق على المسلمين ما قعدت خلاف سرية تغزو فى سبيل الله عز وجل أبداً ، ولكن لا أجد سعة فأحملهم ، ولا يجدون سعة فيتبعونى ويشق عليهم أن يتخلفوا عنى ،والذى نفس محمد بيده لوددت أن أغزو فى سبيل الله فأقتل ثم أغزو فأقتل ثم أغزو فأقتل » [٢].

إن هذه المفاهيم تعديل كامل لمفهوم الموت ، متى كان فى سبيل الله وللمشاعر المصاحبة له فى نفوس المجاهدين أنفسهم ، وفى النفوس التى يخلفونها من ورائهم ، وإفساح لمجال الحياة ومشاعرها وصورها، بحيث تتجاوز نطاق هذه العاجلة ، كما تتجاوز مظاهر الحياة الزائلة، وحيث تستقر فى مجال فسيح عريض ، لا تعترضه الحواجز التى تقوم فى أذهاننا عن هذه النقلة من صورة إلى صورة ، ومن حياة إلى حياة.

حقيقة ينساها الكثير :

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وسيجزي اللَّهُ الشَّاكِرين وَمَا كَانَ

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه الشيخان ومالك.

لنفسٍ أن تموتَ إلاَّ بإذْن اللَّه كتابًا مُؤَجَّلاً ومَن يُرِدْ ثوابَ الدُّنْيَا نُؤْتِه منْهَا ومَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِه مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِين ﴾ [آل عمران : ١٤٤ ، ١٤٥]

إن البشر إلى فناء ، والعقيدة إلى بقاء ، ومنهج الله للحياة مستقل فى ذاته عن الذين يحملونه ويؤدونه إلى الناس من الرسل والدعاة على مدار التاريخ، وما محمد ﷺ إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، يحملون هذه الدعوة الضاربة فى جذور الزمن ، العميقة فى منابت التاريخ المبتدئة مع البشرية تحدو لها بالهدى والسلام مع مطالع الطريق.

وهى أكبر من الداعية وأبقى منه ، فدعاتها يجيئون ويذهبون ، وتبقى هى على الأجيال والقرون، ويبقى أتباعها موصولين بمصدرها الأول الذى أرسل بها الرسل، وهو باق ـ سبحانه ـ يقوم اليه المؤمنون وما يجوز أن ينقلب أحد منهم على عقبيه ويرتد عن هدى الله، والله حى لا يموت، وما أطيب كلام النضر بن أنس ـ رضى الله عنه ـ حين أشيع أن محمدا قتل، فقال لهم: فما تصنعون بالحياة من بعده فقوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ.

والقرآن مع هذه القصة يلمس مكمن الخوف من الموت فى النفس البشرية لمسة موصية تطرد ذلك الخوف عن طريق بيان الحقيقة الثابتة فى شأن الموت وشأن الحياة، وما بعد الحياة والموت من حكمة لله وتدبير ، ومن ابتلاء للعباد وجزاء﴿ وَمَا كَانَ لنفسٍ أن تموتَ إلاَّ بإذْن اللَّه كتابًا مُؤَجَّلاً وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِه منْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِه مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٥].

إن لكل نفس كتابا مؤجلا إلى أجل مرسوم ، ولن تموت نفسٌ حتى تستوفى هذا الأجل المرسوم ، فالخوف والهلع والحرص والتخلف لا تطيل أجلاً والشجاعة والثبات والإقدام والوفاء لا تقصر عمراً فلا كان الجبن ، ولا نامت أعين الجبناء ، فالأجل المكتوب لا ينقص منه يوم ولا يزيد .

بذلك تستقر حقيقة الأجل فى النفس، فتترك الاشتغال به ، ولا تجعله فى الحساب، وهى تفكر فى الأداء والوفاء بالالتزامات والتكاليف الإيمانية ، وبذلك تنطلق من عقال الشح والحرص، كما ترتفع على وهلة الخوف والفزع، وبذلك تستقيم على الطريق بكل تكاليفه وبكل التزاماته، فى صبر وطمأنينة ، وتوكل على الله الذى يملك الآجال وحده .

فإذا كان العمر مكتوبا ، والأجل مرسوما، فلتنظر نفس ماقدمت لغد؟ ولتنظر نفس ماذا تريد؟ أتريد أن تقعد عن تكاليف الإيمان ، وأن تحصر همها كله فى هذه الأرض ، وأن تعيش لهذه الدنيا وحدها؟ أم تريد أن تتطلع إلى أفق أعلى، وإلى إهتمامات أرفع ، وإلى حياة أكبر من هذه الحياة ؟ مع تساوى هذا الهم وذاك فيما يختص بالعمر والحياة ؟

وشتان بين حياة وحياة، وشتان بين اهتمام واهتمام مع اتحاد النتيجة بالقياس إلى العمر والأجل ـ والذى يعيش لهذه الأرض وحدها ، ويريد ثواب الدنيا وحدها، إنما يحيا حياة الدنيا والدواب والأنعام، ثم يموت فى موعده المضروب بأجله المكتوب!! والذى يتطلع إلى الأفق الآخر، إنما يحيا حياة الإنسان الذى كرمه الله واستخلفه وأفرده بهذا المكان، ثم يموت فى موعده المضروب بأجله المكتوب ﴿ **وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّه كِتَابًا مُّؤَجَّلاً وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٤٥]

الذين يدركون تفهم التكريم الإلهى للإنسان فيشكرون الله على هذه النعمة فينهضون بتبعات الإيمان.

وهكذا يقر القرآن حقيقة الموت والحياة ، وحقيقة الغاية التى ينتهى إليها الأحياء ، وفق ما يريدون لأنفسهم من أهتمام قريب كاهتمام الدود أو اهتمام

بعيد كاهتمام الإنسان، بذلك ينقل النفس من الانشغال بالخوف من الموت والجزع من التكاليف - وهى لا تملك شيئا فى شأن الموت والحياة - إلى الإنشغال بما هو انفع للنفس فى الحقل الذى تملكه ، وتملك فيه الاختيار، فتختار الدنيا أو تختار الأخرة ، وتنال من جزاء الله وتختار.

مثال حى:

ويضرب القرآن المثل الحى لأولئك الذين صدقوا فى إيمانهم وقاتلوا مع أنبيائهم، فلم يعجزوا عند الابتلاء، وتأدبوا وهم مُقْبِلون على الموت - بالأدب الإيمانى فى هذا المقام، مقام الجهاد، فلم يزيدوا على أن يستغفروا ربهم ، وأن يجسموا أخطاءهم فيروها (إسرافاً) فى أمرهم ، وأن يطلبوا من ربهم الثبات والنصر على الكفار ، وذلك فى قوله تعالى ﴿ **وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٤٦ -١٤٧] .

مجاهدون لم تضعف نفوسهم ، أمام الموت، ولا تتضعضع قواهم ، ولا تلين عزائمهم ، ولا يستكينون أو يستسلمون ، وفى هذا الموقف لم تشغلهم الدنيا ، لذلك لم يطلبوا نعمة ولا ثراء ، بل لم يطلبوا ثوابا ولا جزاء، لقد كانوا أكثر أدباً مع الله وهم يتوجهون إليه ، بينما هم يقاتلون فى سبيله ، فلم يطلبوا منه سبحانه إلا غفران الذنوب، وتثبيت الأقدام، والنصر على الكفار، فحتى النصر لا يطلبونه لأنفسهم إنما يطلبون هزيمة الكفر وعقوبة الكفار إنه الأدب اللائق بالمؤمنين فى حق الله الكريم.

كذلك أعطاهم الله من عنده كل شىء ، أعطاهم كل ما يتمناه طلاب الدنيا وزيادة ، وأعطاهم كذلك كل ما يتمناه طلاب الأخرة ويرجونه :(فآتاهم

الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الأخرة) وشهد لهم المولى بالإحسان فقد أحسنوا الأدب وأحسنوا الجهاد ، وأعلن المولى حبه لهم ، وهو أكبر نعمة وأكبر ثواب ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾[آل عمران : ١٣٤][(١)] .

ولقد ترجم هذه المعانى إلى حياة تُرى ومواقف مشهودة نماذج من الرجال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً .

نماذج من الشهداء (رجال استوعبوا الدرس) :

فهذا حنظلة الأنصارى(الملقب بحنظلة الغسيل) شد على أبى سفيان فلما تمكن منه حمل على حنظلة شداد ابن الأسود فقتله ، وكان جُنُباً فإنه لما سمع صيحة الحرب وهو مع امرأته ، قام من فوره إلى الجهاد ، فأخبر رسول الله ﷺ، أصحابه أن الملائكة تغسله ، ثم قال سلوا أهله ما شأنه؟ فسألوا امرأته، فأخبرتهم الخبر!!.

أما زيد بن ثابت فيقول بعثنى رسول الله ﷺ ـ يوم أحد ـ أطلب سعد بن الربيع ، قال : فجعلت أطوف بين القتلى ، فأتيته وهو بآخر رمق وبه سبعون ضربة ما بين طعنة رمح ، وضربة بسيف ، ورمية بسهم، فقلت أبا سعد إن رسول الله ﷺ يقرأ عليك السلام، ويقول لك ؟! أخبرنى كيف تجدك ؟ فقال: وعلى رسول الله ﷺ السلام ، قل له يا رسول الله أجد ريح الجنة ، وقل لقومى الأنصار : لا عذر لكم عند الله إن خَلُصَ إلى رسول الله ﷺ وفيكم عين تطرف ، وفاضت نفسه من وقته.

ويقول خيثمة - وكان ابنه قد استشهد يوم بدر - : لقد أخطأتنى وقعة بدر، وكنت والله عليها حريصا حتى ساهمت ابنى فى الخروج، فخرج

---

(١) الظلال جـ ١ سورة آل عمران .

سهمه، فـرزق الشهادة ، وقد رأيت البارحـة ابنى فى النوم فى أحسن صورة يسرح فى ثمار الجنة وأنهارها يقول : الحـق بنا ترافقنا فى الجنة ، وقد كبرت سنى ، ورق عظمى، وأحببت لقـاء ربى ، فادع الله يا رسول الله أن يرزقنى الشهادة ، ومـرافقة سعـد فى الجنة ، فدعا له رسول الله ﷺ بذلـك، فقتل بأحد شهيدا .

وكان عمرو بن الجموح أعرج شـديد العرج ، وكان له أربعة بنين شباب ، يغزون مع رسـول الله ﷺ ، إذا غزا ، فلمـا توجه إلى أُحد أراد أن يتـوجه معه، فقال له بنوه : إن الله قد جـعل لك رخصة فلو قعدت ونحن نكفيك، وقد وضع الله عنك الجهاد ، فأتى عمـرو بن الجموح رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إن بنّى هؤلاء يمنعوننى أن أخـرج معك، والله إنـى لأرجو أن أستشهد ، فأطأ بعـرجتى هذه فى الجنة ، فقال له رسول الله ﷺ ، أما أنت فقد وضع الله عنـك الجهاد ، وقال لبنيه ومـا عليكم أن تدعوه ؟ لعل الله عـز وجل أن يرزقه الشـهادة ؟ فـخرج مـع رسول الله ﷺ فـقتل يوم أحـد شهيداً.

إن الذى حـقق هذه المشاعـر الصادقـة فى قلوب هؤلاء الرجـال هى حب الموت فى سبيل الله ، فعبدوا الله حتى أتـاهم اليقين . . الحقيقة التى ينساها كثير من الناس .

ووفقاً لهذا المفهوم الجديد الذى أقامته فى قلوب المؤمنين آيات القرآن الكريم التى عالجت هذه القضيـة ، سارت خطى المؤمنين المجاهدين الكرام فى طلب الشهادة فى سـبيل الله ، لا يهابون الموت وهم يقولون : أن نموت أعـزة خير من أن نعيش أذلة ، لا يولون الأدبار يوم الزحف خشية غضب الله عليهم .

النهى عن التولى يوم الزحف :

إذا استهان المجاهد بالموت، فهل يتصور أن يولى الأدبار أمام الأعداء ؟ إن المولى سبحانه وتعالى ينادى المؤمنين ويحذرهم قائلاً :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الانفال ١٥/١٧].

نهت الآيات السابقة المؤمنين عن التولى، وترك القتال يوم زحف المشركين عليهم لأن الله سبحانه يهيىء لهم أسباب النصر، وقد هيأ لهم يوم بدر ما به انتصروا على أعدائهم مع قلة عددهم، ونقص عددهم، وكان أعداؤهم كثرة بالغة ولديهم أسلحة موفورة واستعداد للقتال ، فهم إذن أحق وأولى بالثبات، ومقتضى ذلك أن هذا القتل الذريع. والفتك الشنيع لم يكن يمحص قوتكم واستعدادكم المادى ، ولكن بتوفيق الله سبحانه وتيسيره أسباب هزيمتهم، فالله هو الذى قتلهم وألقى فى قلوبهم الرعب، وأنزل الملائكة تقف فى صفوفكم، وثبت قلوبكم رغم قلتكم وعدم استعدادكم للقتال، فلكم القتال الظاهرى والجهاد ، والنصر أخيراً وأولا عند الله، « هكذا أخبر الله المؤمنين يومئذ » .

والتفتت الآية من خطاب المؤمنين المحاربين إلى خطاب النبى ﷺ لأنه قائدهم ، ونصر الله إياهم وتأييده إنما كان بسببه ، فهو النبى وصاحب المعجزات، فقال : ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال : ١٧] .

لقد تعددت الآراء فيما جاء فى هذه الآية من نفى القتل والرمى عن المؤمنين وإثباتها لله سبحانه، وأهم أقوالهم وهم يتساءلون ما هذا الرمى الذى رماه رسول الله ﷺ ونسب لله تعالى ؟

قيل إنه ﷺ حين استغاث ربه فى بداية المعركة ، فقال : هذه قريش جاءت بخيلائها وفخرها ، اللهم إنى سائلك ما وعدتنى ، فأتاه جبريل عليه السلام فقال له خذ قبضة من تراب فارمهم بها ، فلما التقى الجمعان قال لعلى بن أبى طالب: أعطنى قبضة من حصباء الوادى ، فرمى ﷺ بها وجوههم وقال! شاهت الوجوه، فلم يبق مشرك إلا شغل بعينه، وسطا عليهم المؤمنون يقتلون ويأسرون. فالله هو الذى رمي وجوههم بالتراب، وجعله يصل إلى كل وجه واحد منهم ، لأن رمى الإنسان يحص قدرته البشرية، لا يبلغ هذا المبلغ ولا يصل إلى كل هذه الوجوه دفعة واحدة .

ووجه الجمع بين نفى القتل والرمى وإثباته . أن المؤمنين عملوا ما يعمله مثلهم ولكن الله هو الذى يسر لهم نتيجة العمل؛ فلهم كسب ظاهرى، والله هو الفاعل الحقيقى وذلك جار فى كل شىء يعمل، فالمقاتلون هنا ضربوا بالسيوف، ورموا الحبال والنبال، وهذا ما يستطيعونه، ولولا نصر الله وتأييده إياهم ما بلغ جهدهم ما بلغه من تقتيل الأعداء وإحراز هذا النصر المبين .

إن الله فعل ما فعل من هذه الأشياء التى هيأت النصر للمسلمين لينصر دينه ويعز نبيه ، ويختبر المسلمين ماذا يفعلون بعد هذا العطاء وهذا النصر، ﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَنًا﴾ [الأنفال :١٧] .

فهل الذى يدافع الله عنهم، وينزل الملائكة تؤيدهم ، ويحقق النصرعلى أيديهم، ويشعرون أن الله معهم يرد كيد عدوهم ، ويهلك الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاج، هل هؤلاء يفرون عند لقاء العدو !! وهم يرون قائدهم رسول الله ﷺ يقول الصحابة عنه : كنا إذا حمى الوطيس واحمرت الحدق ، احتمينا برسول الله ﷺ ، إنه ﷺ فى المقدمة وهو القدوة وما كان لمؤمن إلا أن يقتدى برسوله الله ﷺ فى السلم والحرب على حد سواء حتى ينال الجزاء الأوفى .

من أجل ذلك يأمر المولى سبحانه عباده المؤمنين أن يصمدوا أمام أعدائهم، وألا ينهزموا مهما كان جيش الكفر عظيما وكبيرا، فإن الغلبة ليست بالكثرة، والمؤمنون أولى بالثبات والشجاعة من الكافرين، لأنهم يطلبون إحدى الحسنين: إما العزة فى الدنيا والنصر على الأعداء، وإما الشهادة فى سبيل الله التى لا يعادلها شىء من الأشياء، وقد حذرهم المولى سبحانه من الفرار والهزيمة لأن فيه كسراً لجيش المسلمين، وإلقاء الرعب فى قلوب المجاهدين فقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾ [الأنفال: ١٥].

فبين المولى أن الفرار يجوز فى حالتين اثنتين:

الأولى: إذا كان يقصد خداع العدو والتغرير به، لأن الحرب خدعة والعاقل من عرف كيف يبطش بعدوه ويستدرجه .

الثانية : إذ بقى هذا المسلم وحيدا فريداً فانضم إلى جماعة أخرى ليتقوى بها أو رأى أنها بحاجة إليه ليشد أزرهم ويقوى عزمهم، وما عدا ذلك فالفرار من الزحف جريمة نهى الله تعالى عنه، وتوعد عليه أشد الوعيد وهو أن يرجع بغضب من الله، وأن مقره فى جهنم وبئس المصير.

ثم بين المولى سبحانه وتعالى أن المؤمنين لم ينتصروا فى بدر ولا فى غيرها من الغزوات بقوة سلاحهم ولا بوفرة عددهم ، وإنما انتصروا بتأييد الله لهم وإلقاء الرعب فى قلوب اعدائهم ، فليعتمدوا إذاً على الله، وليتوكلوا عليه فإنه نعم المولى ونعم النصير.

التولى من الكبائر:

ولقد بينت السنة النبوية أن الفرار من الزحف من الكبائر فقد قال ﷺ : «اجتنوا السبع الموبقات» قالوا وما هن يا رسول الله ؟ قال : «الشرك بالله

والسحر، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولى يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»[١].

وأما عدد العدو الذى يحرم الفرار منه فقد بينته الآية فى آخر سورة الأنفال وهى قوله تعالى: ﴿ الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وعلم أنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مع الصَّابِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٦٦].

فقد أوجبت هذه الآية على المسلمين أن يثبتوا أمام أعدائهم إذا كان العدو ضعفهم، وقد كانوا من قبل مكلفين بملاقاة العدو والصمود، حتى ولو كانوا عشرة أضعافهم، فنسخ الله ذلك وخفف عن عباده، رحمة بهم وتيسيراً عليهم، فإذا كان جيش الكفار يزيد أضعافاً مضاعفة على جيش المسلمين، فإنه لا يجب عليه ملاقاته إلا إذا كان هناك خطر جسيم، كهجوم المشركين على ديار المسلمين، فإنه فى هذه الحالة يجب الدفاع عليهم ويفرض القتال على الرجل والمرأة والصغير والكبير.

وأما المغامرة فى الحرب فقد قال بعض العلماء: لا يقتحم الواحد على العشرة، ولا القليل على الكثير، لأن فى ذلك إلقاء النفس إلى التهلكة، والصحيح ما قال ابن العربى: أنه تجوز المغامرة لكسرة شوكة المشركين وإضعاف نفوسهم، فإنهم إذا رأوا هذه الشجاعة النادرة من شخص واحد، دب الرعب فى قلوبهم وأيقنوا بعدم قدرتهم على مقاومة المسلمين، وفى ذلك إعزاز لدين الله وقهر للمشركين والله أعلم[٢].

لذلك قال بعض العلماء إن لقاء الواحد لعشرة من العزيمة، أما لقاء الواحد لاثنين فهى الرخصة التى لا يجب تجاوزها.

---

(١) روائع البيان للصابون جـ١ صـ ٥٩٧.

(٢) المصدر السابق جـ١ صـ ٥٥٩.

ويجوز الفرار عند الضرورة فى غير الحالتين السابقتين التى أشارت إليهما الآية: وذلك كأن يحيط العدو بالجيش أو يقطعوا على المجاهدين طريق المؤنة والغذاء ، فقد روى عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه قال: كنّا فى غزاة فحاص الناس حيصة (أى فروا أمام العدو) قلنا كيف نلقى النبى ﷺ وقد فررنا من الزحف وبؤنا بالغضب ، فأتينا النبى ﷺ قبل صلاة الفجر فخرج فقال :مَنْ القوم ؟ فقلنا : نحن الفرّارون ، فقال: لا بل أنتم العكارون (أى الكرارون العطافون) فقبّلنا يده . فقال أنا فئتكم وأنا فئة المسلمين ثم قرأ ﴿ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ ﴾ [الآنفال : ١٦] [١] .

إن الرجل من المجاهدين أيام رسول الله ﷺ كان لا يفر يوم الزحف بل يستهين بالحياة ويقدم نفسه رخيصة لله تعالى ، وهاهو الرسول ﷺ يوم بدر يقول لأصحابه قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض ، فقال عُمير بن الحُمام الأنصارى رضى الله عنه : يا رسول الله ، جنة عرضها السموات والأرض ؟ قال: نعم ، قال : بخ بخ !! فقال رسول الله ﷺ : ما يحملك على قول : بخ بخ ، قال : لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها ، قال : فإنك من أهلها . قال : فأخرج تمرات من قرانه[٢] فجعل يأكل منهن ثم قال : لئن أنا حييت حتى آكل تمراتى هذه إنها حياة طويلة ، قال فرمى ما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قتل[٣].

وفى رواية ذكرها ابن جرير أن عميرا قاتل وهو يقول :

ركضا إلى الله بغير زاد   إلا التقى وعمل المعاد
والصبر فى الله على الجهاد   وكلُّ زاد عُرضة النفاد
غير التقى والبر والرشاد

وهكذا بهذه التربية الإيمانية ، والمواقف الجهادية التى تستهين بالحياة ينتهى

(١) رواه الترمذى وانظر الدر المنثور.   (٢) جعبة السهام.
(٣) رواه مسلم وأخرجه البيهقى ٩/ ٩٩ وطوله.

هاجس الموت ويزول من النفوس الأبية الكريمة التى لا ترضى الذل والضيم وتبذل النفس رخيصة ابتغاء مرضاة الله.

هاجس الرزق :

وإذا كان خوف الموت هو السبب الأول فى الجبن ، فإن السبب الثانى مايوسوسه الشيطان للإنسان من جانب الرزق ، وكيف يتوافر للأولاد والذرية من بنين وبنات وزوجة إذا ذهب للحرب ، وإذا قدر له الشهادة فيها، وكما استفاض الله ورسوله ، فى البيان عن تحديد الآجال ، فقد استفاض الله ورسوله فى بيان أن الرزق مقسوم.

وكما حرر الإسلام المجتمع الإسلامى من خوف الموت، فقد حرره أيضاً من هم الرزق بالنسبة للإنسان نفسه الذى يكفل الأسرة ، وبالنسبة للأسرة نفسها فرداً فرداً ، يستوى فى ذلك حالة السلم والحرب: ذلك أن الرزق بيد الله: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ [هود :٦]

﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر :٢].

وقد أخبر الله سبحانه وتعالى : أن الرزق فى السماء محدد مقسوم ، وأقسم سبحانه على أن ذلك حق واقع ، لقد أقسم سبحانه لما يعلمه من ضعف الطبيعة البشرية وإشفاقها وقلقها بالنسبة لأمر الرزق ، يقول سبحانه : ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ [الذاريات :٢٢ / ٢٣].

على أن صاحب الثراء العريض ، الذى يعتمد على ثرائه ، غير ناظر إلى الله تعالى، واهب الرزق والثراء ، قد يخسف الله به وبداره الأرض كما صنع

بقارون. أو يطوف ببساتينه ومزارعه طائف منه سبحانه ، فتصبح خاوية على عروشها، كما فعل سبحانه بأصحاب الجنة التى قص علينا أمرهم فى القرآن الكريم فى سورة القلم.

وما من شك فى أن السعى على الرزق مطلوب: وأن من الذنوب ذنوباً لا يكفرها إلا السعى على الرزق . وأن العمل الجاد الكادح ، إنما هو من سمات الإسلام، كل ذلك حق وإذا كان الرزق بيد الله، وإذا كان العمل مطلوباً ، فإن ما ينهى عنه الإسلام إنما هو هذه الصورة الجشعة القلقة التى تحاول اقتناص المال من السبل غير المشروعة، أو التى ترى أن عبداً من عباد الله بيده الرزق إعطاءً ومنعاً ، وبيده الرزق زيادة ونقصاً ، أو أخذاً وتركاً .

وقد حرر الإسلام بموقفه هذا المجتمع الإسلامى من أن يكون همُّ الرزق سبباً فى ضعفه أو ذلته [1].

حاجة الجهاد للمال :

الجهاد كما يحتاج للرجال يحتاج للمال، ولقد كان المجاهد المسلم يجهز نفسه بعدة القتال ، ومركب القتال ، وزاد القتال ، لم تكن هناك رواتب يتناولها القادة والجند ، إنما كان هناك تطوع بالنفس وتطوع بالمال ، وهذا ما تصنعه العقيدة حين تقوم عليها النظم، إنها لا تحتاج حينئذ أن تنفق لتحمى نفسها من أهلها أو من أعدائها ، إنما يتقدم الجند ويتقدم القادة متطوعين ينفقون هم عليهامن أموالهم .

ولكن كثيرا من فقراء المسلمين الراغبين فى الجهاد ، والذود عن منهج الله وراية العقيدة ، لم يكونوا يجدون ما يزودون به أنفسهم ، ولا ما يتجهزون به من عدة الحرب ومركب الحرب، وكانوا يجيئون إلى النبى ﷺ ، يطلبون أن

(١) الجهاد للدكتور عبد الحليم محمود صـ ٣٢ .

يحملهم إلى ميدان المعركة البعيد الذى لا يبلغ على الأقدام ، فإذا لم يجد مايحملهم عليه ، تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون كما حكى عنهم القرآن الكريم.

من أجل هذا كثرت التوجيهات القرآنية والنبوية إلى الإنفاق فى سبيل الله، الإنفاق لتجهيز الغزاة، وصاحب الدعوة إلى الجهاد، دعوة إلى الإنفاق فى معظم المواضع، حتى جعل القرآن عدم الإنفاق تهلكة ينهى عنها المسلمون، ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة : ١٩٥] فالإمساك عن الإنفاق فى سبيل الله تهلكة للنفس بالشح، وتهلكة للجماعة بالعجز والضعف، وبخاصة فى نظام يقوم على التطوع كما كان يقوم الإسلام ، ثم يرتقى بهم إلى مرتبة الإحسان وهى عليا المراتب فى الإسلام، وهى كما قال الرسول ﷺ : «أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك». وحين تصل النفس إلى هذه المرتبة، فإنها تفعل الطاعات كلها وتنتهى عن المعاصى كلها، وتراقب الله فى الصغيرة والكبيرة ، وفى السر والعلن على السواء ، وهكذا يكل النفس فى أمر الجهاد إلى الإحسان أعلى مراتب الإيمان.

الجهاد فى سبيل الله وفضل النفقة عليه :

الدين ـ كما نعلم ـ رأسه الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد فى سبيل الله، ولما كان الجهاد هو بذل الجهد والطاقة فى إعلاء كلمة الله ونصرة دينه، والذود عن حياض المسلمين وحقوقهم وحرياتهم تعددت أوجه الجهاد ، فجهاد الحجة والبيان ، وجهاد القوة والرجال. كما يكون بالمال ، ولما كانت الدنيا دار بلاء . كان الجهاد كذلك ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾[محمد: ٣١] يقول رسول الله ﷺ : « جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم ».

لذلك كان الجهاد هو التجارة الرابحة فى الأجر ، كما أنه من أسباب العز والنصر﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الصف:١٣]، وإلا كان الذل والصغار كما أخبر المصطفى ﷺ: بأنه « ما ترك قوم الجهاد فى سبيل الله إلا سلط الله عليهم ذلاً لا ينزعه حتى يراجعوا دينهم » ولذلك كان الصحابة منهم الباذل لماله حمية دينية ، أو منهم البائع لنفسه لعلمهم﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة :١١١] .

فالرسول ﷺ بمجرد أن حث المؤمنين على الجهاد فى سبيل الله فى غزوة العُسْرة ، وكان زمن مجاعة وجهد ، قال عثمان بن عفان رضى الله عنه : علىّ مائة بعير بأحلاسها وأقتابها ، ثم لما حثهم أخرى قال عثمان :علىّ مائة بعير بأحلاسها وأقتابها ، ثم جاء بصرة دنانير كادت كفه تعجز عنها فوضعها بين يدى رسول الله ﷺ، فجعل رسول الله ﷺ يقلبها ويقول: ما ضرّ عثمان ما فعل بعد اليوم ، غفر الله لك يا عثمان ما قدمت وما أخرت .

أما عبد الرحمن بن عوف، فقد قدمت عير له من الشام تقدر بسبعمائة بعير تحمل طعاماً وثياباً وأدما ، فتصدق بها كلها فى سبيل الله ، كما تصدق عمر بشطر ماله - رضوان الله عليهم أجمعين - والحديث فى هذا الباب يطول عن إنفاق الصحابة رضوان الله عليهم المال فى سبيل الله.

ولأن المال بمثابة الترس للإسلام يُستجلب به العدد والعتاد وسائر وسائل

الجهاد ، وليدفع به صولة أهل الكفر والإلحاد والعناد ، فهو المحور الذى تدور عليه رحى الحرب، ويستعان به فى الطعن والضرب ، فالمسلم يجاهد بنفسه وماله، وقد فرض الله فى أموال الأغنياء نصيبا مفروضا يصرف فى الجهاد والمجاهدين فى سبيل الله ، فيجوز أو يستحب للتاجر أن يصرف زكاته فى هذه الحالة إلى المجاهدين فى سبيل الله ، وفى المال حق سوى الزكاة ، فمن كان عنده زكاة وجب أن يساهم بقدر استطاعته كل حسب مقدرته، والدرهم بسبعمائة درهم وعند الله أضعاف كثيرة ، وصدق الله إذ يقول ﴿ **لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴾ [التوبة :٨٨].

إن الله سبحانه قد يربى بالابتلاء ، كما أنه سبحانه قد يبتلى بالنعم ، والمؤمن الحق هو الذى لا يفرح بالنعمة إلا على أساس أنها توصل إلى مرضاة الله، وأن المال قد يكون ابتلاء إذا أقبل ، وقد يكون ابتلاء إذا أدبر ، وقد يكون نعمة إذا أقبل ، وقد يكون نعمة إذا أدبر ، والمثل الأعلى هو ألا تجعل المال فى إقباله وأدباره إلهاً يُعْبد من دون الله، وأن نسموا بأنفسنا، وألا نجعلها من عبيد المال ، وأن نحررها من رق الذهب والفضة ، وذلك بأداء حق الله والإنفاق فى سبيله.

عن أبى واقد الليثى قال : كان رسول اللهﷺ ، إذا أوحى إليه أتيناه يعلمنا مما أوحى إليه؛ فجئته ذات يوم فقال الله عز وجل يقول: « إنا أنزلنا المال لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، ولو كان لابن آدم وادياً من ذهب ، لأحب أن يكون له ثان ، ولو كان له الثانى لأحب أن يكون له ثالث ، ولا يملأ جفون ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب».

ويقول صلوات الله عليه : « خلقان يحبهما الله عز وجل وخلقان يبغضهما الله عز وجل . فأما اللذان يحبهما الله فحسن الخلق والسخاء، وأما اللذان

يبغضهما الله فسوء الخلق والبخل، وإذا أراد الله بعبد خيراً استعمله فى قضاء حوائج الناس».

الإنفاق والجهاد :

روى مسلم والنسائى بسندهما عن أبى مسعود الأنصارى، قال: « جاء رجل بناقة مخطومة، فقال : يا رسول الله .. هذه فى سبيل الله، فقال ﷺ: لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة، كلها مخطومة»[1].

والرسول ﷺ فى هذا الحديث يرسم صورة لناحية خاصة من نواحى الجهاد، هى: الجهاد بالمال أو التجهيز - ويبين ثواب هذا اللون من ألوان الجهاد.

وأساس التحديد بسبعمائة ضعف، قول الله تعالى: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[البقرة : ٢٦١] .

قال مكحول : المراد بالإنفاق: الإنفاق فى الجهاد من الإعداد والاستعداد ويؤيد حديث النياق المخطومة، وقال ابن عباس : فى الجهاد يضاعف الله المال إلى سبعمائة ضعف.

قال ابن كثير: وهذا المثل ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٦١] فيه إشارة إلى أن الأعمال الصالحة ينميها الله عز وجل لأصحابها ، كما ينمى الزرع لمن يذره فى الأرض الطيبة،وقد وردت السنة بتضعيف الحسنة إلى سبعمائة ضعف،روى أحمد بسنده عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ:

« كل عمل ابن آدم يضاعف : الحسنة بعشرة أمثالها ، إلى سبعمائة ضعف، إلى ما شاء الله ».

---

(١) رواه مسلم: المخطومة: ما لها زمام تقاد به.

ومن أجل ذلك يمكننا أن نقـول: إن ثواب الإنفاق فى الجهـاد أعلى مراتب الثواب، والله يضاعف لمن يشاء : أى بحـسب إخلاصه فى عمله . والله واسع فى فضله ، عليم بمن يستحق ومن لا يستحق .

ولقد ركـز الرسول ﷺ على هذه الحـقيقـة تنشيطاً للهـمم ، وقمـعاً لكل المثبطات عن الإنفاق فى سبيل الله ، فـقال : «من أنفق نفقة فى سبيل الله ، كتبت له بسبعمائة ضعف»(١).

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ ليله الإسراء سار، وسار معه جبـرائيل عليه السلام .. فأتى على قوم يزرعـون فى يوم ويحصدون فى يوم ، كلما حصدوا عاد كما كان . . فقال : يا جبرائيل . . من هؤلاء؟ قال : هؤلاء المجاهدون في سـبيل الله . . تضـاعف لهم الحسنة بسـبعمـائة ضعف . . ﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾[سبأ : ٣٩] (٢) .

ولذلك: انطلق الصحابـة فى ميدان الإنفاق فى سبـيل الله ، وتنافسوا فى ذلك، فكانت مظاهرة رائعة ـ إن دلت فـإنما تدل على إيمان متأصل، وعـقيدة راسخة، فقد قدم أبو بكر، مـاله كله فى سبيل الله ـ فلما سأله الرسول ﷺ : ماذا أبقيت لأهلك ؟ قال: أبقيت لهم الله ورسوله، وكانت لعثمان، مواقف رائدة فى مجال الإنفاق فى سبيل الله ذكرنا بعضها ولا ننسى حفره بئر رومة.

لقد كـان المال ذخيرة تبـذل فى وقت الشدائد فى سـبيل الله ، وتقدم فـيه مصلحة الأمة قبل كل شىء، وكان هذا البـذل سبيل النصر، ووسيلة النجاح . . وقد أخلفه الله عليهم ، ففاضت عليهم الخيرات فى الدنيا أضعافاً مضاعفة من عند الله ، ولهم فى الآخرة جزيل الثواب.

وصدق الله تعالى إذ يقول :

﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٢] .

---

(١) رواه النسائى والترمذى وقال حسن واب حبان والحاكم. (٢) رواه البزار .

من موازين الإيمان :

يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾[الحجرات :١٥].

إنَّ المؤمنين حقا هم الذين تحققوا بالإيمان فى باطنهم ، وظهر أثره على جوارحهم، فالإيمان هو ما وقر فى القلب وصدقه العمل ، إنهم الذين لا يشكون ولا يترددون فى كل ما يتصل بالإيمان من قواعد ، وهم القائمون بالجهاد فى سبيل الله بأموالهم وبأنفسهم.

والجهاد بالمال وإن لم يصل إلى مرتبة الجهاد بالنفس له منزلته العظيمة فى الإسلام، ولقد تحدث الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم كثيراً عن الإنفاق والبذل والتضحية بالمال فى سبيله ، وبين القاعدة العامة التى نرجو أن يسير المسلم على هداها طيلة حياته ، يقول سبحانه :

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ﴾ [الليل: ٥ -١١].

ويستمر القرآن فى بيان المبدأ وشرح الموضوع فيقول الله سبحانه :

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾ [الليل: ١٢- ٢١].

فهذه الآيات الكريمة ترشد إلى أن الإنفاق فى سبيل الله من شروط التيسير فى هذه الحياة ، تيسير الرزق ، وتيسير الشفاء ، وتيسير الفرج وإزالة الضيق وتيسير إزالة الهم ، وتيسير كل خير فى هذه الدنيا وفى يوم الدين ، أما الشح

بالمال فإنه من أسباب العسر فى كل هذه الأمور .

على أن الله سبحانه وتعالى قد وعد أنه يخلف المال الذى ينفقه المؤمن فى سبيله ، فقال : ﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾[سبأ:٣٩] وبيَّن سبحانه وتعالى أنه لا يخلفه بمثله ، ولكن بأضعاف ، فضرب هذا المثل الذى يتناسب مع كرمه سبحانه ، ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[البقرة:٢٦١] وبين سبحانه أن الإنفاق فى سبيله قرض حسن فقال : ﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة:٢٤٥] .

إن المشهد الأول الذى رآه رسول الله ﷺ فى ليلة إسرائه ـ الذى ذكرناه سابقاً ـ يتناسق مع هذا الكرم الإلهى الذى يغمر الله سبحانه وتعالى المجاهدين فى سبيله، لقد رأى رسول الله ﷺ ليلة الإسراء قوماً يزرعون فى يوم ويحصدون فى يوم، كلما حصدوا عاد كما كان، فقال النبى ﷺ : ياجبريل ما هذا ؟ قال : هؤلاء المجاهدون فى سبيل الله تضاعف لهم الحسنة لسبعمائة ضعف ﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾[سبأ:٣٩]

فالنساء يتبرعن بحليهن وما لهن ، والرجال بما يستطيعون ـ كما حدث فى غزوة العسرة ـ وها هو ذا أبو بكر الصديق ، يأتى بكل ماله ، وكان أربعة آلاف درهم ، ويسأله رسول الله ﷺ هل أبقيت لأهلك شيئاً ؟ فيقول رضى الله عنه أبقيت لهم الله ورسوله .

ويجىء، عبد الله بن عوف، بمائة أوقية من الذهب الخالص، ويجىء، سيدنا عثمان، بثلاثمائة بعير، وبألف دينار، ويضع الدنانير فى حجر رسول

الله ﷺ فيسر الرسول بها، ويدخل يده فيها يقلبها ويقول: اللهم ارض عن عثمان، فإنى عنه راض، ويقول: ماعلى عثمان ما عمل بعد اليوم. وتتوالى التبرعات من الرجال والنساء، حتى تنتهى بتجهيز الجيش وقيامه بالمهمة التى أرادها الله ورسوله.

فللإنفاق فى سبيل الله منزلة كبيرة فى الإسلام، يقول الله تعالى : فى الإنفاق فى سبيله :

﴿ مَثَلُ الَّذين يُنفقُون أَمْوالهُمْ في سبيل اللّه كمثل حبَّة أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابلَ في كُلِّ سُنْبُلَة مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضاعفُ لمن يشاءُ واللَّهُ واسعٌ عليمٌ ﴾ [البقرة :٢٦١] .

وحينما فسر مكحول ، رضى الله عنه هذه الآية الكريمة قال : يعنى بها الإنفاق فى الجهاد من رباط الخيل، وإعداد السلاح وغير ذلك، ومما روى عن رسول الله ﷺ فى ذلك قوله

من أرسل بنفقة فى سبيل الله، وأقام فى بيته ، فله بكل درهم سبعمائة درهم يوم القيامة ، وقوله ﷺ وأقام فى بيته ، أى لعذر، كالمرض مثلا ثم يستكمل رسول الله ﷺ حديثه الشريف فيقول : ومن غزا فى سبيل الله وأنفق فى جهة ذلك، فله بكل درهم سبعمائة ألف درهم.

ثم تلا صلوات الله وسلامه عليه هذه الآية: ﴿واللَّهُ يُضَاعفُ لِمَن يَشَاء﴾[البقرة: ٢٦١]

والإسلام يحث ويشجع على الإنفاق فى سبيل الله، فى الحالات التى لا يكون فيها العدو داخل حدود بلاد الإسلام، أما إذا اقتحم العدو الحدود، فإن الإسلام كما يوجب الجهاد بالنفس إيجاباً ، فإنه يوجب البذل والإنفاق إيجاباً أيضاً ، كل بقدر ما يستطيع

يبكون شوقاً إلى الجهاد لا للغنائم :

قال ابن اسحاق : « فبلغنى أن ابن عـمير بن كعب النضرى لقى أبا ليلى، وعبد الله بن مغفل ، وهما يبكيان فقال : ما يبكيكما ؟

قالا: جئنا رسول الله ﷺ ليحمــلنا فلم نجد عنده ما يحملنا عليه ، وليس عندنا مــا نتقــوى به على الخروج مــعه ، فأعــطاهما ناضــحاً له فــارتحلاه ، وزودهما شــيئاً من تمر، فــخرجا مع النبى ﷺ، زاد يونــس بن بكير عن ابن إسحق قال: وأما علبة بن زيد فخــرج من الليل، فصلى من ليلته ما شاء الله، ثم بكى وقال : « اللهم إنك أمرت بالجهاد، ورغبّت فيه ، ثم لم تجعل عندى ما أتقــوى به ، ولم تجعل فى يــد رسولك ما يحــملنى عليه ، وإنــى أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابنى فيها مال أو جسد أوعرض.

ثم أصبح على الناس فـقال رسول الله ﷺ : «أين المتــصدق هذه الليلة ؟ فلم يقم أحد، ثم قال: أين المتصدق فليقم » فقام إليه فأخذه فقال رسول الله ﷺ : أبشر فوالذى نفسى بيده لقد كتبت فى الزكاة المتقبلة» .

فالجهاد فــى سبيل الله بذل وتضحية ، وبذل المال والإنفــاق فى سبيل الله يقترن فى القرآن غالباً بذكر الجــهاد والقتال ، ولقد مرت على المسلمين مرحلة كان الجهاد فيها تطوعا ، والمجــاهد يومئذ ينفق على نفسه ، وقد يقعد به المال حين لا يقعــد به الجهد ﴿ **وَلا عَلَى الَّذِيــــنَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ** ﴾ [التوبة : ٩٢] فلم يكن بد من الحث المستمر على الإنفاق لتيسير الطريق للمجاهدين فى سبيل الله ـ كما ذكرنا ـ وهنا تجى الدعوة إلى الإنفاق ﴿ **مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيــرَةً**﴾[البقرة :١٢٤٥] ، فتنفق يميــنه ما لا تعلم شماله .

فإذا كان الموت والحياة بيد الله، والحياة لا تذهب بالقتال إذا قدر الله لها البقاء، فكذلك المال لا يذهب بالإنفاق ، إنما هو قرض حسن لله ، مضمون عنده، يضاعفه أضعافا كثيرة ، يضاعفه في الدنيا مالا وبركة ، وسعادة وراحة، ويضاعفه في الآخرة نعيماً ومتاعاً ، ورضى وقربى من الله ، ومرد الأمر في الغنى والفقر إلى الله ، لا إلى حرص وبخل ، ولا إلى بذل وإنفاق. فأين يكون المال؛ والناس أنفسهم راجعون بقضهم وقضيضهم إلى الله؛ فلا فزع من الموت ، ولاخوف من الفقر ، ولا محيد عن الرجعة إليه ، وإذن فليجاهد المؤمنون في سبيل الله، وليقدموا الأرواح والأموال ، وليستيقنوا أن أنفاسهم معدودة ، وإن أرزاقهم مقدرة ، وأنه من الخير لهم أن يعيشوا الحياة قوية طليقة شجاعة كريمة ، ومردهم بعد ذلك إلى الله﴿ وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[البقرة : ٢٤٥] .

التربية إبتداءً وانتهاء :

لقد أنشأت التربية الإيمانية والجهادية مجموعة من الناس تتمثل فيهم الأمانة والورع يرون الغنائم غنائم أمام أعينهم فلا تتطلع أنفسهم إليها ولا تمتد أيديهم فيغلّون، إنما كانوا يتحرجون الغلول في أية صورة من صوره، كما لم تتمثل قط في مجموعة بشرية ، وقد كان الرجل من أفناء الناس من المسلمين يقع في يده الثمين من الغنيمة ، لا يراه أحد ، فيأتي إلى أميره ، لاتحدثه نفسه بشيء منه، خشية أن ينطق عليه قول الله المرهوب ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾[آل عمران : ١٦١] ، وخشية أن يلقى نبيه على الصورة المفزعة المخجلة التي حذره أن يلقاه عليها يوم القيامة.

فقد كان المسلم يعيش هذه الحقيقة فعلا، وكانت الآخرة في حسه واقعاً، وكان يرى صورته تلك أمام نبيه وأمام ربه فيتوقاها ويفزع أن يكون فيها،

وكان هذا هو سر تقواه وخشيته وتحرجه، وهو يسمع لمقولة الرسول ﷺ: «يأيها الناس ، من عمل لنا منكم عملا ، فكتمنا منه مخيطاً فما فوقه فهو غل يأتى به يوم القيامة » فقام رجل من الأنصار أسود ـ قال مجاهد : هو سعد بن عبادة كأنى أنظر إليه- فقال : يا رسول الله، أقبل منى عملك قال : وما ذاك؟ قال : سمعتك تقول : كذا وكذا ، قال: وأنا أقول ذلك الآن . من أستعملناه على عمل فليجيء بقليله وكثيره ، فما أوتى منه أخذه ، ومانهى عنه انتهى»[1] فالآخرة كانت حقيقة يعيشها المسلم، لا وعداً بعيدا ، وكان على يقين لايخالجه شك من أن كل نفس ستوفى ما كسبت وهم لا يظلمون .

روى ابن جرير الطبرى فى تاريخه قال: لما هبط المسلمون المدائن، وجمعوا الأقباض، أقبل رجل بحق معه، فدفعه إلى صاحب الأقباض، فقال الذين معه: ما رأينا مثل هذا قط ، ما يعدله ما عندنا ولا يقاربه، فقالوا : هل أخذت منه شيئا ، فقال : أما والله لولا الله ما أتيتكم به، فعرفوا أن للرجل شأناً ، فقالوا: مَنْ أنت؟ فقال : لا والله لا أخبركم لتحمدونى، ولا غيركم ليقرظونى ، ولكنى أحمد الله وأرضى بثوابه ، فاتبعوه رجلاً حتى انتهى إلى أصحابه، فسأل عنه فإذا هو عامر بن عبد قيس[2] .

وقد حُملت الغنائم إلى عمر رضى الله عنه ، بعد القادسية وفيها تاج كسرى وإيوانه لا يقَوّمان بثمن، فنظر رضى الله عنه، إلى ما أداه الجند فى عبطة وقال: إن قوما أدوا هذا لأميرهم لأمناء، وفى رواية قال أحد الجالسين: يا أمير المؤمنين عففت فعفّوا، ولو رتعت لرتعوا .

ولقد ربى الإسلام المسلمين تلك التربية العجيبة التى تكاد أخبارها تحسب

---

(١) رواه الإمام أحمد بإسناده عن عدى ابن عميرة الكندي، ورواه مسلم وأبو داود- ومخيطا يعنى إبرة خياطة.

(٢) تاريخ الطبرى جـ٤ صـ ١٦ .

فى الأساطير ، ونقلهم نقلة تصغر فى ظلها الغنائم، ويصغر فى ظلها التفكير فى هذه الأعراض، ليلتمس المسلمون لمسات المنهج القرآنى العجيب فى تربية القلوب ورفع اهتماماتها ، وتوسيع آفاقها وشغلها بالسباق الحقيقى فى الميدان الأصيل ، ألا وهو اتباع رضوان الله، وهذا هو مجال الطمع ، ومجال الاختيار وهذا هو ميدان المكسب والخسارة ، وشتان بين من يتبع رضوان الله فيفوز به، ومن يطمع فى عرض من أعراض الدنيا الفانية ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا كُلاًّ نُّمِدُّ هَٰؤُلاءِ وَهَٰؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً ﴾[الإسراء: ١٨ - ٢١] .

***



الباب السادس

أسباب النصر وعوامل الفوز

* أولاً : الأخلاص اللب والجوهر :
  - جهاد المنافقين .
  - من صفاتهم .
  - وجوب جهادهم .
  - ما يقلل من شرورهم .
* ثانياً : الايمان والجود بالنفس والمال .
* ثالثاً : وحدة القلوب والصفوف .
* رابعاً : وضوح الرؤيا « الأخذ بالأسباب من وضوح الرؤيا » .
* خامساً : اعداد القوة المادية ـ إعداد العدة .
* سادساً : استكمال العدة النفسية .
* سابعاً : مشاورة القائد لأعوانه ونزوله على رأيهم إذا تبين أرجحيته.
* ثامناً : تفويض الأمر لله والتوكل والثقة فيه .
* تاسعاً : الثقة فى نصر الله من كمال الإيمان .
  - نتيجة التواكل والإتكال .
  - فمن يشك فى نصر الله ؟ .
* عاشراً : المحنة ليست فى الهزيمة فحسب .
  - أثر التربية الإيمانية .
  - لا يغرنك إنتفاش الباطل .

* * *



أسباب النصر وعوامل الفوز

أولا : الاخلاص اللب والجوهر :

الإخلاص هو لب العمل ، وجوهر العبادة ، وبدون الإخلاص تصبح العقيدة قالبا لا قلب لها ، والعبادة حركات لا روح فيها ، ولذلك فإن من دلائل إخلاص المؤمن صدقه فى أقواله وأفعاله ، لا هم له إلا مرضاة الرب لا مرضاة الناس ، يقول الرسول ﷺ : « مَنْ التمس رضاء الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس »[1] ولكى يتحقق ذلك كان لابد من :

١ - الإعراض عن طلب الشهرة والفروسية وإظهار الشجاعة .

٢ - ترك حظ النفس مما تشتهيه .

٣ - ترك الرغبة فى المديح والثناء .

٤ - مراقبة الله عز وجل فى صغير الأمر وكبيره.

٥ - الشعور الدائم بأن الله يراه ويعلم ما توسوس به نفسه .

٦- صدق اتباعه مع صحة إيمانه علما وعملاً، قولاً وفعلاً.

فالمسلم الذى يتحلى بهذه الصفات يقول لأهل الباطل مهما انتفش ريشهم ﴿وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾[إبراهيم :١٢] .يقول ذلك بثبات وعزيمة لا تلين ، موقن بانتصاره على أعدائه ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة:٢١] فالمحن والشدائد لا تحمل المؤمن المخلص لفكرته على أن يستسلم لأعداء الله ، بل يستمسك بالعروة الوثقى ولا يدع الشدائد تزحزحه عن إيمانه

---

(١) رواه الترمذي.

بالله وعن رسالة الحق التى يدعو إليها ، مهما تحزب الأحزاب عليه ﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وما زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٢٢] فبصبر المؤمنين وثباتهم وإخلاصهم كانت العقبى لهم ، ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢٥: ٢٧] .

كلّ ذلك ثمرة صدقهم مع الله، وصَمّ آذانهم عن صرخات بعض المنافقين الذين فقدوا الإخلاص لدينهم ورسالتهم فى الوجود ، وهم يصيحون بالتشكيك فى وعد الله الذى وعد به عباده المخلصين﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا ﴾[الأحزاب: ١٢] فضلا عن الاعراض عن سماع البعض الآخر منهم، الذين كانوا ينصحون المؤمنين بالتراجع والتخلى عن الطريق ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا ﴾ [الأحزاب: ١٢]

إن الإخلاص إذا شابته شائبة لا يتحقق به نصر ، ولا يتوحد به صف ، بل تكون الهزيمة محققة، وانتصار الأعداء لا مفر منه؛ لأنهم الأكثر عددا وعتادا، ولا ينتصر الضعيف على القوى ، ولا القليل على الكثير ، ولا الأعزل على المسلح إلا بالإخلاص مع الأخذ بالأسباب﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾[البقرة: ٢٤٥] فالنية الصالحة تجعل العادة عبادة أو المباح طاعة ، بل تجعل الشهوة قربة ، وقد وردت فى ذلك جملة

(١) انظر كتاب التربية الإسلامية للشيخ عبد البديع صقر رحمه الله .

أحاديث، حتى فى اللقمة التى يضعها المرء فى فيٍّ امرأته ، وفى بضع أحدكم صدقة ، والخيل ثلاثة : فرس للرحمن ، وفرس للإنسان ، وفرس للشيطان[(١)].

وكما بين رسول الله ﷺ: «أول مَنْ يسأل يوم القيامة ثلاثة :منهم رجل قُتل فى سبيل الله تعالى، فيقول الله : ما ذا صنعت ؟ فيقول : يارب أمرت بالجهاد ، فقاتلت حتى قتلت فيقول الله : كذبت ، وتقول الملائكة كذبت بل أردت أن يقال : فلان شجاع ألا فقد قيل ذلك»[(٢)].

أمران فيهما كل خير : إخلاص وتقي ـ وصبر ومصابرة ، فبهما يرد الله الكيد﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾[آل عمران: ١٢٠] وبهما يمد المولى الجيش بملائكته تدافع عنه ﴿ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ [آل عمران:١٢٥] وبهما لا يضيع عمل العاملين﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٩٠] إنه الإخلاص مفتاح كل خير وسبب كل فوز ونصر به يقوى الصف ،لذلك كان لابد من جهاد المنافقين الذين يبطنون الكفر ويظهرون الإسلام، لأنهم أخطر فئة فى صفوف المسلمين .

جهاد المنافقين :

من أخطر أعداء الدعوة الإسلامية ، وأشد المعوقات لسيرها وتقدمها حركة النفاق التى تبتلى بها الفئة المؤمنة ، فهم الذين يبطنون الكفر ويظهرون الإسلام، ليجدوا مكانا لهم بين جماعة المسلمين ، يوجهون منه ضرباتهم لدعوة الإسلام، ويسترون به مكائدهم وخططهم ومؤامرتهم ضدها، ويدفعونعن أنفسهم ما يستحقون من العقاب ، يبتغون من كل ذلك الإمعان فى محاربة الإسلام ، من غير أن يعرفوا أو توجه لهم الأنظار ، لتكون

---

(١) من حديث صحيح.

(٢) حديث صحيح .

حـربهم على المسلمين أدوم ، وأشد أثـرا فى التعطيل والتـخريب من ضـرب الكفار المجاهدين، الذين يحسب حسابهم ، ويمكن الوقوف أمامهم والحد من ضررهم ، لوضـوحهم أمـام المؤمنين ، ووضوح أماكنهم وأسـاليبـهم ، فهم أعوان كل عـدو للمسلمين وأولياؤه .لذلك قال اللـه فيه﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [المنافقون : ٤] .

فجهـادهم من ألزم الجهاد على المؤمنين، واتخـاذ الحيطة منهم أوجب من اتخاذها من غـيرهم، وتتمثل مدى خطورتـهم أنهم قاعدة الكفر المسـتترة فى ديار المسلمين، أو منفـذ الكفار إلى قلب الأمـة المسلمة :[1] وبفضل الله فقد كشف المولى لجنده سترهم ، وأزاح عنهم الغطاء الذى نسجوه بنفاقهم ، وبين صفـاتهم وخصـائصهم وأساليـبهم، ليكون المؤمنون على حـذر منهم فى كل زمان، وإليك بعض هذه الصفـات لتعرفهم من سيـماهم أو من لحن القول، وإن كان ليس لمسلم أن يحكم على أحد بالنفاق الخـالص، فهذا لا يعلمه إلا الله، وماعـرفه رسول الله ﷺ إلا وحـيا، وما علـمه حذيفـة إلا من رسولنا ﷺ، ولكنها صفات تعين على اتخاذ الحذر منهم ، فمن صفاتهم :

١- إبطان الكفر والتظاهر بالإيمان.

٢- صفة المخادعة .

٣- العزوف عن التحاكم إلى الله ورسوله ، وعدم الرضا بحكمهما.

٤- موالاة الكفار وممالأتهم على المسلمين .

٥- الدس والوقـيعـة ، وإشعـال نار الفتنـة ، واسـتغلالهـا بين المسلمين ومحاولة توسيع شقتها.

٦- الجبن الشديد، والتخلف عن الجهاد.

٧- التخذيل والتثبيط والإرجاف.

---

(١) الحضارة الإسلامية لأبى الأعلى المودودى صـ ٢٩٤ بتصرف.

٨- الصد عن سبيل الله ، وتضليل العباد ، والأمر بالمنكر والنهى عن المعروف .

٩- يحاولون بل ويحبون أ ن تشيع الفاحشة فى المؤمنين .

١٠- انتقاد المؤمنين والتهوين من شأنهم، ومن أعمالهم والاستهزاء بهم.

١١- الكذب وخيانة العهد والأمانة.

١٢-كسالى فى كل أنواع العبادة خاصة الصلاة .

١٣- الذبذبة وعدم الاستقرار والثبات فى أحد الصفين الصف المؤمن أو الكافر .

١٤- الفرح بما يصيب المسلمين من الضراء ، والاستياءبما أحرزوه من النصر والتمكين بفضل الله .

١٥- العناد والاستكبار، وعدم الاقتناع مع وضوح الحجة ونصاعة البراهين التى يواجهون بها .

١٦- شراستهم على المسلمين فى الأزمات .

فوجوب جهادهم آكد ومن أساليب جهادهم بإيجاز:

١- تذكيرهم بما سيكون لهم من العذاب الشديد فى اليوم الآخر ﴿ **إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار** ﴾ .

٢- تذكيرهم بعلم الله الشامل المحيط بما تكنه صدورهم من النفاق، وأنهم وإن استطاعوا ستره عن المؤمنين فالله علام الغيوب﴿ **يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ**﴾[غافر : ١٩] .

٣- تذكيرهم بقضاء الله وقدره ، وإن الأمر بيده سبحانه لا بأيديهم ، ولن

يثمر إلا ما يأذن به الله، وإن ما كتب عليهم لن يدفعه عنهم ذلك المكر والكيد .

٤- الغلظة عليهم فى معاملتهم فى الحياة الدنيا ، وعدم التساهل معهم، وزجرهم بشدة فى كل مرة تظهر عليهم علامة من علامات النفاق ، مع إقامة الحدود عليهم .

٥ - ومن أساليب تأديب المنافقين والضغط عليهم - كما أشار القرآن - حرمانهم من الفرص التى يحققون بها شهواتهم، ويشبعون بها نزعاتهم المادية، وعدم الاكتفاء بتكليفهم بما يطلبون من الأمور السهلة التى يكون غنمها أكبر من غرمها بكثير .

ومما يقلل من شرورهم :

١- معرفتهم بسيماهم ولحن قولهم ، ودراسة صفاتهم من كتاب الله عز وجل ، وتبينها من واقع مواقعهم من المسلمين.

٢- ترك موالاتهم والتقرب إليهم.

٣- مقاطعتهم واجتناب مجالسهم التى يخوضون فيها فيما لا يرضى الله عز وجل .

٤- وضعهم فى موضع الشك ، وعدم الثقة بأقوالهم وإشاعاتهم وأراجيفهم.

٥- الحيلولة بينهم وبين المراكز الخطرة الهامة ، وإخراجهم من صفوف المسلمين عند العزم على القيام بأعمال خطيرة ، وخاصة عند الجهاد.

٦- صيانة الصف المسلم من التنازع والتدابر والتقاطع، بالطاعة والثقة فى الجند والقادة .

٧- الحرص على رباط الأخـوة الإيمانية بين المؤمنين ، ورفعـه وتقديمه على كل علاقة أخرى مهما كانت.

٨- حسن الظن بالإخوة المؤمنين ، وعـدم الالتفات إلى ما ينسبـه المنافقون إليهم من التهم والفواحش.

٩- الاحتياط والحذر من أهل النفاق عند العزم على اتخاذ إجراءات مهمة، والقيام بأعمال خطيرة.

١٠- الحذر من إصـدار حكم عليهم بالكفر وإن كـانوا فى الدرك الأسفل من النار، إلا أننا لا نعلم خفايا النفوس ، وأغوار القلوب، فالحذر منهم بعد معرفتهم بسيـماهم شيء، وإعلان كفرهم شيء آخر ﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِين﴾ [يوسف:٨١] وهكذا كان يعـامل رسول الله ﷺ هؤلاء الذين أعلنوا الحرب على الإسلام خفية، ويتـعاونون مع أعدائه لاستئصاله من الوجود ﴿ وَمَّا هُم بِبَالِغِيه ﴾ [غافر:٥٦] إنهم فئة تدفع المسلم الصـادق إلى الخشية من تحول قلبه، فيحاول أن يحقق الإخلاص فى صغير الأمر وكبيره، ولك فى عمـر بن الخطاب المثل الصادق فى إخـلاصه حين سـأل حذيفة الـذى أعلمه رسول الله ﷺ بأسـماء المنافقين، فكان يقول له: أذكـرنى رسول الله ﷺ يا حذيفة ؟ إنهـا قلوب أخلصت لله فصدقت الله فصدقهـا، وحقق على يديها نصره الذى وعد.

ثانياً : الإيمان والجود بالنفس والمال:

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة : ١١١]

هذا العهد والتعاقد بين الله والمؤمنـين ، إنما هو عهد الإيمان يبيع فيه المؤمن

نفسه وماله، يقدمها إلى الله فلا يبخل بالمال فى سبيله سبحانه ، ولا يبخل بالنفس حينما تقتضى الظروف البذل والتضحية والفدائية .

والإيمان إذن ـ ومن شرائطه الجود بالمال والنفس - هو أول خطوة أساسية جوهرية فى طريق النصر ،وهو خطوة بدونها لا يكون هناك قط أساس مستقيم ، تعتمد عليه الأمم ، ويعتمد عليه القادة فى سبيل اتخاذ مكان كريم بين الدول، تستشعر هذه الأهمية وأنت ترى الحديث عنه فى آيات القرآن التى لا يعدُّ المؤمن صادقاً إلا إذا كان مجاهداً بماله وبنفسه فى سبيل الله.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾[الحجرات : ١٥]

أما إذا كان الإيمان ضعيفاً مزعزعاً متأرجحاً فإن نتيجة ذلك تكون تباطؤا عن الخروج إلى الجهاد ، بل وتخلفاً عنه : ﴿ لا يَسْتَئْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (٤٤) إِنَّمَا يَسْتَئْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ [التوبة: ٤٤ - ٤٥]

بل إن وجود العناصر التى لا يملأ الإيمان أفئدتها فى صفوف المجاهدين، ضار بهم ، ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ﴾ [التوبة :٤٧]

وضعفاء الإيمان من لا أمان عندهم ، يستخفون حين يبدأ النضال ويتخلفون عن الجهاد فرحين بذلك: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ [التوبة ٨١].

من أجل ذلك فإن القرآن يأمر الرسول ﷺ أن يعزل هذه العناصر عن

معسكر المؤمنين، وألا يأذن لهم بالمشاركة فى الجهاد، لأن ولاءهم لغير المؤمنين أوضح من شمس الصيف .

ثالثا : وحدة القلوب والصفوف :

التعبئة الروحية كفيلة بأن تجعل الأمة فى جهادها كالبنيان المرصوص ،يقول ربنا عز وجل :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ [الصف: ٤].

﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٤٦] ويقول : ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]

يقول ابن تيمية : « لابد للعبد من عقدين : عقد الإيمان وذلك حق الله على العباد . وعقد الأخوة وذلك حق الأخ على أخيه»، فالأخوة عنده ركن أساسى فى الفوز والنصر لأن الصف لا يتوحد إلا بصفاء النفس فإذا صفت النفوس استوت الصفوف ـ وسنتناول هذا الموضوع بتفصيل فى حينه فى كتاب آخر، فإذا ما وسوس الشيطان بنزاع أو خلاف ، وإذا ما تحدثت النفس بفرقة فإن طريقة تسوية ذلك مرسومة واضحة : ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾[النساء٥٩] وهنا يجب الطاعة. ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [محمد: ٢١] ويتحقق ذلك كله بمجاهدة النفس التى تحدثنا عنها سلفا..

رابعاً : وضوح الرؤيا :

فلا يكتفى بالإخلاص بل لابد من وضوح الرؤيا للجند ، هدفاً وغاية وأسباباً فلابد أن يعرف الجميع الجند والقادة أسباب النصر، وأسباب الهزيمة،

فمـن أهم أسباب الـنصر بناء القـاعدة الصلبـة التى تكون قادرة على تحـمل المسئـولية فى حمـل الدعوة إلى الناس والدفاع عنهـا، والتفـانى من أجلها ، وإبراز الصفات الكريمة والأخلاق الفاضلـة، حتى يبرز الهدى القرآنى فى كل تصرفاتها

ذلك لأن تأخـر النصر أو نزول الهـزيمة ، إنما يكون سببـه وجـود خلل أو مرض فى الصف، ناتج عن ضعف التربيـة أو نقصها ، وهذا الخلل قد يكون فى وجود بعض المعـاصى ، أو الإخلال ببـعض الواجبات ، أو التـهاون فى شيء من الأسباب اللازمـة - فالإنسان إذاً هو السبب، لتقصيـره فى القيام بما أمره الله سبحانه بالقـيام به ، يقول ربنا عز وجل : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ** ﴾ [آل عمران: ١٥٥] ويقول: ﴿ **أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

لذا: كـان السلف الصالـح لا يخافـون العدو مـثل خـوفهم من المعـاصى والذنوب التى تصدر منهم ، لأن الذنوب وعدم الطاعة تبعد المسلم عن ساحة نصر الله وتدنيه من الهزيمة ، فذنوب الجيش أخوف عليه من عدوه ، ولذلك وطدّ الصـحابة رضوان الـله عليهم الصلة بربهم حـتى رضى عنهم، فـحقق آمالهم ﴿ **لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا** ﴾ [الفتح: ١٨].

فالجند والقـيادة لا يقاتلون جمـيعاً إلا لنشر الدعـوة التى مُنعت، والنفوس التى أزهقت ، والأعـراض التى انتـهكت ، وإقـامـة العـدل ومـحـو الظلم والطغيان، إنهم لا يفتحون البـلاد من أجل خيراتها وثرواتها، ولكنهم بذلوا الأموال والأرواح من أجل هداية الناس وسعادتهم، فـهم أنصار الله كما قال لهم ربهم: ﴿ **كونوا أنصار الله** ﴾ فكانوا ربانيين عباداً لـلرحمن يمشون على

الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا : سلاما .

الأخذ بالأسباب من وضوح الرؤيا :

ومن وضوح الرؤيا الأخذ بالأسباب، فلا يكتفى بترسيخ الإيمان فى نفوس الأفراد، وأن عناية الله ورعايته ونصره سنة لا تتبدل ولا تتغير - فهذه أمور لاشك فيها ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة : ٢١] فحين قال أحد جنود خالد بن الوليد عند فتح الشام: ما أكثر المشركين وأقل المسلمين،غضب خالد لأنه يعلم أن مثل هذا الكلام يفت فى عضد الجند ويخذلهم، ولذلك صاح قائلا: «إنما تكثر الجنود بالنصر،وتقل بالخذلان لا بعدد الرجال» .

فالثقة فى نصر الله من كمال تصورنا السليم، فإذا ما انتصر الجند وظفروا تيقنوا أن الظهور والتمكين إنما كان بمشيئة الله عز وجل الذى بيده النصر والخذلان، وذلك بعد أن يبذل الإنسان الأسباب المطلوبة منه ، والداخلة تحت قدرته ، فإنه يترك النتائج لله سبحانه وتعالى .

وقد بيّن المولى سبحانه وتعالى هذه القاعدة ، أعنى كون النصر إنما يأتى بمحض مشيئة الله سبحانه وفضله ، وذلك لما ذكر المولى تبارك وتعالى مدده لعباده المؤمنين بالملائكة قال: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ [آل عمران :١٢٦]

وعلى هذا فيجب أن يعلم الجميع أن الإيمان الذى يأتى معه النصر، هو الذى يقوم أهله بكل الأسباب المطلوبة شرعا ، والمشروطة لحصول النصر ، سواء من الناحية المعنوية من تحقيق الولاء ، والحب ، والطاعة ، والأخوة وغير ذلك مما يوحد القلوب قبل الصفوف ، أو الناحية المادية ، وهى الأسباب التى جعل الله سبحانه النصر معلقا على إقامتها، وهى أيضاً التى كانت سببا فى نصر الله عز وجل لرسوله ﷺ وعباده المؤمنين ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ

من ينصره إن الله لقوي عزيز ﴾ [الحج : ٤٠]. وهنا يظهر شرطان هامان هما : الإيمان وأن يبتغي بالجهاد وجه الله تعالى ﴿ الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا ﴾ [النساء: ٧٦]

فإذا كان الإيمان لابد وأن يكون خالصاً مما يشوبه ، كذلك الجهاد لابد أن يكون خالصاً من شوائب البغى ، والبطر، والعدوان، والظلم، والاستعلاء ، والحمية، والعصبية ، والرياء، والسمعة، وغير ذلك من المقاصد التى لا يحبها الله سبحانه ويبطل بها العمل .

خامساً : إعداد القوة المادية وإعداد العدة :

ومع كل ما تقدم كان لابد من إعداد آلعدة المقدور عليها، وعدم التقصير أو التهاون فى شأنها لأن الأخذ بالأسباب المادية عبادة لله، ألزم العبد بالأخذ بها، ولا ينبغى للإنسان أن يركن إلى إيمانه وتوكله ـ وإن كان ذلك هو أعظم الأسباب المؤدية للنصر ـ إلا أنه مع ذلك لا يجوز له إغفال الأسباب المادية، والقعود عن السعى فى تحصيلها، فهى مطلوبة شرعا، والإنسان مؤاخذ إذا أهمل هذا الجانب بل هو أيضاً مما يخل بإيمان العبد، فالله تبارك وتعالى قد أمر عباده المؤمنين بالقتال، وابتلاهم به مع قدرته سبحانه على الانتقام لهم من عدوهم دون أن يحوجهم إلى القتال، ولكن حكمة الله عز وجل اقتضت ذلك، يقول تعالى: ﴿ قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ﴾ [التوبة: ١٤] ويقول: ﴿ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض﴾ [محمد: ٤] .

فكيف يمكن أن يتحقق للمؤمنين القيام بهذه الفريضة إن لم يأخذوا لها عدتها؟ وهل يمكن أن تحصل لهم ما يريدون من رهبة العدو، والقدرة عليه إلا مثل مَنْ يقول إن كان الله قدّر لى الشبع فأنا أشبع أكلت أم لم آكل، فما

فائدة الأكل؟ وأمثال هذه الترهات المنافية لحكمة الله تعالى وشرعه [(١)].

فيجب اذاً إعداد العدة ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً، حتى يكون لدينا ما يمكننا من مواجهة العدو تنفيذاً لأمر الله الذى يقول: ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ** ﴾ [الأنفال : ٦٠] .

من أجل ذلك كان رسول ﷺ يقول : « ارموا بنى إسماعيل فإن أباكم كان رامياً. . . »[(٢)] وقال: «مَنْ علم الرمى ثم تركه فليس منا» أو «فقد عصى»[(٣)].

يقول ابن القيم : إن من تمام التوكل استعمال الأسباب التى نصبها الله لمسبباتها قدرا وشرعا ، فإن رسول الله ﷺ وأصحابه أكمل الخلق توكلاً ، وإنما كانوا يلقون عدوهم وهم متحصنون بأنواع السلاح ، ودخل رسول الله ﷺ مكة والبيضة على رأسه، وقد أنزل عليه﴿ **وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ** ﴾ [المائدة: ٦٧] وضمان الله للرسول ﷺ العصمة لا ينافى تعاطيه لأسبابها . ولا يناقض احتراسه من الناس ولا ينافيه ، كما أن إخبار الله سبحانه له بأنه يظهر دينه على الدين كله ، ويعليه لا يناقض أمره بالقتال واعداد العدة ، والقوة ورباط الخيل ، والأخذ بالجد ، والحذر والاحتراس من عدوه ومحاربته بأنواع الحرب ، بالرغم من أن الله ضمن له حياته حتى يبلغ رسالته ويظهر دينه، كان ﷺ يتعاطى أسباب الحياة من المأكل والمشرب والملبس والمسكن .

---

(١) زاد المعاد ابن القيم ٣/ ٤٨٠ .

(٢) رواه البخارى عن مسلم بن الأكوع الجهاد ٤/ ٤٥ وابن ماجه وأحمد.

(٣) رواه مسلم عن عقبة بن عامر كتاب الامارة ٣/ ١٥٢٣ .

ومن إعداد العدة :

١- حسن اختيار الرجال والقيادات.

٢- الاهتمام بجوانب التربية بأنواعها.

٣- اعداد البرامج التى تنمى القدرات دنيا ودينا وسيادة الروح العلمية .

٤- العمل على تماسك الأفراد والقيادة لتحقيق الأهداف الكبار.

٥- النصيحة للجند والأفراد والقادة والتزام الشورى.

٦- تقديم الخطوات والوسائل والمصارحة بالأخطاء وعلاجها.

وهذا هو كمال الإيمان ،الذى يستعد ويهيء للأمر عدته، ولا يدع صغيرة ولا كبيرة من أمر التعبئة للجهاد إلا ويحكمها ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠] وهذه القوة لا تقتصر على القوة المادية، وإنما تتضمنها وتتسع دائرتها فتشمل التعبئة الروحية، ومما لا شك فيه أن التعبئة الروحية، هى قوة واقعة نحو الثبات فى لقاء العدو والإقدام فى شجاعة نحو تحقيق النصر: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[الأنفال: ٤٥]

والتعبئة الروحية إنما تثبت دعائمها ، وتؤتى ثمارها حينما يكون الهدف من الجهاد واضحاً سافراً ، والإيمان يملأ القلب ، والثقة فى نصر الله مؤكدة .

سادساً : استكمال العدة النفسية :

لقد كتب الله على نفسه النصر لأوليائه ، حملة رايته ، وأصحاب عقيدته ولكنه علق هذا النصر: بكمال حقيقة الإيمان فى قلوبهم، وباستيفاء مقتضيات الإيمان فى تنظيمهم وسلوكهم، وباستكمال العدة التى فى طاقتهم وببذل الجهد الذى فى وسعهم ، فهذه سنة الله ، وسنة الله لا تحابى أحداً فأما حين يقصرون فى أحد هذه الأمور ، فإن عليهم أن يتقبلوا نتيجة التقصير، فإن كونهم مسلمين لا يقتضى خرق السنن لهم وإبطال الناموس ، فإنما هم

مسلمون لأنهم يطابقون حياتهم كلها على السنن ، ويصطلحون بفطرتهم كلها مع الناموس.

ولكن كونهم مسلمين لا يذهب هدراً كذلك، ولا يضيع هباء، فإن استسلامهم لله، وحملهم لرايته، وعزمهم على طاعته، والتزام منهجه، من شأنه أن يرد أخطاءهم وتقصيرهم خيرا وبركة فى النهاية ـ بعد استيفاء ما يترتب عليها من التضحية والألم والقرح ـ وأن يجعل من الأخطاء ونتائجها دروسا وتجارب ، تزيد فى نقاء العقيدة، وتمحيص القلوب، وتطهير الصفوف، وتؤهل للنصر الموعود ، وتنتهى بالخير والبركة ، ولا تطرد المسلمين من كنف الله ورعايته وعنايته ، بل تمدهم بزاد الطريق ، مهما يمسهم من القرح والألم والضيق فى أثناء الطريق .

وهكذا كشف القرآن عن السبب القريب من أفعالهم كما يكشف عن الحكمة البعيدة من قدره ـ سبحانه ـ ويواجه أهل الباطل بحقيقة الموت، التى لا يعصم منها حذر ولا قعود . . وهذه المعانى وهذه الدروس هى التى وعاها المسلمون تربية فى أُحد حين تساءلوا عن سبب الهزيمة فرد عليهم القرآن ﴿ **أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ [آل عمران : ١٦٥] .

فأنفسكم هى التى تخلخلت وتفشلت وتنازعت فى الأمر ، وأنفسكم هى التى أخلت بشرط الله وشرط رسول الله ﷺ ، وأنفسكم هى التى خالجتها الأطماع والهواجس ، وأنفسكم هى التى عصت أمر رسول الله ﷺ وخطته للمعركة ، فهذا الذى تستنكرون أن يقع لكم: وتقولون : كيف هذا ؟ هو من عند أنفسكم بانطباق سنة الله عليكم ، حين عرضتم أنفسكم لها ، فالإنسان حين يعرض نفسه لسنة الله لابد أن تنطبق عليه مسلما كان أم مشركاً ، ولا تنخرق فى محاباة له ، فمن كمال إسلامه أن يوافق نفسه على مقتضى سنة

الله إبتداء، ومن مقتضى قدرته أن تنفذ سنته ، وأن يحكم ناموسه ، وأن تمضى الأمور وفق حكمه وإرادته ، وألا تتعطل سننه التى أقام عليها الكون والحياة والأحداث.

سابعاً: مشاورة القائد لأعوانه ، ونزوله على رأيهم إذا تبين أرجحيته :

لما نزل رسول الله ﷺ فى «بدر» قال له الحباب بن المنذر:

« يا رسول الله ، أرأيت هذا المنزل ، أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه، ولا نتأخر عنه ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ » .

قال : « بل هو الرأى والحرب والمكيدة».

فقال : « يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس، حتى نأتى أدنى ماء من القوم ، فننزله ، ثم نغور ماوراءه من القلب ، ثم نبنى عليه حوضاً فنملؤه ماءً ، ثم نقاتل القوم ، فنشرب ولا يشربون » فقال رسول الله ﷺ «لقد أشرت بالرأى».

فنهض رسول الله ﷺ ومن معه من الناس ، فسار حتى إذا أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه ثم أمر بالقلب فغورت وبنى حوضاً على القليب الذى نزل عليه ، فملىء ماءً ، ثم قذفوا فيه الآنية.

وهكذا يفعل القائد مع الجند فى المواقف ، يشاورهم في الأمر ، ويتوكل على الله .

ثامناً : تفويض الأمر لله والتوكل والثقة فيه :

أما الموقف الأخير، فهو التفويض لله سبحانه، والثقة فيه وحده ، والأعتماد عليه ، لا على النفس أو القوة المادية ، أو أى شىء آخر.

وقد أعطى الله المسلمين درساً قاسياً حينما اعتمدوا على قوتهم وكثرتهم،

وعلى أنفسهم وعدتهم وعتادهم وقالوا: لن نغلب اليوم من قلة.

كـان ذلك فى غزوة حنين، ولقـد صور اللـه الموقف تصويراً قـوياً فقـال سبحانه: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ٢٥ - ٢٧] . ولقد تحدثنا فى هذه المعانى بما فيه الكفاية فليرجع إليها .

تاسعاً : الثقة فى نصر الله من كمال الإيمان :

إن الله سبحانه قد ضمن النصـر للمؤمنين المجاهدين ، فقال : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ ﴾ [غافر: ٥١] وقال: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم: ٤٧] ولسائل أن يسأل : أين عـزة المؤمنين اليوم والله يقول : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنافقون: ٨] وأين نصـر الله مع وعـده الذى لا يتـخلف ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة: ٢١] .

ونسى الذى يتـساءل عن النصـر والعزة أن وعـد الله مشروط بـشرطين : **صحة الاعتقاد** : بالإيمان الصادق ـ **وصدق الاتباع** : ـ بالعمل الصالح ـ يقول ربنـا : ﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ ﴾ [الإسراء: ٩] .

فهذه البشرى للذين يعملون الصالحات ﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ﴾ فحياته الطيبة يكتنفها النصر المبين، لمن يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ

وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾[التوبة: ١١١]

فإذا سأل سائل متى يارب تكون هذه البشارة محققة وواقعا فإن المولى يجيب قائلاً ﴿ **التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله** ﴾ فإذا ما تحققت هذه الصفات يقول ربنا ﴿ **وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [التوبة: ١١٢] .

فالنصر إذن مضمون للمؤمنين ولكنه مشروط بنصرهم لدين الله، وحمايتهم والذود عن حدود المسلمين وحقوقهم وحرماتهم ، وأن يجاهدوا أنفسهم على القيام بواجبات دينهم ، قبل أن يجاهدوا عدوهم، حتى يكون الله وليهم وناصرهم والمعين لهم على عدوهم﴿ **إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ** ﴾ [محمد: ٧] ويتحقق ذلك بمعية الله تعالى .

فإذا ما تحققت معية الله ذهب الهم والغم والحزن ﴿ **لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا** ﴾ [التوبة: ٤٠] ويوم تحققت معية الله للذين بايعوا الرسول باخلاص وصدق، كان رضى الله الذى نزلت بسببه السكينة، والفتح ﴿ **لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا** ﴾ [الفتح : ١٨] .

ولابد مع هذه الطاعة من الأخذ بالأسباب ومن الأخذ بالوسائل المختلفة من الحزم والحذر والاستعداد بالقوة، كما أرشد إليه الكتاب العزيز فى قوله: ﴿ **خُذُوا حِذْرَكُمْ** ﴾ [النساء: ٧١] وقوله: ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ** ﴾ [الانفال: ٦٠] والقوة تختلف باختلاف الأحوال والأزمان ، ولكل زمان دولة وقوة ورجال تناسب حال الجهاد، ولقد فسر الرسول ﷺ القوة بالرمى ولم يذكر المَرمىّ به لكونه يختلف باختلاف الزمان والمكان.

نتيجة التواكل والاتكال :

أما إذا تخلف عـملهم عن واجبات دينهم، أو لم يسـتعدوا بالحـزم والقوة لجـهاد عـدوهم ، فـإنه يتخلف عنـهم هذا النصر المضـمـون لهم، من أجل إخلالهم بواجـبات عملهم ، وعـدم امتثالـهم لأمر ربهم ، لأن الاتكال على الإيمان دون عمل خلل وعجز ومخالفـة لأمر الله ورسوله ، فلا يصح التوكل على الله ولا يصلح إلا بعد الأخذ بالأسباب المؤهلة للنصر.

فتسلط الأعـداء علينا فى زماننا هذا من تقصير المـسلمين بواجبات دينهم، وعدم استعدادهم بالقـوة المطلوبة لمجابهة عدوهم﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى : ٣٠] .

فبمـقدار التطبيقـات تحرز النتائج فى كل من هذه وتلك سلبـاً وإيجاباً وإن كانوا يقولون « ليس على الإنسان أن يدرك النجاح فى العواقب، وإنما عليه أن يتحرز فى المبادىء » .لذلك يقول سليمان بن عبد الملك:

«ما لُمت نفـسى على فوت أمـر بدأته بحزم ، ولاحـمدتهـا عل ترك أمر بدأته بعجز»(١).

إن الأخذ بـالأسباب بـالتدبيـر والتنظيم واستـخدام الوسـائل والإمكانات المتاحـة، كفيلة بتـحقيق الغايـة فى الوقت الذى يدبره المولى سبحـانه وتعالى ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام : ١٢٤] ثم يأتى التوكل على الله فإذا بنور العقل والهام الرب وتوفيقه فى كل تخطيط وتدبير وتنظير .

صـحيح أن هناك صـورا من التـحـدى تواجه الأمـة المسلمـة، ولكن هذا التحدى مهـما بلغ قواه فإنه يوقظ الحس، ويلهب العواطف، ويثـير المشاعر، ويزكى الروح، ويجمع الطاقـات النفسية والمادية لتبـدأ فى الانطلاق الصحيح

---

(١) أبو حيان التوحيدي- فى الامتاع والمؤانسة ٣/ ٢٢١.

﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ [الأحزاب:٢٢] .

وصحيح أن الأمة الإسلامية قد أصيبت فى تاريخها بالكثير والكثير من المآسى والنكبات ، لكنها دائماً قادرة على أن تتجاوز المحن والشدائد حال عودتها إلى أصولها، تستمد منها مصادر القوة بعد أن تسقط جميع الصور المشوهة والزائفة التى سببت هذه المآس .

ولابد أن نفهم أن أعداءنا يريدون أن يغرسوا اليأس فى القلوب والعجز فى الانتصار، ولكن أعمار الأمم لا تقاس بجيل أو جيلين أو أكثر أصابهم المرض، فالجسد لابد وأن يشفى ويعود إلى قوته ، وما انتصر المسلمون فى معركة كانوا فيها أشدة قوة وأكثر عددا ، بل إنهم يوم حنين قال لهم ربهم ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة:٢٥] .

إن الإسلام سينتصر لأن الله ما أنزله إلا ليظهره على الدين كله ، وهذا وعد الله ، ووعد الله باق ما بقيت السموات والأرض ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور:٥٥].

فمن يشك فى نصر الله؟

المشكلة إذاً ليست فى هزيمة الإسلام ، فالإسلام لا يهزم، الإسلام باق وسيحفظه الله برجال يصطفيهم لهذه المهمة ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩] فحفظه متحقق برجال، فإن كان أعداء الإسلام يواصلون

الحرب ضده ﴿ وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة:٢١٧] فإن للإسلام رجالاً يدافعون عنه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها«لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله» فالمسلم لا يخشى على الإسلام إنما يخشى على نفسه ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾[محمد:٣٨] .

ولقد بين لنا المولى ـ وكأن ذلك من وسائل الإيضاح والتطبيق العملى الربانى ـ فى غزوتين متتاليتين أسباب النصر وأسباب الهزيمة ففى غزوة بدر بين لنا أسباب النصر مع قلة العدد، وفى أحد بين لنا أسباب الهزيمة ، وهى مخالفة أمر رسول الله ﷺ ، ولما تساءل البعض عن سبب الهزيمة قال لهم المولى ﴿ أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ [آل عمران:١٦٥] أى بسبب تقصيركم بواجبكم ومخالفتكم للأمر.

فلابد أن يوقن المسلم أن الأسباب لا تحقق نصرا له، ولكنها طاعة لأمر الله وإرهاباً لمن حارب الله ورسوله، وأما النصر من عند الله العزيز الحكيم ، ويوم أن يصبح المسلمون على مستوى جيل النصر سينزل المولى سبحانه المدد من السماء﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص : ٥ ، ٦] .

من أجل ذلك فإن الذين قالوا يوما لرسول الله ﷺ ﴿ إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾ [القصص : ٥٧] ذكرهم المولى بنعمته عليهم يوم مكنّ لهم دينهم الذى ارتضى لهم فقال: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال:٢٦].

عاشراً : المحنة ليست فى الهزيمه فحسب :(ضرورة استمرار التربية)

إن من الأمـور التى يجب أن تكون واضحـة للمسلم، أن مـساحـة المحنة والابتلاء والتمحيص، لا تقتـصر على الهزيمة دون النصر، بل لعل محنة النصر إنما تكون أشـد وأعـتى وأطغى، إذا لم تـتوافـق مع الوضـوح الكامل لغـاية الإنسان، فليشكر الله على النصر وشكره العمل بطاعته ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الـصَّلاةَ وَآتَوُا الـزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنـكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١] .

فإذا رأى المجاهد أعداء الله كثـرة فليتذكر الذين﴿قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٧٣ : ١٧٥] فإذا رأى الأحزاب تحـزبوا قال: ﴿ هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٢٢] .

أثر التربية الإيمانية :

وتحقـيق هذه المعانى التى ذكـرنا والتى حملهـا أسلافنا فـشرقـوا وغربوا، وانتصر بهم الإسـلام، ورفعت رايته، لم يكن نتيـجة كثرة عـددهم ولا كثرة أموالهـم ولا لضخامـة أجسـامهم ، ولا لزيادة عـتادهم، إنما كـان سر ذلك الانتصار، وذروة سنامـه، التربية الإيمانية العـميقة، فتـغلغل الإيمان فى أعماق قلوبهم، وتحـابوا فى الله واجـتمـعـوا على دعـوته، وعملوا عـلى طاعتـه، وتعاهدوا على نصرة شريعته.

لقد فـارق النبى ﷺ الدنيا ولم يزد أصحـابه على السبـعين ألفا، لم يكن لديهم من العلوم والمعـاوف والمختـرعات ما يـلاقون به أعداءهم، بل قـاتلوا

وسيوفهم ملفوفة بالخرق ، لم يكن لها جراب من حرير أو أغمدة من جلد، بل كان الذى عندهم ما استطاعوا إعداده من قوة، مع الإيمان العميق بما أنزل على محمد ﷺ فما كان لهم الخيرة فى أوامر الله وإنما كانوا يقولون ﴿إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾ [آل عمران : ١٩٣] فانتظم الصف واصبح كالبينان المرصوص.

والغريب أن المسلمين اليوم لديهم فكرة خاطئة يرددونها كثيرا، فهم وإن كانوا يعتبرون أصحاب رسول الله ﷺ كانوا نماذج للإنسان الكامل الذى لم تر الإنسانية له مثيلا وهذا حق، ولكنهم يعتقدون ويظنون أن هذه العظمة، وهذا الخير، وهذا السمو، قد وصل إلى هؤلاء الأصحاب ثم انتهى أثره، فهو مرتبط بزمانه ومكانه، ولن يعود إلى الدنيا ابدا، وهذا عين الخطأ، كيف والرسالة دائمة وخالدة وعامة وشاملة وكاملة ، لذلك قال المولى ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ ﴾ [التوبة : ١٠٠] فالذين اتبعوهم بإحسان دائمين بدوام هذه الدنيا، لأن الخير فى هذه الأمة إلى يوم القيامة.

صحيح أن الواقع يقول: إن هذا الصنف « قليل ما هم » وهذا عين الصواب أيضاً فكم منا يستطيع أن يكون هواه تبعا لما جاءت به الدعوة ؟ وكم منا يحب أن يظهر بمظهر يخالف ما عليه فساد الناس؟ وكم منا من يستطيع أن يفعل المأمور ويترك المحظور ويصبر على المقدور؟ وكم منا يستطيع أن يقف فى وجه التيار السائد البعيد عن الإسلام ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا وَإِذًا لآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ [النساء : ٦٦ ـ ٦٨].

إن عقيدة التوحيد هى التى ربت هؤلاء الرجال وصاغتهم هذه الصياغة الربانية فى كل زمان ومكان ، وسل التاريخ عنهم قبل بعثة المصطفى ﷺ وبعده، سل عن الذين اصطفاهم الله من بين خلقه من لدن آدم حتى رسولنا الكريم صلوات الله وسلامه عليه.

سل القرآن ثم التاريخ عن إيمانهم، ومواقفهم، وثباتهم وتضحياتهم، ولما كانت العقيدة باقية دائمة فإنها قادرة أن تصنع رجالا أمثال أبا بكر وعمر وعثمان وعلى وخالد وعمار وإن لم يصلوا إلى مرتبتهم وقدرهم كذلك من اتبع هداهم الى صلاح الدين، بل وآلافا من أترابه فى كل زمان ومكان، وتصبغهم بصبغة الله ومن أحسن من الله صبغة، أو ليست هى التى حولت الحفاة العراة عباد الصنم والحجر إلى جحافل دانت لهم فارس والروم وغيرها من الممالك، وجمعتهم بعد تمزق، وأعزتهم بعد ذل، وأغنتهم بعد فقر، وألفت بين قلوبهم بعد عداء، فأصبحوا بنعمته إخوانا .

صحيح هؤلاء الرجال لهم فضل السبق ما فى ذلك شك، وهم كالنجوم فى الصحراء الشاسعة فى الليالى المظلمة يهتدى بهم ويقتدى ، ولكن يبقى المنهج الذى تركه رسول الله ﷺ ، والذى إن تمسكنا به لن نضل أبدا، وهو دائم بدوام الليل والنهار يصنع الرجال.

والتاريخ أصدق شاهد ، فكم من رجال حملوا هذه العقيدة بعد وفاة رسول الله ﷺ وفتحوا المشارق والمغارب؟ وهل الفتوحات الإسلامية التى أكرم الله بها المسلمين تمت إلا على أيدى رجال آمنوا بربهم وزادهم هدى، فكم يحدثنا التاريخ عن هؤلاء الأفذاذ إلى يومنا هذا ؟ حملوا لواء لا إله إلا الله وذادوا عنه، وحموه بأرواحهم ومهجهم وأموالهم واشتروا الباقية بالفانية.

فلا يغرنك انتفاش الباطل :

﴿ **لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ** ﴾ [آل عمران : ١٩٦ : ١٩٧] فلا تظن أن الله يديل الباطل على الحق إداله دائمة مستمرة، فمن ظن هذا الظن فقد ظن ظن السوء، ذلك لأن الله سبحانه يؤدب عباده، فإذا عصاه مَنْ عرفه سلط عليه من لا يعرفه، والباطل لا تقوى شوكته، ولا تعظم صولته إلا فى حال رقدة أهل الحق عنه، وغفلتهم منه، فإذا انتبهوا هزموا أهل الباطل بإذن الله ﴿**بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ** ﴾ [الأنبياء : ١٨] .

غير أن للباطل صولة نعوذ بالله من شرها، لكن عاقبتها الذهاب والاضمحلال، وقد قال الله عز وجل: ﴿ **إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ [آل عمران : ١٧٥] فهو يخوفهم من أعدائهم ويقذف فى قلوبهم الهلع منهم .

فلا يجب على المؤمن أن ينس أن الله قد وعد عباده المؤمنين بالنصر عليهم فقال: ﴿ **لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ**﴾ [آل عمران:] فكيف ينصر المسلم بالوهن والمولى يقول: ﴿**وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾[آل عمران : ١٣٩] .

هذا هو ديننا الذى ندعو إليه، وهؤلاء هم رجاله الذين يدافعون عنه، وهذا هو منهجه الذى ينشر الأمن والأمان، والسلامة والسلام ينادى بأعلى صوته ﴿ **ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ**﴾[البقرة:٢٠٨] إنه دين السلام بحق ، بالرغم من تشويه أعدائه له وادعائهم أنه دين قتل وقتال ﴿ **كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا** ﴾ [الكهف : ٥] .

على هذه المبادىء والقيم، والتصورات والمعتقدات يربى الإسلام أتباعه على التضحية فى سبيلها، بكل ما يملكون، فتهون عليهم الأنفس والأموال والأولاد والزوجات، بل والآباء والأمهات فى سبيل الدفاع عن هذا الدين، والقرآن منهج فريد للتربية الجهادية كما رأيت، يصنع رجالاً لا يعتدون على الآخرين، ولكن يحمون العقائد والمقدسات، والأنفس والأعراض، والأموال والدماء والأنظمة والمهج والأرواح، وكل منهم يقول غداً ألقى الأحبة محمداً وصحبه.

فالواقع أن الجهاد ضرورى لبقاء المسلمين أمة قوية مرهوبة الجانب بعيدة عن أطماع الطامعين والحاقدين من الكافرين المنافقين» [١].

لذلك كان ترك الجهاد سبب للمذلة والهوان، وضياع الديار، وتسلط الكفرة على بلاد الإسلام، وهذا منَ العذاب الذى توعد به الله تعالى تاركى الجهاد، يقول سبحانه وتعالى: ﴿ **إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ [التوبة : ٣٩] يقول ابن تيمية عن الآية: «قد يكون العذاب من عنده، وقد يكون بأيدى العباد، فإذا ترك الناس الجهاد فى سبيل الله فقد يبتليهم بأن يوقع بينهم العداوة، حتى تقع بينهم الفتنة، كما هو الواقع، فإن الناس إذا اشتغلوا بالجهاد فى سبيل الله، جمع الله قلوبهم وألف بينهم، وجعل بأسهم على عدو الله وعدوهم، وإذا لم ينفروا فى سبيل الله عذبهم الله بأن يلبسهم ويذيق بعضهم بأس بعض» [٢] والخيل معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة الأجر والغنيمة [٣].

هذا هو الجهاد فى سبيل الله بقيمه ومبادئه وأخلاق القائمين به، وقواعده وضوابطه، وأسباب النصر وعوامل الفوز، وكل ما تفضل به والذى شرعه

---

(١) أصول الدعوة: عبد الكريم زيدان صـ ٢٦٣.

(٢) الفتاوى ١٥/ ٤٤-٥٥.

(٣) البخارى كتاب الجهاد ٤/ ٣٤. وغيره كثير.

المولى للأنبياء والرسل ، ولولا ما شرعه الله تـعالى للأنبياء والمؤمنين من قتال الأعداء ، لاستولى أهل الشـرك، وعطلوا ما بنته أرباب الديانات من مواضع العبادات، ولكنه دفع بأن أوجب القتال ليتفرغ أهل الدين للعبادة .

فالجهاد أمر متقدم فى الأمم، وبه صلحـت الشرائع، واجتمعت المتعبدات، فكأن المولى قال[1] أذن في القـتال فليقـاتل المؤمنون، ثم قوى هـذا الأمر فى القتال بقوله: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ﴾[البـقرة : ٢٥١] أى لولا القتـال والجهاد لتغلب على الحق فى كل أمة، فمن استبـشع من النصارى والصابئين الجهاد، فهو مناقض لمذهبهم، إذ لولا القتال ما بقى الدين الذى يذب عنه، فأيضاً هذه المواضع التى اتخذت قبل تحريفهم وتبديلهم، وقبل نسخ تلك الملل بالإسلام، إنما ذكرت لهـذا المعنى ، أى لولا هذا الدفع لهدم فى زمن مـوسى الكنائس، وفى زمن عيسى الصوامع والبيع،وفى زمن محمد ﷺ المساجد [2].

ومع هذا كله فإن الحـرب والقتـال فى سبيل الله بالرغم مـن أنها ركن من أركان الإسلام، إلا أن الأصل فى الإسلام السلام وليس الحرب والقتال.

***

---

(١) اشارة إلى قول الله : إذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا – الأية .

(٢) تفسير القرطبي للآية المشار اليها .



الباب السابع

الإسلام دين السلام

* بداية قانون السلام فى الإسلام .
* استبدال الذى هو أدنى بالذى هو خير .
* الاهتمام بقانونى الحرب والسلام .
* السلام الذى أراده المولى لعباده .
* كيف نزيل هذه الاصنام الحجرية البشرية .
* هل الإسلام قانون سلام أم حرب وعدوان .
* علاقة المسلم بغير المسلم .
* أسباب القتال .
* كلمة لابد منها فى هذا المقام .
* المكر بالإسلام قائم .
* رأى فى أسباب الإذن بالقتال .
* العهود والمواثيق .
* حكم الحرب المشروعة .
* خلاصة هذا العرض .
* أراء الفقهاء فى اسباب القتال .
* زيادة بيان .
* رأى معتبر .
* خلاصة القول .
* شروط القتال .
* من الذى يفرض عليه القتال .
* هل على الغريم قتال ؟
* من يحل قتله من الحربيين .
* متى ينتهى القتال ؟

###



الباب السابع

الإسلام دين السلام

ليس عجبا أن يقطب الفكر الغربى جبينه عندما يطرق سمعه السلام فى الإسلام، لأن من بين أئمتهم من ينكر وجوده أصلا، ويقول: إن هناك اتهاما للإسلام بأنه دين الجمود والتخلف، ويعلل ذلك الادعاء بأن الإسلام عاش قرونا فى عداوة لدودة مع المسيحية، حتى أن الغرب أسمى محمدا ﷺ باسم Mohound، وهو لقب يطلق على أمير الظلام، ونسب الإسلام إلى نبيه فسماه « الشريعة المحمدية » ، وذلك خلط مرفوض نهج فيه الغرب منهجه فى مسميات الشرائع الأخرى كالمسيحية، إذ قرنها بالسيد المسيح، والموسوية نسبة إلى موسى عليه السلام ، ولكن الإسلام ليس شريعة إنسان بل شريعة الخالق الديان.

إنه لا يملك جاحد أن ينكر أن الشريعة الغراء قد نجحت نجاحاً باهراً فى تشكيل المجتمع الإسلامى على غرار تضرب به الأمثال، وتقصر دون مدحه المعلقات الطوال، ولقد أثبت الإسلام منذ باكورة أيامه وبدايات تاريخه أنه عروة الأمن الدولى الوثقى، ووشيجة السلم العالمى الكبرى، فقد بدّل الشحناء تكاملا، وجعل من البغضاء تناصرا، وصهر العصبية القبلية فى أخوة دينية رائعة ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال:٦٣] وما عرف التاريخ سابقة أو لاحقة لتلك الظاهرة الفذة التى استطاعت فى سنوات معدودات أن تنجز ما فشلت القرون فى تحقيقه.

ويتقعر البعض فيقول إنه تاريخ حقبة من الزمان لا شأن لنا به ولا تصلح لزماننا، ونقول لهؤلاء إن الإسلام منهج حياة ما بقى المسلمون، دائم ما دامت مواقع النجوم، ليس له زمان ولا مكان، لأنه يصلح لكل زمان ومكان أو إن

شئت فقل يُصلح الزمـان والمكان من أجل ذلك فالله حافظه . ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾ [الحجر: ٩] .

إنه دين السلام نشره على ربوع العـالمين، وله قانون ينشر الأمن والأمان لا فى بقعة محدودة بل فى ربوع الدنيا كلها شرقها وغربها، والتاريخ خير شاهد على ذلك، إلا أن الكارهين للإسلام مع الجاهلين به انقسموا فى هذه القضية إلى اتجاهات ثلاثة .[1]

أولاً : فـريق ينكر قانون الســلام الإسلامـى كنظام قانونى مـتكامل، وإن اعتـرف بأن فيـه بعض القواعد التـى تصلح لحكم العلاقـات الدولية، وذلك الادعاء الغـربى الذى يحاربه قلة من العلمـاء العرب يصدر عن نظرة قـاصرة لأحكام الشريعة الغراء، ويتأثر بواقع عارض كما عليه الفقة الإسلامى المعاصر واخـتلاط الحـابل بالنابل، والله يقـول ﴿ **مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ** ﴾ [الأنعام: ٣٨].

ثانيا : فـئة تقـول إن القانون الدولى الإسـلامى قانون حـرب، ولا يعرف السلام، وهى تشيـر بذلك إلى أن علاقة دار الإسلام بدار الحـرب تقوم أصلا ودوما على القتال، وليس فيها متسع للسلام.

ولهؤلاء نـقول ـ وسنزيد الأمر تـفصيـلا فيـما بعد ـ إن الإسـلام هو دين السلام فليس عجبا أن يقوم منهجـه أساسا على مدرك السلام، وتقسيم البلاد إلى دار السلام ودار حرب، إنما يبـتغى توافر صفة الأمن والسـلام للمسلمين فى دارهم، وتوقى الخوف من العدوان عليهم فى غير دارهم،وعلى هذا فليس المسلمون كما يروج أعداؤهم أهل حـروب وغارات،أو أن هذا التقسيم منهاج المسلمين فى العلاقات، ذلك لأنه تغاير الدين ليس هـو فى الحقيقة مناط هذا

---

(١) قانون السلام في الإسلام – للدكتور محمد طلعت الغنيمي أستاذ القانون الدولي العام جامعة الاسكندرية صـ ١٣ بتصرف شديد.

التقسيم، وإنما مناطه ترجيح سوء المعاملة والاعتداء والله يقول ﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[سورة الممتحنة : ٨ : ٩] .

ومن ثم فإن دار الحرب ليست إلا الدار التى تأبى أن تكون على علاقات سلم مع الدولة الإسلامية، فوصفها بذلك وصف عارض ينطبق ما بقيت مبرراته ويزول بزوالها، وتلك بديهيه يقرها أصحاب العقول السليمة .

ثالثاً : فئة ثالثة يشط بها الفكر فتذهب إلى أن منهج الإسلام أضيق من أن يحتوى نظاما قانونيا دوليا للسلام، وتزعم أن تاريخ العلاقات الدولية يشهد بذلك. فهم لا يرون فى السوابق الماضية ما يدل على أن ذلك القانون – قانون السلام الإسلامى ـ قد حكم خارج الدولة الإسلامية، أو نظم رابطة بين الدولة الإسلامية وغيرها من الدول، وتلك لعمر الحق نظرة رمدة تنكر الشمس من أذىً بها، فالقرآن الكريم به العديد من الآيات التى تنظم علاقات دولية، والتاريخ كذب ما يزعمون، وعلى سبيل المثال ترى ذلك فى سورة براءة، وأحسب أن هؤلاء هم الذين قال الله فيهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لاَّ يَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة: ١١: ١٢].

بداية قانون السلام الإسلامى :

لقد بدأ قانون السلام الإسلامى فيما أري[1] بمعاهدة الحديبية، بل وكم من علاقة سلام جمعت فى عهد الرسول ﷺ بين المسلمين وغير المسلمين فى

(١) هذه آراء الأستاذ الدكتور محمد طلعت الغنيمي استاذ القانون الدولي العام جامعة الاسكندرية فى كتابه قانون السلام في الإسلام.

تاريخ دبلوماسى طويل من العهود، والتعاون مع الأعداء القدامى على البر، والقسط ، وقد سجل شعر حسان بن ثابت، والأعشى، وكعب، كثيرا من هذه الحقائق، وتمثلت أول بادرة لذلك عندما أرسل الرسول ﷺ فى باكورة الدعوة رسله إلى ملوك وحكام الدول المجاورة يدعوهم بدعوة الإسلام، كما أشارت الآيات الكريمة الخاصة بحروب الروم والفرس إلى ارتباط الإسلام بالعلاقات الدولية ﴿ الـمٓ غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ [الروم: ١ - ٤] وكان للمسلمين مع جيرانهم علاقات لعل بدايتها كانت عند هجرتهم إلى الحبشة، كما ذهب عمر بن الخطاب إلى بيت المقدس ليتسلمها من حاكمها ، وأبرم حاكم مصر المسلم عهداً مكتوبا مع أهل النوبة من جنوب مصر ، وعرف شعراء الدولة الإسلامية أمام حكام الفرنجة على عكس ما كانت تقضى به الأعراف الدبلوماسية فى تلك الأيام ـ وذلك قليل من كثير.

ومن ذلك أيضاً ومن سوابق الإسلام فى عهد الخلافة الراشدة وما بعدها، انتهى الفقهاء إلى قرار دار الصلح، ودار العهد، وبديهى ألا يكون هناك صلح أو عهد فى نظام إلا نظام السلام، هذا هو الفكر الإسلامى النقى الذى نريد احياءه، والمستمد من الكتاب الكريم، وما صح عن الرسول الرحيم ﷺ من حديث ، فكان اتباعه ﷺ يفكرون بعيداً عن التزمت الذى لا يحكمه فقه دقيق ولا فهم سليم، تفكير ييسر ولا يعسر،وهكذا يجب أن نفكر تفكيراً يتبرأ من مسوح الزيف الغربى الذى غزانا فشوه أصولنا، فأضطربت بذلك تصوراتنا وكادت تزل قدم بعد ثبوتها لولا أن قيض الله رجالاً أحيوا الحق بذكره، وأماتوا الباطل بتركه ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ

مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [هود:١١٥].

استبدال الذى هو أدنى بالذى هو خير :

ونود بهذه المناسبة أن نذكر بأن الجرى الأعمى فى فلك الحضارة الغربية، هو أخطر ما أصاب الشعوب الإسلامية، أو قد يكون للاستعمار العسكرى الذى تحررت الشعوب من ربقته حديثا سببا فى هذا التشويه، وقد يكون للاستعمار الثقافى الذى نعايشه دور أكبر، وقد يكون للتقليد غير الواعى أبعد خطورة، ولكن النتيجة واحدة، وهى أن الحضارة الغربية المادية قد خلفت بصماتها غير المحمودة على جوانب عديدة من حياتنا، سواء على مستوى الأفراد أم الجماعات.

وغنى عن القول إن للحضارة جانبين [1]:

الجانب الأول: المادى الصناعى وهذا لاغنى لنا عنه، ولامانع من الاستفادة منه ، إننا مطالبون إسلاميا بالتقدم فيه، واستكناه أسرار الكون، والسعى فى مناكب الأرض، والوقوف عند بعض أسرار المادة، التى وضع الله فيها العديد من أسراره فى خلقه، مع تذكير الناس بما كنا عليه من حضارة طائلة، ومدنية هائلة، وقت أن كانت القرون تلفّ الغربيين بظلام دامس من التخلف والرجعية فى شتى مناحى الحياة .

الجانب الثانى : وهو الجانب المتصل بالثقافة والأخلاق والأفكار والمبادىء، وهذا الجانب لا يمكن أخذه عن الغير أخذ المقلد أو المتشبع، لأن هذا الأخذ عن الغير يعنى ضياعاً لشخصية الأمة، وذوبان هويتها فى هوية الآخرين، فى

---

(١) قانون السلام في الإسلام صـ ٢٦.

الوقت الذى حدد الإسلام شخصية الأمة وثقافتها، وصبغها بالصبغة الإسلامية الخالصة، ووضع الله لنا القرآن والسنة لنستمد منهما كل مقومات الأخلاق والأفكار والثقافة، ولا شك أن العودة إلى الأصالة الإسلامية باتت مطلب كل من يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ﷺ بعد تخطى مرحلة الأنبهار بالثقافة الغربية وتجاوز الإنشغال بمغريات الحياة الأوروبية، والإيمان بأن هذه الأصالة دائمة بدوام هذه الدين ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ [غافر: ٥١] .

إن البشرية لا غنى لها عن الإسلام، ومن ثم فلابد من دعاة يحملون كلمة الإسلام إلى الناس ، غير عابئين بما يلاقيه الآخرون من صعاب فى طريق الدعوة، فتلك سنة الله فى خلقه .

وحاضر المسلمين يبشر بحمد الله بفجر جديد ، وخير عميم ، ذلك أن غالبية الشعوب الإسلامية تعيش فى صحوة حقيقية تنبع من إدراك واع وتفهم كبير لأهمية وضرورة العودة لأحكام الإسلام الحنيف ، وهى فى حاجة إلى من يدعمها ويسدد خطاها ويرشّد توجهها لتسلك الطريق السليم.

والإسلام الذى يجتهد المسلمون فى الحاضر للعودة إليه، إنما يحرر المسلم من كل ارتباط بمذهب مادى فاشل، أو توجه وضعى بال ، ويجعله عبدا لله تعالى وحده ، ويضع بين يديه المنهاج الوحيد القادر على تحقيق سعادة الإنسان فى الدنيا، والوصول به للنجاة فى الآخرة.

ويعجب المتأمل فى وجوه الذين يستعلنون فى هذا العصر بالدعوة إلى نبذ الإسلام، إذ يراهم أصنافا شتى، بعضهم عدو للإسلام ، والبعض الآخر يدعى الانتماء إليه، ولكنه يقرّه كعقيدة ويرفضه شريعة ، زاعما أن العصر لا يتقبل شريعة جرى الحكم بها فى الصحارى والقفار، أيام كان الناس يركبون الجمال ويسكنون الخيام ، وكفى بتلك العقيدة عندهم قانعة بشعائر العبادات

ولطائف المواعظ، معزولة عن المجتمع وما يضطرب فيه من شئون.

ألم يقرأ هؤلاء الرافضون لشريعة الإسلام ـ لاسيما من كان منهم يدعى أنه من مسلمي هذا العصر - قول الحق سبحانه وتعالى﴿ **فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** ﴾ [النساء: ٦٥] فنفى عنهم صفة الإيمان، إلا إذا رضوا بحكم الرسول ﷺ وسلموا به تسليما وبداهة فحكم الرسول ﷺ ليس بصفته البشرية، ولكن بما أراه الله ﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ** ﴾ [النساء: ١٠٥].

نقول هذا كله لأن الذين لا يعترفون بأن الإسلام منهج حياة، يستفتيه المسلم فى صغير الأمر وكبيره، نقول لهم اسمعوا إلى هذا اليهودى الذى قال لصحابي جليل: « إن رسولكم علمكم كل شيء حتى الخراءة» (١). فالذين ينكرون على الإسلام ذلك لا يمكن أن يفهموا الجهاد فى الإسلام، ولا يتذوقوا طعمه، ولا يفقهوا فقهه، ذلك لأن الجهاد فى الإسلام هو نظام للتعامل مع الغير ـ كما سنبين بمشيئة الله ـ فكيف بهم يعترفون بوجوده وهم لا يؤمنون إلا بعقيدته ولا بأس بشعائره.

ومن هؤلاء العلمانيين الذى آمنوا بالله، وكفروا بصلاحية الشريعة الإسلامية للحياة، ويزعمون أن بوسعهم أن يظلوا مسلمين مع اعتقادهم بأن الإسلام ما جاء ليحكم بين الناس فى شئون دنياهم، ويجاهرون بأنهم لا يقبلون فكرة «أبدية القانون» ويجدون فى التشدق بهذه السفسطة ما يضفى عليه شيئاً من وجاهة المنطق، أولئك الذين يعيشون مع الغرب بقلوبهم وينتمون إلى الإسلام بقوالبهم، بصرهم بالقرآن كليل وحديثهم عن الإسلام عليل، وحربهم للإسلام لا تتوقف.

---

(١) الخراة ـ دخول الخلاء ولقضاء الحاجة.

الاهتمام بقانونى الحرب والسلام :

لا نستطيع أن نتكلم عن القتال أو الجهاد أو الحرب فى الإسلام بعيدا عن تصورنا لرسالة الإسلام ، ونود أن ننوه إلى أن الدراسات الإسلامية المعاصرة تعج بأبحاث مستفيضة عن قانون الحرب فى الشريعة الإسلامية ، ولكنها تخلو من معالجة جدية لأحكام « قانون السلام الإسلامى » فإن كان الفقهاء القدامى اهتموا بقانون الحرب،واغفلوا قانون السلام، فإن لهم عذرهم فى ذلك، فقد تبلور الفقه التقليدى من الفتوحات الإسلامية، فانشغل أصحابه بدراسة الظواهر التى تحيط بمجتمعهم ، وكانت ظاهرة الحرب هى التى تسيطر وقتئذ على علاقة الدول الإسلامية ـ الموحدة تحت خلافة واحدة ـ بغيرها من الدول، فكان بديهيا أن تنطبع أفكار الفقهاء بطابع عصرهم وأن يسعوا إلى التنقيب عما يضبط سلوك الدولة الإسلامية فى قتالها مع الدول التى تقاسمها الجماعة الدولية .

وهذا كله يوم أن كان للمسلمين شوكة ، وأما اليوم فلم تعد للقوة العسكرية سمة للدول الإسلامية، فضلا عن أن كثيرا من أهل الغرب يرمون المسلمين بالإرهاب ، وكما يقول الفقهاء: «الرأى يتغير بتغيير الزمان والمكان» فكان لابد أن ندافع عن الإسلام لتستبين سبيل المحرمين، الذين يشوهون معنى الجهاد فى الإسلام . وما كان الجهاد إلا لإقرار السلام

وأمامك كتاب الله ينطق بالحق ، يهتف بالسلام ويشيد به ، ويضحى أتباعه بكل نفيس وغال من أجل إقرار السلام على الأرض، فالآيات تنزل فى موكب من الملائكة يحدوه ويحف به السلام : **﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ سَلامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾** [القدر: ١ : ٥] وتحيتنا فيما بيننا السلام، وختام لقائنا مع ربنا فى صلواتنا السلام، ويوم نلقى ربنا يحيينا

بالسلام ﴿ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴾ [يونس : ١٠] وربنا الذى نعبده هو الملك القدوس السلام. . . الذى أعد لعباده الصالحين مالاعين رأت، ولا أذن سمعت، ولاخطر على قلب بشر فى دار السلام ﴿ لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [الأنعام: ١٢٧] والمولى سبحانه وتعالى يأمر رسوله ﷺ بالصفح عن قومه فيقول ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ﴾ [الزخرف:٨٩].

إن السلام مبدأ من المبادىء التى عمق الإسلام جذورها فى نفوس المسلمين، فأصبحت جزءا من كيانهم ، وعقيدة من عقائدهم .

لقد صاح الإسلام منذ طلع فجره ، وأشرق نوره - صيحته المدوية فى آفاق الدنيا يدعو إلى السلام ، ويضع الخطة الرشيدة التى تبلغ بالإنسانية إليه.

إن الإسلام يقدس حياة الناس ، ويصونها ، وهو لذلك يحرر الناس من الخوف حتى يعيشوا فى الحياة آمنين مطمئين ، فيرسم لهم الطريقة المثلى لتعيش الإنسانية متجهة إلى غاياتها من الرقى والتقدم ، وهى مظللة بظلال الأمن والأمان الوارفة .

ولفظ الإسلام - الذى هو عنوان هذا الدين - مأخوذ من مادة السلام ، لأن السلام والإسلام يلتقيان فى توفير الطمأنينة والأمن والسكينة . ورب هذا الدين من أسمائه « السلام » لأنه يَؤِّمن الناس بما شرع من مبادىء ، وبما رسم من مناهج .

وحامل هذه الرسالة هو حامل راية السلام ، لأنه يحمل إلى البشرية الهدى والنور ، والخير ، والرشاد ، فهو الرحمة المهداة .

وتحية المسلمين التى تؤلف القلوب ، وتقوى الصلات ، وتربط الإنسان بأخيه الإنسان هى السلام ، ولقد جعل المولى تحية المسلمين بهذا اللفظ ، للإشعار بأن دينهم دين السلام والأمانة وهم أهل السلم ومحبو السلام .

وفى الحديث أن رسول الله ﷺ يقول : إن الله جعل السلام تحية لأمتنا ، وأمانا لأهل ذمتنا » [١] .

وأخيراً فإن أهل الجنة لا يسمعون من القول ولا يتحدثون غير لغة السلام ﴿ لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما إلا قيلاً سلاما سلاماً ﴾ وكثرة تكرار هذا اللفظ ـ السلام ـ على هذا النحو مع إحاطتة بالجو الدينى النفسى من شأنه أن يوقظ الحواس جميعها ، ويوجه الأفكار والأنظار إلى هذا المبدأ السامى العظيم مبدأ السلام فى الإسلام .

فما هو السلام الذى أراده الله لعباده فى ظل الإسلام :

إن السلام الذى يريده الإسلام يقوم على دعامتين :

أولا : على النظام الاجتماعى الكامل المستمد من عقيدة التوحيد والذى يحقق الأخوة العالمية ، ويرفع من مستوى النفس الإنسانية ، ويكشف للبصائر عن حقائق الربانية ، ويقيم دعائم العدالة الاجتماعية بين الحاكم والمحكوم ، والقوى والضعيف ، والفقير والغنى ، والرجل والمرأة ، ويشيع فى المجتمع معنى الحق والعدل والقوة ، ومعانى الحب والسعادة والطمأنينة والسلام ، ليتحقق الأمن والأمان ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ ولا يَشْقَى ﴾[طه: ١٢٣].

ثانياً : الأمة المؤمنة بهذا النظام الذى لم يدع خيراً إلا أمر به ، والذى جاء بياناً لكل شىء ، فأنشأ دولة قائمة عليه تفقهه ، وتؤمن به وتدافع عنه ، وتدعو إليه ، وترشد إلى ما فيه من خير وجمال ورحمة ، وبذلك اقترن التصور النظرى بالكفاح العملى ، فحفظ الأمن ، وأستقر على الأرض السلام .

من أجل ذلك بدأ الإسلام بتحطيم الأصنام ليست الحجرية التى يحول عبّادها بين الناس وبين عبادة الله فحسب ، ولكن كل أنواع الشرك الذى هو

---

(١) فقه السنة جـ ٢ صـ ٥١٩ الشيخ سيد سابق .

الظلم بعينه، والذى جاء الإسلام ليزيله، ذلك لأن الله يقول: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣].

كيف نزيل هذه الأصنام الحجرية والبشرية ؟

إن صاحب الدعوة لا يقهر أحدا عليها، ولا يجبره طالما أنه مطمئن لصلاحها، واثق من سلامتها، موقن بفائدتها، لا يشك فى قوة انتشارها وانتصارها وحفظها ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر:٩].

فمنزلها الذى أحاط بكل شىء علما، جعلها تبياناً لكل شىء، ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام:٣٨] وحفظها من التغيير والتبديل والتحريف، نقصا أو زيادة، فهى تمتاز بالشمول، والعموم، والكمال، والسمو، والدوام، وهى قاهرة غلابة بغلبة الحجة والبرهان، والعقل والبيان، فإن وجدت من يستمع إلى اتباعها بقلوب واعية وعقول راشدة فهى المنتصرة ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ [الأنبياء:١٨] أما إذا اعتدى عليها معتد - وما أكثرهم - فهى منتصرة بغلبة القتال بالسيف والسنان ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة:٢١] وهذه الغلبة والنصر هى فى الدنيا قبل الآخرة ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ [غافر:٥١] وهذا وعد الله لا يخلف الله وعده ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور:٥٥]

فعلام يفرض أصحاب هذه الدعوة على الناس دعوتهم؟ ولم يكرهون الناس عليها؟ والله يقول ﴿ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ...﴾ علام العنف والقتل والدم، لإدخال الناس فى دين الله وهو سبحانه ناصر هذه الدعوة ومؤيدها ﴿ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ

نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ ألم يقل لرسوله ﷺ ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾؟ ألم يقل له ﴿ وَمَن كَفَرَ فَلا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ ﴾؟ وبيّن له ﷺ أن دوره التذكير لا التقتيل ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ ﴾ بل أوضح له ﷺ سبب إعراضهم، وعدم سماعهم للحق، وعدم اتباعهم للنور فقال ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾، إن الذين يفرضون آراءهم ومعتقداتهم وتصوراتهم ونظمهم بالقوة، هم الطغاة والجبابر ﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ فهم الذين لا يعرفون حوارا إنما يعرفون القسر والجبر والقتل، فما يقولونه لا يعتقدون أنه الصواب فحسب، بل الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، يقول قائلهم: ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ وطالما أن سبيلهم هو سبيل الرشاد فدونه القتل والسحل، وأخفه السجن والتشريد والإخراج من الأرض.

والغريب أنها « رمتنى بدائها وانسلت » فلا تسمع من الشيوعيين وغلاة العلمانيين، والملاحدة، والفاسقين، إلا كلاماً لا يمت إلى المنهج العلمى الذى يدعونه ـ بصلة فهم يرمون المعتدلين من دعاة الإسلام بأنهم طلاب سلطة، ويفرضون أرائهم بالقوة، فهم سلفيون أصوليون رجعيون، لا وسيلة لهم إلا القتل والتدمير والتفجير، وللأسف فإن بعض مَنْ ينتمون إلى التيار الإسلامى والذين يتخدون من القوة وسيلة لنشر ما يعتقدون، تراهم يقتلون الناس بغير حق، ويروعون الآمنين، ويخلطون المفاهيم ـ ولسنا منهم ولا نقر هذا الأسلوب[1] بأى حال من الأحوال.

أقول ـ هؤلاء أساؤا إلى معنى الجهاد، ولكن بالرغم من هذا البيان

(١) ولقد بينت ذلك بوضوح وتفصيل في كتابي « التغيير علي منهاج النبوة ».

المتكرر، والذى أصبحنا نردده مع أوقات الصلاة فى اليوم خمس مرات، نستنكر فيه منهج القوة والقتل، إلا أن أهل الباطل يصدّعون رؤسنا بهذا الافتراء صباح مساء، للتشويه والتمويه والتضليل، ومحاولة صرف الناس عن أهل الحق أصحاب الوسطية والاعتدال وصدق الله القائل ﴿ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام : ٣٣] .

والمتأمل والدارس للتاريخ ـ كما بينه كتاب ربنا ـ يرى هذه الافتراءات ليست بجديدة ، ولكنها قديمة قدم باطلهم ، أليسوا هم الذين قالوا لنوح عليه السلام : ﴿ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ [هود : ٢٧] وليت الأمر وقف عند هذا الرمى باللسان لكان ادعاء نواجهه ايضا باللسان ، ولكن أهل الباطل هم الذين يستخدمون العنف ويرمون غيرهم به، وهم الذين لا يملكون الحجة، ويتهمون غيرهم «باللاعقلانية» فمن لا يقهر بكلماتهم ، يُقهر بسيوفهم ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾ [الشعراء : ١١٦] فأين الحوار ؟ وأين المنهج العلمى؟ أليس هذا ما يفعله أهل الباطل فى زماننا هذا ؟ ألم يقل أسلافهم لسيدنا لوط ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴾ [الشعراء : ١٦٧] إنهم حكموا على ما قاله نبى من أنبياء الله بدون بينة ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ ﴾ [الأعراف : ٦٦] كما قالوا لشعيب عليه السلام ﴿قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾ [هود : ٦٢] ولما حاجهم لوط عليه السلام فيما تمجه ـ لا أقول النفس المسلمة ـ ولكنى أقول النفس السوية، مسلمة أو غير مسلمة قالوا له: ﴿ أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [النحل :٥٦] أما إبراهيم عليه السلام فقد سمع من آزر ﴿ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ ..﴾ [مريم : ٤٦] وكلما جاء رسول كذبوه ورموه وانتقموا منه وأتباعه وصدق الله ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ..﴾

[البروج: ٨] وهذا الإيمان الذى حمله هؤلاء الأنبياء الكرام والرسل العظام، كان فى نظر هؤلاء ـ أهل الباطل ـ إفتراء وتضليلا، فأصدروا حكما واحدا مازالوا يرددونه حتى يومنا هذا ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأعراف: ٦٠] فذلك لأن فرعون وجد موسى عليه السلام مضلاً، فلم يناقشه الحجة ولم يستمع إليه،لكنه أصدر حكما ـ ودائما هذا هو حال أهل الباطل ـ وماذا يحمل الحكم إنه القتل ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ [غافر:٧٢] وليس لأصحاب الدعوات أمام هؤلاء إلا طريقان ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ [ابراهيم:١٣] فمن يستخدم العنف والقهر والإكراه بل والقتل؟ أصحاب الحق أم أهل الباطل الذين ليس لديهم إلا الإخراج من الأرض أو اعتناق الباطل، وصدق الله: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج : ٤٦] .

ونقول لهؤلاء بعد أن سدوا أمامنا كل باب للحوار، وهم يملكون كل وسائل الإعلام التى حرمت على أصحاب الحق، فلا يسمع لهم صوت، ولا تعطى لهم الفرصة لتوضيح ما يحملون من أفكار ومبادىء وتصورات، نقول لهم : لا تضعوا أصابعكم فى آذانكم ولا تستغشوا ثيابكم، بل لا تصروا وتستكبروا استكبارا، فإننا لن نمل من أن ندعوكم ليلاً ونهاراً، سراً وجهراً، ونبين الحق الذى نحمله بقوة الحجة ، لا بحجة القوة ، لا فى ندوة من الندوات تعقد، سرعان ماتنس ،ولا محاضرة من المحاضرات سرعان ما تمحى، وقد يكون أحدنا ألحن فيها بالحجة من صاحبه، ولكن نسجل ما نعتقد وما ندين به فى كتاب هو أبقى من أعماركم حجة علينا، نبتغى به وجه الله، ونبين فيه موقع الجهاد من أركان الإسلام - هذه الفريضة المفترى عليها من المفرطين ، والغالين والمضيعين، والتى وصل ببعض العاملين فى حقل الدعوة

أن اعتبروا قتل النفس التى حرم الله إلا بالحق جهادا، وعلى النقيض من ذلك هؤلاء الذين اعتبروا الجهاد من أجل المقدسات والأعراض والأوطان فى فلسطين الحبيبة، وفى كل بلد تجاهد عن مقدساتها، وتدافع عن هويتها وأعراضها وبلادها تطرفا وانتحارا ، ونحن لسنا مع هؤلاء ولا هؤلاء ، إنما نحن مع فهم دقيق تعلمناه ، وآمنا به، وعملنا من أجله وضحينا فى سبيله ومن أجل مبادئه وقيمه، وتصوراته ومفاهيمه ونحسب أننا قد جاهدنا فى الله حق جاهده، بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتى هى أحسن، حتى نحظى بشرف صحبة الذين قال الله فيهم : ﴿ لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [التوبة : ٨٨] .

هل الإسلام قانون سلام أم حرب وعدوان :

ينظر أعداء الإسلام بل وللأسف بعض المسلمين، أن عالمية الإسلام لا تتحقق إلا من خلال حرب، لنشر كلمة الله، التى يشنها ولى أمر المسلمين بلا هوادة ولا تراخ، حتى تعم كلمة الله مختلف البقاع، وأصبح الناظر إلى هذه المقولة يرى أن الجهاد هو بديل تحقق به الدولة الإسلامية غاياتها ، فهو عامل توسع وارتقاء أكثر منه عامل بقاء. فماذا يقول هؤلاء حين توقفت فتوحات المسلمين عند حدود الهند شرقا، واستعصت عليهم قلاع القسطنطينية شمالا خلال عام ٧١٨/٧١٧ م ، ومنوا بهزائم حاسمة فى تور غربا عام ٧٣٢م، وواجه الإسلام ـ فيما احتضن من رقاع ـ مشكلات رئيسية كعلاقة الدولة الإسلامية بغيرها من الدول التى لا تدين به

فالإسلام هو رسالة الله إلى الناس كافة أبيضهم وأسودهم عربيهم وعجمهم ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً ... ﴾ [سبأ : ٢٨] فهو إذن دين عالمى، وهو بهذه العالمية لابد أن يحدد علاقاته على أساس من التعايش

والتعاون .

أولاً : بالدول الإسلامية التى تدين بالإسلام حتى تتحقق وحدتهم .

ثانياً : علاقته بدار المخالفين له .

فالتعاون الذى يجمع بين الدول الإسلامية يصل إلى حد التكافل، أما التعاون بين دار الإسلام ودار المخالفين، فيجرى فى حلبة التعايش القائم على الاحترام المتبادل بين دار الإسلام ودار المخالفين لحقوق كلٍّ ، وفى مقدمة ذلك احترام نشاط دار الإسلام فى الدعوة لعقيدتها ، والامتناع عن استخدام القوة أو التهديد باستخدامها ، ليتحقق التعايش أو التعاون فى ظروف مناسبة .

أما العلاقات بين الدول الإسلامية بعضها ببعض فتقوم على التعاضد والتكافل ، يقول ربنا جلت حكمته : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات : ١٠] .

وأما أن العلاقات العالمية ـ أى مع الدول غير الإسلامية – تقوم على التعايش فدليله قوله تعالى ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ﴾ [آل عمران : ٦٤] . فعبادة الله وعدم الشرك به مؤداها احترام الأسس العامة، التى تقوم عليها تلك العبادة فى معاملة الغير وتبعا ضمان أن تتعايش تلك الدول مع الدولة الإسلامية فى سلام وأمان ، كما فعلت الحبشة فى عهد الرسول ﷺ وصدر الإسلام ، فالإسلام يسعى إلى إيجاد التوافق والتعايش بين أصحاب الرسالات .

يقول فضيلة الأمام الأكبر شيخ الأزهر ينقسم أهل الكتاب وفقاً لشريعة الإسلام إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: وهم قوم لا يعيشون معنا فى بلد واحد، ولكنهم لا يسيئون إلينا، وإنما يتبادلون معنا المنافع ، وهؤلاء وضع القرآن لنا قاعدة للتعامل معهم

وهى .: ﴿ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ ﴾[التوبة ٧] .

القسم الثاني: قوم لا يعيشون معنا ولكنهم يسيئون إلينا سياسيا واقتصاديا وإجتماعيا بشكل ظاهر أو مستتر، وهؤلاء ينبغى أن نقاتلهم وندافع عن أنفسنا ضدهم كما قال الله تعالى ﴿ أُذِنَ لِلَّذِين يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ [الحج : ٣٩] .

القسم الثالث: قوم يعيشون معنا وتختلف عقيدتنا عن عقيدتهم، وتجمعنا بهم مصالح مشتركة ، وهؤلاء وضعت لنا شريعة الإسلام قاعدة للتعامل معهم وهى: « **لهم ما لنا وعليهم ما علينا** » طالما لم يناصبونا العداء ولم يؤلبوا الأعداء ضدنا »[1] ووصية سيدنا أبى بكر الصديق، حين ودّع بعث اسامة ابن زيد تصدق ذلك .

يقول له : «لا تخونوا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولاتقتلوا طفلا صغيرا ولا شيخا كبيراً ولا إمرأة ولا تغدروا ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكله ، وسوف تمرون بأقوام فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام فإذا أكلتم منها شيئا بعد شيء فأذكروا اسم الله عليه، وتلقون أقواما قد محصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فأخفقوهم بالسيف خفقا يدفعها باسم الله» [2].

كما كتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبى وقاص يقول: « أما بعد فإنى آمرك بتقوى الله على كل حال ، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو ، وأقوى المكيدة فى الحرب ، آمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراسا من

(١) مؤتمر الحوار الإسلامى المسيحى الثاني- من كلمة لفضيلة شيخ الأزهر محمد سيد طنطاوي جريدة الشعب العدد ١٠٨٩ الجمعة ١٥ ربيع الآخر الموافق ٣٠ من اغسطس ١٩٩٦م

(٢) تاريخ الأمم الإسلامية جـ١ صـ ١٧٣- فحصوا : أي كأنهم حلقوا أوسطها وتركوها مثل أفاحيص القطا وهى مجاثمها.

المعاصى منكم من عدوكم ، فإن ذنوب الجيش جند عليه ، وهى أخوف منهم على عدوهم وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لربهم ، ولولا ذلك لم تكن لنا قوة بهم ، لأن عددنا ليس كعددهم ، وإننا إن استوينا نحن وإياهم فى المعصية كان لهم الفضل علينا فى القوة ، وإن لم ننتصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا، واعلموا أن عليكم فى سركم حفظة من الله، يعلمون ما تفعلون، فاستحيوا منهم، ولا تعملوا بمعاصى الله وأنتم فى سبيل الله. . ولا تقولوا إن عدونا شرّ منافلن يسلط علينا، فرب قوم قد سلط عليهم من هو شر منهم، كما سلط على بنى إسرائيل كفرة المجوس، فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا » .

إن الحرب فى الإسلام ما كانت فى يوم من الأيام لإجبار الناس على دين الله أو على عقيدة ما، إنما لتحق الحق وتبطل الباطل، وتقيم العدل وتمحق الظلم، ليعيش الناس فى وئام وسلام متحابين، إن لم تجمعهم أخوة الإسلام، تجمعهم الأخوة الإنسانية ، ليحققوا قول الله: ﴿ يا أيُّهَا النَّاسُ إنّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وأُنثَىٰ وجعَلْناكُمْ شُعُوبًا وقبائل لِتعارفُوا إنّ أكْرَمَكُمْ عِندَ اللّه أتْقَاكُمْ﴾ [الممتحنة: ٨] .

علاقة المسلم بغير المسلم فى الدولة الإسلامية :

الإسلام من حيث كونه عقيدة يعتبر المسلمين جميعا أخوةً فى العقيدة ، ولكن من حيث كونه عقيدة وشريعة نجده يجعل من المسلمين ومَنْ يقيمون معهم ممن لا يتفقون معهم فى العقيدة، وحدة تقوم على الولاء والتبعة لدولة واحدة هى الدولة الإسلامية إن عاشوا بداخلها، ويكون فيه الوحدة الإنسانية إن كان لكل منهم دولة لا تعتدى إحداها على الأخرى﴿ لا ينْهاكُمُ اللّهُ عن الّذين لمْ يُقَاتلُوكُمْ في الدّين ولمْ يُخْرجُوكُم مّن دياركُمْ أن تبرُّوهُمْ وتُقْسطُوا إليْهمْ إنّ اللّه يُحبُّ الْمُقْسطين ﴾ [الحجرات : ١٣] .

ولا غرو فى هذا، لأن الدعوة الإسلامية جاءت لهداية البشر جميعا، وتحقيق الأخوة الإنسانية والبشرية التى تجمع بينهم فى نسب واحد هو آدم عليه السلام الأب الأول ، وحواء الأم الأولى لجميع البشر.

وإلى هذا يشير الله تعالى فى قوله: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء : ١] كما أشار إلى نفس المعنى حديث رسول الله ﷺ « أيها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب ، لافضل لعربى على عجمى، ولا عجمى على عربى، ولا أحمر على أبيض ، ولا أبيض على أحمر إلا بالتقوى »[1].

وقد راعى الإسلام فى تطبيق هذا المبدأ الإنسانى ، والهدف السامى الواقع العملى فى إمكان تنفيذه بالطرق السلمية التى تتفق ومفهوم «الإسلام عقيدة وشريعة» وقد قررت مبادىء الإسلام ونظمه أن تقاتل الدولة عن أهل الكتاب فى بلد إسلامى كما تقاتل عن رعاياها المسلمين، وأن تطبق عليهم القوانين القضائية التى تطبق على المسلمين، إلا ما يتعلق فيها بشئون الدين، فتحترم عقائدهم ، ولا يقف الأمر فى معاملتهم عند هذا الحد وإنما دعا إلى مجاملتهم وحسن معاملتهم ، وفى هذا يقول ﷺ : « مَنْ آذى ذميا فقد أذانى» والسبب فى هذا الموقف الإسلامى الوضىء، إنما يرجع إلى أن الإسلام بعقيدة التوحيد فيه لا تكره أحداً على الدخول فيها لقوله تعالى: ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ [البقرة : ٢٥٦] وقوله لنبيه ﷺ ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس : ٩٩] .

فما هى أسباب القتال إذن ؟

---

(١) حديث صحيح

كلمة لابد منها فى هذا المقام :

الاختلاف فى فروع المسائل بين العلماء أمر واقع، فبعضهم يخطئ إصابة الحق بعد اجتهاده فيحظى بأجر واحد ، وبعضهم يصيبه فيعظم الله أجره، وكان صحابة رسول الله ﷺ والتابعون لهم بإحسان كثيرا ما يقع بينهم خلاف فى الأحكام، ومع اختلافهم فإن المحبة ثابتة بينهم لا تتأثر بخلاف .ومن هذه المسائل الخلافية موضوعنا هذا « الجهاد المشروع فى الإسلام » .

لقد غالى بعض العلماء لا أقول قديما ، إنما أقول فى زماننا هذا حتى قال قائلهم ليبرهن على أن الرسول ﷺ هو دائما المبتدأ بالحرب مع الكافرين والمخالفين فقال: إن الرسول ﷺ وأصحابه لم يدافعوا عن أنفسهم فى غزوة بدر، بل كانوامبتدئين بالقتال طالبين للعدو». وقال: «إن حروب الرسول وأصحابه لهوازن وحصاره للطائف وكذلك الغزوات الأخرى حيث كان الرسول هو البادىء بالقتال لنشر هذا الدين بين الناس ولم تكن الغزوات منه لأنهم قاتلوه أو اعتدوا عليه فإنهم لم يسبق لهم ذلك إلا فى نادر الأحوال»[(١)].

فهو يريد أن يقول: إن الرسول ﷺ وأصحابه كانوا يقاتلون جميع الناس حتى يسلموا، وهذا مخالف للقرآن والسنة، لأن تحقق بداية المشركين بالعدوان لا يحتاج إلى دليل أو برهان لمن تدبر القرآن وسيرة النبى الكريم صلوات ربى وسلامه عليه.

فمن قال إن الرسول ﷺ هو البادىء بالقتال بدون سبب يوجبه من المشركين فقد أعظم الفرية عليه، وقال بما لم يحط بعلمه ، ودليل ذلك قول ربنا ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ [الحج : ٣٩ : ٤٠] .

---

(١) كتاب الجهاد في الإسلام بين الدفاع والطلب للشيخ صالح اللحيدان

فأثبت سبحانه فى هذه الآية بداية المشركين بالاعتداء بالقتال على الذين أسلموا من أصحاب النبى ﷺ ، وأنهم يسومونهم سوء العذاب ليردوهم عن دينهم كمال قال سبحانه ﴿ وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة : ٢١٧] فقد كان الصحابة يأتون إلى رسول الله ﷺ ومنهم المضروب ومنهم المجروح ، وقد توفيت سمية أم عمار تحت التعذيب لصدها عن دينها كما توفى زوجها ياسر ، وكان رسول الله ﷺ يمر عليهما وهما يعذبان ويقول: «صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة» وكانوا يحملون الحجارة ويضعونها على بطن بلال وظهره ويقولون : قل اللات والعزى فيقول : أَحَدٌ أحد، ولهذا قال ربنا ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ﴾ [الحج : ٣٩] فأثبت ظلم المشركين فى تعذيبهم للمؤمنين بفنون التعذيب والأذى، ولا ذنب لهم إلا أنهم يقولون ربنا الله ونبينا محمد ﷺ، بل لقد أخرجوا الصحابة من بلدهم، والإخراج من البلد نظير القتل فى كتاب الله، فقد خرج فوق الثمانين من الصحابة ما بين رجال ونساء إلى الحبشة يمشون على أرجلهم حتى أتوا ساحل البحر كله، فرارا بدينهم من الفتنة، وبأبدانهم من التعذيب، وبعضهم خرج مهاجراً إلى المدينة. والنبى ﷺ نفسه خرج مهاجرا مختفيا يقول « والله إنك لأحب بلاد الله اليّ ولولا أن قومى أخرجونى منك لما خرجت» وكانوا يصادرون أموال كل من هاجر، إذا لم تكن له قبيلة تحمى ماله، كما صادروا أموال صهيب الرومى وأنزل الله فيه ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [البقرة : ٢٠٧] ولهذا قال النبى ﷺ والصحابة: «ربح البيع صهيب» ومنها قوله سبحانه ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [الحشر : ٨] فأثبت سبحانه أن المشركين أخرجوا المستضعفين من بلادهم وأموالهم فى سبيل هجرتهم ونصرتهم لرسول الله

يبتغون بذلك فضلا من الله ورضوانا ، ولا ذنب لهم إلا أنهم آمنوا بالله ورسوله، وفيها قوله سبحانه ﴿ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾ [الممتحنه : ٢] وبسط اليد بالسوء هو الضرب والتجريد والشجاج وبسط الألسنة بالسوء أى السب واللعن والسخرية وسائر الأذية ﴿ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ [آل عمران : ١١٨] ومنها أن الله سبحانه أكد إبتداء المشركين بالاعتداء على النبىﷺ وعلى أصحابه فى بداية الأمر ونهايتة، فقال سبحانه :﴿ أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة:١٣:١٥] فأثبت سبحانه بداية المشركين بالاعتداء على الرسول وأصحابه فى بداية الأمر ونهايته، وأنهم نكثوا أيمانهم وعهودهم التى أبرموها مع الرسول فى صلح الحديبية، وأنهم هموا بإخراج الرسول كما حاصروه مع عمه أبى طالب فى الشعب يطالبون أبا طالب بتسليمه إليهم ليقتلوه فقال:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أُوسَّدَ فى التراب دفينا

المكر بالإسلام قائم :

ظهرت فى الفترات الأخيرة ـ من أساليب المكر التى وجهها أعداء الإسلام إلى الإسلام ـ محاولة تشويه الجهاد فى سبيل الله تعالى، وعرضه بصور بشعة، تنفر من الإسلام ، وتخدع الأغرار من الناس، والجاهلين لحقيقة هذا الدين وقواعده وشرائعه، وكان من أساليب المكر والكيد للإسلام، الترديد بأن الإسلام انتشر بالسيف، وصوروه بصورة منفرة ،ليقدموا المسلمين فى حال الجهاد بصورة الجماعات الحاقدة، التى تتقد صدورهم بنارالغضب والعصبية،

لاهم لهم سوى الفتك وسفك الدماء البريئة والنهب، إلى غير ذلك من الصور الحاقدة التى يراد بها تشويها لحقيقة الإسلام والمسلمين. والغريب فى الأمر أن الذين نسجوا على الجهاد فى الإسلام الباطل، هم الذين أقاموا حروبا وأشعلوها فى كل مكان من أجل السيطرة على الشعوب، واستنزاف خيراتها، ونهب ثرواتها ، وجعلها سوقا لبضائعهم وهم الذين زحفوا على الشعوب بالجيوش المزودة بأفتك الأسلحة المدمرة ، إلا أنهم استطاعوا بدهائهم ومكرهم وحيلتهم ، أن يخدعوا الكثيرين من أبناء المسلمين فى عرضهم وتصويرهم للجهاد فى الإسلام الذى أضفوا عليه ثوباً من التزوير والتضليل والتشويه للحقيقة، حتى وجد من هؤلاء المخدوعين من يتقدم للاعتذار لأعداء الإسلام عن الجهاد بالمفهوم الذى يعرضونه ويقدمون به المسلمين كأنهم مجموعة من الدراويش ،لاشأن لهم بسيف ولا قتال فهم منه براء، وهى فترة كانت كلها حروب وانتهت، أما المدفع والرشاش وسائر آلات الحرب فهى من حق الأعداء وحدهم أن يستعملوها، أما المسلمون فما هم منها بسبيل ، فليقروا عينا بهذه المفاهيم، وليطمئنوا بالا ، فلن يرفع المسلمون سيفا ، ولن يعلنوا حربا حتى ولو اعتدى على دينهم وأعراضهم ومقدساتهم، وبذلك يكونوا قد قضوا على فريضة الجهاد عند المسلمين، بينما القتال فى سبيل الله، غايته أن يرفرف لواء القانون الإلهى العادل على العالمين، وتعلو كلمته فى الدنيا، بحيث يتبع المقاتل فى سبيل الله ذلك القانون نفسه، وكذلك يحمل غيره من أفراد البشر على اتباعه وامتثال أوامره باقناع لا إكراه فيه حتى يحققه عن طواعية وإيمان.

ولقد وعد المولى سبحانه وتعالى الذين يقيمون الدين ، ويعلون كلمته فى أرضه ، ولا يجاوزون حدوده، ولا يعتون عن أمره -شأن المفسدين المتكبرين- وعدهم الدار الآخرة الأبدية كما قال عز من قال: ﴿ **تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا**

للَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص : ٨٣] ذلك لأن جهادهم إنما هو فى سبيل الله فقد جاء فى الصحيح أن أعرابياً قال للنبى ﷺ: الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل للذكر ، والرجل يقاتل ليرى مكانه، فمن فى سبيل الله ، قال :« من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله»[١].

إن من مهمات هذا الدين القضاء على منابع الشر والعدوان، وقطع دابر الجور والفساد فى الأرض، والاستغلال المقوت، والتسلط على خلق الله للحيلولة بين الناس وبين الإسلام، وهذا الذى عبر عنه الصحابى الجليل ربعى بن عامر رضى الله عنه بقوله لرستم، لما قال له : ما جاء بكم ؟ فقال: « إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه ، فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه ، ومن أبى قاتلناه أبداً حتى نقضى الى موعود الله . . . »[٢].

ومن هنا يتبين أن من حق الإسلام ، أن يُترك له حق دعوة الناس إليه -وليس هذا بدعا من الدعوات حتى الأرضية - بالأساليب التى تقنع الناس، وتبين لهم حقائق الدين ومحاسنه ، وأنه عندما يقف فى طريقه مَنْ يصده عن ذلك فإنما يريد للفتنة والشر والفساد أن تكون هى السائدة فى الأرض ، ولا يريد للإسلام أن يرفع رأسا،وحينئذ لا بد من تحطيم هذه العوائق لأن بقاءها يعنى سلب حرية الناس فى التعرف على الإسلام وتمحيصه ودراسته وبالتالى اعتناقه ، وبالتالى فإن من حقه كذلك أن يقف فى وجه من يحاول فتنة المؤمنين أو المساس بشىء من حقوقهم.

---

(١) البخارى الجهاد ٤/ ٤-٢٥ ومسلم كتاب الامارة ٣/ ١٥١٢.

(٢) البداية النهاية لابن كثير ٧/ ٣٩-٤٠.

لقد ضبط الإسلام العلاقات بين المجتمع المسلم وسائر المجتمعات الأخرى، وقيام ذلك الضبط على أساس أن الإسلام هو دين العالمين ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥] ولذلك ما أرسل الله رسوله إلا للناس كافة أبيضهم وأسودهم، عربيهم وعجميهم، لتفيء البشرية كلها إليه ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ فإن خلى بينه وبين كل فرد يختاره بمطلق إرادته فإنه يسالم من يفعل ذلك، وإن قاوم ذلك أحد كان على الإسلام أن يزيل العوائق التى حالت بين الدعوة ومَنْ أراد أن يستمع إليها.

إن كل صنوف الجهاد ما هى إلا وسائل للدعوة إلى الله سبحانه ، وتبليغ دينه للقاصى والدانى، وتلك هى الغاية من إرسال الرسل وإنزال الكتب، فإنه ليس من حق أى فرد أو جماعة أن تحول دون تبليغ دين الله، لأن المطلوب أن يكون دين الله هو الظاهر الغالب، و يظهره على الدين كله، والغالب على ما سواه فى الأرض ، فمن وقف دون هذه الغاية فقد أراد لسلطان الباطل والظلم أن يكون هو السائد وذلك من أعظم الفتن ، بل هو رأس كل فتنة وشر، فلا مناص من الوقوف أمامهم حتى يتركوا السبيل مفتوحا أمام من يحمل لواء دعوة الله ، حتى تبلغ الحجة مسامع العامة والخاصة.

رأى فى أسباب الإذن بالقتال :

السبب الذى من أجله أذن للمؤمنين بالقتال يرجع إلى أمرين:

الأول: الدفاع عن النفس عند التعدي.

الثاني:ـ الدفاع عن الدعوة إذا وقف أحد فى سبيلها بفتنة من آمن- أى باختباره ـ بأنواع التعذيب حتى يرجع عما اختاره لنفسه دينا، فيصد من أراد الدخول فى الإسلام عنه، أو يمنع الداعى من تبليغ دعوته.

وهذه هى المواضع التى جاء فيها ذلك الموضوع من القرآن نذكرها بايجاز شديد وسنعود إليه بتفصيل بمشيئة الله تعالى :

أولا : فأول ما نزل من أمر القتال قوله تعالى ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ [الحج : ٣٩ : ٤١] .

بينت هذه الآيات أن القتال أذن فيه للمسلمين ثم أعقبته ببيان السبب وهو: أنهم ظلموا وأخرجوا من ديارهم بغرض إلا قولهم ربنا الله ، ثم بينت انه لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت أماكن العبادة على اختلاف أشكالها ونسبها فلا يكون لله فى الأرض ذكر، ثم وصفت المؤمنين الذين أذن لهم بالقتال بأوصاف هى فى الحقيقة تنبيه لهم إلى ما يجب أن يفعلوه إذا هم انتصروا على مَنْ ظلمهم وذلك أنهم يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر. أى ينشرون الخير والمعروف والعدل والاحسان بين الناس.

ثانيا : قوله تعالى: ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾[البقرة: ١٩٠ : ١٩٤] .

بينت هذه الآية سبب القتال حيث وصفت من أُمِرَ المسلمون بقتالهم بالذين يقاتلونكم وأخرجوكم من دياركم وفتنوكم فى دينكم بما فعلوا من الأذى والظلم وجعلت لهذا القتال غاية وهى : أن لا تكون فتنة ويكون الدين لله، بأن يكون الإنسان حرًا فى دينه، لا يدين به إلا لله لا خوفا ولا طمعا ـ لأن الفتنة أشد من القتل ـ لأنها اعتداء على العقيدة والوجدان، وذلك شر ما يكون من بنى الإنسان، ولذلك نهت الآيات عن الاعتداء وأعلنت أن الله يبغض المعتدين، وهم الذين يبدأون غيرهم بالشر، وبينت أن الجزاء عند الاعتداء لا ينبغى أن يتجاوز به ما فعله البادى بالعدوان.

ثالثا: قوله تعالى ﴿ **وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا** ﴾ [النساء : ٧٥] .

بينت هذه الآية سببين للحث على القتال وهما:

١- سبيل الله ، وقد بينته آية البقرة وهو الغاية التى يسعى إليها الدين أن لا تكون فتنة ويكون الدين لله .

٢- سبيل المستضعفين الذين كانوا مسلمين بمكة وحيل بينهم وبين الهجرة فعذبتهم قريش، وفتنتهم حتى تضرعوا إلى الله طالبين منه الخلاص.

فهؤلاء لابد لهم من حماية ترفع عنهم أذى الظالمين وتنيلهم الحرية فيما يدينون ويعتقدون.

رابعاً : قال عن قوم مشركين لم يحبوا أن يقاتلوا قومهم ولا يقاتلوا المسلمين فاعتزلوا الفتنة جانبا ﴿ **فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً** ﴾ [النساء ٩] على شرط أن يكون ميلهم إلى السلام حقيقيا لا ذبذبة عندهم، فإن كانوا كذلك فقد شرح حالهم بقوله

﴿ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم كل ما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأولائكم جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا﴾ [النساء : ٩١]

فبينت هذه الآية أن لا سبيل للمؤمنين، على من اعتزل الفتنة وترك القتال وألقى اليهم السلام.

وهذا يدل على أن البراءة إنما كانت من مشركين أخلّوا بعهودهم، أول من ظهرت عليهم دلائل الخيانة لأن أول السورة ﴿ براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين﴾ [التوبة : ١] ثم استثنى منهم هؤلاء الذى ذكرهم، وهذا تنفيذ لما ورد فى سورة الأنفال ﴿ وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين ﴾ [الأنفال : ٥٨] والخوف إنما يكون بعد ظهور ما يدل عليه من أعمال العدوان، لأن من لم ينقض من عهده، ولم يظاهر عدوا، والمستقيم على عهده لا سبيل عليهم بالنص.

ومنها أنه لما خصهم فى سورة النساء على وجوب ابعاد المنافقين الذين يشتغلون سراً ضدهم قال: ﴿ إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق ﴾ [النساء: ٩٠] وهذا نص على وجوب احترام أرض ذوى الميثاق وأنها تحمى الواصل اليها.

ومنها أنه جعل فى سورة النساء قتل رجل خطأ من قوم لهم ميثاق موجبا لما يوجبه قتل مسلم خطأ فقال: ﴿ وإن كان﴾ [النساء :٩٢] المقتول خطأ ﴿ من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة ﴾ [النساء : ٩٢] وهذا بعينه هو الذى أوجبه فى قتل مسلم خطأ ﴿ ومن قتل مؤمنا خطئا فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا ﴾ [النساء : ٩٢] وجعل الدية الواجبة فى قتل المؤمن من قوم أعداء أقل من ذلك فقال: ﴿ فإن كان من قوم

عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ﴾ [النساء : ٩٢]

ومنها أنه قال عن مؤمنين بأرض العدو لم يهاجروا منها ﴿ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ ﴾ [الأنفال : ٧٢] فجعل حق الميثاق فوق كل حق ، ولم يجعل للمسلم أمدا بل ذكره مطلقا فى قوله ﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ [الأنفال : ٦١] .

ومن أول الأعمال التى عملها عليه السلام بعد الهجرة، أنه كتب كتابا بين المهاجرين والأنصار وادع فيه اليهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم واشترط لهم ، وقد جاء فيه « وإن من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم » وفيه وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين -ما داموا محاربين - وأن يهود بنى عوف أمة على المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم فإنه لا يوقع إلا نفسه وأهل بيته، وهكذا قال عن غير يهود بنى عوف، وفيه أن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم، وأنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها، وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث واشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله ﷺ على أتقى ما فى هذه الصحيفة وأبره، وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها، وأن بينهم النصر على من دهم يثرب، وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه [(١)] .

لقد سميت الحديبية فى أولها فتحا مبينا وذلك واضح، فإن الناس أمن بعضهم بعضا بسببها، وأمن طريق الدعوة التى ما كانت كل هذه الحروب إلا لتأمينها، فتفرغ عليه الصلاة والسلام لمكاتبة الملوك ورؤساء العشائر، يذهب رسله ويؤوبون وهم آمنون من شر قريش ومن شر حلفائهم، والذى ضحى

(١) محاضرات تاريخ الامم الإسلامية الشيخ محمد الخضرى صـ ٩٩ جـ١ .

فى نيل ذلك إنما هو شيء قليل جداً ولكن الناس لا يصبرون.

بهذه الهدنة أمن المسلمون شر قريش، وصارت لهم الحرية يسيرون حيث شاؤوا، إلا أنهم كان لهم عدو بالقرب منهم يتربص بهم الدوائر، وذلك العدو هم أهل خيبر، والذى فتحها حصنا حصنا، حتى جاء آخرها، وصالح أهلها على أن يبقوا فيها ويدفعوا نصف ما يخرج من أرضهم، وإذا شاء المسلمون أخرجوهم، ثم صالحه أهل فدك على مثل صلح أهل خيبر.

فماذا كانت النتيجة؟ لما حال الحول على عمرة الحديبية خرج عليه الصلاة والسلام بأصحابه الذين صُدوا فى العام الماضى ليقضوا تلك العمرة التى فاتتهم حسب عهد الحديبية، فوصل إليها فى ذى القعدة من السنة السابعة وحينئذ خرج منها أهل مكة ودخلها المسلمون.

خامسا: وقوله تعالي﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الأنفال : ٣٩] .

وهذه تؤدى ما أدته آية سورة البقرة.

سادسا: وقوله تعالي﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦١) وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾ [الأنفال : ٦١ : ٦٣] .

بينت الآية أنه ﷺ مأمور بالجنوح إلى السلم متى جنح أعداؤه لها، لأن الغرض هو تأمين الدعوة، وأن لا تكون فتنة، والسلام كفيل بهما، ولو كان الجانحون إلى السلم يريدون به الخداع، فليكن الحذر وليس القتال .

سابعا : وقوله تعالى ﴿ وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن

كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[التوبة: ١٢ :١٣].

بينت هذه الآية سببا لا يخرج عما تقدم، وهو نكث العهد والعود إلى الطعن فى الدين بالفتنة، وذكرت المخاطبين بأنهم بدؤا بالقتال أول مرة، فهم المعتدون أولا، الناكثون عهدهم أخراً، وأنتم قد أبيح لكم مجازاة من اعتدى عليكم .

وهاهم اليهود قد مالئوا قريشاً والمنافقين على المسلمين وأخافوا المسلمين فى غزوة الأحزاب، حتى زلزلوا زلزالا شديدا بعد أن كانت بينهم وبين النبى ﷺ عهود مكتوبة، فنقضوها وأخلوا بما تقضى به تلك العهود، فأمر المسلمون بالقتال كما جاء فى سوة التوبة ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [التوبة : ٢٩].

كان أمر القتال أولا قاصرا على قريش ومن يمالئهم من يهود المدينة، فلما اتحدت معهم قبائل الجزيرة من العرب قال الله ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ﴾ [التوبة : ٣٦] فالعلة فى هذا الامر بينها ربنا عز وجل فى الكتاب نصاً، وهى اتحادهم على المسلمين ووقوفهم فى سبيل الدعوة.

هذا ما ورد فى كتاب ربنا عز وجل خاصاً بأمر القتال ، وكله يعلن أن القتال لم يشرع إلا دفاعا عن أنفسهم ، وتأمينا للدعوة من أن تقف الفتنة فى طريقها وأعلن أنه لم يجىء متعديا بنهيه عن الاعتداء وأنه يجنح إلى سلم مَنْ سالمه.

ومما يؤيد تلك الروح السليمة ويوضحها ما جاء فى سورة الممتحنة ﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي

الـــذين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون ﴾ [الممتحنة: ٨: ٩]

العهود والمواثيق :

ومما يدل على أن السلام فى الإسلام هو الأصل ، المواثيق والعهود التى كانت بين رسول الله ﷺ واليهود. فمما اعتنى القرآن به عناية شديدة العهود والمواثيق وكراهة الإخلال بها ، وقد نص على ذلك نصوصاً مؤكدة، هذه العناية منها العام ومنها الخاص ، فمن العام: قوله تعالى فى أول سورة المائدة ﴿ يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود﴾ [المائدة : ١] وقوله فى سورة النحل ﴿وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم ما تفعلون ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة ﴾ [النحل : ٩٠ : ٩٢] وقوله فى سورة الإسراء ﴿ وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا ﴾ [الأسراء : ٣٤]

وأما الخاص: فمنها قوله تعالى فى سورة براءة بعد أن أعلن البرءاة من المشركين﴿ إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين ﴾ [التوبة : ٤]

فما هى الحرب المشروعة فى الإسلام؟

حكم الحرب المشروعة :

يقول أكثر الفقهاء : إن الجهاد فرض كفاية وأحياناً يكون فرض عين فى حالات معينة.

فعند الأحناف: « يفرق المذهب الحنفى بين ما إذا كان الجهاد فرض عين أم كفاية ، ففى حالة ما إذا كان النص عاما بأن هجم العدو على المسلمين كان الجهاد فرض عين، وإذا لم يكن النفير عاما ففرض كفاية».

يقول الكاسانى فى بدائع الصنائع : (١)

« فإذا عم النفير بأن هجم العدو على بلد فهو فرض عين يفترض على كل أحد من آحاد المسلمين ممن هو قادر عليه لقوله سبحانه وتعالى ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً ﴾ [التوبة : ٤١] ولقوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ﴾ [التوبة : ١٢٠] فإن لم يكن النفير عاماً فهو فرض كفاية لقوله تعالى : ﴿ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ﴾ [النساء : ٩٥] فلو كان الجهاد فرض عين فى الأحوال كلها لما وعد القاعدين الحسنى ، لأن القعود يكون حراماً ولقوله تعالي: ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ﴾ [التوبة : ١٢٠]

ويقول الزيلعى فى تبيين الحقائق : (٢)

« الجهاد فرض كفاية ابتداء، وفرض عين إن هجم العدو»، وعنده أيضا أن الجهاد فرض عين إبتداء .

وعند المالكية :

أن الجهاد فرض كفاية إلا إذا نزل العدو بساحة المسلمين أو إذا استنفر المسلمين فإنه يتعين عليهم الجهاد لوجوب طاعته ﷺ .

يقول ابن رشد : (٣)

« فأما حكم هذه الوظيفة فأجمع العلماء على أنها فرض كفاية لا فرض عين»، وقد استدل بالآية الكريمة: ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ﴾ [التوبة:١٢٢]، وبالحديث عن رسول الله ﷺ : لم يخرج قط رسول الله ﷺ

(١) بدائع الصنائع للكاسانى.
(٢) تبيين الحقائق للزيلعى.
(٣) بداية المجتهد ونهاية المقصد لابن رشد.

للغـزو إلا وترك بعض الناس. فإذا اجـتـمعت هذه اقـتضى ذلك كـون هذه الوظيفة فرض كفاية ».

ويقول القرطبى فى تفسـير قوله تعالى ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦] قال: لم يؤذن للنبى ﷺ فى القتال مدة إقامته بمكة، فلما هاجر أذن له فى قتال من يقاتله من المشـركين فقال تعالي﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ [الحج : ٣٩] ثم قال، وقال الجـمهور من الأمة : أول ما فـرض إنما كان على الكفاية دون تعيين غـير ان النبى ﷺ إذا استنفر تعين عليهم النفير لوجوب طاعته ثم قال « والذى استمر عليه الإجماع أن الجهـاد على كل أمة مـحمد ﷺ فـرض كفـاية ، فإذا قام بـه من قام من المسلمين سقط عن الباقين إلا أن ينزل بساحة الإسلام فهو حينئذ فرض عين».

ويقول الشافعية :

الجهاد فرض كفاية ، قال الشـافعى فى الأم: « فإذا كان فرض الجهاد على من فرض محتملا لأن يكون كفرض الصلاة وغيرها عامًا ومحتملاً لان يكون على غير العموم فدل كتاب الله عز وجل وسنة نبيه ﷺ على أن فرض الجهاد إنما هو على أن يقوم به من فـيه كفاية للقيـام به، حتى يسلم أهل الأوثان أو يعطى أهل الكتاب الجزية، قال: فإذا قـام بهذا من المسلمين من فيه الكفاية به خرج المتخلف منهم من المأثم فى ترك الجهاد».

وقد استدل الشافعي ـ رحمه الله ـ أن الجهاد فرض كفاية بالآية الكريمة﴿لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ﴾ [النساء: ٩٥] وبالآية ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ﴾ [التوبة : ١٢٢] ، بأنه لم يغز رسول الله ﷺ إلا وتخلف عنه فيها بشر.

وبعث جيوشا وسرايا وتخلف بنفسه، وأبان أن لو تخلفوا معاً أثموا معاً بالتخلف ، وقال فى غزوة تبوك ، وفى تجهيزه للجمع للروم ليخرج كل رجلين رجل فيخلف الباقى الغازى فى أهله وماله».

ويقول الحنابلة :

الجهاد فرض كفاية إلا فى ثلاث حالات حددها ابن قدامة يكون فيها الجهاد فرض عين.

يقول ابن قدامه فى المغني:

الجهاد فرض كفاية، ثم استدل بالآية الكريمة ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء : ٩٥] والآية ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ﴾ [التوبة : ١٢٢] وأن هذه الآية ناسخة للآية ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا . . ﴾ [التوبة : ٤١] واستدل أيضا بأن الرسول ﷺ كان يبعث السرايا ويقيم هو وسائر أصحابه ثم يقول ابن قدامه : ويتعين الجهاد فى ثلاثة مواضع :

١- إذا التقى الجمعان واستدل لذلك بقوله تعالى: ﴿ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا﴾ [الأنفال: ٤٥] وقوله تعالى ﴿ إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾ [الأنفال: ١٥].

٢ـ إذا نزل الكفار ببلد تعين على أهله قتالهم ودفعهم.

٣ ـ إذا استنفر الإمام قوما لزمهم النفير معه، واستدل لهذه بالآية الكريمة ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ [التوبة : ٣٨] ، وبالحديث عن رسول الله ﷺ « اذا استنفرتم فانفروا».

ويقول الشوكانى : فى نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار:

فى باب أن الجهاد فرض كفاية ما يأتي: « وقد استدل المصنف . . على أن الجهاد فرض كفاية»

الخلاصة :

من هذا العرض الموجز يتبين أن حكم الجهاد عند أكثر الفقهاء على أنه فرض كفاية ، إلا فى حالات معينة يكون فيها فرض عين ، ولعل ذلك هو الذى دعى ابن رشد فى بداية المجتهد إلى القول: «بأن الإجماع على أن كون الجهاد فرض كفاية، أنه لا يباح للعبد إلا بإذن مولاه ، ولا الزوجة إلا بإذن زوجها، ولا الولد إلا بإذن والديه ، وقد علل هذا الكاسانى « لأن خدمة المولى وحقوق الزوجية وبر الوالدين ، كل ذلك فرض عين فكان مقدما على فرض الكفاية » .

أما إذا كان الجهاد فرض عين فإن الجهاد لا يتحقق إلا بقيام الناس كلهم، فيكون بمنزلة الصوم والصلاة، ويترتب على ذلك أن يخرج العبد بغير إذن مولاه، والمرأة بغير إذن زوجها ، والولد بغير إذن والديه [1].

آراء الفقهاء فى أسباب القتال :

هناك اتجاهان فى الفقه الإسلامى عن سبب القتال:

الاتجاه الأول :

يقول بقتال المشركين والكفار لعدم استجابتهم دعوة الإسلام، وإصرارهم على الشرك ومحاربة المسلمين، ولكن لا يبدأ القتال إلا بعد دعوتهم إلى الإسلام أو الجزية ؛ لأنه ثبت عن رسول الله ﷺ أنه إذا بعث سرية قال لأميرها: « إذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال ، فأيتهن ما أجابوك إليها فاقبل منهم وكف عنهم » .

---

(١) من مذكرة غير مطبوعة للأستاذ أحمد جاد بتصرف .

قال الكاساني [١] :

« فإذا دعوا إلى الإسلام، إن أسلموا كفوا عنهم، لقوله عليه الصلاة والسلام: « أمرت أن أقاتل الناس فإن أبو الإسلام دعوهم إلى الذمة إلا مشركي العرب».

ثم قال: « ولهم أن يقاتلوهم إن لم يبدؤا بالدعوة لقوله تعالي: ﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ [التوبة : ٥] سواء فى الأشهر الحرام أم لا » .

وقال السرخسي [٢]:

ولا بأس أن يغيروا عليهم ليلاً أو نهاراً بغير دعوة ، لما روى أنه ﷺ أغار على بنى المصطلق وأهل خيبر ، وكان عليه الصلاة والسلام إذا أراد أن يغير على قوم صبحهم واستمع إلى النداء ، فإن لم يسمع أغار عليهم ـ أى أنه إذ لم تقم فيهم الجماعة حيث لا يؤذن للصلاة أغار على أهل الشرك والكفار.

قال الزيلعي [٣]:

الجهاد فرض عين إبتداء، أى أن نبدأهم بالقتال وإن لم يقاتلوا، وفيه الإجماع، أما عن الدعوة قبل القتال فقال : ذلك كان قبل انتشار الدعوة، أما بعد انتشارها فيحل القتال قبل الدعوة . ثم قال: ويقوم ظهور الدعوة وشيوعها مقام دعوة كل مشرك ، وهذا صحيح ظاهر والدليل عليه ما روى من اغارة رسول الله ﷺ على بنى المصطلق وهم غارّون [٤]. وأنه كان عليه الصلاة والسلام إن سمع النداء أمسك، وإن لم يسمع أغار بعد ما يصبح [٥].

---

(١) البدائع للكسائي جـ٧.
(٢) المبسوط للسرخسى جـ١٠ .
(٣) تبيين الحقائق للزيلعى.
(٤) رواه الشيخان
(٥) رواه البخارى وأحمد

وجاء فى المدونة أن الإمام مالك كان يـقول : « لا أرى أن يقاتل المشركون حتى يدعوا »[(١)].

وقال الإمام الشافعى [(٢)] :

«يجاهد من المسلمين من فى جهـاده حتى يسلم أهل الأوثان أو يعطى أهل الكتاب الجزية».

وقال فى مبتدأ الإذن بالقتال: « فـأذن لهم بأحد الجهادين بالهجرة قبل أن يؤذن لهم بأن يبتدؤا مشركا بقتـال، ثم أُذن لهم أن يبدؤا المشركين بقتال، قال تعالي: ﴿**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ..**﴾ [الحج : ٣٩]

ويبين الإمام الشـافعى الحكم فى قـتال المشركين فـيقول: الحكم فى قـتال المشركين حكمان: فمن غزا منهم أهل الأوثان ومن عبـد ما استحسن من غير أهل الكتاب، فليس له أن يأخذ منهم الجزية، ويقـاتلهم إذا قوى عليهم حتى يقتلهم أو يسلمـوا وذلك لقوله عز وجل : ﴿ **فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ..**﴾ [التـوبة :٥] ولقوله ﷺ :« أمـرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عـصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله » قال الشافعى ـ رحمه الله ـ ومن كان من أهل الكتـاب من المشركين المحـاربين قوتلوا حـتى يسلموا أو يعطوا الجـزية عن يد وهم صاغرون، فإذا أعطوها لم يكن للمسـلمين قتلهم ولا إكراههم على غير دينهم لقوله تعالى: ﴿**قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ**﴾ [التوبة : ٢٩].

---

(١) المدونة للإمام مالك

(٢) الأم للشافعى جـ٤ صـ ٩٠.

وقال ابن قدامة [١]:

« ويقاتل أهل الكتاب والمجوسى حتى يسلموا ، أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، ويقاتل من سواهم من أهل الكفار حتى يسلموا ويدعو عبدة الأوثان قبل أن يحاربوا . . »

وقد أبان ابن قدامة أن الكفار ثلاث فئات :

الأولي: أهل الكتاب ـ اليهود والنصارى ـ ومن اتخذ التوارة والإنجيل كتابا كالسامرة والفرنج ونحوهم ، فهؤلاء تقبل منهم الجزية.

الثانية : لهم شبه كتاب ـ المجوسى ـ ولهم حكم أهل الكتاب.

الثالثة: لا كتاب لهم ولا شبهة كتاب، وهذه الفئة الثالثة أورد ابن قدامة الاختلاف بين الفقهاء فقال:

١- ظاهر المذهب الحنبلى ومذهب الامام الشافعى بأن لا تقبل منهم الجزية ولا سبيل سوى الإسلام.

٢- مذهب أبى حنيفة ورواية عن أحمد، أن الجزية تقبل من جميع الكفار إلا عبدة الأوثان من العرب، لأنهم يقرون على دينهم بالاسترقاق فيقرون ببذل الجزية كالمجوسى.

٣- حكى عن مالك تقبل من جميع الكفار إلا كفار قريش لحديث بريدة بأن يدعوهم إلى إحدى ثلاث خصال.

وأما القول الذى يرجحه ابن قدامه فهو قتال جميع المشركين.

قال فى المغنى: ولنا عموم الآية ﴿ فاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ ﴾[التوبة : ٥] وقول رسول الله ﷺ : أمرت أن أقاتل الناس . . خص منهم أهل الكتاب بالآية

---

(١) المغنى لابن قدامة ـ حكم قتال الكفار .

﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ﴾ [التوبة :٢٩] والمجوس لقوله ﷺ: «سنّوا بهم سنة أهل الكتاب»، فما عداهما يبقى على مقتضى العموم.

قال القرطبى [1] :

فى تفسير قوله تعالي﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ [البقرة : ١٩٣] قال : وقاتلوهم أمر بالقتال لكل مشرك فى كل موضع ورجح ذلك للأدلة الآتية :

١ - «أمرت أن أقاتل الناس...» الحديث فسبب القتال هو الكفر.

٢- ولأنه تعالى قال:﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ [البقرة : ١٩٣] أى كفر.

ثم قال فى تفسير ﴿ فَإِنِ انتَهَوْا ﴾ [البقرة: ١٩٣] أى عن الكفر . إما الإسلام أو الجزية.

فى حق أهل الكتاب ﴿ فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة :١٩٣] والظالمون إما من بدأ بقتال أو بقى على الكفر.

ثم يقول فى تفسير الآية ﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ ﴾[2] [التوبة:٥]. «فإن تابوا أى من الشرك» ثم قال : هذه الآية فيها تأمل وذلك أن الله تعالى علق القتل على الشرك ثم قال ﴿ فَإِن تَابُوا ﴾ والأصل أن القتل متى كان الشرك يزول بزواله، وذلك يقتضى زوال القتال بمجرد التوبة، ولكن الله تعالى ذكر شرطين نظيره « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإن فعلوا ذلك عصموا منى دمائهم..».

كما قال فى تفسير قوله تعالي: ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا

(١) تفسير القرطبى طبعة كتاب الشعب صـ ٧٢٨.

(٢) القرطبى طبعة الشعب صـ ٢٩١٣.

تعتدوا﴾(١) [البقرة ١٩٠] « كان عليه الصلاة والسلام يقاتل من قاتله ويكف عمن كف عنه حتى نزل ﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ ﴾ [التوبة : ٥] فنسخت هذه الآية، فأمر بالقتال لجميع الكفار. وقال ابن عباس وعمر بن عبد العزيز ومجاهد: هى محكمة، أى قاتلوا الذين هم بحالة من يقاتلونكم ولا تعتدوا فى قتل النساء والصبيان والرهبان وشبههم.

كما قال فى تفسير الاية، ﴿ ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً ﴾(٢) [البقرة :٢٠٨] السلم هنا بمعنى الإسلام أى أدخلوا فى الإسلام، ونقل عن الطبرى « لأن المؤمنين لم يؤمروا قط بالدخول فى المسالمة التى هى الصلح، وإنما قيل للنبى ﷺ أن يجنح للسلم إذا جنحوا له وأما أن يبتدأ بها فلا » .

كما قال فى تفسير الآية ﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُم ﴾ (٣) [الممتحنة:٨] قال: هذه الآية رخصة من الله تعالى فى صلة الذين لم يعادوا المؤمنين ولم يقاتلوهم ، قال قتادة نسختها آية ﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ وقيل هى مخصوصة فى خلفاء النبى ﷺ ومَنْ بينه وبينه عهد لم ينقض، وقال مجاهد: هى مخصوصة فى الذين آمنوا ولم يهاجروا ، ثم قال : وقال أكثر أهل التأويل هى محكمة واحتجوا بأن اسماء بنت أبى بكر سألت النبى ﷺ هل تصل أمها حين قدمت عليها مشركة، قال نعم(٤)».

أما ابن رشد فيقول: فأما الذين يحاربون فاتفقوا على أنهم جميع المشركين لقوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّه ﴾[البقرة : ١٩٣].

فالذين نادوا ـ من علماء المسلمين ـ بالابتداء بحرب الكفار ، ونافحوا عن رأيهم يستندون إلى آيات من كتاب الله هذه معظمها:

---

(١) المصدر السابق صـ ٧٢٢.
(٢) المصدر السابق صـ ٨٣٠.
(٣) المصدر السابق صـ ٦٥٣٨.
(٤) رواه البخارى ومسلم.

١-قول الله تـعالي: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الـدِّيـنُ لِلَّهِ﴾(١) [البقرة: ١٩٣].

٢- وقوله تعالي: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُم ﴾[التوبة : ٥].

٣- وقـوله تعـالي : ﴿ فَإِذَا انـسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ﴾[التوبة : ٥]

٤- وقوله تـعالي : ﴿ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنـتَهُونَ ﴾ [التوبة: ١٢].

٥- وقـوله تعـالى : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِيـنَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّـهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ ﴾ [التوبة : ٢٩].

٦- وقوله تـعالي : ﴿ انـفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنـفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [التوبة : ٤١]

ويناقش الدكتور الغنيمى هذه الآيات بإيجاز فيقول : (٢)

أولا : أما الآية الأولى قوله تعالي: ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾[الأنفال: ٣٩] نزلت هذه الآية فى العام الثـانى بعد إبرام عهد الحديبـية ، وقت أن كان المسلمون يتجهزون للحج، ولكنهم لم يكونوا على ثقة بنوايا أهل مكة، وهل سيسمـحون لهم بأداء الحج، ولم يكن المسلمون متحمـسين لقتال أهل مكة ، إن هم منعوهم من البيت الحرام، لأن الوقت كان فى الأشهر الحرم، ولذا جاء الإذن الإلهى بالقتال الدفاعى، فى حدود ما قررت الآية ، وهكذا فإن أسباب النزول توضح أن الأمر بالقتال لم يستـهدف القتال العدوانى بل الدفاعى، لأن

(١) بداية المجتهد لابن رشد صـ ٣٩٢ جـ٢.

(٢) قانون السلام في الإسلام للدكتـور محمد طلعت الغنيمى أستاذ القانون الدولـي العام جامعة الأسكندرية صـ ٤٣ بتصرف.

لفظ «الفتنة» التى وردت فى الآية الكريمة تعنى أن الكفار من أهل مكة كانوا لا يزالون مستمرين فى تعذيب المسلمين، والقرآن يصف الفتنة بأنها أشد من القتل ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾[البقرة : ١٩١].

ويتأكد هذا الفهم إذا قرأنا الآية وما سبقها فعجُز الآية يقول: ﴿ فَإِنِ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾[البقرة : ١٩٣] وهذا يبين أن الأمر بالقتال كان ضد الظالمين . والقتال ضد الظالمين صورة من صور الدفاع عن الذات واقرأ قول الله تعالى فى الآيات السابقة على هذه الآية ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾[البقرة : ١٩٠ - ١٩٣].

فالآيات صريحة فى أن حق المسلمين فى مقاتلة المشركين إنما يمارس فقط ضد الذين يقاتلون المسلمين، وقد ربطت الآية محل البحث مع الآيات السابقة بواو العطف لتحديد الغاية من القتال وهو سحق الفتنة، ولا شأن لها ببدء القتال فذلك أمر حكم فيه قول الله ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا﴾[البقرة : ١٩٠].

ويذهب البعض فى تفسير قوله عز وجل ﴿ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ﴾ [البقرة : ١٩٣] إلى أن المقصود هو أن يصبح الإسلام دين الجماعة الدولية قاطبة، ولكن هذا التفسير يناقض باقى الآية حيث تقول : ﴿ فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة:١٩٣] والانتهاء هنا هو الانتهاء من الفتنة وليس الانتهاء من الكفر، فمعنى الآية هو أن يوقف القتال إذا ما توقف المشركون عن فتنة المسلمين بالقوة.

ثانيا : وأما الآية الثانية ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ . . ﴾[البقرة :٢١٦] يصدق عليها ما بيناه سلفا ، الأمر الذى يزكيه أن الآية التى تليها تقول: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ﴾[البقرة :٢١٧].

فالآية تذكر بعدوان المشركين وإصرارهم على فتنة المسلمين عن دينهم. أما القول بأن القتال قد كتب على المسلمين فلا يفسر على أنه إجازة للقتال العدوانى لأن هذا وصف لم يرد فى الآية ، وهى لا تعنى سوى تقرير حقيقة الحياة الدولية للجماعة المسلمة، تلك هى أن الحرب غدت جزءا من النظام الدولى الإسلامى وهى الأصل فى التعامل مع مَنْ يخالفوننا فى الدين وهذا ما يتمناه أعداء الإسلام.

ثالثا : أما قوله تعالى ﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ ﴾[التوبة :٥] ليتنا نقرأ فى سياق الآيات من أول السورة ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة :١] إلى قوله: ﴿ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾.[التوبة :١٣]

والآية الأولى توضح أن الآيات موجهة إلى المشركين وأنها تخص من بين المشركين أولئك الذين لا عهد لهم الذين قال الله فيهم ﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾[التوبة:٨] والحق أن هذه الآيات نزلت فى المدينة وقت أن انتهكت قريش عهد الحديبية، وهاجم حلفاؤها حلفاء المسلمين من بنى خزاعة، ولذا فإن الآيات أعطت قريشا أربعة أشهر للتسليم وإلا هاجمهم المسلمون، والذى حدث أن مكة استسلمت ولذا فإن الآيات لم تطبق عملاً، ولذلك أيضا استثنت الآيات صراحة الذين لم ينقضوا العهد، ولم يظاهروا

على المسلمين، والذين عاهدوا واستقاموا على عهدهم ، فالإذن بالقتال ليس لكفرهم إنما هو لعدوانهم ﴿ وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ﴾ [التوبة :١٢] كما بينت الآية.

رابعا : وبذلك يكون قد أتضح بجلاء أن مقاتلة أئمة الكفر، كما قال المولى سبحانه وتعالى : ﴿ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ ﴾ [التوبة :١٢] لأنهم لا أيمان لهم ، فهم الفئة الباغية المقاتلة للمسلمين فكان من الطبيعى مقاتلتهم ﴿ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴾ [التوبة :٢٩] كما تبين ذلك فى الايات التى سبقتها.

خامسا : أما قوله تعالي : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ..﴾. [التوبة:٢٩]

فالآية كما ترى تدل على أن الحكم يتعلق بفريق فحسب من أهل الكتاب، حيث ورد فيها قوله تعالى ﴿من أهل الكتاب﴾ وتبعا فإن القتال إنما يوجه إلى أولئك من أهل الكتاب الذين ارتكبوا الفعال التى وضعت فى صدر الآية [١].

ويختلف الشراح حول هذه الآية، فالبعض يقول إنها كانت مقدمة لحملة تبوك التى تجهز لها المسلمون ضد بيزنطة فى قيظ الصيف المميت، والبعض يقول إنها تتعلق بحملة خيبر، والأمر هنا سيّان لأن الحملتين جهزتا لاعتبارات دفاعية وليست عدوانية ، وإذن فالآية لا تأمر بقتال أهل الكتاب كافة وإنما تخص منهم فريقا لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرم ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق، والذى يزكى هذا الفهم قوله تعالي ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ [التوبة :٣٢].

وقوله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾[التوبة :٣٤] فالأمر يتصل بمحاولات يقوم بها

(١) الدستور القرآني في شئون الحياة - عزت دروزة صـ ٢٣٥

فريق من أهل الكتاب لمحاربة دين الإسلام - وسيأتى زيادة بيان - لتوضيح الآيات.

سادسا : أما قوله تعالى﴿ انفرُوا خفَافًا وَثقالا ﴾[التوبة: ٤١] فتستحث المسلمين على محاربة بيزنطة، والقصة أن الرسول ﷺ أنبيء بأن بيزنطة تعد العدة لغزو الجزيرة العربية لاستئصال الإسلام، فلم يكن أمامه ﷺ من بد من مواجهة هذا الخطر الداهم، بالرغم من نكوص بعض أصحابه رضوان الله عليهم، فلما وصل جيش المسلمين تبوك كانت قوات بيزنطة قد انسحبت، ولما كان القصد من الحملة دفاعيا لرد العدوان فقد عاد الرسول ﷺ برجاله دون قتال (١).

والذى يؤيد هذا القول قول الله فى السورة نفسها ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ** ﴾[التوبة :٣٨] إلى قوله تعالى: ﴿ **لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ** ﴾ [التوبة :٤٢].

فالآيات تعيب على المسلمين الذين تخلفوا عن القتال وتطالبهم بأن ينفروا خفافاً وثقالاً، وأن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله، ولكنها لا تأمرهم بقتال عدوانى ، وكل ما تقصده الآيات هو تحذير المسلمين من التخلف عن دعوة إمام المسلمين للجهاد.

زيادة بيان :

ولزيادة البيان فإننا نقول عن الآية التى يسميها البعض آية السيف تقول الآية : ﴿ **وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ** ﴾ [التوبة: ٣٦].

إن منطق البعض يعتمد على أن لفظة «كافة» تعنى كل فرد دون استثناء

(١) حياة محمد - محمد حسين هيكل صـ ٤٢٥- ٤٣٠.

وهذا ينتهى بنا إلى منطق متناقض لأن القول بأن الآية تعنى أن كل فرد مسلم ـ بلا استثناء ـ مأمور بأن يقاتل كل فرد مشرك ـ بلا استثناء ـ لا يتفق مع المبدأ الذى أوردته الآية ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة :١٢٢].

ثم إن الآية تشير إلى أن المشركين يقاتلون المشركين، وتبعا فإن قتال المشركين فى منطق الآية الكريمة هو قتال دفاعى، لأن الآية استخدمت الفعل المضارع فى وصف قتال المشركين، الأمر الذى يدل على أنه قتال ظل مستمرا إلى وقت نزول الآية بل لعله باق إلى الآن .

أما لفظة « كافة » فى الآية فإنه يرجح أنها تعنى الوحدة وليس الشمول العددى، أى أن الأمر هو أن يحرض المسلمون على وحدتهم فيكونوا يداً واحدة فى قتال المشركين، لأن ذلك هو ما يفعله المشركون فى قتالهم ، وفى رأى آخر فإن الآية تحث المسلمين على طرح خلافاتهم وراء ظهورهم لدى قتالهم المشركين.

ونود أن نشير أيضاً إلى قوله تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[البقرة :٢٤٤] يقول الشيخ المراغى فى تفسيره إن هذه الآية ارتبطت بالآية التى سبقتها وهى قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ ﴾[البقرة :٢٤٣].

فلقد سبقت هذه الآية لاقناع المسلمين بالذود عن استقلال دولتهم وحقها فى البقاء وهو موضوع الآية ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [البقرة : ٢٤٤] وذلك بالربط بين المصلحة الخاصة والمصلحة العامة، وإبراز مدى تشابك المصلحتين، ويؤكد الشيخ المراغى أن هذه الآية لا شأن لها بالحرب العدوانية، وأغلب

الظن أن هذه الآية نزلت فى أول عهد المسلمين بالمدينة، وقبل معركة بدر، وقت أن كان المسلمون لا يزالون متأثرين بسلوكهم فى مكة، ألا وهو عدم الالتجاء إلى العنف [١] ثم إن لفظة « قاتلوا» لا تعنى حتماً ولزاماً أن يكون القتال عدوانيا، لا سيما وقد قيدت الآية القتال بأن يكون فى سبيل الله، والله لا يحب المعتدين.

أما قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾[التوبة :٧٣]. يقول الدكتور الغنيمى: والحق أننا لا يمكن أن نفهم الجهاد فى هذه الآية على أنه الجهاد العسكرى، ذلك أن الآية تتعلق بالكفار والمنافقين معا، ومن أحكام الإسلام أن المنافقين لهم حكم المسلمين، وتبعاً فلا يمكن قتالهم أو رفع السيف فى وجوههم، ولو أن الجهاد فى هذه الآية يعنى القتال لما امتنع الرسول ﷺ عن تنفيذه ضد المنافقين.

إن موقف الرسول ﷺ من المنافقين تصفه الآية﴿ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴾ [الأحزاب :٤٨]، والآية صريحة فى استبعاد الجهاد العسكرى فى علاقة الرسول ﷺ بالمنافقين، ويؤكد ذلك الاية التى تليها مباشرة ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [التوبة:٧٤] فهى توضح السبب الذى من أجله طلب إلى المسلمين مجاهدة المشركين المنافقين، فهى تتهمهم بارتكاب ذنوب، وتطلب ان يكون الجهاد هو القصاص لذلك، وحتى لو فهمنا الجهاد بأنه جهاد عسكرى فنحن لا زلنا أمام صورة من الدفاع وليس العدوان.

أما قوله تعالى :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا

(١) تفسير المراغى – الشيخ أحمد المصطفى المراغى صـ ٢٠٦- ٢١٠.

فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة :١٢٣] فهذه الآية توضح بأن أسلم طريقة لهزيمة العدو هو البدء بمن هو أقرب من الأعداء، لأنه هو العدو الأكثر تهديدا. فهى إذن تعالج التكتيك والإجراء وليست فرضا لحكم عام ينطبق على الكفار جميعا كما تبين بعد توضيح هذه القضية توضيحا لا لبس فيه ولا غموض.

لقد أحاطت بالإسلام فى أول عهده ثلاث دول هى بيزنطة وفارس والحبشة، وقد حارب الإسلام بيزنطة وفارس لأنهما بدآه بالعدوان وأسرّا له العداوة والخصام، أما الحبشة فقد سالمها وسار معها على وفاق، وسبق أن آوت المهاجرين وأبت أن تسلمهم للمشركين، وتابعت بعد ذلك سياسة الود والصداقة، فكانت علاقة المسلمين بها من بين الأدلة التى لا يرقى إليها الشك على أن حرب الإسلام لم تكن عدوانية، وإنما كانت دفاعا وأمانا، وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: « المسلم مَنْ سلم المسلمون من يده ولسانه». فالمبدأ العام فى الإسلام هو ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٧].

وقد يقول قائل إن رسول الله ﷺ يقول : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا بأن لا إله إلا الله » نقول : إن الحديث لا يمكن أن يناقض القرآن ولذا فإننا لا يمكن أن نفهم هذا الحديث على أنه أمر بجهاد عدوانى حيث أن القرآن ليس فيه أمر بهذا المعنى ، فلا يعنى أن الله أمر رسوله ﷺ وحياً بشن حرب ضد الناس إلى أن يدخلوا فى الإسلام فقال ذلك، بينما يقول الله تعالى فى محكم كتابه: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ [النحل: ١٢٥] وإذن فالمفهوم المنطقى للحديث هو أنه لا يتعلق ببدء الحرب وإنما يتعلق بانتهائها.

وفى قول أخر فإن الحديث يعنى أن الرسول ﷺ قد أمر بإنهاء القتال إذا ما

شهد الناس الذين يقاتلونهم بوحدانية الله، ولا ننسى أن الرسول ﷺ حتى أثناء نشوب القتال ـ كان يجير بإجارة المشرك الذى يستجيره ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة :٦] ـ وسنعود لهذا الحديث فى حينه بمشيئة الله تعالى ـ .

والتاريخ خير شاهد على أن الرسول ﷺ ما بدأ بعدوان، بل إن قريشا هى التى بدأت بالاعتداء عليه فى مكة، ثم ظلت تلاحقه حتى بعد هجرته إلى المدينة، وقد جعلت منه قريش خارجا على قانونها، بل إنه داخل المدينة كان يواجه المنافقين واليهود ، فلم نجد تفسيرا لالتجائه إلى القوة ، إلا للدفاع الشرعى.

وعودة إلى الرسائل التى كان يبعثها إلى ملوك وحكام الدول التى كانت مجاورة له نرى كيف كان ﷺ يدعوهم بدعوة الإسلام وينصحهم بأن سلامهم يوفر لهم السلام ومن هنا ذهب ابن عمرو ابن شيبة وعطاء وسفيان الثورى إلى أن الحرب ليست واجبا دينيا إلا ضد مَنْ يعتدون على المسلمين[١].

وترى ذلك واقعا ملموسا وتطبيقا عمليا لما قلناه في حياة رسول الله ﷺ فلم تتخذ الدولة الإسلامية موقفا عدوانيا من مشركى العرب بالرغم مما عاناه النبى ﷺ من عدوانهم ،وما لقيه من عنتهم بالرغم من المواقف التالية:

١- لقد رصدوا جائزة مستحقة لمن يأتى بمحمد حيا أو ميتا.

٢- اتصلوا بعبد الله بن أبى رأس النفاق فى المدينة للنيل من رسول الله ﷺ.

٣- استخدموا قوافلهم فى الشتاء والصيف لاستعداء القبائل عليه.

٤- تواطؤا مع اليهود فى مسعاهم للنيل من رسول الله ﷺ وصحبه.

(١) قانون الحرب والسلام صـ ٥٤ بتصرف

٥- أعلن أبو جهل هذه العداوة سافرة وعالية مدوية فى الحرم أمام سعدبن معاذ، أن عداوة مكة للمدينة لن تهدأ ما بقى محمد بين ظهرانى أهل المدينة.

وهكذا كانت حياة رسول الله ﷺ فى خطر والمدينة تتوقع حركات عدوانية من مكة بين لحظة وأخرى، بل وتهددها حرب أهلية فى داخلها، فهل إذا عاش رجل فى مثل هذه الظروف يقال عنه إنه معتد إن هو لجأ إلى القوة ضد قريش للذود عن دينه وداره، لكنه الوحى الذى كان ينتظره ﷺ حتى نزل قول الله يثبت العداوة ابتداء من المشركين، ويأذن للمسلمين بالقتال ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ [الحج : ٣٩ ، ٤٠] .

وهكذا فإن الرسول ﷺ لم يشن فى حياته حربا بسبب كفر الكافرين إنما لاعتداءهم على الدين والعرض والنفس فكانت حروبه ﷺ وصحبه دفاعية.

فالمبدأ الأصيل فى الإسلام والذى لا يتغير بتغير الأزمنة والامكنة أن علاقة الدولة الإسلامية بغيرها من الدول غير الإسلامية تقوم على مبدأ عدم الاعتداء، والتعايش السلمى ، وتحريم استخدام القوة .

رأى معتبر:

المتأمل فى هذه الآراء يرى فريقاً من علماء السلف الأقدمين يرون :أن قتال الكفار سببه الكفر، وأن الكفار يقاتلون حتى يسلموا، غير أن كثيراً أيضا من علماء السلف الصالح قال عنهم ابن تيمية أنهم الجمهور ، وكذلك بعض العلماء المحدثين أيضاً وعلى رأسهم ابن تيمية نفسه فى رسالته التى ذكر فيها « قاعدة قتال الكفار» يقول: « الصحيح أن القتال شرع لأجل الحرب لا لأجل الكفر، وهذا هو الذى يدل عليه الكتاب والسنة، وهو مقتضى الاعتبار، ذلك أنه لو كان الكفر هو الموجب للقتال، لم يجز إقرار كافر بالجزية» والذى يقف

على سيرة الرسول ﷺ وأصحابه في حروبهم وفتوحهم للبلدان، يتحقق من أن القتال في الإسلام إنما شرع دفاعا عن الدين ، ودفع أذى المعتدين، لأن الإسلام يسالم من يسالمه.

وقد قال بعض العلماء من المتأخرين أن دعوى القتال للاكراه على الدين، إنما دخل على المسلمين عن طريق النصارى حيث كانوا يشنعون به دائما على الإسلام والمسلمين، ويجعلونه في مقدمة تبشيرهم إلى دينهم، وينشرونه في كتبهم، ويلقنونه للطلاب في مدارسهم بقصد تنفير الناس عن دين الإسلام، واحتقاب العداوة لأهله، فهو أكبر مطاعن النصارى على الإسلام وعلى المسلمين، فسرى هذا إلى اعتقاد البعض من العلماء وأكثر العامة، لظنهم أنه صحيح واقع، ومن طبيعة البشر كراهة اسم الإكراه والإجبار مهما كانت عاقبته، وصاروا يتناقلون هذا القول في كتبهم حتى رسخ في قلوب العامة وبعض العلماء.

والحق يقال: إننا إذا تصدينا للدعوة لدين الله، فإنه يجب علينا أن نصف الإسلام بما هو أهله، وبما هو معلوم عن محاسنه واتصافه بالرأفة والرحمة لسائر الناس لقول الله سبحانه ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] أي للخلق أجمعين - بدلا من أن نصفه بالعقاب والشدة لكل من لقيه من الكفار.

إن الإسلام يسالم من يسالمه، ولا يقاتل إلا من يقاتله أو يمنع نشر دعوته بالقوة والبطش، ويقطع السبيل في منع إبلاغها للناس، فإنهم بمنع إبلاغها يعتبرون معتدين على الدين وعلى الخلق أجمعين، ذلك لأن الله سبحانه أمر بابلاغ هذا الدين، والتبشير به جميع خلقه فقال سبحانه ﴿ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ﴾ [الأنعام : ١٩] فمتى أقبل دعاة الإسلام على بلد ليدعوا أهلها إلى دين الله بالحكمة والموعظة الحسنة ويجادلوهم بالتي هي أحسن ، فإن فتح لهم

الباب، وسهل لهم الجناب، وأذن لهم فى نشر الدعوة، فهذا غاية ما يبتغون، وبذلك فيفرح المؤمنون فلا قتل ولا قتال، وكل الناس آمنون على دمائهم وأموالهم، وقد فتح المسلمون كثيراً من البلدان بهذه الصفة مما يسمى صلحا.

أما إذا نصبت لهم المدافع، ووجهت نحوهم أفواه البنادق ،وسلت فى وجوهم السيوف ، ومنع الدعاة منعاً باتاً من حرية نشر دعوتهم، وعن الاتصال بالناس فى إبلاغهم دين الله الذى فيه سعادتهم وسعادة البشر كلهم، فإنهم يكونون معتدين على الإسلام ودعاته.

عندئذ وجب الدفاع عن الدين، وعن دعوة الإسلام ، فيجب على الدعاة إلى الله إقتحام كل شدة ومشقة وخوض كل خطر وضرر فى سبيل الله وفى سبيل إبلاغ دينه، حتى يزول المنع والاضطهاد والفتنة عن الدين، أليس هذا حق اعتدى عليه؟ وقوة غاشمة صدت عن سبيل الله؟ أين هذا العدل والحق مما يسمى بالنظام العالمى اليوم، الذى يعاقب الشعوب بمجرد أن حكامها لا يخضعون لهذا النظام، فسرعان ماتصدر الأحكام، فيهلك الحرث والنسل ويفرض النظام بالإكراه،ويخضع له الجميع وإلا فحرب اقتصادية، وعزل عالمى، فيموت الأطفال الرضع، ويهلك المرضى والزمنى،لتكون كلمة النظام العالمى هى العليا، ويتم حصار الدول الإسلامية والعربية، لا لشيء إلا أن شعوبها تقول ربى الله ، وأكبر دليل على ذلك ما تفعله اسرائيل فى فلسطين من اعتداءات صارمة ،تقتيل وتذبيح وانتهاك للقرارات الدولية، فلا نرى لها عقوبة، ولا يسمع للنظام العالمى حتى ولا كلمة عتاب بل حق الأعتراض مستطاع ومكفول إذا أرادت دول العالم أن توجهه ضد التوسع الاستراتيجى أو الاعتداء اليهودى ولكن هيهات !! فأى النظامين أحق بالدفاع عنه يا من تعقلون؟ ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾[محمد: ٤].

وهذا الدفاع والقتال من أجل الدعوة ، هو فى سبيل الله لا محالة، وقد

سئل النبى ﷺ عن الرجل يقاتل للغنم، والرجل يقاتل للذكر، والرجل يقاتل ليرى مكانه فمن فى سبيل الله ، قال ﷺ :« من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » .(١)

مع شيخ الإسلام ابن تيميه رحمه الله :

قال الإمام ابن تيميه - رحمه الله - فى«قاعدة قتال الكفار»: اختلف العلماء فى قتال الكفار، وهل سببه المقاتلة أو مجرد الكفر على قولين مشهورين للعلماء.

أحدهما :سببه المقاتلة أى الاعتداء على الدين وأهله، وهذا هو قول الجمهور كمالك وأحمد بن حنبل ، وأبى حنيفة وغيرهم.

الثاني: أن سببه الكفر وهو قول الشافعى، وربما علل به بعض أصحاب أحمد من أن السبب فى القتال مجرد الكفر.

قال وقول الجمهور هو الذى يدل عليه الكتاب والسنة والاعتبار، قال الله سبحانه : ﴿ **وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ** ﴾ [البقرة : ١٩١] .

فقوله ﴿ **الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ** ﴾ [البقرة : ١٩٠] تعليق للحكم بكونهم يقاتلوننا، فدل على أن هذا علة الأمر بالقتال وقوله ﴿**وَلا تَعْتَدُوا**﴾ [البقرة : ١٩٠] فسره بعض العلماء بقتال من لم يقاتل، وبالمُثلة والغلول وقتل النساء، والصبيان، والرهبان والشيوخ، وأصحاب الصوامع، وتحريق الأشجار، وقتل الحيوان. فدل على أن قتال من لم يقاتل أنه عدوان ، وهذه الآية محكمة وليست منسوخة على قول الجمهور.

---

(١) رواه البخارى ومسلم في حديث أبي موسي.

ثم استدل بقوله ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ ويَكُونَ الدِّينُ لِلَّه﴾ [البقرة : ١٩٣] . قال: والفتنة أن يفتن المسلم عن دينه كما كان المشركون يفتنون كل من أسلم عن دينه بصده عنه ، ولهذا قال: ﴿ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ [البقرة : ١٩١] وقوله ﴿يَكُونَ الدِّينُ لِلَّه ﴾ [البقرة : ١٩٣] وهذا يحصل إذا ظهرت كلمة الإسلام وكان حكم الله ورسوله غالبا وحينئذ يصير الدين لله . وأما قوله : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها». هو ذكر للغاية التى يباح قتالهم إليها،بحيث إذا فعلوها حرم قتالهم. وليس المراد منه أنى أمرت أن أقاتل كل أحد إلى هذه الغاية ، فإن هذا خلاف النص والإجماع ، فإنه لم يفعل هذا قط بل كانت سيرته أنه من سالمه لم يقاتله».

ويضيف ابن تيمية: [1]

« وإذا كان أصل القتال المشروع هو الجهاد، ومقصوده هو أن يكون الدين كله لله ، وأن تكون كلمة الله هى العليا، فمن منع هذا قوتل باتفاق المسلمين. وأما من لم يكن من أهل الممانعة والمقاتلة كالنساء ، والصبيان، الرهبان، والشيخ الكبير، والأعمى،والزمنى، ونحوهم، فلا يقتل عند جمهور العلماء إلا أن يقاتل بقوله أو فعله، وإن كان بعضهم يرى إباحة قتل الجميع لمجرد الكفر، والأول هو الصواب - لأن القتال هو لمن يقاتلنا إذا أردنا إظهار دين الله كما قال الله ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِين ﴾ [البقرة : ١٩٠] وفى السنن أن النبى ﷺ مرّ على امرأة مقتولة فى بعض مغازيه، وقد وقف عليها الناس فقال: ما كانت هذه لتقاتل، وفيها أيضا عنه ﷺ أنه كان يقول : لا تقتلوا شيخا فانيا، ولا طفلا

(١) السياسة الشرعية لابن بتيمية.

صغيرا ولا امرأة، وذلك أن الله سبحانه أباح من قتل النفوس ما يحتاج إليه صلاح الخلق، والفتنة أكبر من القتل، فمن لم يمنع المسلمين من إقامة دين الله لم تكن مضرة كفره إلا على نفسه».

إن الإسلام جعله الله رحمة للعالمين، وقد حرم حرب الاعتداء والظلم، وقصر الحرب المشروعة على تقرير المصالح، ودفع المفاسد، لأن الإسلام هو دين السلم والسلام، ولا يمكن أن يتمتع العالم بالسعادة، والراحة، إلا بهداية الإسلام، وقد أمر الله عباده بأن يؤثروا السلم على الحرب فقال تعالى ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [الأنفال : ٦١] لأن الإسلام يكره إراقة الدماء إلا لضرورة تقتضيها المصالح ودفع المضار، والضرورة تقدر بقدرها.

ولهذا أمر الله عباده المؤمنين بأن يشدّوا الحملة بالقوة والشدة فى حالة قتال عدوهم، وأن يتصفوا بما وصفهم الله به بقوله﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح : ٢٩].

ومتى كان الغلب لهم فى القتال واستولوا على عدوهم، فإنه ينبغى بأن يكفوا عن القتل، ويكتفوا بالأسر، ثم ينظروا فى أمر الأسرى على سبيل التخيير، إما بالمن عليهم بإطلاقهم بدون فدى، كما منّ رسول الله على قريش وأهل مكة فقال لهم : أذهبوا فأنتم الطلقاء.

وإما بأخذ الفداء منهم كما أخذ النبى ﷺ من أسرى بدر ـ قال تعالى : ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد ٤] ولم يقل فإذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق ولا تطلقوهم حتى يسلموا أو يقتلوا، كما يقول من يرى أن القتال سببه الكفر.

وقد أذاع أعداء الإسلام فيما تجنوا به على الإسلام بأن القرآن يأمر أتباعه

بأن يقتلوا الكفار حيثما لقوهم، مستدلين بمثل هذه الآية، بينما المراد من هذه الآية وأمثالها هو لقاء المحاربين للدين وللمسلمين، لكون الكفار فى شرع الإسلام ثلاثة أصناف:

١- محاربون للمسلمين فيقتلون حيثما ثقفوا كما يفعلون بنا .

٢-معاهدون ومنهم المسالمون فلا نتعرض لهم مدة عهدهم ما استقاموا عليه.

٣- ذميون لهم ما للمسلمين، فالإسلام يسوى بينهم وبين المسلمين فى جميع أحكامه القضائية، ويوجب حمايتهم والدفاع عنهم حتى بالقتال، وحرمة مالهم ودمائهم كحرمة المسلمين ودمائهم،لهم ما لنا وعليهم ما علينا.

وقد رفع إلى العلامة ابن القيم رحمه الله مسألة حاصلها هو: أنه تخاصم رجل مسلم مع رجل نصرانى فى قضية ، فلم يجد النصرانى عند المسلم ما يشفيه ولا وقع دواؤه على الداء فيه ، فسطا به المسلم ضربا وقال: هذا جواب مسألتك، فقال النصرانى صدق قومنا إذ يقولون: إنما قام الإسلام بالسيف ولم يقم بالكتاب، فتفرقا هذا ضارب وهذا مضروب فضاعت الحجة بين الطالب والمطلوب.

قال فشمر المجيب عن ساعد العزم، ونهض على ساق الحد،ولم يقل مقالة العجزة والجهال: إن الكفار إنما يعاملون بالجلاد دون الجدال، فإن هذا فرار من الزحف وخلاد إلى الضعف. فمجادلة الكفار بعد دعوتهم إقامة للحجة، وإزاحة للعذر ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة[1].

ولأجل هذه القضية عمل ابن القيم عمله فى تأليف كتابه « هداية الحيارى فى أجوبة اليهود والنصارى» وجعله كالجواب للقائلين أن دين الإسلام الحنيف إنما قام بالسيف ولم يقم بالكتاب، وكلامه فيه يوافق ويطابق كلام شيخ

(١) هداية الحيارى لابن القيم.

الإسلام فى رسالته « **قتال الكفار** ».

خلاصة القول :

أردت أن أنقل لك من أقوال الفقهاء ما يستبين لك به آراءهم فى قتال المشركين موضحاً رأى كل فريق، خاصة رأى المتأخرين الذين يقولون برأى جمهور الفقهاء ـ كما بين ابن تيمية ـ بعدم القتال إلا عند الاعتداء، فيكون القتال عندهم دفعا للظلم ، ورد للاعتداء،وأن الأصل فى العلاقة بين المسلمين وغيرهم هى السلم.وهذا رأى جمهور الفقهاء كما ذكره ابن تيمية .

وهذا الرأى غير شائع ولا واضح بين كثير من المسلمين اليوم ، خاصة بعض العاملين فى حقل الدعوة الإسلامية، إلا أن الجهل بالشيء لا يعنى عدم وجوده، فهو موجود بأدلته الفقهية المقنعة.والمسندة إلى رجاله .

وهذا هو الرأى الذى تستريح إليه النفس ، ويطمئن بأدلته القلب ، ويقتنع بواقعيته العقل، وإن كانت هذه القضية خلافية بين علماء المسلمين ، ومع أن القاعدة الذهبية التى ذكرها الإمام النووى تحسم القضية ألا وهى : « المختلف فيه لا إنكار فيه ».إلا أننا فى زماننا هذا ندين بالرأي الذى يقول به جمهور العلماء من أن القتال ليس من أجل الكفر بل هو من أجل الإعتداء، فلتتسع الصدور لهذا الرأى خاصة أن أدلته مقنعة قوية والقائلون به جمهور علماء السلف وبعض الخلف ولأنه يرد على إفتراءات أعداء الإسلام والمشوهين لحقائقه، ويبين الوجه الوضاء لدعوة الإسلام وهو يخدم مصالح المسلمين ونشر دعوتهم بالحسني، والدفاع عن الصاق تهمة الأرهاب بهم وتصويرهم الإسلام بأنه دين الدماء ، وأن المسلمين لا يعرفون حواراً، ولا يتحملون سماع الرأى الآخر، خاصة أن كلا الرأيين لا يدعوان لتعطيل هذه الفريضة -الجهاد- أو إنكارها وهى التى أن تركها المسلمون ذلوا، أنما يتفقون فى

فرضتها ويختلفون في أسبابها ومتى تكون؟

بل أن أصحاب الرأيين - هما سلفي المنهج - يختلفون اختلافا بيناً واضحاً لا لبس فيه مع من يدعون إلى استخدام القوة، وقتل الأبرياء بغير حق لأن الذين يستخدمون القوة والعنف لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، فالأولون يحكمهم الفقه الدقيق الذى يسع المختلفين فى الفروع، أما هؤلاء فخلافهم فى أصول، قد تصل بالحكم على الناس بالكفرعاصيهم وطائعهم ، قاعدهم ومجاهدهم، وعلى المجتمع بدار الحرب، وعلى الدعوة بكمال بالانتشار والفهم والتبليغ فلا حاجة للناس بتبيان بعد أن استبان سبيل المجرمين- كما يدّعون- فليس أمامهم إلا القتال. لجميع هؤلاء ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. ومن هنا كان لابد أن نبين خلافنا معهم، والفرق ما بيننا وبينهم، لا لشيء إلا لإقامة الحجة، وتوضيح ما نحمل من منهج وما ندين به من دين .

شروط القتال :

«الإعلان »

إذا كان المسلمون بصدد قتال المشركين والكفار فإنه يشترط قبل القتال دعوتهم إلى الإسلام أو الجزية أو الحرب على ما رأينا من أقوال الفقهاء.

يقول ابن رشد: فأما شرط الحرب فهو بلوغ الدعوة باتفاق، أعنى أنه لا يجوز حرابتهم حتى يكونوا قد بلغتهم الدعوة وذلك شيء مجمع عليه من المسلمين.

أما فى حالة ما إذا كان بين المسلمين والمحاربين عهد وخاف المسلمون الخيانة منهم كان لابد من إعلانهم بالحرب ، والأصل فى ذلك قوله تعالي: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ﴾ [الأنفال: ٥٨] قال الإمام

القرطبى فى تفسير هذه الآية والمعنى: وإما تخافن من قوم بينك وبينهم عهد خيانة فانبذ إليهم العهد ، أى قل لهم نبذت إليكم عهدكم وأنا مقاتلكم ليعلموا ذلك فيكونوا معك فى العلم سواء ، ولا تقاتلهم وبينك وبينهم عهد، وهم يثقون بك فيكون ذلك خيانة وغدرا ، ثم بين هذا بقوله ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ** ﴾ [الأنفال : ٥٨] .

من الذى يفرض عليه القتال؟

إذا كان الجهاد هو بذل الجهد والوسع والطاقة بالقتال، فإن كل فرد ليس بمستطيع ذلك، ولذلك تكلم الفقهاء فيمن يجب عليه الجهاد ومن ليس كذلك.

جاء فى البدائع : [(١)] ويفترض على القادر عليه، فمن لا قدرة له لا جهاد عليه، لأن الجهاد بذل الجهد وهو الوسع والطاقة بالقتال، ومَنْ لا وسع له كيف يبذل الوسع والعمل ؟ فلا يفرض على الأعمى والأعرج والزمنى والمقعد والشيخ الهرم والمريض والضعيف والذى لا يجد ما ينفق، لقوله تعالي﴿ **لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ..** ﴾ [النور : ٦١] والآية ﴿ **لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ ..** ﴾ [التوبة : ٩١] ولا على المرأة والصبى لأن بُنْيَتَهما لا تحتمل الحرب عادة ﴿ **لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا** ﴾ [البقرة : ٢٨٦] وكذلك المجنون بحكم المرض ولا العبد إذا كان الجهاد فرض كفاية - كما بينا من قبل - .

وفى المدونة : فى باب الغزو بالنساء. قال ابن القاسم سألت مالكاً عن رجل يغزو ومعه أهله إلى الرباط على بعض السواحل فقال: «لا بأس بذلك» وقال: « لا أرى أن يُخرج بالنساء فى الحرب » كما قال: « لا بأس أن يخرج

---

(١) بداية المجتهد لابن رشد تحت هذا العنوان.

الرجل بأمرأته فى عسكر لا يخاف عليهن لقتلهن، مثل الأسكندرية وما أشبهها».

فالأصل فى خروج المرأة إلى ميدان المعركة أنه لا يجوز، وليس عليها جهاد - فرض الكفاية - ولكن يستثنى من ذلك الأصل، أن تخرج إلى الثغور المحصنة من المسلمين، والتى لا خوف عليها ولا تتعرض للمشركين».

وفى المذهب الشافعى:

يشترط البلوغ والعقل والذكورة والحرية والذى يجد ما ينفق والقدرة على القتال بألا يكون مريضا، يقول الرملى: لا جهاد على الصبى والمجنون والمرأة والمريض وذى عرج ، والأقطع، والأشم، والعبد، وعادم أهبة نفسه وكل عذر منع وجوب الحج منع الجهاد»(١).

وفى المذهب الحنبلى:

اشترط شروطا نص عليها صراحة العلامة ابن قدامة فقال فى المغنى: يشترط الإسلام والبلوغ والعقل والحرية والذكورية، والسلامة من الضرر، ووجود النفقة».

وقد إستدل على شرط الذكورة لما ورد من سؤال عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها: أعلى النساء جهاد؟ فقال ﷺ : جهاد لا قتال فيه، الحج والعمرة. كما استدل لشرط السلامة من الضرر بالآية الكريمة ﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ [النور : ٦١] وقوله تعالى ﴿لَيْسَ على الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ﴾ [التوبة ٩١]

---

(٢) نهاية المحتاج للرملى . باب الجهاد.

وهنا يعن لنا سؤال هل على الغريم جهاد ؟

إذا كان شخص مدينا بدين فهل يخرج إلى القتال بإذن دائنه أم بغير إذن؟ لأن فى خروجه احتمال استشهاده فيفوت حق الدائن بفوات النفس الشاغلة للدين.

للفقهاء فى هذه القضية آراء:

الرأى الأول: يقول الإمام الشافعى: لا يخرج إلا بإذن إلا أن يترك ضمانا.

الرأى الثاني : قال به الإمام مالك وهو يخرج إلى القتال لأنه لا يجوز حبسه بالدين فلا يجوز حبسه به عن القتال.

الرأى الثالث: لابن قدامة ويقول: بعدم خروجه إلا بإذن لأن مع احتمال قتله احتمال تفويته حق الدائن، إلا إذا كان الجهاد فرض عين فى الأمور التى ذكرها سابقا فإنه يتعين الخروج.

الرأى الرابع: للإمام أحمد وهو أنه لا يجوز خروج الغريم بغير إذن إن ترك تأمينا، واستدل بأن أبا جابر خرج إلى أُحد وعليه ديون كثيرة فاستشهد وقضاه ابنه عنه فلم يذمه النبى ﷺ على فعله بل مدحه ، وقال لجابر بأن الله كلم أباك كفاحا» وهو سبب نزول الآية الكريمة **﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾** [آل عمران] .

فإذا تعين عليه الجهاد فلا إذن لغريم لأنه تعلق بعينه، فكان مقدما على ما فى الذمة ولكن لا يتعرض لمظان القتل من المبارزة والوقوف فى أول المقاتلة كما ذكره أحمد.

مَنْ يحل قتله من الحربيين؟

إذا قامت الحرب فى بلد فإنه لا يحل قتل كل الناس المحاربين فمن لا قدرة

له على القتال ولا رأى له فيه فإنه لا يحل قتله لورود الآثار عن رسول الله ﷺ ولقد اختلف الفقهاء فى ذلك.

المذهب الحنفي:

توسع فى تحريم القتال فحرم قتل المرأة والصبى والشيخ والمقعد.

ويابس الشق ، والأعمى، ومقطوع اليد والرجل من خلاف، ومقطوع اليد اليمني، وكذلك المعتوه، والراهب فى صومعته، والسائح الذى لا يخالط الناس، ولكن إذا قاتل أحد منهم، أو كان له رأى فى الحرب، فإنه يحل قتله - كما جاء فى البدائع.

أما المالكية:

فكان مالك يكره قتل النساء، والصبيان ، والشيخ الكبير فى أرض الحرب «وذكر فى وصية أبى بكر رضى الله عنه ليزيد حين بعثه إلى الشام قال: وستجد قوما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم لله فدعهم وما زعموا . . ، إنى أوصيك بعشر لا تقتلن امرأة ولا صبيا ولا كبيرا هرماً ولا تقطعن شجرا . .» وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه « ولا تقتلن هرما ولا إمرأة ولا وليدا وتوقوا قتلهم إذا التقى الزحفان» (١).

أما الشافعية:

فقد جاء فى نهاية المحتاج للرملى : ويحرم قتل صبى ومجنون وامرأة وخنثى وراهب وأجير وشيخ وأعمى وزمنى لا قتال منهم ولا رأى فى الأظهر . . فمن كان له رأى وتدبير حرب جاز قتاله قطعا».

أما بالنسبة للأعمى والمعتوه وأصحاب الصوامع والشيوخ فللشافعى قولان: الأول ما ذكره الرملى والثانى ما ذكره ابن رشد قال فى بداية المجتهد : وقال

---

(١) المدونة جـ٢ صـ٦.

الشافعى فى الأصح عنه تقتل جميع هذه الأصناف».

وذكر ابن قدامة عن الشافعى فى أحد قوليه « يقتل الشيخ» للحديث اقتلوا شيوخ المشركين » وللآية الكريمة﴿ اقتلوا المشركين﴾ وهو عام ثم قال ابن قدامة: ولنا أنه لا يقتل للحديث « لا تقتلوا شيخا فان. . »[1].

ولقد لخص الخلاف السابق بن رشد فى بداية المجتهد فقال:

« ولا خلاف بين المسلمين أنه يجوز فى الحرب قتل المشركين الذكران البالغين المقاتلين، ولا خلاف بينهم فى أنه لا يجوز قتل صبيانهم ولا قتل نسائهم ما لم تقاتل المرأة والصبى، واختلفوا فى أهل الصوامع المنتزعين عن الناس والعميان والزمنى والشيوخ الذين لا يقاتلون، والمعتوه والحراث والعسيف، فقال مالك لا يقتل الأعمى ولا المعتوه ولا أصحاب الصوامع ولا الشيخ الفانى ، وبه قال أبو حنيفة وأصحابه وقال الشافعى فى الأصح عنه تقتل جميع هذه الأصناف.

وقد ذكر بن رشد عن أسباب الاختلاف « إختلافهم فى العلة الموجبة للقتل فمن زعم أن العلة الموجبة لذلك هى الكفر لم يستثن أحدا من المشركين، ومن زعم أن العلة فى ذلك إطاقة القتال للنهى عن قتل النساء مع أنهن كفار استثنى من لم يطق القتال ومن لم ينصب نفسه إليه كالفلاح والعسيف».

متى ينتهى القتال؟

ينتهى القتال للأسباب الآتية :

١- إسلام الحربيين.

٢- إعطائهم الأمان.

٣ - أو عقد الصلح .

٤ - الذمة.

---

(١) رواه أبو داود.

أولاً : الإسلام :

إذا أسلم الحربى فإنه يحرم دمه وماله وعرضه، وصار واحداً من المسلمين وتنطبق عليه أحكام الإسلام. فقد جاءت أحاديث صحيحة كثيرة فى تحريم قتل الكافر إذا نطق بالشهادتين منها: أن أسامة بن زيد قال بعثنارسول الله ﷺ فى سرية فصبحنا الحرقات من جهينة فأدركت رجلاً فقال : لا إله إلا الله ، فطعنته فوقع فى نفسى من ذلك فذكرته للرسول ﷺ فقال: أقال لا إله إلا الله وقتلته؟ قال: قلت يا رسول الله إنما قالها خوفاً من السلاح. قال: أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا ؟ فما زال يكررها حتى تمنيت أنى أسلمت يومئذ، قال فقال سعد وأنا والله لا أقتل مسلما حتى يقتله ذو البطين يعنى أسامة ـ قال . وقال رجل ألم يقل الله وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ، فقال سعد : قد قاتلنا حتى لا تكون فتنة وأنت وأصحابك تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة» (١).

وفى رواية أخرى قال قلت يا رسول الله إنما كان يتعوذ ، قال: أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله؟ قال : فمازال يكررها علىّ ،حتى تمنيت أنى لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم.

وفى رواية أخرى قال رسول الله ﷺ : أقتلته؟ قال : نعم قال: كيف: بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة ؟ قال يا رسول الله استغفر . قال : كيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟ قال : فجعل لا يزيد على ان يقول كيف تصنع بلا إله إلا الله يوم القيامة؟

وذكر الإمام القرطبى فى تفسير قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا ﴾ [النساء: ٩٤].

---

(١) مسلم في باب تحريم قتل الكافر بعد قوله لا إله إلا الله طبعة الشعب صـ ٢٩٠.

أن هذه الآية نزلت في قوم من المسلمين مرّوا فى سفر برجل معه جمل وغنم يبيعها، فسلم على القوم وقال لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فحمل عليه أحدهم فقتله ، فلما ذكر ذلك للنبى ﷺ شق عليه ونزلت الآية.

قال القرطبي:

« إن المسلم إذا لقى الكافر ولا عهد له جاز له قتله، فإن قال: لا إله إلا الله لم يجز قتله، لأنه قد اعتصم بعصام الإسلام، والمانع من دمه وماله وأهله، فإن قتله بعد ذلك قتل به » .

والحق يقال أن عصمة دم الكافر بمجرد النطق بالشهادة، ولكن لابد للمسلم أن يؤمن بما جاء به رسول الله ﷺ .

يقول الإمام أبو جعفر الطحاوى : ونسمى أهل قبلتنا مسلمين مؤمنين ما دامو بما جاء به النبى ﷺ معترفين، وله بكل ماقال وأخبر مصدقين »(١).

كما قال الإمام أبو محمد على بن حزم: وأول ما يلزم كل أحد ولا يصح الإسلام إلا به، أن يعلم المرء بقلبه علم يقين وإخلاص لا يكون بشيء من الشك فيه أثر، وينطق بلسانه ولابد بلا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وبرهان ذلك قول رسول الله ﷺ: « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله الا الله ويؤمنوا بى وبما جئت به فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله » (٢).

وفى شرح صحيح مسلم للنووى قال : واتفق أهل السنه من المحدثين والفقهاء والمتكلمين، على أن المؤمن الذى يحكم بأنه من أهل القبلة ولا يخلد فى النار لا يكون إلا من اعتقد بقلبه دين الإسلام اعتقادا جازما خاليا من الشكوك ونطق بالشهادتين.

---

(١) العقيدة الطحاوية لأبي جعفر الطحاوى.
(٢) المحلى جـ١ صـ ٤ لابن حزم.

أما إذا أتى بالشهادتين فلا يشترط معهما أن يقول : وأنا بريء من كل دين يخالف دين الإسلام، إلا إذا كان من الكفار الذين يعتقدون إختصاص رسالة نبينا ﷺ إلى العرب، فإنه لا يحكم بإسلامه إلا أن يتبرأ ، ومن أصحابنا أصحاب الشافعي - رحمه الله - من شرط أن يتبرأ مطلقا وليس بشيء، أما إذا إقتصر على قوله لا إله الا الله ولم يقل محمداً رسول الله، فالمشهور من مذهبنا ومذاهب العلماء أنه لا يكون مسلما، ومن أصحابنا من قال يكون مسلما، ويطالب بالشهادة الأخرى فإن أبى جعل مرتدا ويحتج لهذا القول بقوله ﷺ : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله . . .»[1] ويقول الإمام القرطبي فى تفسير قوله تعالى ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا . . ﴾ [النساء : ٩٤] قال :فإن قال : سلام عليكم فلا ينبغى أن يقتل حتى يعلم ما وراء هذا لأنه موضع اشكال ثم قال : وأرى أن يرد إلى مأمنه ولا يحكم له بحكم الإسلام لأن الكفر قد ثبت له فلا بد وأن يظهر ما يدل على قوله ، ولا يكفى أن يقول أنا مسلم أو مؤمن، ولا بد أن يصلى حتى يتكلم بالكلمة العاصمة التى علق النبى ﷺ الحكم بها عليه فى قوله : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله » [2].

ثانيا: الأمان:

إذا أعطى المسلم الأمان للحربي، فإنه يحرم به دمه ، وماله وأسره . لذلك يشترط فيمن يعطى الأمان من المسلمين شروط اختلف عليها الفقهاء.

ففى المذهب الحنفي:

يشترط المذهب شروطا لإعطاء الأمان للحربى وهى :

---

(١) صحيح مسلم شرح النووى صـ ١٢٧ .

(٢) ولزيادة تبيان عليك الرجوع إلى رسالة الحد الفاصل بين الكفر والإيمان للمؤلف.

١- أن يعطى فى حالة ضعف المسلمين وقوة المحاربين، لأنها تكون فرصة لاستعداد المسلمين للقتال.

٢- العقل ، فلا يجوز أمان المجنون والصبى على خلاف فى المذهب. والراجح اشتراط العقل.

٣- الحرية على الراجح فى المذهب.

٤- الوقوف على حال المسلمين أى أن يصدر من شخص يعرف حال المسلمين وحال الكفرة، ولا يشترط السلامة من العمى والزمانة والمرضى لأن الأمان يصدر عن رأى ولا يتأثر الأمان بهذه العوارض.

كما لا يشترط إصداره من الجماعة، فيجوز أمان الواحد لواحد أو لجماعة ولو لأهل مصر من الأمصار.

يقول صاحب البدائع: إن شرائط الأمان هى : حال يكون بالمسلمين ضعف وبالكفرة قوة، لأن القتال فرض، والأمان يتضمن تحريم القتال فيتناقض، وإذا حصل الأمان فى هذه الحالة فإنه يكون قتالاً معنىً لوقوعه وسيلة إلى الاستعداد للقتال فلا يؤدى إلى التناقض، ولا يجوز أمان الصبى والمجنون عند عامة العلماء . . وكذلك السلامة من العمى والزمانة والمرضى ليست بشرط فيصح أمان الأعمى والزمنى والمريض لأن الأصل فى صحة الأمان صدوره عن رأى ونظر فى الأصول الخفية من الضعف والقوة، وهذه العوارض لا تقدح فيه ، ولا يجوز أمان التاجر فى دار الحرب ولا الأسير فيها، والحربى الذى أسلم فى دار الحرب لأن هؤلاء لا يقفون على حال الغزاة» وكذلك الجماعة ليست بشرط فيجوز أمان الواحد للحديث « ويسعى بذمتهم أدناهم » فيصح من الواحد سواء من جماعة كثيرة أو قليلة، وأهل مصر أو قرية فذلك جائز»

واختلف فقهاء الحنفية فى أمان العبد، فعند أبى حنيفة وأبى يوسف لا يصح، وعند محمد بن الحسن يصح، وبه قال الشافعى بما جاء فى البديع.

أما الحنابلة: فقالوا يشترط فيمن يعطى الأمان: أن يكون مسلماً عاقلاً مختاراً لا مكرهاً ، ويشترط الا يعطى الأمان لأهل بلد خلافاً للمذهب الحنفى كما سبق ولا يشترط الحرية ولا الذكورة .

يقول العلامة ابن قدامة فى المغنى :

« ومن أعطاهم الأمان منا من رجل أو امرأة أو عبد جار أمانه» ثم ذكرالخلاف بين الفقهاء فى أمان العبد، فعند الشافعى يصح الأمان من كل مسلم بالغ عاقل مختار ذكر أو أنثى ،حراً أو عبداً.

وعند الامام أبى حنيفة وأبى يوسف «لا يصح أمانه إلا أن يكون مأذوناً له فى القتال، لأنه لا يجب عليه فيصبح كالصبي».

وقد رجح ابن قدامة صحة أمان العبد فقال فى المغنى : ولنا ما روى عن النبى ﷺ : ذمة المسلمين واحدة يسعى بذمتهم أدناهم [١].

ويقول عمر رضى الله عنه « العبد المسلم رجل من المسلمين ذمته ذمتهم ولأنه مسلم مكلف» والمرأة يجوز أمانها للحديث الشريف « قد أجرنا ما أجرت يا أم هانيء» [٢].

أما عن أمان الصبى المميز فقد ذكر ابن قدامة الخلاف بين الفقهاء، فعند أبى حنيفة والشافعى لا يصح أمانه، أما الإمام مالك فيصح.

قال ابن قدامة : « لا يصح أمان الصبى المميز- وبه قال أبو حنيفة والشافعى لأنه غير مكلف كالمجنون » ، أما الأمام مالك فقال: يصح أمانه

---

(١) البخارى .

(٢) حديث صحيح .

لعمـوم الحديث ولأنه مسلم مميز، فـصح أمانه كالبـالغ، وفارق المجنون لإنه لا قوة له أصـلا ، ثم قال ولا يصح أمان زائل العقل بنوم أو سكـر أو إغماء ، ولا من مُكره ، ويصح أمان أحاد المسلمين للواحد والعشرة ، ولا يصح أمانه لأهل بلدة لأنه تعطيل للجهاد والافتيات على الإمام.

ويرى الدكتور حامد سلطان أن العـلاقة بين دار الإسلام ودار الحرب تقوم على الأمان ،وان الأمان نوعان:

١- أمان مؤقت. ٢- أمان دائم.

وأن الأمان المؤقت نوعان:

١- أمان خاص . ٢- أمان عام.

فالأمـان المؤقت الخاص: هو ما يبـذله المسلم فى مقابلة لواحـد أو لجمع محصورين. وأما الأمان المؤقت العام: فـهو ما يبذل لغير المسلمين، وهو حق لا يملكه إلا الإمام. وفى حكم هذا الأمان المؤقت العام المهادنة.

أما الإمـان الدائم: فهو ما يثـبت بعقد الذمـة ويتولى هذا العقـد من قبل المسلمين الامـام أو نائبـه، وهو إنما يصح على أهل الكتـاب ومشـركى غيـر العـرب، ويعلن بأن الأمـان الدائم أو المؤبـد يدخل فى نطاق القـانون العـام الداخلى، ولا شـأن له بعـلاقـة الدولة الإسـلامـيـة بالدول الأخـرى غـيـر الإسلامية[١].

وحرى بنا أن نشير هنا إلى رسل أهل إيلياء، حينما جاءوا إلى سيدنا عمر ابن الخطاب رضى الله عنه يطلبون الأمان فكتب لهم ما نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم: هذ ما أعطى عبـد الله عمر أمير المؤمنين أهل

(١) أحكام القانون الدولي في الشريعة الإسلامية حامد سلطان صـ ١٠٧- ١١٢.

إيلياء من الأمان: أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها، أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم، ولا ينتقص منها ولا من خيرها، ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود، وعلى أهل ايلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوت، فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم، ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية أو من أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بيعهم وصلبانهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم، ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان، فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن شاء سار مع الروم ومن شاء رجع إلى أهله وإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم.

وعلى ما فى هذا الكتاب عهد الله، وذمة رسوله، وذمة الخلفاء، وذمة المؤمنين، إذا أعطوا الذى عليهم من الجزية »[1].

وكان رضى الله عنه يقول: «اللهم إنى أشهدك على أمراء الأمصار أنى إنما بعثتهم ليعلموا الناس دينهم، وسنة نبيهم، وأن يقسموا بينهم فَيْأهم، وأن يعدلوا فإن أشكل عليهم شيء رفعوه لي ».

وخطب مرة فقال: أيها الناس إنى والله ما أرسل عمالاً ليضربوا أبشاركم، ولا ليأخذوا أموالكم، ولكن أرسلهم ليعلموكم دينكم، وسنة نبيكم، فمن فعل به شيء سوى ذلك، فليرفعه إليّ فوالذى نفس عمر بيده لأقصّنه منه ».

فوثب عمرو بن العاص فقال: يا أمير المؤمنين أرأيتك إن كان رجل من

---

(١) تاريخ الامم الإسلامية جـ٢ صـ ٤.

أمراء المسلمين على رعية فأدب بعض رعيته إنك لتقصه منه ، قال أى والذى نفس عمر بيده إذاً لأقصّنه منه ، وكيف لا أقصه منه. وقد رأيت رسول الله ﷺ يقص من نفسه، ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم، ولا تجمهروهم فتفتنوهم، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم، ولا تلزموهن الغياض فتضيعوهم» (١).

كما كتب عثمان بن عفان-رضى الله عنه-إلى أمراء الأجناد بالثغور قال:

« أما بعد فإنكم حماة الإسلام وذادتهم ، وقد وضع لكم عمر ما لم يغب عنا ، بل على ملأ منا، ولا يبلغنى عن أحد منكم تغيير ولا تبديل، فيغير الله بكم ويستبدل بكم غيركم، فانظروا كيف تكونون فإنى أنظر فيما ألزمنى الله النظر فيه والقيام عليه » (٢).

كما كتب إلى الأمراء والأمصار يقول:

«أما بعد فإن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة، ولم يتقدم إليهم أن يكونوا جباة، وإن صدر هذه الأمة خلقوا رعاة ولم يخلقوا جباة وليوشكن أئمتكم أن يصيروا جباة ولا يصيروا رعاة، فإذا عادوا كذلك أنقطع الحياء والأمانة، والوفاء،ألا وإن أعدل السيرة أن ينظروا فى أمور المسلمين وفيما عليهم فتعطوهم الذى لهم وتأخذوهم بما عليهم، ثم تعتنوا بالذمة فتعطوهم الذى لهم وتأخذهم بالذى عليهم،ثم العدوالذى تنتابون،فاستفتحوا عليهم بالوفاء»(٣).

ثالثا: عقد الصلح:

الصلح أو المعاهدة أو الموادعة بمعنى واحد.

(١) المصدر السابق جـ٢ صـ ١٢.
(٢) المصدر السابق جـ ٢ صـ ١٢.
(٣) المصدر السابق جـ ٢ صـ٢٦.

والصلح هو الاتفاق على ترك القتال، وبه يثبت الأمن للكفرة من القتل، وقد اشترط الفقهاء شروطا فى هذا العقد.

الأحناف :

يشترط المذهب الحنفى شروطاهى :

١- أن توجد ضرورة لعقد الصلح وهى الاستعداد للقتال بأن كان بالمسلمين ضعف مع قوة المحاربين.

٢- لا يجوز الصلح بحال إلا فى حالة استثنائية وهى إذا خاف المسلمون الهلاك.

٣- أن يكون فى الصلح خير للمسلمين، وإلا فلا يوادعهم الإمام.

جاء فى البدائع :

الموادعة هى المعاهدة والصلح على ترك القتال وشرطها الضرورة، وهى فرصة للاستعداد للقتال بإن كان بالمسلمين ضعف وبالكفرة قوة. فلا تجوز عند عدم الضرورة ، لأن الموادعة ترك القتال المفروض فلا يجوز إلا فى حال يقع وسيلة إلى القتال ، وهى حينئذ تكون قتالا معنى قال تعالى : ﴿ **فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ..** ﴾ [محمد : ٣٥]

وعند تحقق الضرورة لا بأس لقوله تعالي: ﴿**وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا** ﴾ [الأنفال : ٦١] ولا يشترط إذن الإمام بالموادعة حتى لو وادعهم الإمام أو فريق من المسلمين من غير إذن الإمام جاز، لأن الحصول عليه كون عقد الموادعة مصلحة للمسلمين وقد وجد».

وجاء فى المبسوط: وإذا طلب قوم من أهل الحرب الموادعة سنين بغير شيء نظر الإمام فى ذلك ، فإن رآه خيرا فعل ، إذا كان للمشركين شوكة أو

احتاج أن يعين فى دار الحرب ليتـوصل إلى قوم لهم بأس شديد فلا يجد بدا من أن يوادع . . . وإذا لم تكن الموادعة خيرا فـلا يوادعهم لقوله تعالى ﴿ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ ﴾ [محمد : ٣٥] .

جاء فى تبيين الحقائق: « ولو حاصـر العدو المسلمين وطلبـوا الصلح بمال يأخذونه من المسلمين ، لا يفعل الإمام ذلك، لما فيه إعطاء الدنية، وإلحاق الذلة بالمسلمين وفى الخبر « ليس للمؤمن أن يذل نفسه» .

والأصل فى المذهب أنه لا يجـوز الصلح على مـال، كـما رأينا فى قـول الزيلعى فى تبـيين الحقائق ، ولكن الزيلعى - رضى الله عنه - يجوّز الصلح بمال استثناء، إذا خاف المسلمون الهلاك، واستدل لذلك بقول رسول الله ﷺ يوم الأحزاب، وإعطاء المؤلفة قلوبهم، واعتبر ذلك فى حكم الجهاد .

قال الذيلعى فى تبيين الحقائق شارحاً هذا الاستثناء مدعما بالأدلة:

« . . إلا إذا خـاف الهـلاك، لأن دفع الهـلاك بأى طـريق أمكن واجب، وفعل الرسـول ﷺ ذلك يوم الأحزاب حـيث أراد أن يصرفـهم عن المسلمين بثلث ثمـار المدينة كل سنة . . وإن عـدل رسـول الله ﷺ عن ذلك إلى رأى سعد بـن معاذ وسعد بن عـبادة، بألا يعطيهم إلا السـيف إنما كان فى تعليل رسول اللـه ﷺ « إنى رأيت العرب رمـتكم عن قوس واحـد، فأحـببت أن أصـرفهم عنكم، فـإن أبيـتم ذلك فأنتـم وذاك » ، وميل رسـول الله ﷺ فى الابتداء دليل على أنه يجـوز ذلك عند خوف الهلاك، وقد كـان عليه السلام يعطى المؤلفة لدفع ضررهم، وكل ذلك جهاد معنىً» .

أما الحنابلة : اشترطوا فى مذهبهم شروط لعقد الموادعة

١- أن تكون من الإمام أو نائبـه، خلافا للمـذهب الحنفى الذى يجوز أن تعقد من فريق من المسلمين من غير إذن الإمام.

٢- أن تكون الموادعة مصلحة للمسلمين ، وتوسع فى هذه المصلحة فجعلها لطمع فى إسلام الحربيين أو أداء الجزية أو المشقة لغزو أو غير ذلك، وهذا بخلاف المذهب الحنفى الذى اشترط الضرورة وهى الاستعداد للقتال.

٣- لا يشترط أن تكون الموادعة بعوض أو غير عوض خلافاً للمذهب الحنفى أيضاً الذى رفض الموادعة بعوض إلا فى حالة استثنائية واحدة وهى الخوف من الهلاك.

٤- لا يشترط المذهب مدة معينة فقد تكون أكثر من عشر سنوات.

جاء فى الإقناع باب الهدنة:

« الهدنة وهى العقد على ترك القتال مدة معلومة بعوض أو بغير عوض، وتسمى مهادنة وموادعة ومعاهدة ومسالمة، ولا يصح عقدها إلا من إمام أو نائبه ويكون العقد لازما ويلزم الوفاء به ، فمتى رأى المصلحة فى عقدها لضعف المسلمين عن القتال، أو لمشقة الغزو، أو لطمعه فى إسلامهم، أو فى أداء الجزية ،أو غير ذلك ولو فوق عشر سنين ».

وقال العلامة ابن قدامة فى المغنى »

« ومعنى الهدنة أن يعقد لأهل الحرب عقد على ترك القتال مدة بعوض وبغير عوض، وتسمى مهادنة وموادعة ومعاهدة، ولا يجوز ذلك إلا بالنظر للمسلمين إما لضعف أو لطمع فى إسلامهم أو أدائهم الجزية».

فإذا خاف الإمام الخيانة أو رأى أن فى هذه الموادعة شر للمسلمين نبذ إليهم عهدهم، ولكن يعلنهم حتى يعلموا ذلك فيعودوا إلى ما كانوا عليه من التحصين ، ولا يحل قتالهم قبل النبذ، وقبل أن يعلموا بذلك لقول الله تعالى : ﴿ وإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ

الْخَائِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨] .

رابعا: عقد الذمة:

ويعقد هذا العقد الإمـام أو نائبه مع أهل الكتاب أو من فى حكمهم، مع التزامهم بأداء الجزية ،وإجراء أحكام الإسلام عليهم.

جاء فى الاقناع تحت باب عقد الذمة:

« لا يصح عقدها إلا من إمام أو نائبه ، ويحرم من غيره ، ويجب عقدها إذا جمعت الشروط ويؤدون الجزية والاستسلام.

ولا يجـوز عقـدها إلا لأهل الكتاب ولمن وافـقـهمـا فى التدين بالتـوراة والإنجيل كـالسامرة والفرنج ، ولمن له شـبهة كـتاب كالمجوس والصـابئة وهم جنس من النصارى » .

الإسلام والجزية :

عقد الذمة ـ كـما أشرنا ـ هو عقد بين طرفين : الدولة الإسلامـية ، وغير المسلمين المقيمين على أرضـها ، وهى ليست وضعا دائما لا يتـغير ، بل هى «عقد » يرد عليه ما يرد على العقود من عوارض ، ومنها انتهاء العقد لأسباب كثيرة ذكرها الفقهاء ـ ليس هنا مجـالها خاصة أنها تفوق الحصر ـ ولا ارتباط بينها وبين الجزية .

وأما الجـزية كمـا قال الإمام ابن حـجر العـسقلانى فى شـرحه لصـحيح البخارى [(١)] قال : إن الجزية عند الجمهور (أى أكثـرية الفقهاء) بدل الجهاد، ولذلك اسقطت عمـن قبل الاشتراك من غيـر المسلمين فى الدفاع عن الدولة الإسلامـية . فقد أسقطهـا سراقة بن عمرو عـن أهل أرمينية سنة ٢٢ هجرية

---

(١) شرح البخارى لابن حجر العسقلانى جـ ٦ صـ ٣٨ .

وأسقطها حبيب بن مسلمة الفهرى عن أهل أنطاكية ، وأسقطها بعض قواد جيش أبى عبيدة بن الجراح - وأقره أبو عبيدة ومَنْ معه من الصحابة - عن الجراجمة وهم أهل مدينة تركية حاصرها المسلمون ثم صالحوا أهلها على ترك الجزية ومشاركة جيش المسلمين فى مواجهة الروم ، وصالح عبد الله بن أبى سرح أهل النوبة - حين كان واليا على مصر - على عدم سداد الجزية ، بل على هدايا تتبادل كل عام بين الفريقين ، وصالح المسلمون أهل قبرص فى زمن معاوية بن أبى سفيان على خراج وحياد بين المسلمين والروم .

فهى فى أصح الأحوال بل ورأى الجمهور كما ذكر بن حجر العسقلانى أنها عن مشاركة غير المسلمين فى أداء واجب الجندية ، فإن اشتركوا سقطت.

إنه عدل الإسلام وسماحته فى معاملة أهل الكتاب إن هم شاركوا فى الدفاع عن الأوطان فإن لهم مالنا وعليهم ما علينا .

* * *



الخاتمة

* موقع الجهاد.
* القرآن وآهل الباطل.
* النصر لمن يرفعون راية الحق.
* الفرق بين موتتين.
* عسكريتنا من حضارتنا.
* أمة مجاهدة.
* الفرق بين غايتين ومقصدين .
* الجهاد ركن ومبدأ من مبادىء الإسلام
* المجاهدون لا يقهرون .
* دور المرأة فى المعركة .
* الروح المعنوية .
* حكم الله فى موالاة الأعداء .
* الحرب فى الإسلام عدل ورحمة .
* أسلوب إعلان الحرب أخلاقى .
* معاملة العدو أخلاق ودين.
* بعد النصر.
* جهاد لوحدة الصف .
* الإمام الشهيد حسن البنا يقول .

###



الخاتمة

. موقع الجهاد :

إذا ذكر الإسلام اتجهت النفس إلى ذلك الدين الذى جاء به سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ ، فأصلح به من شأن الشعوب العربية ، وألف بين قلوبها ، وهيأها لأن تسيح إلى ما جاورها من الأقاليم، وتؤسس سلطانا يرتكز على دعامة ذلك الدين.

ولذلك من أراد أن يتعرف على الإسلام لابد له من نظرة كلية إلى هذا الدين كمنهاج حياة ، ولا يتحقق ذلك إلا ببحث أمور ثلاثة يستتبع بعضها بعضا:

الأول: الدين الإسلامى وكيف تأسست قواعده، وتقررت مبادؤه ، والمصاعب التى وقفت فى طريقه حتى غلبها الثبات والصبر.

الثاني: تأثيره فى النفوس العربية حتى استعدت لبسط سلطانها على ما جاورها من الأقاليم وما كان منها فى سبيل ذلك من الحروب والأعمال، حتى عظم قدرها، واتسع سلطانها منقادا إلى سلطان الدين

الثالث: ما كان من انتقال هذا السلطان عن الأمم العربية إلى غيرها من الأمم التى دانت بالإسلام. وما كان للدين من تأثير فى قيام دولة وأخرى ، وفى حضارة الأمم التابعة لسلطانه [1].

وهذه العلوم والمعارف لابد لها من تبيان وتوضيح يحتاج إلى صبر جميل، ونحن نعيش فى عصر التبست فيه المفاهيم، وشوهت المعانى، وأبعد الإسلام

---

(١) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية - المحاضرة الأولى فى تاريخ الإسلام جـ١- الشيخ محمد الخضرى.

عن الحياة ، وأصبح الذى يقدم منه قشـورا ومظاهر بعيدة عن جوهره كمنهاج حياة، فابعـاد الشريعة عن العقيدة مقصـود من الذين جعلوا هذا القرآن عزين حتى لا يعود مرة أخـرى يقود البشرية إلى الخير، فـيحق الحق ويبطل الباطل ولو كره الكافرون.

لذا كان لابد لهذا الدين من رجال يقولون: هذا كـتابنا ينطق بالحق فيبينون حلاله وحرامه، وأمره ونهيه ، ومحكمه ومتـشابهه وعقيدته وشريعته وكل ما يتصل به كما بينه المصطفى ﷺ ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل : ٤٤]

وبذلك يتبين موقع الجهاد من بين أركانه وقواعده - كما رأيت - .

وهذا التـبيان يتـطلب دعوة بالحكمـة والموعظة الحسنة والمجـادلة بالتى هى أحسـن. وذلك لإقامة الحـجة على الـكافرين، ولتـستبـين سبيل المجـرمين، وتوضيح الحق الذى يدعوا إليه عباد الله الصالحين، وليروا أثر هذه الدعوة فى نماذج بشرية، هى قرآن يتحرك قدوة قبل الدعـوة، وتطبيقا لمنهج الحياة، وقيام هؤلاء الأفراد ضرورة من ضرورات الإصلاح فى المجتمع لأمور ثلاثة :

أولا: ليكونوا قدوة عملية لمن لا يعرف الإسلام، فإذا رآهم تأس بهم ، وتلقى دينه عنهم.

ثانيا: ليكونوا مـذكرين للغـافلين والمغـرورين الذين يدعون الإسـلام وعطلوا أحكامه، وعاشوا بـاسمه عالة عليه، فإذا ظهرت الـقدوة ظهر عوارهم وبان تخلفهم ،فلعلهم يبصرون .

ثالثا: ليكونوا حـجة على من ادعى العـجـز فى التطبيق الإسـلامى الكامل، وليوقن أن الإسـلام ما جـاء إلا ليطبق ليكون واقعـاً معاشـا يراه الناس فتقام الحجة عليهم.

وفى هذه المرحلة لابد من الصبر على ما يلقاه المسلمون من إيذاء وكف الأيدى والصفح الجميل، وهى مرحلة يربى فيها الدعاة على ضبط النفس والصبر والثبات أمام ما يلاقونه من الأذى والفتنة ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠] وقوله تعالى ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وبهذا السلوك والأخلاق يتميزون ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [الشورى: ١٥] وبهذا التميز، وهذه الأخلاق يفتح الله القلوب الغلف والأعين العمى والآذن الصم.

والله سبحانه وتعالى يؤيد هذه الدعوة برجال آمنوا بها فألف بين قلوبهم بعد العداوة التى كانت بينهم، كما حدث فى فجر الدعوة فكانوا من كتيبة الإسلام التى قويت شوكتها. بثابتهم على الحق ، وتحملهم الإيذاء، وحسن العرض لدعوتهم، والتحلى بأخلاقها.

وبهذه الدعوة المتأنية فى صدر الدعوة تكونت القاعدة الصلبة القوية فى دينها، وصلتها بربها، وتفانيها من أجل دعوته سبحانه، ومتانة رابطة الإيمان فيما بين أفرادها، فهدى الله بهم خلْقا كثيرا سخروا جميع ما آتاهم الله من قوى وطاقات فى سبيل نشر الدعوة وإيصالها للخلق، فاهتدى على أيديهم أيضا كثير من خلق الله.

ما أشبه الليلة بالبارحة بعد أن قضى الأعداء على الخلافة الإسلامية ولم يعد للمسلمين قوة، وصدق فيهم قول رسول الله ﷺ فيما يرويه أبو هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول لثوبان: « كيف بك يا ثوبان إذا تداعت

عليكم الأمم كتداعيكم على قصعة الطعام تصيبون منه ؟» قال ثوبان : بأبى أنت وأمى يا رسول الله أمن قلة بنا ؟ قال: «لا أنتم يومئذ كثير ولكن يلقى فى قلوبكم الوهن» قالوا : وما الوهن يا رسول الله ؟ قال: «حبكم الدنيا وكراهيتكم القتال» (١).

فهل هناك سبيل غير سبيل رسول الله ﷺ ؟ كلا!! هى العودة إذن إلى منهاج الله، وهذه العودة لا تكون بالتمنى وإنما بالعزم والجهاد الذى يوصل إليها وببدايته التى ينطلق منها . وليست البداية ـ إلا كما قلنا ـ التى بدأ بها رسول الله ﷺ وهى الدعوة إلى الله ، وصناعة الرجال وفق منهج الخالق عز وجل الذى يقول ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ [البقرة : ٨٣] وتربية أجيال مؤمنة صابرة محتسبة ـ والحمد لله فإننا نرى صحوة إسلامية فى شباب نبذ العنف، وصبر على القهر والإيذاء وقدم نماذج أخلاقية ، ومازال يدعوا بالحكمة والموعظة الحسنة إلى أن يقضى الله أمراً كان مفعولا، مقتديا برسوله ﷺ، عرف طريقه وحدد أهدافه ويرنو لغاية، فالله الغاية والرسول القدوة.

هذا الرسول الكريم الذى عاش لدعوته فما تحرك إلا من أجلها، وما سكن إلا لها، وما أكل وما شرب وما نام وما أفاق إلا فى سبيلها، وجعل عقله وقلبه وجوارحه وحياته كلها لها . فدعا إلى الله فى جميع الأحوال : فى السلم والحرب والسراء والضراء والسعة والضيق وما نسى يوما أنه خلق ليدعو إلى الله» (٢).

واستمر ﷺ هو وصحبه الكرام يدعون إلى الله على بصيرة وينيرون للناس الطريق ، ويبصرونهم بضلال المضلين، وافتراء المفترين، وألاعيب المنافقين،

---

(١) رواه أحمد والطبرانى فى الأوسط واسناد أحمد حسن ـ انظر مجمع الزوائد جـ٢ صـ ٢٨٧ وسنن أبى داود جـ٢ صـ ٤٢٦

(٢) الجهاد ميادينه وأساليبه الدكتور محمد نعيم ياسين صـ ٨٦.

وتشويه الكافرين، لقـرآن رب العالمين، ولا يكلّون ولا يملّون ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة .

القرآن وأهل الباطل:

والقرآن الكريم يفـضح أهل الباطل وأعوانهم بما يقـومون به من لبس الحق بالباطل، لإخفـائه وكتمانه وتضيـيعه فى غمار البـاطل، على علم وعن عمد وقصد، وهو أمر مستنكر قبيح ، وهذه طريقتهم على مدار التاريخ.

لقد بدأ اليهود هذا الأمر منذ اللحظـة الأولى ، ثم تابعهم الصليبيون وفى خلال القرون المتطاولة دسوا - مع الأسف - فى التراث الإسلامى ما لا سبيل إلى كشفه إلا بجهد القرون، ولبسوا الحق بالباطل فى هذا التراث كله - اللهم هذا الكتاب المحفوظ الذى تكفل الله بحفظه أبد الآبدين.

ودسوا ولبسوا فى التاريخ الإسلامى وأحداثه ورجاله ، ودسوا ولبسوا فى التفسير القرآنى حتى تركوه تيـها لا يكاد الباحث يفىء فيه إلى معالـم الطريق، ودسوا ولبسوا فى الـرجال أيضا، فالمئات والألوف كانوا دسيـسة على التراث الإسلامـى ، وما يزالون فى صـورة المستـشرقين وتلامـيذهم الذين يشـغلون مناصب القيادة الفكرية فى معظم بلاد المسلمين، والعـشرات من الشخصيات المدسوسة على الأمـة المسلمة فى صورة أبطال مصنوعين على عين الصهـيونية والصليبية، ليـؤدوا لأعداء الإسلام من الخدمـات ما لايملك هؤلاء الأعداء أن يؤدوه ظاهرين. كـمـا دسـوا ولبسـوا فى المصطلحـات، فـالتـدين رجـعيـة والاستمساك تطرف، والجهاد إرهاب، وهكذا.

وما يزال هذا الكيد قـائما مطردا ، وما تزال مثابـة الأمان والنجاة منه هى اللياذ بهذا الكتاب المحفوظ، والعودة إليـه لاستشارته فى المعركة الناشبة طوال هذه القرون.

إن لهذه القوى اليوم فى أنحاء العالم الإسلامى جيشا جراراً من العملاء فى صورة أساتذة، وفلاسفة، ودكاترة ، وباحثين، بل وكتابا، وشعراء، وفنانين، وصحفيين، يحملون أسماء المسلمين، لأنهم انحدروا من سلالة مسلمة ، وبعضهم يدعى أنه من علماء المسلمين بل ويدرس فى الجامعات الإسلامية لأبناء المسلمين ،ويتولى قيادة وتوجيه أمور الدين.

هذا الجيش من العملاء موجه لخلخة العقيدة فى النفوس. بشتى الأساليب فى صورة بحث وعلم وأدب وفن وصحافة وتوهين قواعدها من الأساس، وانكار شريعتها أو رميها وتشويهها، هى والعقيدة على السواء، وتأويل ذلك وتحميله مالا يطيق، والدق المتصل على رجعيتها، والدعوة للتفلت منها، وإبعادها عن جمال الحياة إشفاقا عليها من الحياة أو إشفاقا على الحياة منها، وابتداع تصورات ومثل وقيم وقواعد للشعور والسلوك تناقض وتحطم تصورات العقيدة ومثلها وقيمها، وتزيين تلك التصورات المبتدعة بقدر تشويه التصورات والمثل الإيمانية وإطلاق الشهوات من عقالها، وسحق القاعدة الخلقية التى تستوى عليها العقيدة النظيفة، لتخر فى الوحل الذى ينثرونه فى الأرض نثرا، ويشوهون التاريخ كله ويحرفونه كما يحرفون النصوص، ولقد حظى الجهاد الإسلامى بالنصيب الأوفر والأوفى،حتى أنكر وجوده بعض المسلمين،وشوهه بعض آخر،حتى أصبحت الفريضة المفترى عليها بين المفّرطين والمقرطين.

كل ذلك حتى لا يعود خالد وصلاح الدين وأترابهم، وحتى لا يعود الرجال الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار، ولا يعود أمثال الصديق الذى قال بعدخلافته ويوم أن بايعه المسلمون: «أيها الناس وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينونى وإن صدفت [1] فقوّمونى، الصدق أمانة، والكذب

(١) صدف أى بَعدوا تحرف.

خيانة، والضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ له حقه ، والقوى فيكم ضعيف عندي حتى آخـذ الحق منه إن شاء الله ، لا يدع أحـد منكم الجهـاد، فإنه لا يدعه قـوم إلا ضربهم الله بـالذل ، أطيعونـى ما أطعت الله ورسـوله ، فإذا عصيت الله فلا طاعة لى عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله [(١)]» .

أصحاب هذه الأخـلاق العالية والقيم النبيلـة هم الذى ينادون إلى الجهاد، أما الأخرون الذين يعطون من طرف اللسان حـلاوة الذين أشرنا إليهم - فهم أبعد الناس عن مـعانى الجهاد كـما أرادها المنهج القرآنى، والتـصور الربانى، فهم الذين يسمون الإسلام رجعية ، والجـهاد إرهابا وقتلا، وليس الجهاد كما يدعون﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا ﴾ [الكـهف : ٥] فالجهاد عز، وتضحية وفداء بل وحياة وما ترك قوم الجهاد إلا ذلوا.

ولا ريب أن المؤامرات التى تواجه الأمة الإسلاميـة اليوم تستدعى استنصار عام لنصرة الإسـلام، وليس معنى ذلك أن الإسلام - كـما يدعى الاعداء - يدعو إلى الحرب الدينية من خلال الجـهاد، فالإسلام يقرر أن الدعوة إلى الله لا تقوم على أساس أن الجـهاد فى سبيل الله، ليس سبـيلا لإدخال الناس فى الإسلام بالقوة، ولا سبيلا لقهر القلوب على قبول دين الإسلام ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ [البقرة : ٢٥٦] ﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف : ٢٩] ﴿ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ﴾ [الزمر : ٧] ، ولكن الجهاد هو تعبئة فى مواجهة الأخطار التى تتعرض لها الأمة الإسلامية.

وهو يرمى ـ أى الجـهـاد ـ لأن يكون المسلمـون فى رباط دائم واسـتنفـار مستـمـر «الجهاد مـاض إلى يوم القيـامة» فالأمـر يحتاج إلى يـقظة لا تعرف الاسـترخـاء، حـيث لا أمن ولا أمان للوطـن الإسلامى إلا فى ظل الإعـداد والمرابطة.

(١) تاريخ الأمم الإسلامية جـ١ صـ ١٧٢.

كذلك يجب التفرقة بين منطق الجهاد من أجل الحقوق المشروعة وبين منطق القوة والإرهاب الذى هو منطق البغى والقتل والترويع، أما منطق الجهاد فهو منطق الدفاع عن الحقوق الانسانية التى منحها الله تبارك وتعالى للبشر، واتفقت عليها مواثيق الأمم المتحدة فى أيامنا هذه وآخرها «إعلان حقوق الإنسان» أليس الذى يعتدى على هذه الحقوق حرى بنا أن نجاهده حتى لا يعتدى على الآخرين. وهذا ما دعى إليه الإسلام قبل أن نعرف لجان حقوق الإنسان.

النصر لمن يرفعون راية الحق :

إن النصر فى النهاية يعقد لواءه لمن يرفعون راية الحق المشروع، ولن ينتصروا إلا بطهارة قلوبهم، وصفاء نفوسهم، فإن انتصار المسلمين فى جميع معاركهم منذ بعث الله تبارك وتعالى نبيه محمد ﷺ لم يكن بكثرة الرجال ولا بتفوق السلاح، وإنما بصلاح الرجال، وحسن إيمانهم، وبتركهم المعاصى، فإن تساوينا فى المعاصى والذنوب مع عدونا نصره الله علينا بفارق السلاح وتلك كانت وصية أبى بكر الصديق لجنوده وقادة معاركه: « آمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراسا من المعاصى منكم من عدوكم، فإن ذنوب الجيش أخوف عليه من عدوه، وإنما ينتصر المسلمون بمعصية عدوهم، ولولا ذلك لم يكن لنا بهم قوة، لأن عددنا ليس كعددهم، ولا عدتنا كعدتهم، فإذا تساوينا فى المعصية كان لهم الفضل علينا فى القوة».

ليس الجهاد - إذاً كما يتوهم أو يظن بعضهم - أنه الخضوع لعقيدة الإسلام وإكراههم عليها، إنما هو عمل فى سبيل الله مجرد، لا لمنفعة شخصية، ولا لدنيا يصيبها، ولا لشهرة يغنمها، ولا لأرض تتسع رقعتها، ذلك لأن كلمة «فى سبيل الله » مقيدة للجهاد بأن جعلته إبتغاء وجه الله، لا يشوبه شيء من الأهواء والشهوات ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي

سَبِيلِ الطَّاغُوتِ ﴾ [النساء : ٧٦] وقد ورد فى الحديث الشريف أنه قال إعرابى: لرسول الله ﷺ: « الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل للذكر ، والرجل يقاتل ليُرى مكانه . فمن فى سبيل الله ؟ قال: من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله »[1] وفى رواية أخرى أنه سئل ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء ، أى ذلك فى سبيل الله ، فقال ﷺ: مَنْ قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » [2].

فالهدف من الجهاد إذن هو إعلاء كلمة الحق تبارك وتعالى لا السعى وراء المصالح الشخصية أو اعلاء القومية أو لفرض نظام عالمى، وإنما لإقامة دين حيل بينه وبين أتباع له من إقامته على الأرض، وهذا الهدف السامى هو سبيل الفلاح فى الدنيا والآخرة ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص : ٨٣] ومن أجل هذه الغاية ألا وهى أجتثاث الفساد بعمل مشروع يرضى رب العباد، ليعم الصلاح مشارق الأرض ومغاربها ﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴾ [الحج : ٤١] لذلك حث الإسلام على الجهاد لأنه من أجل المنازل وأعظم المراتب، فهو لإعلاء كلمة الله ودفعا للظلم والعدوان، حتى لا يكون بالمسلمين ذل وهوان أو إستكانة واستسلام، وحينئذ يعلوا الزبد ويصبح المسلمون غثاء ومن أجل ذلك فرض الله تعالى الجهاد وأمر رسوله ﷺ بأن يحرض المؤمنين على القتال ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ﴾ [الأنفال : ٦٥] وجعل الجهاد بالنفس والمال علامة من علامات الإيمان ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [الحجرات : ١٥] .

وعلى المؤمنين أن يجاهدوا ولا يتخلفوا إذا دعوا إلى الجهاد إلا بعذر، ومن

---

(١) متفق عليه .

(٢) مسلم.

يتخلف بغير عذر فله الذل والعذاب ﴿ إِلاَّ تنفروا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التوبة : ٣٩] يقول الإمام القرطبى فى تفسير قوله تعالى ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢١٦] قال: عسى أن تكرهوا ما فى الجهاد من المشقة وهو خير لكم فى أنكم تغلبون وتظفرون وتغنمون وتؤجرون. ومن مات مات شهيدا ، وعسى أن تحبوا الدعة وترك القتال وهو شر لكم فى أنكم تغلبون وتذلون ويذهب أمركم، كما حدث فى بلاد الأندلس تركوا القتال وجبنوا عنه، فاستولى العدو على البلاد وأسر وقتل وسبى العباد. وكان عليهم أن يلبوا لا تلههم أى متعة من متع الدنيا أو يوقفهم أى شيء عن القتال ولا يعوقهم عائق عن الجهاد مهما كان. قال تعالى ﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤]

فليس هناك عمل من أعمال العبادات يعدل أو يقوم مقام الجهاد فى سبيل الله سأل رجل رسول الله ﷺ فقال: دلنى على عمل يعدل الجهاد .قال: لا أجده . ثم قال هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقوم ولا تفتر، وتصوم ولا تفطر، قال : ومن يستطيع ذلك؟، فقال: مثل المجاهد فى سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله لا يفتر من صيام ولا صلاة حتى يرجع المجاهد فى سبيل الله » [1].

الفرق بين موتتين :

ولذلك فإنه لا يستوى من يقتل أو يموت موتة عادية، ومن يموت أو يقتل

(١) مسلم.

فى سبيل الله ﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [آل عمران : ١٥٨] .

وهذا الموت وهذا القتل فى سبيل الله هو لإعلاء كلمة الله كى تسبح فى مشارق الأرض ومغاربها ويكون الدين كله لله ، بنصرة المظلوم والوقوف بجانبه حتى ينتصف له ، وليسود العدل وتتوحد مشاعر الأمة ، ويتساوى الجميع لا فرق بين حاكم ولا محكوم ، ولا شرقى ولا غربى ، ولا أبيض ولا أسود إلا بالتقوى، لتتحقق وحدة الأمة الإسلامية والمحافظة عليها من التفرق والتشرزم ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ [الأنعام:١٥٩] فحين تتفرق الامة وتختلف ويكون هذا الخلاف خلاف عداوة وبغضاء، وحين يسود التنافر والقطيعة بل والقتال، كان لا بد من رد المعتدى حفاظا على وحدة الأمة التى تقوم على المباديء والقيم التى ينادى بها الإسلام، لأن عالمية الإسلام ليست عالمية سيادات وحكام، بل عالمية مباديء وقيم وأخلاق تقوم عليها وحدة الأمة ، ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٩٢] ولا يتحقق ذلك إلا بنصر جند الله على أعداء دينه.

وهذا النصر له أسبابه التى لابد للمسلم من الأخذ بها إعداداً واستعدادا، طاعة لأمر الله لتتحقق سنة الله فى الفئة الضعيفة بعد استفراغ الجهد والطاقة، لذلك فإن المولى يوجه المسلم للإعداد بأمرين قبل المواجهة : إعداد نفسي، وإعداد مادي.

وما أسهل الإعداد المادى لأنه ليس فوق الطاقة ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ [البقرة . ٢٨٦] فما هو فى الاستطاعة يفعل ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ ﴾ [الأنفال : ٦٠] حتى لا يكون هناك تواكل لإن جند الله فى السماء لا يشتركون مع جنود أهل الأرض إلا بعد الأخذ بالاسباب المستطاعة، استعمالا لقوة العقل تفكيراً وتخطيطا، وقوة البدن احتمالا وقتالا.

لأن العقل يمنع حماقة استخدام القوة فـي غير وقتها ، وسوء التقدير للظروف والأمور.

اما الاعداد النفسى فـهو بيت القصيد، ومناط الأمر وسـبب النصر ، فهو يتطلب المجاهدة قبل الجـهاد، وصفاء القلوب قبل الصفـوف وقوة الإيمان قبل الساعد والسلاح ﴿ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ [آل عمـران : ١٢٥ ، ١٢٦] إنه تصديق لوعد الله فـإن صبرتم فى المعركة واتقيتم الله وأطـعتم أمره ، والتقى الجمعـان ساعتهـا يمددكم ربكم بمدده ، وينزل عليكم ملائكته يقـاتلون معكم ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ [الأنفـال : ١٧] وما جـعل الله ذلك الإمداد بالملائكة إلا بشارة لكم لتزدادوا ثباتا ﴿ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ ﴾ [آل عمران : ١٢٦] فلا تخافوا من كثرة عـدوكم وقلة عددكم ، ولتعلموا أن النصر من عند الله العزيز الحكيم ، فهـو الغالب الذى لا يغلب، الحكيم الذى يفعل ما تقتـضيه حكمته الباهرة.

لذلك كانت أسباب الهزيـمة عند المسلمين ليس فى قلة عددهم ولا عتادهم إنما غالبا ما تكون لأسباب فى نفوسهم وعزائمهم،وغزوة بدر خير شاهد على ذلك» ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنـكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ [التوبة : ٢٥] فغزوة بدر تعطيك المقارنة بين حالين، حال النصـر مع صفاء النفوس وطهارة القلوب، والثـقة فى نصر الله، وما حدث فى أحد،يوم تـعلقت وتلعلعت الدنيا فى النفوس، وأريدت الدنيا فكانت الهزيمة فلما تساءلوا عن سـببها قال لهم القرآن : ﴿ قل هو من عند أنفسكم ﴾ .وقد بيّنا ذلك بوضوح لا يحتاج إلى زيادة بيان .

عسكريتنا من حضارتنا :

لقد نظَّم الإسلام كافة أمور الحياة دينا ودنيا ، وعالج أمور السلم كما عالج أمور الحرب باعتبارها ظاهرة اجتماعية، ووضع خير المناهج والمباديء لكل ما يتصل بها من حيث : أهدافها، وأساليب إدراتها، وقاونينها، وآدابها وعوامل النصر ،وأسباب الهزيمة.

«والعسكرية الإسلامية » تمثّلُ جانبا رائدا من الحضارة الإسلامية، ومن الحضارة الإنسانية بالتالى، فلولا جهاد المسلمين واسترخاصهم المال والنفس والولد فى سبيل الله؛ لتغير وجه التاريخ ولتخلفت مواكب الحضارة الحديثة عن الظهور.

لقد كان لأجدادنا المسلمين الأوائل فضل تأسيس هذه الحضارة، وشق الطريق لهذه الفتوحات العبقرية فى ميادين العلوم الطبيعية والإنسانية، وكان فضلهم هذا من بعض ثمرات الجهاد فى الإسلام .

وقد عاش أجدادنا عصورهم أعزاء أقوياء أغنياء بفضل عامل الجهاد الذى لم يكن مجتمع من مجتمعاتهم يخلو من تشجيعه، ودفع الضريبة له بسخاء، ويوم تخلى المسلمون عن الجهاد وأقبلوا على الدنيا وزينتها غافلين عن الخطر المحدق بهم، ضاع وجودهم وكيانهم فتمكن العدو منهم، وتسلط عليهم من لا يخافهم ولا يرحمهم، وقامت ضدهم حرب تعددت أشكالها ، وتنوعت صورها، إلا أنها فى جوهرها وأهدفها البعيدة، حرب حضارية، ولقد ظهرت أهداف هذه الحرب الحضارية فى شكل علنى سافر فى أعقاب اغتصاب أرض فلسطين العربية عام ١٩٤٨م ، حين قال « دافيد بن جوريون » مؤسس إسرائيل: « إن أشد ما أخشاه لو أن قائدا عربيا ظهر فى يوم من الأيام ليقود نهضة حضارية شاملة » وحين قال عقب حرب يونيو ١٩٦٧ « إننا لم ننتصر بعد ، لطالما لم نقض بعدُ على حضارة العرب والإسلام» .

وقال الوزير الإسرائيلى « مناحم بيجن » بعد يونيو ١٩٦٧ مخاطبا جنود إسرائيل : « لا ينبغى أن تتألم قلوبكم وأنتم تقتلون عدوكم، ولا ينبغى أن تأخذكم به شفقة ولا رحمة ، ما دمنا لم نقم بعد بالقضاء على الحضارة العربية ، تلك الحضارة التى لابد أن نقيم حضارتنا على أنقاضها، ولا بد من إرغام العرب على الاستسلام الكامل » .

فهل إذا قلنا إنها حرب تستهدف طمس معالم الحضارة الإسلامية ، ومنع قيامها من جديد ، وفرض التبعية على العرب والمسلمين فى كل مجالات الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعسكرية أيضا ، نكون قد تطرفنا أو أصبحنا رجعيين؟

لقد كان ومازال من بين أهداف تلك الحرب الحضارية طمس معالم الجهاد، ومنع قيامه من جديد، وفرض التبعية على المسلمين فى شتى المجالات وإظهاهم بأن غرائز الحرب متأصلة فيهم منذ الجاهلية التى تدفعهم إلى السلب وأعمال القرصنة.

وهم بذلك يريدون ترويج أن الإسلام إنما قام بالسيف؛ وبذلك يصل الأعداء إلى هدفهم الخبيث ليفرضوا نوعا من الحساسية حول تناول الجوانب العسكرية فى الإسلام، فيتحرج المسلمون حين الحديث عن الجهاد وكأنه وصمة عار يراد الدفاع عنها ، ويتركون الحديث عنه، وبالتالى لا يكون لهم فيه علوم ولا علماء؛ ويخلو الجو لأعداء الإسلام يتقدمون على المسلمين فى هذا الميدان.علما وعلماء .

إن جهاد العرب والمسلمين فى هذا الصراع الحضارى الذى يستهدف ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم لفى حاجة إلى نهضة شاملة، تُقدِمُ على إحياء حضارتهم العريقة مع الأخذ بكل أسباب التطور، والتوسع والابتكار، ورفض التبعية ، وحينئذ يجدون أنفسهم عباقرة وروداً فى فن الحرب ، وفى كل

المجالات الأخرى ، والتاريخُ خيرُ شاهد على ما نقول.

أمة مجاهدة :

ولقد سبقت حكمة الله جل شأنه أن تكون الأمة الإسلامية أمة مجاهدة عزيزة الجانب، ولم يردْها أن تخضع، ولا أن ترضى بالذلة، ولا تستكين إلى هوان فأوجب عليها الجهاد فى سبيله، وجعله الوظيفة الشريفة التى اختارها لأدائها كمايُفـهَمُ من قوله تعالى﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُم﴾ [الحج:٧٨].

فالاختيار هنا تكريم وتشريف لهذه الأمة التى جعلها الله فى خير منزلة بين الأمم فى قوله تعالي﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّه ﴾ [آل عمران : ١١٠] وفى قوله تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة : ١٤٣]

والتكليف القرآنى بإعداد القوة فى قوله تعالي: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ ﴾ [الأنفال : ٦٠]، تكليف قائم وباقٍ حتى تقوم الساعة، ومقتضى ذلك ألا تفتر عزائم الأمة الإسلامية عن إعداد القوة بعناصرها المتعددة ، التى تشمل من الناحية العسكرية كل ما يتعلق بفن الحرب من عقيدة واستراتيجية، وعلمٍ عسكرى، والصناعة الحربية ، والقوات المسلحة.

وورود لفظ « القوة » مطلقا دون تقييده بشكل معين، يقتضى منطقيا أن تتطور القوة فى شكلها ونوعها وتركيبها وأساليب استخدامها؛ لتناسب روح العصر الذى يحتويها ، والأمة الإسلامية إن لم تفعل ذلك ، ولم تأخذ بأسباب التطور العلمى والتكنولوجى وتخلفت عن مقتضيات عصرها، فإن قوتها التى أمرها ربها بإعدادها تفقد قيمتها ، وفاعليتها، وتعجز عن إرهاب

(١) أى اختاركم.

الأعداء، وتتعرض الأمة للخطر والهلاك.

والحق أن القرآن لم ينبه عقول المسلمين وقلوبهم إلى شيء بعد التوحيد، مثلما نبههم إلى سنة التطور، وقد دعاهم إلى كشف آثار هذه السنة والانتفاع بها، وحذرهم من تجاهلها أو الوقوف فى وجهها، ونعى على المقلدين وعلى الذين يأبون التطور. إن المنهج العلمى « منهج الاستقراء » فى الملاحظة والتجربة والتفكير المنظم، وهو أساس كل ابتكار وتقدم، منهج إسلامى وهو المنهج الذى قامت عليه الحضارة الحديثة كما يشهد بذلك التاريخ والمنصفون من علماء الغرب .

ولو قيَّض الله سبحانه للحضارة الإسلامية أن تسير فى طريقها دون عوائق لكان المسلمون هم الذين غزو الفضاء، وحققوا أعظم الاكتشافات فى ميادين العلوم الطبيعية والاجتماعية، مع فارق واحد كبير هو توظيف تلك الاكتشافات لكل ما فيه خير البشرية وأمنها؛ لأن منهج الإسلام فى العلم والبحث والتطوير يؤكد صلتها بالأخلاق ويجعل غاياتها الخير (١).

ونحن فى عصر لم تعد فيه بقعة من الأرض على طول البلاد وعرضها بمنأىً عن متناول العدو، والذى أصبحت الحرب فيه تدار عسكريا وسياسيا واقتصاديا واجتماعيا بحيث تشمل كل مرافق الدولة واجهزتها العسكرية والمدنية، والشعب بأسره فى هذا العصر، مما يتطلب أن تسود روح الجهاد فضلا عن تعلم العلوم العسكرية الحديثة أخذاً بالأسباب، واعداداً واستعداداً لمكر الأعداء ، والحذر والحيطة مما يكيدون.

وعلينا أن نتأسى بالمسلمين الأوائل الذين كانوا يعلمون أبناءهم التاريخ الحربى الإسلامى، قال زين العابدين بن الحسين بن على رضى الله عنهم:

(١) المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية الإسلامية اللواء أركان حرب محمد جمال الدين على محفوظ من مقدمة الكتاب الرائعة صـ ٣٠٨. بتصرف.

«كنا نعلم مغازى رسول الله ﷺ كما نعلم السور من القرآن».

وعن إسماعيل بن محمد بن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنهم قال: «كان أبى يعلمنا المغازى والسرايا ويقول: يا بنى إنها شرف آبائكم فلا تضيّعوا ذكرها » (١).

الفرق بين غايتين ومقصدين :

وفرق كبير بين تعلم تاريخ الحروب ليزداد الإنسان بها خبرة يعتدى بها على الآخرين، وتعلم المغازى والسرايا وإعداد أنفسنا إعداداً يردع العدو، هذا الردع الذى لا يؤدى إلى سباق التسلح كى نعتدى على الآخرين، فإسلامنا يحرم الاعتداء، فلا نقاتل إلا لرد العدوان، والدفاع عن الدعوة، وحرية التدين، الأمر الذى يبعث فى الأمم المسالمة و التى تريد أن تعيش فى سلام، كل الطمأنينة والثقة فى حسن نوايا الأمة الإسلامية فتتجه بطاقاتها فى ظل هذا الأمن من الغدر نحو ما فيه خيرها وخير البشرية جمعاء، لا إلى التسابق فى التسلح الذى يرهق اقتصادها، ويزيد من حدة التوتر، ويغرى بإشعال الحروب.

ومن المقاصد النبيلة لاستراتيجية الردع الإسلامية أنها تهيء الفرص الحقيقية لحل المنازعات بالطرق السلمية، فإن ما تتميز به الأمة الإسلامية من أن دينها يمنع العدوان، ومن أنها تملك ـ وبأمر دينها أيضا ـ القوة القادرة على رد العدوان وقهره، يقنع الأمم الأخرى بالامتناع عن اللجوء إلى القوة، وهى مطمئنة إلى أن طريق السعى لحل المشكلات بالوسائل السلمية ليس مفتوحا فحسب، بل هو طريق مضمون النتائج، لا تحيط به الشكوك، ولا تنعدم به الثقة، وليس فيه مخاطرة التنازل ـ تحت تهديد القوة ـ عن شيء من حق أو كرامة، ولكنه تحوطه كل معانى حب السلام والحق والعدل (٢).

(١) السيرة النبوية أحمد زين وصلان صـ ٣٦٠.
(٢) المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية الإسلامية صـ ١٤.

فالجهاد ليس نزهة أو سياحة، إنما هو بلاء واختبار، ويحتاج إلى صبر وقوة تحمل واعداد دقيق، وتبتل وخشوع لله، ودعاء بالتثبيت ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٢].

وليس الجهاد فى سبيل الله أمراً مرتجلا، ولا هو إمساك بسيف . أو رمى برمح، أو حتى قتالٌ فى ميدان، فحسب - كما يتصور البعض - بل الجهاد يتطلب إعدادا دقيقا يشمل:

١- إعداد القوات المحاربة بكل أنواع الإعداد وأشكاله فى حدود الاستطاعة.
٢- إعداد الاقتصاد القومى أو ما يسمى « باقتصاد الحرب ».
٣- إعداد الأمة أو الشعب سياسياً وعسكرياً ومعنوياً .
٤- الوقاية والدفاع المدني.
٥- دراسة الأمور المتعلقة باحتياجات القوات المحاربة من إمدادات وصناعات حربية وطرق وخطوط مواصلات.
٦- دراسة العدو من جميع النواحى العسكرية والاقتصادية والمعنوية والاجتماعية ودراسة أهدافه.
٧- القيادة الاستراتيجية للحرب والتى سوف تسيطر باستمرار على إدارة الحرب.
٨- مبادىء التخطيط الاستراتيجى للأعمال القتالية وأساليب إدارة الصراع المسلح ، فالعبرة بالمقاتل الكفء ، والسلاح القوى ، والانضباط والروح المعنوية ، وروح الفريق ، هذه دعائم لابد منها.

ذلك كله انصياع لأمر الله ، واستفراغ للجهد ثم توكل على الله سبحانه وتعالى الذى بيده النصر ، وهذا الإعداد يقصد به إرهاب العدو وتخويفه من محاولة العدوان حين يعلم قوتنا واستعدادنا له معنوياً ومادياً . واعداد الأمة

للحرب . ومحاولة تحقيق الاكتفاء الذاتى لإحباط تدابير العدو العدوانية ، فلا يفكر بعد ذلك فى العدوان .

الجهاد ركن ومبدأ من مباديء الإسلام :

ويجب أن نضع فى اعتبارنا أن الجهاد بوجه عام يعتبر مبدأ من مباديء الإسلام التى أخذت مكانتها بين عقائده وفروعه، واستقرت دعوة القرآن إلى الجهاد - على عمومه - متعلقة بذمة المسلمين جماعة وأفرادا، وتقتضيهم أن يؤمنوا بتشريع الجهاد - عامة - كإيمانهم بأى معتقد صحيح سواه، وأن يقوموا بتنفيذه كما يجب أن ينفذوا غيره مما فرض الله، ولذلك قرن اللهُ الجهادَ بالإيمان وجعله دليلا عليه أو ثمرة طبيعية له يقول تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات : ١٥] .

فهو تكليف وتكريم للأمة ، فهى الوظيفة الشريفة التى كرم الله بها الأمة الإسلامية ، ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ ﴾ [الحج : ٧٨] وكما أن لكل فريضة فَرَضَها المولى على عباده أحكامها التى تضبطها فإن للجهاد أيضا أحكاماً تضبطه ؛ لأنه من أَجَلِّ العبادات لله رب العالمين.

المجاهدون لا يقهرون:

إن المجاهد فى سبيل الله يضع نصب عينيه أحد أمرين :

إما شرف النصر ، أو شرف الاستشهاد .

يقول المولى عز وجل ﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٧٤].والمتأمل فى هذه الآية يرى المعنى الذى قصدناه.

أولاً : تأمل فى المقابلة بين (يقتل) و(يغلب) فى الأية الكريمة ، فقد يتساءل المرء لماذا لم يقلْ المولى جلت حكمته فيغلب (بفتح الياء) أو (يغلب) بضم الياء؟ لأن المقاتل إما أن يكون غالبا أو مغلوبا!! ويمكن الإجابة على ذلك: بأن المجاهد المؤمن لا يُغلب أبدا (أي لا يقهر) وذلك لأنه ينتظر إحدى الحسنين ، ولا ثالث لهما فيما يقدره من نتائج؛ فهو فائز فى كل من النصر أو الشهادة غير مغلوب.

ثانياً: ويلاحظ المتأمل أيضاً فى هذه الأية أنه قَدَّمَ القتل على الغلب. (فيقتل أو يغلب) وفى هذا تحريض للمجاهدين على الإقدام واسترخاص النفوس فى سبيل الله، بل فيه إغراء بالاستشهاد، وإشعار بأنه شرف أعظم وأكرم من شرف النصر.

ثالثاً: كذلك يُستَشَف من هذه الآية أن المقاتل المجاهد لا يكف عن قتال العدو حتى يكتب له النصر،فإذا لم يتحقق، فالمعركة مستمرة ما لم تزهق روحه، ويقعْ سلاحه.

رابعاً: كما يفهم أيضاً أن المجاهد الصادق الذى يعد العدة الكافية، ويتبع سبيل الله فى الأرض لا يمكن أن يغلب ، لأن الله تعالى فى هذه الحالة يكون معه، ولأنه وعده النصر، ووعد الله لا يتخلف، وهو سبحانه القائل﴿ **وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصرُ الْمُؤْمِنِين** ﴾ [الروم : ٤٧] وكذلك كانت الشهادة بالنسبة للمجاهد الحق أمنية يتطلع إليها ، وأملاً يحرص علي الوصول إليه ، فالمجاهدون يحبون الموت كما يحب أعداؤهم الحياة فالواحد منهم كان يقول﴿**وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ** ﴾ [طه : ٨٤]وكان جاره فى الصف يقول له : هنيئاً لك بالشهادة، ولم تحرم المرأة هذا الشرف العظيم. وشاركت الرجال فيه.

دور المرأة فى المعركة :

وحين نقول المجاهدون لا يقهرون فإننا لا ننسى دور المرأة فى المعركة، فقد جعل الإسلام للمرأة دوراً فى المعركة تؤديه فى ميدان القتال، أو فى الجبهة الداخلية.

ففى ميدان القتال يكون دور المرأة القيام بخدمات الإعاشة وإمداد المقاتلين بالماء والطعام والسهام « الذخيرة»، وكذا الخدمات الطبية كالإسعاف، والتمريض، وإخلاء الجرحى، والشهداء، أى نقلهم بعيداً عن ميدان المعركة ففى غزوة بدر كانت السيدة عائشة أم المؤمنين تحمل قرب الماء لتسقى المقاتلين، وكانت تساعدها فى ذلك أم سليم زوج أبى طلحة وأم أنس بن مالك.

وفى غزوة أحد كانت فاطمة بنت النبى ﷺ مع الجيش تقوم بالخدمة الطبية فلما أصيب النبى فى المعركة أسرعت إليه تضمد جراحه، فجاءت بقطعة من حصير من سعف النخل وحرقتها ، وأخذت ترابها ووضعته على الجرح فتماسك وجف.

وعن أنس رضى الله عنه قال: كان النبى ﷺ يغزو بأم سليم ونسوة من الأنصار معه، فيسقين الماء ويداوين الجرحى(١) ، وقالت أم عطية رضى الله عنها: غزوت مع النبى ﷺ غزوات أخلفهم فى رحالهم، فأصنع لهم الطعام وأداوى الجرحى وأقوم على المرضى(٢).

وقالت الربيع بنت معوذ رضى الله عنها: كنا مع النبى ﷺ فنسقى القوم ونخدمهم ونرد الجرحى والقتلى إلى المدينة(٣) ، وقد ورد أن بعض النساء

---

(١) رواه مسلم وأبو داود والترمذي.
(٢) رواه مسلم.
(٣) رواه البخاري.

كانت تحمل معها سلاحا لتدافع عن نفسها إذا دنا منها أحد المشركين، كما ورد أن بعض النساء المسلمات قد جاهدن بأنفسهنّ جهاداً قويا فى قتال الأعداء، كأم عمارة يوم أحد يقول عمر رضى الله عنه عن نسيبة(أم عمارة): سمعت رسول الله ﷺ يقول يوم أحد: « ما التفت يميناً ولا شمالا إلا أراها تقاتل دونى» وقد أخرج مسلم من حديث أنس أن أم سليم اتخذت خنجراً يوم حنين وقالت للنبىﷺ اتخذته حتى إن دنا منى أحد المشركين بقرت بطنه» فهذا يدل على جواز القتال للمرأة، وإن كان فيه ما يدل على أنها لا تقاتل إلا مدافعة، وليس أنها تقصد العدو وتطلب مبارزته. أما فى الجبهة الداخلية، فلها دور إيجابى يتناول كل ما من شأنه حماية ظهر الجيش وقاعدته التى انطلق منها، ومن أمثلة ذلك ما حدث فى غزوة الخندق فقد رأت صفية بنت عبد المطلب يهودياً يمر بالحصن فقالت لحسان بن ثابت: « إن هذا اليهودى يطيف بالحصن، وإنى والله ما آمنه أن يدل على عورتنا من ورائنا اليهود، ورسول الله وأصحابه قد شغلوا عنا فأنزل إليه فاقتله».

فأجاب حسان : يغفر الله لك يا ابنة عبد المطلب والله ما أنا بصاحب هذا، فأخذت صفية عموداً من حديد ونزلت من الحصن وضربت به اليهودى حتى قتلته».

ومن أعظم أدوار المرأة أيضاً ضربها القدوة والمثل لزوجها وأولادها فى الروح المعنوية العالية، المبنية على الإيمان القوى والعقيدة الراسخة، فتشجعهم على الخروج للقتال والاستبسال فيه ، وتصبر الصبر الجميل عند استشهادهم، بل تفرح بهذا الشرف الذى حظيت به، كما فعلت الخنساء حين بلغها نبأ استشهاد أبنائها الأربعة فقالت: «الحمد لله الذى شرفنى باستشهادهم وأرجو أن يجمعنى بهم فى مستقر رحمته». إنها روح عالية يجب أن تسود الجميع . إيمانا وتربية، ولذا يجب الاهتمام ببنائها فى الفرد والجماعة والمجتمع.

الروح المعنوية[1] :

إن بناء الروح المعنوية فى الإسلام يقوم على أقوم الأسس وأرفع المبادىء التى تتلخص فيما يلى:

١- تنمية الاتجاهات النفسية الصحيحة لدى الأفراد.

٢- غرس عقيدة القتال بمفهومها الإسلامى.

٣-وضوح عدالة القضية وشرف المهمة والهدف.

٤- تنمية الإحساس بالخطر المحدق بالأمة من أعدائها.

٥- الثقة فى النفس والسلاح والقيادة والأمة.

٦- التحصين المعنوى ضد شدائد الحرب.

٧- التعبئة المعنوية قبل الحرب وخلالها.

٨- رفع المعنويات بأعمال القتال.

كما أنه لابد من بناء روح الفريق على أسس عميقة، وأساليب حكيمة ، هى منتهى أمل كل قيادة نلخصها فيما يلى:

١- الوحدة والتعاون.
٢- الاعتزاز بالجيش والأمة.
٣- إنكار الذات.
٤- روح التنافس الشريف.
٥- رفع اللواء أو الراية التى ترمز للقيادة.
٦- علاج العوامل المؤثرة على روح الفريق.

---

(١) المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية الإسلامية صـ ٣٣٠.

٧- القيادة المؤمنة الرشيدة.

كل ذلك لتحقيق وحدة المشاعر لتتجمع القلوب قبل الصفوف، ويتحدد الولاء والبراء، ويعرف كل فرد الحب لمن؟ والبغض لمن؟ ومن نوالى ومن نعادى؟

حكم الله فى موالاة الأعداء:

إن الأعداء محاربون لله ورسوله، وكل من والاهم إنما هو محارب لله ورسوله، لأنه ينصر أعداء الله على أولياء الله، فهو من الأعداء ومعهم، إنه بعمله هذا محارب لله، ومحارب لرسول الله ﷺ وللمؤمنين.

ولقد وضع الإسلام أحكاماً وعقوبات لمن والى أعداء الله، ليضمن سلامة الداخل، وأن يقاوم ما استطاع أعداء الخارج، ولو كانوا ينتسبون للإسلام، فكان لابد من هذا العقاب الرادع لهؤلاء وأولئك، يتمثل فيما قرره المولى من أحكام للذين يعتبرهم الإسلام خارجين عليه، والذين نفى القرآن الإيمان من قلوبهم ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم، يقول ربنا: ﴿ **لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ [المجادلة : ٢٢] والآيات فى هذا المعنى كثيرة.

فكل من يوالى الأعداء هو كائن انتفى من قلبه الإيمان والموقف الإسلامى، إذن - هو أن يجد المحاربون لله ورسوله فى المؤمنين غلظة، لذلك يأمر الله تعالى بها فيقول : ﴿ **وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً** ﴾ [التوبة ١٢٣] فمن والى أعداء الله فقد باء بغضب من الله والرسول، واستحق العذاب الأليم فى الدنيا والآخرة..

الحرب فى الإسلام عدل ورحمة:

لقد وضع الإسلام نظاماً شاملاً للحرب، يتسم بالرحمة والعدل وطابعه سلمى دفاعى غير عدوانى فهو ـ أى الإسلام ـ :

١- دين السلام، وتحتل فكرة السلام المقام الرئيس بين أهدافه ومقاصده، فقد ورد لفظ السلم وما اشتق منه فى القرآن فيما يزيد على مائه وثلاثة وثلاثين آية ، بينما لم يرد لفظ الحرب فى القرآن كله إلا فى ست آيات فقط .

٢- ينظر الإسلام الى الإنسانية عامة نظرة التكريم والاحترام، ويضع من القواعد والأصول والأحكام ،ما يصون لكلٍ كرامته الأدبية، وحقوقه فى الحياة فى ظل وارفٍ من العدل والرحمة والمساواة ولا يجعل غير التقوى مقياسا يتفاضل به الناس.

٣- لا إكراه في الدعوة إلى الإسلام. فطريق الدعوة يقوم على الاقتناع العقلى المدعم بالأدلة، وإيقاظ المشاعر وتحريكها عن طريق الموعظة والمناقشة الجادة المفيدة، وصاحب الدعوة الإسلامية ليس عليه إلا التبليغ والترغيب بما وعد الله عباده الصالحين، والترهيب لمن خالف أمره بحكمة الداعى ومقتضى الحال، فليس مطالباً بإيمان الناس حتى يسمح له باكراههم، والإسلام لا يحترم إيمان المكره ولا يرتب عليه آثاره يوم البعث والجزاء، فضلاً عن أن مجتمع المسلمين لا يتكون من المكرهين عليه ،ولكن من المؤمنين المتآلفين المتحابين فيه .

٤- والإسلام حينما شرع القتال نأى عن الطمع والاستئثار، وإذلال الضعفاء وابتغاه طريقًا إلى السلام والاطمئنان، وتركيز الحياة على موازين العدل والمساواة، لذلك شُرِعَ القتالُ لرد العدوان والدفاع عن الدعوة، وحرية التدين.

٥- الهدف من إعداد القوة فى الإسلام إرهاب الأعداء وإخافتهم من عاقبة التعدى على الأمة الإسلامية، وهو هدف ينطوى على أرفع معانى الإنسانية السلمية وحقن الدماء.

٦-يأمرالإسلام بفض المنازعات بالطرق السلمية وبالتعاون بين المؤمنين على إقرار السلام والطمأنينة.

ولذلك كانت الحرب فى الإسلام حرباً عادلةً فاضلة رحيمة من حيث:

١- صيانة أرواح وأموال الأبرياء والضعفاء وغير المقاتلين ومنع التخريب.

٢- حسن معاملة الأسرى والتصرف معهم، إما بإطلاق سراحهم(المنّ) أو بأخذ العوض إما بالمال أو تبادل الأسرى(الفداء)، ومداواة الجرحى منهم.

٣- منع التمثيل بجثث القتلى أو تعذيب الجرحى والأسرى.

٤- الوفاء بتأمين المحارب إذا أُعْطِيَ له الأمان.

٥- مجاملة رسل العدو وعدم التعرض لهم بأذى.

٦- سماحة الإسلام مع المغلوب فليس فى الإسلام مبدأ« ويل للمغلوب».

٧-تلبية دعوة السلم ووقف الحرب إذا جنح إليها الأعداء.

ويجدر بنا أن ـ نوجز إيجازاً لا يخل ـ أسباب إعلان الحرب، وأسلوبه وطريقة معاملة العدو، وماذا بعد النصر ليتبين لنا الضوابط التى وضعها الإسلام فى حالة الحرب ، ليبرز الجانب الأخلاقى فيها.

أولاً : أسباب إعلان الحرب:

حدد القرآن الكريم الأسباب التى يحق للمسلمين الحرب لأجلها بأربعة.

١- ردّ العدوان والدفاع عن النفس والمال والوطن﴿ **من اعْتدىٰ علَيْكُمْ فاعْتدُوا علَيْه**﴾ [البقرة . ١٩٤]

٢- الدفاع عن الدعوة الإسـلامية وتأمين حرية الدين والاعـتقاد ﴿ وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ ﴾ [البقرة : ٢١٧]

٣- تأديب ناكـثي العهـد، وذلك بموجب حكم الآية ﴿ وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا ﴾ [التوبة :١٢]

٤- درء الفـتنة التى يحاول أعـداء الدين إشعـال نارها بين صفـوف المسلمين ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ [البقرة : ١٩٣]

ثانياً: أسلوب إعلان الحرب أخلاقى :

لا يجـوز للقائد أن يبـدأ قتـال العدو إلا بعـد إبلاغه، وذلك لئـلا تكون الحرب وسـيلة للخداع من جـانب المسلمين ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ [الأنفال : ٥٨] وكان الرسول ﷺ إذ أرسل سرية إلي قتال غير المسلمين قـال لأميرهم : « إذا لقيت عدوك فادعهم إلى ثلاث خصال فإن أجابوك إليها فاقبل منهم وكف عنهم :

١- ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم.

٢- فإن أبوا فادعهم إلى إعطاء الجزية فإن أجابوا فاقبل منهم

٣- فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم. »

وهكذا يجب على القائد أن يخـير العدو بين الإسلام والجـزية والقتال، إن هم بدؤا بالقتال والعدوان .

ثالثاً : معاملة العدو أخلاق ودين .

وقد حـددت الشريعة التعليـمات التى يجب التقـيد بها فى معـاملة العدو وهى:

١- قصر الحرب على رجال العدو المحاربين، إذ لا يجوز فى الإسلام الاعتداء

على النســاء والشيوخ، وكـانوا يظنون أن ذلك جائز، لـعدم ورود آية فى القرآن تمنع صـراحة ذلك، فجـمع الرسول المسلمين في المسجـد وبعد أن صلى خاطبـهم قائلاً : «إن الله تعالى لم يحـرم شيئاً إلا مـا في القرآن ، وإني والله لقد وعظت وأمرت ونهيت عن أشياء، إنها لمثل هذا القرآن وإن الله تعالى لم يَحِل لكم أن تدخلوا بيوت أهل الكتاب إلا بأذن، ولا ضرب نسائهم ولا أكل ثمارهم إذا أعطوا الذى عليهم».

وكان ﷺ يحض كثيـرا على التقيد بهذا المبدأ حـيث قال: لا تقتلوا شيخا فانياً ولا طفلاً صغيـراً ولا امرأة ولا تغّلوا (تخونوا) وأصلحوا وأحسنوا إن الله يحب المحسنين ،ولا تقتلوا دربة ولا عسيفا زارع.

٢- منع النهب الذى كان يسود حـروب الجاهلية، رُوى عن رجل من الأنصار قال: خـرجنا مع رسول الله ﷺ من سـفر فأصـاب الناسَ حاجـةٌ شديدةٌ وجهدٌ، فأصـابوا غنماً فانتهبوها ، فإن قـدورنا لتغلي إذ جاءنا رسول الله ﷺ يمشى فأكفأ القدور بقـوسه ثم جعل يرسل اللحم بالتراب ثم قال: إن النهبة ليست بأحل من الميتة.

٣-تحريم التـمثيل بالقـتلى، والإحراق بالنار؛ وذلك احتـراماً لقدسـية الموت وإنسانية الميت ،وكان يقول : « اغزوا باسم الله فى سبيل الله، وقاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلّوا ولاتغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليد » ويقول : « إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور » .

٤-تحريم إتلاف الأموال وتجويع الأعداء وذلك بقطع الأشـجار المثمرة وإحراق النخيـل وذبح شياه العـدو وبقره وبعـيرِه لمجرد الانتـقام، إلا إذا كـان بها صلاحٌ لإضعـاف العدو والظفر، كان أبو بكر يقـول« لا تخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقـتلوا طفلا صغـيراً ، ولا شيـخاً كبـيراً ، ولا

امرأة ولا تقطعوا نخلا وتحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكله، وسوف تمرون على قوم فرَّغُوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له ».

٥- الانقطاع عن القتال إذا انقطع عنه العدو ﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا ﴾ [الأنفال: ٦١] ولكن الفقهاء أجازوا مواصلة الحرب إذا كان جند العدو مقبلين أومدبرين، على اعتبار أن انسحاب العدو يعتبر مرحلة من مراحل القتال، وليس تسليماً منه وطلباً للصلح وهذا نظر صائب لأن الانسحاب قد يكون خدعة حربية فى كثير من الأحيان ولذا يجب التوقى منه.

٦- الوفاء بالعهود والمواثيق ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً ﴾ [الأسراء: ٣٤] وقد ورد فى وصية أبي بكر «ولا تغدروا إذا عاهدتم ولا تنقضوا إذا صالحتم» وقد تشدد المسلمون فى محافظتهم على عهودهم، حتى أنهم لم يرضوا فى كثير من الأحيان أن ينقضوها حتى فى حالة نقض العدو لها، فقد نقض الروم عهدهم مع المسلمين فى زمن معاوية، وكان فى يده رهائن منهم فلم يقتلهم بل أخلى سبيلهم قائلا: «وفاءٌ بغدر خير، من غدر بغدر».

رابعاً: بعد النصر :

حددت الشريعة كيفية معاملة العدو المهزوم وأسراه:

١- معاملة العدو المدحور وعدم التفاخر بالنصر، والزهو به كسباً لقلوبهم بحسن المعاملة لهم ، والعدل معهم بعد الانتصار ﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ ﴾ [الحج : ٤١] وكان عمر يقول: «لا تمثلوا عند اللقاء ولا تسرفوا عند القدرة».

٢- معاملة الأسرى كما بَيَّنَ القرآنُ ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ ﴾

[محمد: ٤] فالقائد العسكرى مخير بين أمرين لا ثالث لهما:

أ- إما المن وهو أن يعفو عن الأسير فيطلق سراحه من غير مقابل، وهذا ما فعله الرسول مع بعض أسرى بدرفقد كان هناك شاعر يسمى عبد الله بن عمير استعطف النبى ﷺ حيث له خمس بنات لا عائل لهم فَرَقَّ الرسول. لحاله.

ب ـ وإما الفداء وهو إطلاق سراح الأسير مقابل المال، أو مبادلته بمثله من الجانب الآخر ،ويصح أن يكون مقابل عمل يعود على المسلمين بالخير كما كان يفعل الرسول، بأن يعلم العدو عشرةً من المسلمين أو أولادهم القراءة والكتابة كما حدث فى بدر، وكما فعل هارون الرشيد حين أطلق سراح بعض الصينين الأسرى بعد أن باحوا له بسر صناعة البارود والبوصلة.

ومع هذه الخلال الحميدة التى يتحلى بها المقاتل المسلم فى حرصه مع الأعداء يجب أن يضع نصب عينيه ما يأتى:

١- الإيمان وقوة العقيدة التى تشكل صخرة تتحطم عليها أساليب الاعداء ومحاولاتهم للنيل من معنويات المسلمين.

٢- الوعي والمعرفة بأهداف العدو وأساليبه فى الحرب النفسية.

٣- فضح محاولات بث الفرقة ومقاومتها.

٤- كشف محاولات التخذيل وتثبيط العزائم.

٥- كشف محاولات زعزعة الثقة فى النصر.

٦- القضاء على محاولات التخويف والضغط النفسى.

٨- كتمان الأسرار ومنع ترويج الإشاعات.

ولا يتحقق ذلك كله بصورة كريمة ترضى الله تعالى، إلا بتلاحم المقاتلين

تلاحماً تـاماً وتعاونا وثيقـاً لتحقيق الأهداف التى يقـاتلون من أجلها على أسس راسخة من:

١- قوة العقيدة والإيمان الذي يشيع فى قلبه من ثبات ويقين.

٢- وحدة الهدف والصف مع التفاؤل الدائم وعدم تسرب اليأس إلى النفوس.

٣- النظام والمرونة في مواجهة الواقع، ونبذ القلق والحزن إذا لم تتحقق بعض حاجاته فى الحياة.

٤-التخطيـط العلمى والبعد عن الـقيم الزائفة وعن التطـلع إلى أهداف تَفوق القدرات.

٥- التنسيق والتماسك.

٦- إنكار الذات ودوام صلته باللـه ، ويقظة الضمير الـذى يمكنه من التحكم فى ذاته والسيطرة على نزعاته وغرائزه.

٧- استمرار التعاون وسد الثغرات فى الحال.

٨- الثبات فى الميدان والصبر على شدائد القتال.

٩- الصبر عند البلاء والشكر فى السراء

١٠- قيـام الصلـة بين المسلمين على الأخـوة والحـب والمودة والتـراحم والتعاون.

جهاد لوحدة الصف :

دين الإسلام دين الأمـة الواحدة، والجـماعـة الواحدة، والقبـلة الواحدة، والكتاب الواحد، يجعل المسلمين فى علاقاتهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى .

إنه يلزم أتباعه بتطبيق التشريعات وتحكيم قرآنه وسنة نبيه فيما بينهم، كما ويلزمهم بتبليغ هذا الدين الحق للناس كافة بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتى هى أحسن ،ولا يكره غير الأتباع على الدخول فيه واعتناق عقيدته، وتطبيق شريعته ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾[البقرة: ٢٥٦] .

ودينٌ هذه سماته، فهو يمتاز بالعموم، والشمول، والدوام، والكمال، والسمو كان لابد من أن يتعرض له أصحاب العقائد المغايرة بالهجوم والاعتداء على أصحابه، ومحاولة الحيلولة بينهم وبين إقامة هذا الدين، والتمكين له ﴿وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾[البقرة:٢١٧].

فإذا اعتدى عليه معتد. أوحال بين دعوتهم حائل، أو نال من عقيدتهم ملحد، أو استهزىء بشريعتهم جاحد وتعدى هذا الاعتداء والسخرية والاستهزاء إلى الإخراج من الأرض والقتل، وانتهاك الحرمات والأعراض. بالرغم من الدعوة بالحسنى والمجادلة بالتى هى أحسن فهل يقف المسلمون مكتوفى الأيدى يتلقون الصفعات، ويديرون خدهم الأيسر لأعدائهم كلما ضربوهم على خدهم الأيمن، أم أنهم يردون الاعتداء كما قال الله تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ [البقرة : ١٩٤] .

لذا كان الجهاد فى سبيل الله ضرورةً لازمة - جعله الإسلام فريضة ماضية إلى يوم القيامة و رَغَّب فيه،وحَثَّ عليه ، وجعله ذروة سنام الإسلام،وبدونه لا تقوم للدين قائمة لتحكم أهل الباطل وتعطيلهم لدين الله، فتفسد الحياة، وتسير فى طريق غير الطريق الذى أراده الله لها ﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج : ٤٠] .

من أجل ذلك عنى الإسلام بهذه الفريضة عناية فائقة ، واستنفر الأمة لها ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [التوبة:٤١]

وحشدها كلها صفاً واحدا للدفاع بكل قواها عن الحق، ورغّب فيه أعظم ترغيب، وإجزل ثواب المجاهدين والشهداء، وتوعّد المخلفين القاعدين بأفظع العقوبات، ورماهم بأبشع النعوت والصفات، واعتبر القعود والفرار كبيرةً من أعظم الكبائر وإحدى السبع الموبقات المهلكات.(١)

عن سهل بن حنيف رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ: « مَنْ سأل الله تعالى الشهادة بصدق بلّغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه»(٢)

وعن المقدام بن معد يكرب قال : قال رسول الله ﷺ : « للشهيد عند ربه ست خصال: يغفر الله له فى أول دفعة ،ويرى مقعده من الجنة، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منة خير من الدنيا وما فيها، ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويشفع فى سبعين من أقربائه» .(٣)

يقول الإمام الشهيد حسن البنا(٤) : فرض الله الجهاد على المسلمين لا أداةً للعدوان ولا وسيلة للمطامع الشخصية، ولكن حماية للدعوة ، وضمانا للسلم، وأداء للرسالة الكبرى التى حمل عبئها المسلمون رسالة هداية الناس إلى الحق والعدل، وأن الإسلام كما فرض القتال أشاد بالسلام فقال تبارك تعالى ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٦٠] ولذلك كان لابد من الإيمان والعمل ، والمحبة والإخاء، أى قوة العقيدة، ثم قوة الحب ، ثم قوة الساعد والسلاح فلا جهاد دون إعداد معنوى ومادى ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ [الأنفال: ٦٠] .

لذلك كان الحماس الزائد الذى تدفعه العاطفة ولا يحكمه العقل ليس من الجهاد فى شيء ،فلا اندفاع وراء الحماسة ولا انتظار حتى الموت، بل لكل

(١) الجهاد هو السبيل الأستاذ مصطفى مشهور صـ ١٤ بتصرف.

(٢) أخرجه الخمسة إلا البخارى.

(٣) رواه الترمذي وابن ماجه.

(٤) رسالة الجهاد

أمر قدر، فالتسرع قبل الإعداد يمكن أن يكون بمثابة الإجهاض الذى يفرح له الأعداء، بل هم أنفسهم يدفعون إليه لأنهم يعرفون نتيجته مسبقا . فكان لزاما أن يسبق السيف تلبية نداء المولى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الأنفال : ٤٥ ، ٤٦] .

إن ساحة الجهاد واسعة ،وإن أعداء الله كثيرون ،وألوان الحرب متعددة ، مما يجعل صراع الحق مع الباطل يتطلب جهداً ووقتاً، فالأمر يحتاج إلى تهيئة النفس لذلك صبراً وإعداداً ، مع اليقين بأن الله ناصر الدين بنصرنا له ﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد : ٧] .

إن أول وأهم وأقوى ما يتسلح به المؤمن في جهاده لأعداء الله هو سلاح الإيمان، فهو الزاد المتجدد على الطريق ،وهو الذى يفجر الطاقات ويدفع بصاحبه إلى الإقبال على الموت غيرَ هيَّاب، مستهيناً بالصعاب مؤثراً ما عند الله ،لا متمنياً لقاء العدو، فالرسول ﷺ يقول : « لا تتمنوا لقاء العدو ولكن إذا لقيتموه فاثبتوا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف» [١].

وهناك أمور يلزم أن يراعيها المجاهد الصادق بل يلتزم بها منها:

أولا : أن يكون على استعداد كامل لتقديم نفسه وماله، وكل ما يملك فى سبيل الله عندما يستدعى الأمر ذلك ، فيعقد الصفقة الرابحة مع الله سبحانه وتعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة : ١١١] .

---

(١) أخرجه الشيخان .

ثانياً: ولكى تتم هذه الصفقة ويقبل البيع ،وتتحقق بشارة النصر، كان لابد من أن يحقق المجاهد صفات يتحلى بها المجاهد الصادق ذكرت بعد آية البيعة مباشرة ﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة : ١١٢] فالبشارة أتت فى الآية بعد الصفات الثمان، وهذه الصفات ليست على سبيل الحصر؛ فهناك صفات أخرى ذكرت فى سور أخرى من القرآن كسورة المؤمنون، وغيرها من السور وكذلك أحاديث رسول الله ﷺ فيلزم التعرف عليها ووضعها موضع التطبيق.

ثالثا: إخلاص النية فى الجهاد والاستشهاد، فنية المجاهد وقصده وإرادته هى إعلاء كلمة الله فى الأرض، لا يخالط هذه النية أى شائبة دنيوية، فعن أبى موسى رضى الله عنه أن أعرابياً أتى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل للذكر، والرجل يقاتل ليرى مكانه - وفى رواية يقاتل شجاعة ويقاتل حمية - وفى رواية يقاتل غضبا فمن فى سبيل الله؟ قال رسول الله ﷺ « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله»[1].

رابعاً: أن يسأل الله الشهادة بصدق ،فلا يكون الأمر مجرد ترديد باللسان أو رفع رايات وشعارات ،ولكن يصدقه القلب، والعزم الصادق، وترقب الفرص، بهذا ينال منزلة الشهداء وأجرها بإذن الله ، حتى ولو مات على فراشه كما ورد في الحديث الشريف ،فعن سهل بن حنيف رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «مَنْ سأل الله تعالى الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه » [2] وفى مقابل ذلك تحذير لمن لا يغزو أويفكر فى الغزو فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق»[3].

(١) متفق عليه. (٢) رواه مسلم. (٣) رواه مسلم.

خامساً : أن ينفق المال في سبيل الله دون شح أو بخل مستجيباً في كل وقت للجهاد به ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾ [الصف: ١٠ ، ١١] فالإمساك عن الإنفاق تهلكه، فعن زيد بن خالد رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من جهز غازياً فى سبيل الله فقد غزا ، ومن خلف غازياً فى أهله بخير فقد غزا»(١) وعن أبى يحيى بن فاتك رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «من أنفق فى سبيل الله كتب له سبعمائة ضعف»(٢).

سادساً: أن يتخفف من جواذب الأرض التى تثاقل بصحابها إلى الأرض فيتعرض إلى عذاب الله ،بل يكون متهيأ لإجابة نداء الجهاد فى أى وقت يدعى إليه،وفى أى بقعة من عالمنا الإسلامى، إذا وقع عليه اعتداء وليحذر نداء الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[التوبة: ١٠،١١] وليحذر أيضا حالة هؤلاء الذين قال الله فيهم: ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[التوبة : ٨١ ، ٨٢] .

سابعاً : المجاهد جندى فى صف له قيادة مطاعة بطاعة الله ، فكان لزاما عليه أن يلتزم بما يحمل من تكاليف، وما عليه من واجبات، وما يحدد له من دور، ولا يلجأ للتصرفات الفردية أو الاجتهادات الشخصية،فإن ذلك قد يضر بالصف كله، ولك فى غزوة أحد الدروس المستفادة، فالالتزام بالكر كالالتزام بالفر فى ضوء ما يراه القادة وطبقا للقواعد الشرعية المرعية .

(١) متفق عليه. (٢) رواه الترمذي وقال حديث حسن.

ثامناً : الالتزام بآداب القتال فى الإسلام كى يكون الجهاد صحيحاً مقبولا فلا عدوان إلا على الظالمين، ولا مثلة ولا نهبة، ولا انتهاك للحريات ولا يتقدم المجاهد بالأذى ، فإبراز الأخلاق حتى فى ساحة القتال يفتح القلوب الغلف والأعين العمى والآذان الصُّمّ ، ونحن أصحاب دعوة أخلاقية فى الحرب والسلم على حد سواء، فالمجاهدون فى حروبهم خير محاربين، وفى سلمهم أفضل مسالمين، وفى أحاديث رسول الله ﷺ الكثير من الآداب التى يحتاج المجاهد إليها.

تاسعاً : الأخذ بالأسباب إعداداً ومراعاة الظروف والأحوال والإمكانات، فرسول الله ﷺ القائل: فى معنى قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال : ٦٠] قال: ألا إن القوة الرمى، ألا أن القوة الرمى، ألا إن القوة الرمى»(١) وهو القائل ﷺ:«ومن عُلِّمَ الرمى ثم تركه فليس منا أو فقد عصى»(٢) ومع الأخذ بالأسباب فإننا نؤمن أن النصر من عند الله العزيز الحكيم.

عاشراً :التوعية الإسلامية والمفاهيم الجهادية يجب أن تسود البيت والأهل، ويربى الجميع على هذه المفاهيم، ورضوان الله على أسماء بنت أبى بكر التى قالت لابنها عبد الله بن الزبير حين قال لها: أخاف إن قتلونى أن يمثلوا بى حين خشى من الحجاج ـ فقالت له : « وهل يضير الشاة سلخها بعد ذبحها » وفى تاريخنا المعاصر الأمثلة الكثيرة التى لا يتسع المقام لسردها(٣).

وفى الختام يحرص المجاهد ألا يكون فى عنقه دين ،فالله يغفر للشهيد كل شىء إلا الدين (٤).

---

(١) رواه مسلم. (٢) رواه مسلم.

(٣) هذه الأمور العشرة مقتبسة من كتاب الجهاد هو السبيل لأستاذ مصطفي مشهور.

(٤) رواه مسلم.

يقول الإمام الشهيد حسن البنا :

«أيها الإخوان : إن الأمة التى تحسن صناعة الموت وتعرف كيف تموت الموتة الشريفة ، يهب لها الله الحياة العزيزة فى الدنيا والنعيم الخالد فى الآخرة، وما الوهن الذى أذلنا إلا حب الدنيا وكراهية الموت، فأعدوا أنفسكم لعمل عظيم.

واحرصوا على الموت توهب لكم الحياة، واعلموا أن الموت لابد منه وأنه لا يكون إلا مرة واحدة، فإن حطمتموها فى سبيل الله كان ذلك ربح الدنيا وثواب الآخرة ، وما يصيبكم إلا ما كتب الله لكم، وتدبروا جيداً قول الله تبارك وتعالى : ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [آل عمران : ١٥٤] .

فاعملوا للموتة الكريمة تظفروا بالسعادة الكاملة ،رزقنا الله وإياكم الاستشهاد فى سبيله»[١].

لذلك سميت حضارتنا الإسلامية بحضارة اليوم الآخر، نعمر الدنيا لننال جزاء الآخرة، إنها حضارة تقوم على التوحيد فى مجال العقيدة، والرحمة فى المجال الأخلاقى ،والعدل فى مجال التشريع، واسعدت البشرية قروناً طوالاً، وتستمر سعادتها لكل مَنْ آمن بها وطبقها فى واقع الحياة، وجاهد فى سبيلها حق الجهاد ففى الجهاد عز الدنيا وحسن ثواب الآخرة.

---

(١) رسالة الجهاد للإمام الشهيد حسن البنا.

المراجع

أولاً : القرآن الكريم

ثانياً : التفسير :

١ - تفسير القرآن العظيم للأمام ابن كثير .

٢ - جامع البيان عن تأويل آى القرآن للأمام بن جرير الطبرى .

٣ - جامع الأحكام للأمام القرطبى .

٤ - أضواء البيان فى أيضاح القرآن بالقرآن محمد الأمين الشنقيطى .

٥ - صفوة التفاسير الشيخ محمد بن الصابونى .

٦ - روائع البيان فى أيضاح آيات الأحكام للشيخ محمد بن الصابونى .

٧ - فى ظلال القرآن الشهيد سيد قطب .

٨ - تفسير المراغى للشيخ المراغى .

ثالثاً : السنة المطهرة :

١ - صحيح البخارى الأمام البخارى .

٢ - صحيح مسلم الأمام مسلم .

٣ - الترغيب والترهيب المنذرى .

٤ - سنن الدارمى للدارمى .

٥ - السنة ومكانتها فى الإسلام الدكتور مصطفى السباعى .

رابعاً : السيرة المطهرة .

١ - السيرة النبوية لابن هشام .

٢ – امتاع الأسماع للمقريزى .

٣ – فقه السيرة الشيخ الغزالى .

٤ – فقه السيرة للشيخ محمد البوطى .

٥ – خاتم النبيين الشيخ محمد أبو زهرة .

٦ – سيرة عمر بن عبد العزيز ومناقبه لابن الجوزى .

٧ – حياة الصحابة محمد يوسف الكاندهلوى .

٨ – السيرةالنبوية دروس وعبر الدكتور مصطفى السباعى .

٩ – الشفا للقاضى عياض .

١٠ – من روائع البيان النبوى الدكتور مصطفى عبد الواحد .

١١ – الحلية أبو نعيم .

١٢ – السيرة النبوية أحمد زين وصلان .

١٣ – حياة محمد،محمد حسين هيكل .

خامساً : العقيدة والفقه والدعوة :

١ – فتوح البلدان للمبلازردى .

٢ – هداية الحيارى فى أجوبة اليهود والنصارى ابن القيم .

٣ – المحلى ابن حزم .

٤ – إقتضاء الصراط المستقيم ابن تيمية.

٥ – العبودية ابن تيمية .

٦ – مجموعة الفتاوى الكبرى ابن تيمية .

٧ – دستور الوحدة الثقافية محمد الغزالى .

٨ - المتغيرات الدولية والدور الإسلامى المطلوب فتحى يكن .

٩ - ملامح المجتمع المسلم الذى ننشده دكتوريوسف القرضاوى .

١٠ - الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف دكتور يوسف القرضاوى.

١١ - أولويات الحركة الإسلامية د . يوسف القرضاوى .

١٢- الايمان والحياة د . يوسف القرضاوى.

١٣ - نحو وحدة فكرية للعاملين للإسلام دكتور يوسف القرضاوى .

١٤ - الدعوة قواعد وأصول جمعه أمين .

١٥ - فهم الإسلام فى ظلال الأصول العشرين جمعه أمين .

١٦ - التغيير على منهاج النبوة جمعه أمين .

١٧ - القرآن ومنهج التفكير محمد الباخر .

١٨ - فلسفتنا عباس محمود العقاد .

١٩ - ثوابت المسلم المعاصر عمر عوده الخطيب .

٢٠- لمحات فى الثقافة الإسلامية محمود محمد شاكر .

٢١ - حول إعادة تشكيل العقل المسلم د . عماد الدين خليل .

٢٢ - أهداف التربية الإسلامية د . ماجد عرسان الكيلانى .

٢٣ - مقومات الشخصيه المسلمه د . ماجد عرسان الكيلانى .

٢٤ - معانى الأخوة فى الإسلام ومقاصدها د . محمود محمد بابلى .

٢٥ - المرأه المسلمه فى القرآن محمد عزة دروزه .

٢٦ - الوظيفة العقيدية للدولة الإسلامية د . حامد عبد الماجد قريش .

٢٧ - مفهوم الدولة الإسلامية إبراهيم البيومى غانم .

٢٥ -المنهج النبوى تربية وتنظيما وزحفا عبد السلام يسن .

٢٦ - مفاهيم تربوية الشيخ محمد عبد الله الخطيب .

٢٧ - أثر العرب فى الحضارة الأوربية عباس محمود العقاد .

٢٨ - شروط النهضة مالك بن نبى .

٢٩ - التراجع الحضارى فى العالم الإسلامى د . منى عبد الحليم محمود.

٣٠ - ثقافتنا فى مواجهة العصر د . زكى نجيب محمود .

٣١ - التبشير والاستعمار عمر فروخ .

٣٢ - طريق الدعوة مصطفى مشهور .

٣٣ - أصول الدعوة د . عبد الكريم زيدان .

٣٥ - السياسه الشرعية ابن تيمية .

٣٦ - التربية الإسلاميه عبد البديع صقر .

٣٧ - زاد المعاد ابن القيم .

٣٩ - الأمتاع والمؤانسة أبو حيان التوحيدى .

٤٠ - بدائع الصنائع للكاسانى .

٤١ - الدستور القرآنى فى « شئون الحياة عزة دروزة .

٤٢ - تبين الحقائق للزيلعى .

٤٣ - بداية المجتهد ونهاية المقتصد إبن رشد .

٤٤ - المدونه للإمام مالك .

٤٥ - المغنى لابن قدامه .

٤٦ - المبسوط السرخسى .

٤٧ - نهاية المحتاج للرملى .

٤٨ - الملل والنحل لابن حزم .

٤٩ - الأقتصاد للإمام الغزالى .

٥٠ - المواقف شرح على المواقف للجرحانى .

٥١ - مبادئ نظام الحكم فى الإسلام عبد الحميد متولى .

٥٢ - السياسه الشرعية عبد الوهاب خلاف .

٥٣ - مبدأ المشروعيه وضوابط خضوع الدولة للقانون فى الفقه الإسلامى فؤاد محمد النادى .

٥٤ - نظرية القيم السياسية حامد ربيع .

٥٦ - مع الحكة فى خط الإسلام محمد حسين فضل الله .

٥٧ - أحكام القانون فى الشريعه الإسلامية حامد سلطان .

٥٨ - المدخل إلى العقيدة والأستراتيجية العسكريه الإسلاميه اللواء أركان حرب محمد جمال الدين على محفوظ .

سادساً : كتب فى الجهاد وما يتصل به :

١ - رسالة الجهاد للإمام حسن البنا .

٢ - رسالة الجهاد هو السبيل مصطفى فشهور .

٣ - الجهاد فى سبيل الله ابو الاعلى المودود .

٤ - الجهاد ميادينه وأساليبه د . محمد نعيم يس .

٥ - الجهاد الدكتور احمد محمد الحوفى .

٦ - الجهاد فى سبيل الله الشيخ صالح اللحيدان .

سابعاً : التاريخ الإسلامى وغيره :

١ - تاريخ الطبرى للإمام الطبرى .
٢ - الحضارة الإسلامية أبو الاعلى المودودى .
٣ - تاريخ الأمم الإسلامية الشيخ الحضرى .
٤ - التاريخ السياسى للدولة العربية عبد المنعم ماجد .
٥ - الكامل فى التاريخ ابن الأثير .
٦ - فتوح مصر وأخبارها إبن عبد الحكم .
٧ - مختصر التاريخ العام - ويلز .
٨ - حاضر العالم الإسلامى - الوثروب ستودارد .
٩ - مختصر تاريخ الانسانيه هـ . ج - ويلز .
١٠ - موسوعة تاريخ الحضارة الإسلاميه دول ديورانت .
١١ - مدخل تاريخى للدين أرنولد تونيبى .
١٢ - التاريخ الإسلامى لتايلز .
١٣ - تاريخ أشبيليه ولترنما لشبابه .
١٤ - يقظة الإسلام والعرب - أوجين الوبج .

ثامناً : مراجع آخرى .

١ - مأزق الشرعيه "الفكرية السيد يس .
٢ - السبيل إلى القياده "مونتجومرى .
٣ - ديجول - حد السيف - ترجمة أكرم ديرى ، وهيثم الأيوبى .
٤ - أحكام القانون الدولى فى الشرق .

تاسعاً : دراسات وابحاث ومقالات .

- مؤتمر الحوار الإسلامى المسيحى الثانى - كلمة لفضيلة الإمام الأكبر د . محمد سيد طنطاوى شيخ الجامع الأزهر .
- مقال الاستاذ صلاح حافظ « القوة الباطشة » الأهرام ١١ / ٩ / ٩٤».
- بحث تقدم به الدكتور ادريس العلوى رئيس جامعة القرويين عن أسس الحوار الإسلامى بين الأديان ١٩٩٦ - فى مؤتمر القاهرة .
- معركة الصوارى مقال بمجلة الأزهر مايو ١٩٩٢ .
- دينية أم مدنية مقال أ . فهمى هويدى الثلاثاء ٤ / ٩ / ٩٢ .
- لنرد للجهاد اعتباره مقال أفهمى هويدى الثلاثاء ٢٤ / ١٢ / ٩١ .



الفهرس

الموضوع

الباب الثانى

المجاهدة والجهاد

الباب الثالث

الأصل فى الإسلام السلام

الباب الرابع

الجهاد ماض إلى يوم القيامة

الباب السادس

أسباب النصر وعوامل الفوز

الخاتمة

***







